ذخائر العرب
٢٥

الموازنة

بين شعر أبي تمّام والبُحتري

لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي
٣٧٠ هـ

تحقيق
السيد أحمد صقر

الطبعة الرابعة





دار المعارف



الموازنة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

ذكر الفراق والوداع والترحل عن الديار والبكاء على الظاعنين

* * *

وأفتتح ذلك بما جاء عنهما من الابتداآت فى هذه المعانى ، وأبوّبها أبواباً ، لتصح الموازنة بينهما .

ماقالاه فى البكاء على الظاعنين

* * *

قال أبو تمام :

يا بُعْدَ غايَةِ دَمْعِ العينِ إذْ بَعُـدُوا هِيَ الصبابةُ طُولَ الدهرِ والكَمَدُ[1]

هذا أجودُ ابتداآته فى هذا المعنى ، وأبلغها .

وأجود منه وأحلى قول البحترى :

قَلْبٌ مَشُوقٌ عَنَاهُ البَثٌّ والكَمَدُ ومُقْلةٌ تَبْذُلُ الدَّمعَ الذى تَجِدُ[2]

قوله : « تبذلُ الدمعَ الذى تَجِدُ » معنى ما لحسنه نهاية ، ولفظ فى غاية البراعة والحلاوة .

وقال أبو تمام :

هِيَ فُرْقَةٌ مِنْ صَاحِبٍ لك مَاجِدِ فَغَدًا إذَابَةُ كلِّ دَمْعٍ جَامِدِ[3]

وهذا ابتداء جيد .

---

(١) ديوان أبى تمام ٩٦ وشرح التبريزى ٢ / ١٠ وفيهما « إن بعدوا . . . الدهر والسهد »

(٢) ديوان البحترى ٥٩١ ، ١ / ٤٩٥ دار المعارف

(٣) ديوان أبى تمام ٨٦ وشرح التبريزى ١ / ٤٠٦

وقال البحترى :

رَحَلُوا فأَيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ أَسَفاً ، وأَىُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ(١)

هذا أيضاً ابتداء جيد حسن .

وقال أيضاً :

أَكُنْتَ مُعَنِّفِى يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَدْ لَجَّتْ دُمُوعِى فى الهُمُولِ(٢)

وقال أيضاً :

إنَّ سَيْرَ الخَلِيطِ يَوْمَ اسْتَقَلاَّ كانَ عَوْناً للدَّمْعِ حينَ تَوَلَّى(٣)

وقال أيضاً :

لَمْ تَبْلُغِ الحقَّ ، ولم تُنْصِفِ عَيْنٌ رأَتْ بَيْناً فَلَمْ تَذْرِفِ(٤)

وهذه كلها ابتداآت جيدة ، عذبة ، شهية .

وقال أيضاً :

دَعْ دُموعى فى ذلكَ الأشْتِياقِ تَتَناجَى بذكرِ يَوم الفِرَاقِ(٥)

وهذا بيت ردىءٌ . قد عابه « ابن المعتز » ، وقال : ما أقبح قوله : « فى ذلك الاشتياق » . وهى – لعمرى – قبيحة ، ولا أعرف له مثلها .

---

(١) ديوان البحترى ٦٠٠ ، ١ / ٢٠٧٨ / ١٧٣٦ ، وفى م « فأى »

(٢) ديوانه ٤٨

(٣) ديوانه ١٥٥ « للدمع لما استهلا » وكذلك فى طبعة بيروت ٢ / ١٦٩ ، ٣ / ١٦٥٥

(٤) ديوانه ٢٣٣ ، ٣ / ١٣٦٠

(٥) ديوانه ٤٣٨ ، ٣ / ١٤٦١ « بفعل يوم »

مالأبى تمام فى البكاء على النساء المفارقات

* * *

قال أبو تمام :

سَرَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ وعَادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدِ[١]

قوله : « سرت » يريد أنها سهرت فكأنها قطعت الليل بالسهر ، مُسْتَجِيرَةً بالدمع ، تبكى ليلَها أجمع . ولم يرد أنها سارت ليلا ، فجعل سهرها سُرًى ، وفسر ذلك بقوله : « وعَادَ قَتَادًا عِنْدَها كلُّ مَرْقَدِ » .

وهذا ابتداء ليس من جيد الابتداآت ، ولا من رديئها .

وقال أيضاً :

بُدِّلَتْ عَبْرَةً مِنَ الإِيماضِ يَوْمَ شَدُّوا الرِّحَالَ بالأَغْرَاضِ[٢]

« الإِيمَاض » أراد تبسمها وبريق[٣] ثغرها ، جعله مِثْلَ وَمِيضِ البرق . يريد أنها بُدِّلَت من الضحك البكاءَ لما استعدوا للرحيل .

وهذا ابتداء جيد .

وقد عابه « ابن عمّار » ، وغيره لقوله : « الأَغراض » ؛ ولَحَّنُوه ، وقالوا : الأَغراض : جمع غَرْض ، وفَعْلٌ لا يجمع على أَفْعَال .

أَفَمَا[٤] سمعوا بقولهم : فَرْخٌ وأَفراخ ، وفَرْدٌ وأَفراد ، وشَكْلٌ وأَشكال ، وجَفْنٌ وأَجفان ، وعَصْرٌ وأَعصار ، وزَنْدٌ وأَزناد ؟ !

---

(١) ديوان أبى تمام ١٠٠ وشرح التبريزى ٢ / ٢٢

(٢) ديوانه ١٨٧ وشرح التبريزى ٢ / ٣٠٨ وفى م « الأنماض »

(٣) م « الأنماض . . . وبوبق ثغرة » والتصويب من ت

(٤) م « إنما »

وقول الأَعْشَى :

* وزَنْدُك أَثْقَبُ أَزْنَادِها[١] *

وقولهم أَيضاً : شَرْطٌ وأَشْرَاط، وقول الله تعالى : « فَقَدْ جاءَ أَشْرَاطُهَا »[٢]

فقد نطقت العرب بهذا الجمع بعينه . قال الراجز فى وصف الإبل :

حَتَّى إذا مَا قَلِقَتْ أَغْرَاضُهَا ونَضَحَتْ بمائِها أَغْرَاضُهَا

وقال غَيْلاَن بن حُرَيث الرَّبعَى . .

بِكلِّ سَامٍ فى الزِّمَام نَهَّاض خَيَّسَهُ بالذُّلِّ رَوْض الرُّوَّاض[٣]

فى قُلُص تَمْطُو سَفِيفَ الأَغْرَاض[٤]

سفِيف : نَسِيج ، والأَغْرَاض : جمع غَرَض ، وهو للبعير مثل الحزام للفرس .

وأَنشدنا الأَخفش لرجل من طيِّئ :

إذا العِيسُ أَضْحَت بالفلاة كأَنَّها وقد قَلِقَتْ أَغْرَاضُهُنَّ جُفُونُ

ومثله فى الشعر — إذا تتبعته — كثير .

* * *

وقال أَبو تمام :

بَسَطَتْ إليكَ بَنَانَةً أُسْرُوعَا تَصِفُ الفِراقَ، ومُقْلَةً يَنْبُوعَا[٥]

وهذا ابتداء ليس بالجيد . ولا بالردىء .

والأُسْرُوع : دُوَيبَّةٌ ناعمة تكون فى الرمل تشبَّه بها أصابع النساء .

---

(١) ديوان الأعشى ٥٤ وصدره : « وجدت إذا اصطلحوا خيرهم »

(٢) سورة محمد ١٨

(٣) م ، ق « حبسه » والتخييس : التذليل ، كما فى اللسان ٧ / ٣٧٦

(٤) تمطو : تمد

(٥) ديوان أبى تمام ٤٩٨ وشرح التبريزى ٣ / ٣٩٠ « إلى بنانة » . والبنانة : واحدة البنان وهى الأصابع

وقال أَيضاً :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تُنْظَمِ والدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ المُغْرَمِ[١]

وقال أَيضاً :

أَظُنُّ دُمُوعَهَا سَنَنَ الفَرِيدِ وَهَى سِلْكَاهُ مِنْ نَحْرٍ وَجِيدِ[٢]

وهذان ابتداآن جيدان .

* * *

وقال :

ذَرِينِى مِنْكِ سَافِحَةَ المــآقِى ومِنْ سَرَعَانِ عَبْرَتِك المُرَاقِ[٣]

وهذا قول فيه جفاء .

ووجدت الناس يستحسنون قوله :

خُذِى عَبَرَاتِ عَيْنِكِ عَنْ زَمَاعِى وَصُونِى مَا أَزَلْتِ مِنَ القِنَاعِ[٤]

زَمَاعه : إِزْمَاعُه الرحيل . يقال : أَزْمَعَ يُزْمِعُ .

وقوله : «وَصُونِى ما أَزَلْت من القناع » لأَنَّها برزت عند الفراق جزعاً ، وكشفت القناع .

---

(١) ديوان أبى تمام ٣١٢ وشرح التبريزى ٢٤٨ يروى « بعض شجو »

(٢) ديوانه ١٠٤ وفى شرح التبريزى ٢ / ٣٢ : « السنن : التسابق . والفريد : الدر ، وأراد بسنن الفريد : ما يسقط منه ، أخذ من قولهم : سن الماء يسنه سنا : إذا صبه صبا سهلا . أى أظن دموع هذه المرأة مستنة استنان الفريد »

(٣) ديوانه ٢١٤ وشرح التبريزى ٢ / ٤٢٢

(٤) ديوانه ١٩٣ وشرح التبريزى ٢ / ٣٣٦

ومن ابتداآتهما من باب الفراق فى معان شتى

* * *

١ ـ قال أبو تمام :

سَعِدَتْ غُرْبَةُ النَّوَى بِسُعَادِ   فَهِىَ طَوْعُ الإِتْهَام والإِنجادِ[١]

٢ ـ وقال أيضاً :

أَلاَ صَنَعَ البينُ الذى هو صانعُ   فإن تَكُ مِجْزَاعاً فما البينُ جازِعُ[٢]

وهذا ابتداء صالح .

وقال أيضاً :

أَصْغَى إلى البين مُغْتَرًّا فلاجَرَمَا   أَنَّ النَّوَى أَسْأَرَتْ فى عقْلِه لَمَمَا[٣]

قولِه : أصغى إلى البين . أى سمع[٤] ما أخبروه به من ذكر الفرقة ، فغَيَّر ذلك من عقله . ويريد باللمم : الجنون .

وقد أوضح هذا المعنى فى البيت التالى ، وهو قوله :

أَصَمَّنِى سِرُّهُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِهِمْ   هلْ كُنْتَ تَعْرِفُ سِرًّا يُورِثُ الصَّمَمَا

أى صرت لا أفهم شيئاً بعد ذلك السر الذى دلَّهَنِى ، وأطار[٥] عقلى ، فكأَنى أصم عن كل قِيل .

---

(١) ديوان أبى تمام ٧٥ وشرح التبريزى ١ / ٣٥٨

(٢) ديوانه ٤٧٧ . وشرح التبريزى ٣ / ٥٨٠ وفيه : « يقول : صنع البين بك ما كنت تحذره ، فإن شئت فاصبر وإن شئت فاجزع ، فإن البين لا يبالى »

(٣) ديوانه ٣٠١ وشرح التبريزى ٣ / ١٦٥ وأسارت : أبقت

(٤) م « أسمع »

(٥) م « وأطال »

وهذا المعنى ليس من اختراعاته . وقد ذكرته فى سرقاته ، وما جاء فى معناه لغير واحد من الشعراء .

وقال :

أَهْلُوكِ أَضْحَوْا رَاحِلاً ومُقَوِّضَا ومُزَمِّمًا يَصِفُ النَّوَى ومُغَرِّضَا[١]

المُقَوِّض : الذى يُقَوِّض البيوت ، ويقتلعها للرحيل[٢] . ومُزَمِّماً يَصِفُ النَّوَى : الذى يزمم الإبل والأَزمة . [والمغرض][٣] يشدها بالغَرَض . وهو كالحزام للفرس .

وهذا ابتداء صالح .

وقال أيضاً :

تَحَمَّلَ عَنْهُ الصَّبْرُ يَوْمَ تَحَمَّلُوا وعادتْ صَباهُ فى الصِّبا وهى شَمْأَلُ[٤]

قال ذلك لأَن الصَّبَا : ريح تُحبُّها العرب محبتها للجنوب ؛ لأَنها ريح لَيِّنَة عذبة ، وقد تَجْلِب المطر فى بعض أقطار الأَرض كما تَجْلِبُه الجنوب . قال امرؤ القيس :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى مِنْه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْفَجِره[٥]

فأَراد أن صباه – أى ريحه فى الصبا التى كانت تُولف له ما يهواه ويحبه مع من يحبه – عادَت شمالا ؛ لأَن الشمال فى أكثر نواحى الأَرض لا تُولِّف السحاب ؛ بل تَمْحَقُه وتَشِيبنه كما قال :

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨٥ وشرح التبريزى ٢ / ٣٠١

(٢) م ، ق « للرجل »

(٣) الزيادة من م

(٤) ديوانه ٢٤٤ وشرح التبريزى ٣ / ٧٢

(٥) ديوان امرئ القيس ٩٠

لعمرى لئن رِيحُ المودَّة أَصْبَحَتْ شمالاً لَقِدْماً كُنْتُ وهى جَنُــوبُ

وقال أبو تمام :

تَصَدَّتْ وحَبْلُ البَيْنِ مُسْتَحْصِدٌ شَزْرُ وقد سهَّلَ التَّوْدِيعَ ما وَعَّرَ الهَجْرُ (١)

تصدت :أى بدت ، وظهرت . ومُسْتَحْصِدٌ : شديد الفَتْل . والشَّزْرُ (٢) : الفتل إلى فوق . واليَسَرُ : الفتل إلى أسفل .

وقوله : «وقد سهَّل التوديعُ ما وعَّرَ الهَجْرُ» يريد أنها كانت هاجرة فبرزت عند التوديع .

وقال أيضاً :

مَالِى بِعَادِيَةِ الأَيَّامِ مِنْ قِبَلِ لَمْ يَثْنِ كَيْدَ النَّوَى كَيْدِى ولاحِيَلِى (٣)

وهذا من جيد ابتداآت هذا الباب .

* * *

وقال البحترى :

رَاجَعَ القَلْبَ بَثُّهُ وخَبَالُهْ لِخَلِيط . زُمَّتْ لِبَيْنٍ جِمَالُهْ (٤)

وقال أيضاً :

لَهُ الوَيْلُ مِنْ لَيْلٍ بِطَاءٍ أَوَاخِرُهْ ووَشْكِ نَوَى حَىٍّ تُزَمُّ أَبَاعِرُهْ (٥)

وقال أيضاً :

شَطَّ مِنْ ساكِنِ الغُوَيْرِ مَــزَارُهْ وَطَوَتْهُ البِلادُ فَاللَّهُ جَارُهْ (٦)

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٧٤ «ما أوعز الهجر» ، وشرح التبريزى ٣ / ٥٦٧

(٢) اللسان ٦ / ٧٢

(٣) ديوانه ٢٤٩ وشرح التبريزى ٣ / ٨٨

(٤) ديوان البحترى ٧٩٦ ، ١٨٣١ «عاود القلب»

(٥) ديوانه ٢٥٠ ، ٢ / ٨٧٦

(٦) ديوانه ٥٣٤ ، ٢ / ٩١٧

وقال أيضاً :

إِذَا عَرَضَتْ أَحْدَاجُ سَلْمَى فَنَادِهَا … سَقَتْكِ رَوَايَا المُزْنِ صَوْبَ عِهَادِهَا[١]

وقال أيضاً :

تَظُنُّ شُجُونِى لَمْ تَعْتَلِجْ … وقَدْ خَلَجَ البَيْنُ مَنْ قَدْ خَلَجْ[٢]

وقال أيضاً :

بِمِثْلِ لِقَائِها شُفِىَ الغَلِيلُ … غَدَاةَ تَزَايَلَتْ تِلْكَ الحُمُولُ[٣]

وقال :

فُؤَادٌ بِذِكْرِ الظَّاعِنِينَ مُوَكَّلُ … وَمَنْزِلُ حَىٍّ فيهِ للشَّوقِ مَنْزِلُ[٤]

وقال أيضاً :

لِمَا وَصَلَتْ أَسماءُ مِنْ حَبْلِنَا شُكْرُ … وإِنْ حُمَّ بالبين الذِى لم نُرِدْ قَدْرُ[٥]

وقال أيضاً :

عَلَى الحىِّ سِرْنَا عَنْهُمُ وأَقَامُوا … سَلاَمٌ ، وهَلْ يُدْنِى البَعِيدَ سَلاَمُ؟[٦]

وقال أيضاً :

لَأَوْشَكَ شَعْبُ الحَىِّ أَنْ يَتَفَرَّقَا … فَيُدْنِى الجَوَى ،أو يرجع الحبَّ أَوْلَقَا[٧]

---

(١) فى ديوان البحترى ١٠٩ «أحداج ليل» والأحداج : جمع حدج ، وهو من مراكب النساء، يشبه المحفة ، كما فى اللسان ٣ / ٥٣ . وهو فى ٢ / ٦٧٤ دار المعارف

(٢) ديوانه ٥٥١ ، ١ / ٤١٩ ويقال : اعتلج الموج : التطم ، واعتلج الهم فى صدره ، كذلك على المثل . وخلج : جذب وانتزع

(٣) ديوانه ٣٠٠ ، ١٨٢٢

(٤) ديوانه ٥٨٥ ، ١٧٩٢ ، وفى م : « فؤاد مذكر » !

(٥) ديوانه ٢٤١ ، ٢ / ٨٧٠

(٦) ديوانه ٣٦٣

(٧) ديوانه ٢٦٢ ، ١٨١٠ « فيدنى » ، ق : « أو رجع »

أى يصير الحبُّ جُنونا . وهذا كقول أبى تمام :

*أَسْأَرَتْ فى عَقْلِهِ لِمَمَا *[١]

وقال :

عَادَ لِلصَّبِّ شَجْوُهُ واكْتِئَابُهْ ‏ ‏ بِبِعَادِ الذى يُرَادُ اقْتِرَابُهْ[٢]

وقال أيضاً :

أَصُدُودٌ غَلاَ بِهَا أَمْ دَلاَلُ ‏ ‏ يَوْمَ زُمَّتْ بِرَامَةَ الأَجْمَالُ[٣]

وهذه كلها ابتداآت جياد ، حسان ، مختارة المعانى .

وقال أبو تمام :

يومَ الفراقِ لقد خُلِقْتَ طَوِيلاَ ‏ ‏ لَمْ تُبْقِ لى جَلَدًا ، ولا مَعْقُولاَ[٤]

فجعل يوم الفراق طويلا .

* * *

وقال البحترى كأنه يَرُدُّ هذا المعنى[٥] على أبى تمام ، ويَنْسُبُ يوم الفراق إلى القصر ، وذَكَرَ العلة فى ذلك فقال :

ولَقَدْ تَأَمَّلْتُ الفِراقَ فَلَمْ أَجِدْ ‏ ‏ يومَ الفِراقِ علَى امْرِئٍ بِطَوِيلِ[٦]

قَصُرَتْ مَسَافَتُهُ على مُتَزَوِّدٍ ‏ ‏ مِنْهُ لِدَهْرِ صَبَابَةٍ وعَوِيلِ

وهذه إنما هى حال من كان محبوبه محجوباً منه ، ورؤيته متعذرة عليه قبل يوم الفراق .

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٠١ وشرح التبريزى ٣ / ١٦٥ . وانظر ص ١٠

(٢) ديوانه ١٤٩٥ / ١١٥

(٣) ديوانه ١٨١٠، ١ / ١١٥

(٤) ديوانه ٢٤٢ وشرح التبريزى ٣ / ٦٦ . والمعقول : اسم مفعول بمعنى المصدر

(٥) « كأنه يريد بهذا »

(٦) ديوان البحترى ٦١٠ ، ١٦٦٣ « لا تؤدى » .

وقد بين هذا المعنى بقوله :

إنَّ لِلْبَيْنِ مِنَّةً لَنْ تُؤَدَّى   وَيَدًا فى تُمَاضِرٍ بَيْضَاء[1]
حَجَبُوها حتَّى بَدَتْ لِفراقٍ   كانَ داءً لِعَاشِقٍ ودَوَاء
أَضْحَكَ البينُ يومَ ذاكَ وأَبْكَى   كلَّ ذى صبْوَة ، وسَرَّ وسَاء
فَجَعَلْنَا الوَدَاعَ فيه سَلاماً   وجعلنا الفِرَاقَ فيه لِقَاء[2]

وهذا مذهب صحيح ، ومعنى واضح .

وقال البحترى فى نحوه أيضاً :

ويومَ تَلَاقٍ فى فِرَاقٍ شَهِدْتُهُ   بِعَيْنٍ إذا نَهْنَهْتُها دمعت دما[3]

فكيف يكون يوم تلاق طويلا ؟

وقال فى نحوه أيضاً :

إنَّ الفِرَاقَ جَلاَ لنَا عَنْ غَادَةٍ   بَيْضَاء تَجْلُو عَنْ شَتِيتٍ أَشْنَبِ[4]
أَلْوَتْ بِمَوْعِدِها القديم وأَيْأَسَتْ   مِنْه بِلَىٍّ بَنَانَةٍ لَمْ تُخْضَبِ[5]

وقال أيضاً فيما يؤكد هذا المعنى ، ويزيده صحة :

مِنْ وراءِ العُيونِ كُثْبَانُ رَمْلٍ   تَتَثَنَّى أَفْنَانُهُنَّ فُنُـونَا[6]
وَبِوُدِّ القُلُوب يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ   ظُعُنُ الحَىِّ أَنْ تكُونَ عُيُونَا[7]

---

(١) ديوان البحترى ٧١٢ ، ١ / ١٤ دار المعارف

(٢) م « فيه لفتا ا »

(٣) كذا فى م ، ق ، وفى الديوان ٤ / ٢٠٨٧ وفيه ١٢٧ بيروت « قطرت »

(٤) يقال ثغر شتيت : مفرق مفلج . وجاء فى اللسان ١ / ٤٨٨ « اختلفوا فى الشنب ، فقالت طائفة : هو تحزيز أطراف الأسنان . وقيل : صفاؤها ونقاؤها . وقيل : هو تفليجها . وقيل : هو طيب نكهتها . وقال الأصمعى : الشنب : البرودة والعذوبة فى الفم » وهما فى ١ / ٢٨٢

(٥) فى الديوان : « وآيست منه »

(٦) ديوانه ٢٤٥ ، ٤ / ٢١٦١ « من وراء السجوف »

(٧) فى الديوان : « لو تكون »

وقد قال بعض الأعراب . أنشدناه الأخفش عن المبرد :

جزى اللهُ يومَ البينِ خَيْرًا ؛ فإنَّهُ أرانَا – على علاّتِها – أمَّ ثَابِتِ
تُبَاهِي بها الأرضُ السماءَ إذا مَشَتْ عَلَيْها وتُحْيِي غَشْيَةَ المُتَمَاوِتِ[1]

وقال بعض الظرفاء :

مَنْ يَكُنْ يَكْرَهُ الفِراقَ فإنِّى أشتهيه لِمَوْضِعِ التَّسْلِيمِ[2]
إن فيه اعْتِنَاقَةً لِوَدَاعٍ وانتظارَ اعْتِنَاقَةٍ لِقُدُومِ

* * *

وقال البحترى :

ما كَفَى مَوْقِفُ التَّفرُّقِ حتَّى عَادَ بِالبَثِّ مَوْقِفُ الإجْمَاعِ[3]
أعِنَاقُ اللقاءِ أثْلَمُ فى الأحْشاءِ والقَلْبِ، أمْ عِنَاقُ الوَدَاعِ ؟

وقال أيضاً :

لَمْ يَكُنْ يَوْمُنَا طَوِيلاً بِنُعْمَا نَ وَلِكنْ كَانَ البُكاءُ طَوِيلاَ[4]

وإنما ذهب أبو تمام فى معنى طول يوم الفراق إلى ما يعهده الناس ، ويتعارفونه من أن وقت البؤس ، وزمان المحنة أبدا – طويل . ولعله ما كان مَهْجُوراً قبل يوم الفراق ، ولا كانت حاله حال التى وصفها البحترى .
وعلى أنَّ البحترى قد ذهب إلى مثل ما ذهب إليه أبو تمام فقال :

يا ابْنَةَ العَامِرِيِّ عَمَّا قَلِيلٍ يأْذَنُ الحَيُّ – فاعْلَمِي – بالرَّحِيلِ
قد سَمِعْتُ الغُرابَ يَذْكُرُ بَيْناً وانْصِرَاماً لِحَبْلِكِ المَوْصُولِ[5]

---

(١) م « عشية المماوت » والتصويب من ق
(٢) هما من غير نسبة ، فى أمالى المرتضى ٢ / ٢٥٧
(٣) ديوان البحترى ١٣١ ، ٢ / ١٢٤٣
(٤) ديوانه ٦٨٧ ، ١٧٦٧
(٥) ديوانه ١٦٧٧ « بوعد بينا »

كيفَ لى بالسُّلُوِّ لا كيف والبَيْـ ـنُ نَازِلٌ بِخَطْبٍ جَليـلِ
إنَّ يَوْمَ النَّوَى لَيَوْمٌ طَوِيلٌ لَيْسَ يَفْنَى ، ويومُ حُزْنٍ طَوِيلِ

وإنما قال البحترى هذا لأن من يهواه كان مُوَاصِلاً له ، وذلك قوله : «وانْصِراماً لحبلك المَوْصُولِ » .

ولم يقنع بأن قال : «إنَّ يومَ النَّوى لَيَوْمٌ طويلٌ» حتى قال : «ليس يفنى ، ويوم حزن طويل » .

فلعل أبا تمام كانت هذه حاله أيضاً فى مُوَاصَلَةِ مَنْ فَارَقَ ، واستطال يوم الفراق لذاك .

* * *

ومن ردىء ابتداآت أبى تمام فى هذا الباب قولُه :
هُنَّ عَوَادِى يُوسفٍ وصَوَاحِبُهْ فَعَزْمًا فَقِدْماً أَدْرَكَ النَّأْىَ طَالِبُهْ[1]

وإنما جعله رديئاً قوله : « هن » ، فابتدأ بالكناية عن النساء ، ولم يجر لهن ذكر بعد .

ثم قال : « عوادى يوسف » ، ومعناها صَوَارِفُ ،يقال : عدانى عنك[2] كذا : أى صرفنى . أراد :هُنَّ صَوارِفُ يوسف، وصواحبه ، وصوارف ههنا لفظة ليست قائمة بنفسها ؛ لأنه يحتاج أن يعلم صوارفه عن ماذا . واللفظة[3] القائمة بنفسها أن لو قال : « واتن يوسف » ، أو « شواغف يوسف » ، أو نحو ذلك . وكأنه أراد صوارف يوسف عن تقاه ، أو عن هداه ، أو عن

---

(١) ديوان البحترى ٤٣ وشرح التبريزى ١ / ٢٢٣ ويروى : « أدرك الثأر » و « أدرك السؤل » .
(٢) م « عنه »
(٣) م : « الكلمة بمشاهدة الألفاظ » ؛ والتصويب من ق

صحيح عزمه حتى هم بالمعصية . وإنما يتم معنى الكلمة بمثل هذه الألفاظ أَلَّوْ وَصَلَهَا بها .

ثم ألحق بيوسف التنوين . فجاء بثلاثة ألفاظ متوالية كلها رديئة فى موضعها .

وتمم البيت بعجز لا يليق بصدره ، وهو أردأ معنى من الصدر . وذلك قوله : «فعَزْماً فَقِدْماً أَدْرَكَ النَّأْىَ طَالِبُهْ»

فتصير جملة معنى البيت : هُنَّ صَوَارِفُ يوسف فَاَعْزِمْ ؛ فَقَدِيماً أَدْرَكَ البُعْدَ طالبُه .

وهذا كلام لا يلائم بعضه بعضاً ، ولا يتشابه. وإنما كانت ألفاظه ومعانيه تتشابه لو قال :

هُنَّ عَوَادِى يوسف وصَوَاحِبُهْ فلا يَعْدُوَنَّكَ مَطْلَبٌ أنتَ طالِبُه

أو «فلا يَعْدُوَنَّك العَزْمُ فيما تُطالِبُهْ» . أى لا يتجاوزُك .

أو «فلا تعدلن عن مطلب أنت طالبه» . أى هن صوارف يوسف عن عزمه ، فلا تنصرف أنت عن عزمك ومطلبك لِعَذْلِهِنَّ ، ومن أجلهن .

وقد عاب أبا تمام بهذا البيت ــ أبو سعيد الضَّرير[١] ، وأبو العَمَيْثَل الأَعْرَابىّ[٢] ، وكانا على خزانة الأدب لعبد الله بن طاهر بخراسان وكان الشاعر إذا قصده ، عرض عليهما شعره ، فإن كان جيدًا عرضاه عليه ، أو دعى به فأنشده . وإن كان رديئاً نبذاه ، ودفع إلى صاحبه البِرَّ على غير

---

(١) اسمه أحمد بن خالد . وترجمته فى نكت الهميان ٩٦ وبغية الوعاة ١٣١ وإنباه الرواة ١ / ٤١ ومعجم الأدباء ٣ / ١٥

(٢) اسمه عبد الله بن خليد ، وترجمته فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٧ ووفيات الأعيان ٢ / ٢٧٥ وهبة الأيام ١٣٩

الشِّعر . فلما قدم أبو تمام على عبد الله قصدهما ، ودفع القصيدة إليهما فَضَمَّاها إلى أشعار الناس . فلما تصفحا الأشعار مرّت هذه القصيدة على أيديهما . فلما وقفا على هذا الابتداء طرحاها مع الشعر المَنْبُوذ . فأبطأ خَبَرُها على أبي تمام فكتب إلى أبي العَمَيْثَل أبياتاً يعاتبه فيها ، ويقول :

وأَرَى الصَّحِيفَةَ قَدْ عَلَتْهَا فَتْرَةٌ فَتَرَتْ لها الأَرْوَاحُ فى الأَجسام[1]

ثم لقيهما فقالا له : لم لا تقول ما يفهم ؟ فقال : ولم لا تفهمان ما يقال ؟

فاستحسن هذا الجواب من أبي تمام .

والرجلان ما عابا إلا معيباً ، وما أنكرا إلا منكرًا . وكانا من أعلم الناس بالشعر وبكلام العرب .

* * *

مضت ابتداآتهما بذكر الفراق فلنذكر الآن ما جاء عنهما من ذلك فى وسط الكلام .

---

(١) ديوانه ٣١٦ وشرح التبريزى ٣ / ٢٨١ وأخبار أبي تمام ٢٢٤

البكاء على الظاعنين

قال أبو تمام :

فَارَقَتْنَــا ولِلْمَدَامِعِ أنوا ءُ سَوَارٍ على الخُدُودِ غَوَادِ[١]

كلَّ يوم يَسْفَحْنَ دَمْعاً طَرِيفاً يُمْتَرَى مُزْنُهُ بِشَوْقٍ تلادِ

واقِعاً بالخدود والبَرْدُ مِنْهُ واقعٌ بالقُلوبِ والأَكْبَادِ[٢]

وهذا فى البكاء مذهب حسن جدًّا ، فى أجود لفظ واضح سيال .

وقال أيضاً فأحسن كل الإحسان :

رَدُّ الجَمُوحِ الصَّعْبِ أَيْسَرُ مَطْلَباً من رَدِّ دَمْعٍ قَدْ أَصَابَ مَسِيلاَ[٣]

وقال البحترى فى ضد هذا المعنى :

وقَفْنَــا والعُيُونُ مُشَغَّلَاتٌ يُغَالِبُ دَمْعَهَا نَظَرٌ كَلِيلُ[٤]

نَهَتْهُ رِقْبَةُ الوَاشِينَ حتّى تَعَلَّقَ لا يَغِيضُ ولا يَسِيلُ

والناسُ لبيت البحترى ، ونَحْوِ مذهبه فيه ـ أَشَدُّ استحساناً ؛ لكثرة ما يشاهد مثله .

* * *

---

(١) ديوان البحترى ٧٥ وشرح التبريزى ١ / ٣٥٨

(٢) ويروى « والحر منه »

(٣) ديوانه ٢٤٢ وشرح التبريزى ٣ / ٦٦

(٤) ديوان البحترى ٣٠٠ ، ١٨٢٢

وقال أبو تمام :

لعمرى لَقَدْ أَقْوَتْ مَغَانِيكُمُ بَعْدِى ‍ ‍ ‍ ‍ وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وَشَائِعُ مِنْ بُرْدِ[١]

وأَنْجَدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إتهَامِ دَارِكُمْ ‍ ‍ ‍ ‍ فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِى عَلَى سَاكِنِى نَجْدِ

قوله : « كما مَحَّتْ وشائِع مِنْ بُرْدِ » – غلط ، لأَن الوَشَائِع هى :الغزْل الملفوف من اللُّحْمَة التى تداخل فى السَّدَى.فإذا نُسِجَ الثوبُ فليس فيه شىء يسمى « وَشِيعَة » ولا « وشَائِع » .

وقد ذكرت هذا فى باب أغاليطه المجموعة[٢] .

وقد عاب عليه أيضاً قوم قوله : « فيادَمْعُ أَنْجِدْنى عَلَى ساكِنِى نَجْدِ »

وقالوا : الإنْجادُ إنما يكون على المُحَارِب . فأَىُّ مُحَارَبَة أَو مُجَاهدة تكون أعظم من مجاهدة المغرم مَنْ يَهْوَاه ، ولا سيما إن كان مَنُوعاً ولم يكن مُوَاتِيا ؟

وقد أفصح البحترى بأَن المحبوب مُحَاربٌ فقال :

هَلْ كُنْتَ لَوْلاَ بَيْنهُمْ مُتَوَهِّماً ‍ ‍ ‍ ‍ أَنَّ امْرَأً يُشْجِيه بَيْنٌ مُحَارِبِ[٣]

فقول أَبى تمام : « أَنْجِدْنِى على ساكِنِى نَجْدِ » – من أَحسن كلام ، وأَحلاه ، وأَجوده .

* * *

وقال أبو تمام :

وَقَالُوا : أُسى عَنْهَا ، وقَدْ خَصَمَ الأُسَى ‍ ‍ ‍ ‍ جَوَانِحُ مُشْتَاقٍ إذا خُوْصِمَت لُدُّ[٤]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٢٧ وشرح التبريزى ٩٢ / ١٠ ويروى : « شهدت لقد »

(٢) راجع ص ١٨٣

(٣) ديوان البحترى ٦٩٦ ، ١ / ١٥٩ دار المعارف

(٤) ديوان أبى تمام ١٢٠ وشرح التبريزى ٢ / ٨١

وعَيْنٌ إذا نَهْنَهْتها عَادَتِ الكَرَى ... ودَمْعٌ إذا اَسْتَنْجَدْتَ أسْرَابَهُ نَجْدُ[١]

وما خلفَ أجْفَانِى شُئُونٌ بخِيلَةٌ ... ولا بَيْنَ أضْلاعِى لها حَجَرٌ صَلْدُ[٢]

وكَمْ تَحْتَ أرْوَاقِ الصَّبابَةِ مِنْ فَتًى ... مِنَ القَوْمِ حُرٌّ دَمْعُهُ لِلْهَوَى عَبْدُ

قوله : أسىً عنها ، أى تَأَسِّى عنها . وقد خصم الأُسى جوانح مشتاق :

أى غلبت التأسى وأبتْ عليه .

وعين إذا نهنهتها ، أى كففتها عن النوم .

وقوله : «تحت أرْوَاقِ الصَّبَابَةِ » فأرواق إنما هو : جمع رَوْق [وروق] كلّ شىء :أوله ؛ ولذلك قيل للقرن : رَوْق . يقال : ألقى عليه أرْوَاقَه : أى ثقله . وواحدتها رَوْق ، ويقال :ألقت السحابة أرْوَاقَها : إذا دامت ولم تُقلِع .

***

وقال أبو تمام أيضاً :

دَعَا شَوْقُهُ يا نَاصِرَ الشَّوْقِ دَعْوَةً ... فَلَبَّاهُ طَلُّ الدَّمع يَجْرِى ووَابِلُهْ[٣]

بِيَوْمٍ تُرِيكَ المَوْتَ فى صُورَةِ النَّوَى ... أوَاخِرُهُ مِنْ حَسْرَةٍ وأوَائِلُهْ

أراد أنَّ الشوقَ دعا ناصراً ينصرُه فلبّاه الدمعُ . بمعنى أنه يُخَفِّف لاَعِجَ الشوقِ ، ويطفى حرارته[٤] . وهذا إنما هو نُصْرَةٌ للمشتاق على الشوق ، والدمع إنما هو حرب للشوق ؛ لأنه يثلمه ويَتَخَوَّنُهُ ، ويكسِرُ حدَّه . ولو كان ناصراً

(١) فى الديوان وشرحه «إذا هيجتها » وعادت : من المعاداة . ونجد : قوى يجيب إذا استنجد

(٢) الشئون : مخارج الدموع . والصلد : الصلب . يقول : شئونى ليست ببخيلة على عينى بالدموع ، ولا بين أضلاعى حجر يصبر ، إنما هو قلب يألم ويجزع

(٣) ديوان أبى تمام ٢٣٠ وشرح التبريزى ٣ / ٢٢ . وسبق فى الجزء الأول ص ٢١٠ ، ٣٢٤ ،

٤٧٦

(٤) م. « حرارته »

له لكان يقويه ، ويزيد فيه . ألا ترى أنك تقول : قد ذَبَحَنِى الشوق إليك . فالشوق عدو المشتاق وحَرْبُه ، والدّمعُ سِلْمُه ؛ لتخفيفه عنه ، وهو حرب للشوق . وليس بهذا الخطأ خَفَاءٌ على أحد . وقد ذكرته فى أغاليطه[1].

وأحسن منه قول البحترى :

إنَّ الدُّمُوعَ هِىَ الصَّبَابَةُ فَاطَّـرِحْ بَعْضَ الصَّبَابَةِ تَسْتَرِحْ بِهُمُولِهَا[2]

لأن الصبابة – وهى رقة الشوق – تَنْحَلُّ مع الدمع ، وتمضى بِمُضِيِّه ، فلذلك جعل الدموع هى الصبابة على السعة . وإنما هى عدو الصبابة كالنار التى هى عَدُوٌّ لما تحرقه ، وهى مع ذلك تنفد بنفاده ، وتمضى بمضيه ، وكالريح إذا بدَّدَتْ الغيمَ ومَحَقَتْه ، فإنها تذهب بذهابه . وقد قال الشاعر :

أَشجَاكَ مِنْ لَيْلَتكَ الطُّـولُ فالدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْكَ مَهْمُولُ ؟
وهو إذا أَنْتَ تَأَمَّلْتَـهُ حُزْنٌ عَلَى الخَدَّيْنِ محْلُولُ[3]

لما كان الحزن يَنْحَلُّ ويسيل بسيلان الدمع ، جعله حُزْناً . ولو جعله ناصرًا للحزن ، أو جعل البحترىُّ الدموعَ ناصرةً للصبابة – لكانا جميعاً مُخْطِئَيْن ؛ لأن النَّاصرَ للشىء لا يَمْحَقُ الشىء ، ولا يفنيه ويَذْهب به .

ولكن البحترى اتبع أبا تمام فى خطئه بقوله :

نَصَرْتُ لها الشَّوقَ اللَّجوجَ بأَدمعٍ تلاحَقْنَ فى أعقابِ وَصْلٍ تَصَرَّمَا[4]

* * *

(١) راجع ص ٢١٠ ، ٣٢٤ من الجزء الأول
(٢) ديوان البحترى ٣٤٥ ، ٣ / ١٧٧١ . وقد سبق فى الجزء الأول ص ٥٢٩
(٣) للحسن بن وهب ، كما فى ديوانه المعانى ١ / ٢٥٨
(٤) ديوان البحترى ٣٥٥ ، ٣ / ٢٠٤٢ وقد سبق فى ص ٢١١ ، ٣٢٤ من الجزء الأول

وقال أبو تمام :

تَوَلَّوْا فَوَلَّتْ لَوْعَتِي تَحْشُدُ الأَسَى ... عليَّ ، وجاءت مقلتي وَهْيَ تَهْمِلُ[١]

بَذَلْتُ لَهُمْ مَكْنُونَ دَمْعِي فإنْ وَنَى ... فَشَوْقِي على أن لا يَجِفَّ مُوَكَّلُ

وهذا جيد بالغ .

وأجود منه وأحسن قوله :

فكادَ شَوْقِي يَتْلُو الدَّمْعَ مُنْسَجِماً ... إنْ كَانَ فِي الأَرْضِ شَوْقٌ فَاضَ فَانْسَجَمَا[٢]

ولم يذهب ههنا إلى نحو ما ذهب إليه البحترى فى قوله :

إنَّ الدُّموعَ هي الصَّبَابَةُ فَاطَّرِحْ ... بَعْضَ الصَّبَابَةِ تَسْتَرِحْ بِهُمُولِهَا[٣]

وإنما ذهب إلى أنه بكى لشدة شوقه وغلبته حتى كاد شوقُه يَفيض بِفيض الدمع .

وقال فى على بن الجَهْم[٤] :

هِيَ فُرْقَةٌ مِنْ صَاحِبٍ لكَ مَاجِدِ ... فَغَدًا إذَابَةُ كُلِّ دَمْعٍ جَامِدِ[٥]

فَافْزَعْ إلى ذُخْرِ الشُّئُونِ وعَذْبِهِ ... فالدَّمْعُ يُذْهِبُ بَعْضَ جَهْدِ الجاهِدِ

وإذا فَقَدْتَ أخاً فَلَمْ تَفْقِدْ لَهُ ... دَمْعاً ولا صَبْرًا فلَسْتَ بِفَاقِدِ

قوله : «يُذْهِبُ بَعْضَ جَهْدِ الجَاهِدِ» أى بعض جهد الحزن الجاهد ، أى جهد الحزن الذى قد جهدك . وهو الجَاهِدُ لك .

ولو كان استقام له أن يقول: بعض جهد المجهود ــ لكان أحسن وأليق . وهذا أغرب وأطرف . وقد جاء أيضاً فاعِلٌ بمعنى مَفْعُول : قالوا :عِيشَةٌ راضِيَة

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٤٥ وشرح التبريزى ٣ / ٧٣

(٢) ديوانه ٣٠٢ وشرح التبريزى ٣ / ١٦٨

(٣) ديوان البحترى ٣ / ١٧٧١

(٤) ديوان على بن الجهم ٣٤٥

(٥) ديوان أبى تمام ٨٦ وشرح التبريزى ١ / ٤٠٦

بمعنى مَرْضِيّة . ولَمْحٌ باصِرٌ ، إنما هو مُبْصَرٌ فيه . وأشباه لهذا معروفة . ولكن ليس فى كل شىء يقال . وإنما ينبغى أن نَنْتَهِى فى اللغة إلى حيث انْتَهَوْا ، ولا نتعدَّاه إلى غيره ؛ فإن اللغة لا يقاس عليها .

وقوله : «فَلَمْ يَفْقِدْ لَهُ دَمْعاً ولاَ صَبْرًا» – من أفحش الخطأ ؛ لأنَّ الصابر لا يكون باكياً ، والباكى لا يكون صابرًا ، فقد نَسَقَ[1] لفظة على لفظة ، وهما نعْتَان متضادان ، ولا يجوز أن يكونا مجتمعين . وقد ذكرت هذا مشروحاً فى أغاليطه[2] .

* * *

وقال البحترى :

قَدْ أَرَتْكَ الدُّموعَ يَوْمَ تَوَلَّتْ ظُعُنُ الحَىِّ ما وَراءَ الدُّموعِ[3]

عَبَراتٌ مِلْءُ الجُفُونِ مَـرَتْهَا حُرَقٌ للفراقِ مِلْءُ الضُّلُوعِ

وهذا غاية فى جودته وبراعته .

وقال أيضاً :

أَضْحَكَ البَيْنُ يومَ ذاكَ وأَبْكَى كلَّ ذِى صَبْوَةٍ ، وسَرَّ ، وسَاءَ[4]

فَجَعَلْنَـا الوَدَاعَ فيه سَلاماً وجَعَلْنَـا الفِرَاقَ فِيه لِقَاءَ

ووَشَتْ بِى إلى الوُشَاةِ دُمُوعُ الْـ عَيْنِ حتَّى حَسِبْتُها أَعْـدَاءَ

وهذا من إحسان أَبِى عُبَادَة المشهور .

---

(١) م «فقد يشق بلفظه»

(٢) راجع ص ١٥

(٣) ديوانه ٤٢١ ، ٢ / ١٢٧٩

(٤) ديوانه ٧١٢ وانظر ص ١٥

وقال أيضاً :

هَيِّنٌ مَا يَقُولُ فيكَ اللّاحِي بَعْدَ إطْفَاءِ غُلَّتِي وٱلْتِيَاحِي[١]

كُنْتُ أَشْكُو شَكْوَى المُعَرِّضِ فالآ نَ أُلاقِى النَّوَى بِدَمْعٍ صُرَاحِ[٢]

وهذا أيضاً غَايَةٌ فى حسنه وجودته .

وقال أبو تمام :

صَيَّرْتُ لى مِنْ تَبَارِى عَبْرَتِى سَكَناً مُذْ صِرْتُ فَرْدًا بلا إِلْفٍ ولاسَكَنِ[٣]

حَلَبْتُ صَرْفَ النَّوَى صَرْفَ الأَسَى وَحَدا بِالبَثِّ فى دَوْلَةِ الإِغْرَام والدَّدَنِ[٤]

فَمَا وَجَدْتُ على الأَحْشَاءِ أَبْرَدَ مِنْ دَمْعٍ على وَطَنٍ لى فى سِوَى وَطَنِى[٥]

مَنْ ذَا يُعَظِّمُ مِقْدارَ السُّرُور بِمَنْ يَهْوَى إذا لَمْ يُعَظِّمْ مَوْقِعَ الحَزَنِ[٦]

قوله : حَدَا بالبَثِّ : أى ساقَه ، وأَظهرَه ، وأشاعه فى دولة الإِغْرَام والدَّدَنِ . والإِغرام : جمع غُرم مثل : بُرْج وأَبْرَاج ، وخُرْجٌ وأَخْرَاج . والغُرْم والغَرَام بمعنى واحد . والدَّدَنُ : اللَّعِب .

يقول : ساق صَرْفُ النوى البَثَّ — وهو أشد الحزن — وأظهره فى دولة غرامى ولعبى . يقول : إنه قاسى الأَسفار والهموم فى أيام شبابه ولعبه . ولله در الذى يقول ، وأنشدناه الأَخفش ، وأنشده إسحق الموصلى أيضاً :

---

(١) ديوان البحترى ٣٨١ ، ١/٤٥٧ والالتياح : العطش

(٢) م «كيف أشكو» وفى الديوان «شكوى المصرح»

(٣) ديوان أبى تمام ٣٣٣

(٤) فى الديوان وشرحه «وحداً» وفى م «وجدا»

(٥) فيهما «أوقد من»

(٦) فى الشرح : «موضع الحزن»

ولـــا أَرادَ الحىُّ بَيْناً ولَمْ يَكُنْ دَرَى أَحَدٌ مَنْ بَيْنُ ظمياء فَاجعْ
أَبى الدمعُ أَعيانَ الصِّحَاحِ وبَيَّنَتْ مَكَانَ ذوى الشَّجْو العُيُونُ الدَّوَامِعْ[1]

وأَنشد إِسحق أَيضاً ، وأَنشده الأَخْفَش عن المُبَرِّد :

ولما رَأَتْ أَن لا سبيلَ وأَنَّـــهُ هُوَ البَيْنُ مَحْنُوٌّ عليه الأَضَالِعُ[2]
تَهَتَّكَ عن أَسْتَارِ قَلْبٍ وأَسْبَلَتْ مدامِعُ عَيْن بَيْنَها السِّرُّ ضَائعُ[3]

وأَنشد أَيضاً :

تكفكف دَمْعَها كَفٌّ خَضِيبُ لِتُخْفِيَهُ ،وهَلْ يَخْفَى المُرِيبُ ؟

وهذا أَيضاً حسن .

(١) فى الأصل : « فكان ذوى »
(٢) الزهرة ٣١٩ — « ولما رأى أن لا سبيل » « مقصوراً عليه »
(٣) فى الزهره : « عن أسرار قلب » « وأسجمت مدامع »

بكاء النساء المفارقات

قال أبو تمام :

بُدِّلَتْ عَبْرَةً مِنَ الإيماضِ يَوْمَ شَدُّوا الرِّحَال بالأَغْراضِ[1]

أَعْرَضَتْ بُرْهَةً فلمَّا أَحَسَّتْ بالنَّوَى أَعْرَضَتْ عَنِ الإِعْرَاضِ

غَصَبَتْهَا نَحِيبَها عَزَمَــاتٌ غَصَبَتْنِي تبيُّتِي واغْتِمَاضِي[2]

نَظَرَتْ فالتَفَتُّ مِنْهَا إلى أَحْـ لَى سَوَادٍ رأَيتُه فى بياضِ

يَوْمَ وَلَّتْ مَرِيضَةَ اللَّحْظِ والجَفْـ نِ وَأَيْسَتْ دُموعُها بِمِرَاضِ

قوله : «أَعْرَضَتْ عن الإعراض» — ليس باللفظ الجيد ، وهو من توليدات المتأخرين . ومثله قولُ البحترى :

شُغِلَ الرَّقِيبُ وأَسْعَدَتْنَــا خَلْوَةٌ فى هَجْرِ هَجْرٍ واجْتِنَابِ تَجَنُّبِ[3]

قوله : «غَصَبَتْها نَحِيبَها» — يريد أن عزماتى استخرجت نحيبها وأظهرته ، وقد كانت تَخْزُنه ، فكأنها اغتصبتها إيَّاه لمّا أظهرته .

وقوله «غصبتنى تَبَيُّتِى» أى تَلَبُّثِى ، أى منعتنى عزماتى من التَّلَوُّم والتَّلَبُّث ، ومن النوم ؛ فكأنها غصبتنى ذلك ،أى أخذته منى ، وأزعجتنى للرِّحْلَة .

وقال :

بَسَطَتْ إليْكَ بَنَانَةً أُسْرُوعَا تَصِفُ الفِرَاقَ ، ومُقْلَةً يَنْبُوعَا[4]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨٧ وشرح التبريزى ٢ / ٣٠٨

(٢) فى الديوان «غصبتنى تصبرى» وهما روايتان

(٣) ديوان البحترى ١٠٦١ ، ١ / ٧٨

(٤) سبق ص ٨

كادَتْ لِعِرْفَانِ النَّوَى أَلفَاظُهَا مِنْ رِقَّةِ الشَّكْوَى تكُونُ دُمُوعَا

وهذا معنى حسن لطيف حلو .

والأُسْرُوعُ : واحد الأساريع ، وهى دُوَيبَّةٌ بيضاء تكون فى الرّمل ، تشبّه بها الأصابع ، وذلك قولُ امرئِ القَيْس :

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأَنَّــهُ أَسَارِيعُ رَمْلٍ ،أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ[١]

* * *

وقال أبو تمام أيضاً :

بَكَتْهُ بِمَا أَبْكَتْهُ أَيَّامَ صَــدْرُهَا خَلِيٌّ ، وما يَخْلُو لَهُ مِنْ جَوًى صَدْرُ[٢]

وقالتْ : أَتَنْسَى البدرَ ؟ قُلْتُ تَجلُّدًا : إذا الشَّمْسُ لَمْ تَغْرُبْ فلا طَلَعَ البَدْرُ

فَأَذْرَتْ جُمَاناً مِنْ دُمُــوعٍ نِظَامُهَا عَلَى النَّحْرِ إلا أَنَّ صَائِغَها الشُّفْرُ[٣]

ومَا الدَّمْعُ ثَانٍ عَزْمَتِي ولوَ انَّهَــا سَقَى خَدَّها من كلِّ عَيْنٍ لَها نَهْرُ

قوله : «إذا الشمسُ لم تَغْرُبْ فلا طلع البدرُ » ـ لم يرد بذلك امرأة أخرى سواها ، وإنما جعل هذا القول احتجاجاً عليها ،وردًّا لكلامها ، ولِيُرِيَها أن عزمه فى السَّفر صحيح ، وأن بكاءها لا يثنيه عن وجهه الذى يريده . وقد بيّن هذا المعنى وأفصح بقوله : «تَجَلُّدًا » .

وهذه الأبيات صالحة ، والمذهب فيها غير مُسْتَحْلى ، ولا مُشْتَهى ، وفيها

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٣١ وشرح القصائدالعشر ٣٤ « أساريع ظبى» وتعطو : تناول . برخص: أى ببنان رخص . غير شثن : أى غير كز غليظ . ظبى : اسم كثيب . والإسحل : شجر له أغصان ناعمة . شبه أناملها بأساريع أو مساويك لينها

(٢) ديوان أبى تمام ٤٧٤ فى م « بما بكته »

(٣) فى الديوان : « فابدت جمانا . . . على النحر . . صائغها الشعر »

معنى غامض فى الاحتجاج عليها يجوز أن يكون أراده . وقد ذكرته فى « جزء » أفردته لِغَامِضِ معانى أبى تمام .

وقوله : « فأَذْرَتْ جُمَاناً » فالجُمَانُ هو : اللُّؤْلُؤ الصغار .

وقوله : « إلا أن صائغها الشُّفْرُ » ـ فالجمان لا يُصَاغ ، ولكن قد يعمل على هَيْئَته خرز من فضَّة . وقد سمَّاه هُدْبَةُ بن خَشْرَم جُمَاناً فقال :

عَلَيْهِنَّ مِن صَوْغِ المَدِينَة حِلْيَةٌ   جُمَانٌ كأَجْـوازِ الدَّبَا ورَفَارِفُ[1]

* * *

وقال أيضاً :

أَظُنُّ دُمُوعَها سَنَنَ الفَرِيدِ   وَهَى سِلْكَاهُ مِنْ نَحْرٍ وجِيدِ[2]

لَهَا مِنْ لَوْعَةِ البَيْنِ ٱلْتِدَامُ   يُعِيدُ بَنَفْسَجاً وَرْدَ الخُدُودِ

والتدام النساء فى النياحة إنما هو: ضرب الصُّدُور ، واللَّطم هو: ضرب الخلود . هذا المستعمل المعروف فى كلامهم . فاللَّطمُ هو الذى يعيد بنفسجًا وَرْدَ الخُدُودِ لا الالتدام ؛ لأن الالتدام : أن تأْخذ المرأة جِلْدًا أو نعلا فَتَدُقّ به صدرَها ، وتأْخذ النائحة التى هى المساعدة خِرَقاً[3] تشير بها فى النوح إلى صدرها . ويقال لها : المَآلِى ، واحدتُها مِئْلَاةٌ[4] . فجعل أبو تمام لطم الوجه لَدْماً . ولعل ذلك يسوغ ؛ فإن اللَّدْمَ هو : دَقُّ الشىء على الشىء . قال تميم بن أُبَىّ بن مُقْبِل :

---

(١) م : « كأوساط الجراد »

(٢) ديوان أبى تمام ١٠٤ وشرح التبريزى ٢٢ / ٣٢ وفى م « فى نحر »

(٣) م « حزنا »

(٤) اللسان ١٨ / ٤٦

وللفُؤَادِ وَجِيبٌ تَحْتَ أَبْهَـرِهِ لَدْمَ الغُلام وراءَ الغَيْبِ بِالحَجَرِ[١]

* * *

وقال أبو تمام :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لم تُنْظَمِ والدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ المُغْرَمِ[٢]

وصَلَتْ دُمُوعاً بالدماءِ فَخَدُّهَـا فى مِثْلِ حَاشِيَةِ الرِّدَاءِ المُعْلَمِ[٣]

وَلِهَتْ فأَظْلَمَ كُلُّ شيءٍ دونَهـا وأَضَاءَ منها كلُّ شيءٍ مُظْلِمِ[٤]

وكأَنَّ عَبْرَتَها عَشِيَّةَ ودَّعَتْ مُهَرَاقَةٌ مِنْ مَاءِ وَجْهِى أَوْدَمِى

وَلِهَتْ من الوَلَه ، فأظلم كل شىء دونها : أى أظلمت الأشياء فى عينيها من شدة الحزن والوَلَه ، وأضاءَ منها كل شىء مظلم : لنور وجهها وبهجتها.

* * *

وقال أيضاً :

سَرَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ وَعادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدِ[٥]

وأَنْقَذَها مِنْ غَمْرَةِ الموتِ أَنَّهُ صُدُودُ فِرَاقٍ لا صُدُودُ تَعَمُّدِ[٦]

فأَذْرَى لها الإِشفاقُ دَمْعاً مُـوَرَّدًا من الدَّمِ يَجْرِى فوقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ[٧]

هِىَ البَدْرُ يُغْنِيها تَوَدُّدُ وَجْهِها إلى كلِّ مَنْ لاَقَتْ وإنْ لَمْ تَوَدَّدِ[٨]

---

(١) ديوان ابن مقبل ٩٩ واللسان ١٦ / ١٢

(٢) ديوان أبى تمام ٣١٢ وشرح التبريزى ٣ / ٢٤٨

(٣) فى الشرح : « بالنجيع » أى أسرفت فى البكاء حتى سال الدم من عينها موصولا بالدمع ، فكأن الدم الأحمر فى صحن خدها الأبيض ، علم أحمر فى حاشية رداء أبيض

(٤) فى الديوان وشرحه « وأنار منها »

(٥) ديوانه ١٠٠ وشرح التبريزى ٢ / ٢٢

(٦) فى شرح التبريزى عن الصولى : « خفف عنها أن الصدود ليس بقصد ، وإنما هو فراق بعمد

(٧) فى الديوان وشرحه « فأجرى لها »

(٨) تودد وجهها : حسنه وأن كل أحد يحبه

وهذا من إحسانه المشهور .

وقوله: «دَمعاً مُوَرَّدًا من الدَّمِ» – لفظ حسن ، ومعنى ليست له براعة .

والجيد فى مثل هذا قول البحترى :

لو ترانا عند الوَدَاعِ وقـــدْ ورّدَ سَكْبُ الدموعِ وَرْدَ الخدود[1]

يريد أن الدموع إذا مرت على الخدود [ورّدتها] . وهذا معنى صحيح مشاهد.

وأبو تمام لا يقنع إلا بأن يجعل المرأة باكية عليه دَماً على عادته فى الاستقصاء الذى لا حلاوة له . فهلاَّ اقتصر على مثل قول «عَلْقَمَة بن عَبَدَة» – وأنشده إسحاق الموصلى ، وأنشده ثَعْلَب – :

تَراءتْ وأَستارٌ مِنَ البيتِ دُونَها إلينا وحَانَتْ غَفْلَةُ المُتَفَقِّدِ[2]

بِعَيْنَى مَهَاةٍ يَحْدُرُ الشَّوْقُ مِنْهُمَا شَرِيجَيْنِ شتَّى: مِنْ دُمُوعٍ وإثْمِدِ[3]

قال ثعلب : فسرقه «ابن ميّادة» فقال :

ومَا أَنْسَ مِ الأشياءِ لا أَنْسَ قَوْلَهَا وأَدْمُعُها يَحْدُرْنَ حَشْوَ المَكَاحِلِ[4] :

تَمَتَّعْ بِذَا اليَوْمِ القَصِيرِ فإنَّهُ رَهِينٌ بأَيَّامِ الشُّهُورِ الأَطَاوِلِ

قال : فسرقه بعض المحدثين فقال :

خُذِى عُدَّةً لِلْبَيْنِ إِنِّىَ رَاحِلٌ قِرَى أَمَلٍ يُجْدِيكِ واللهُ صَانِعُ

فَسَحَّتْ بِسِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ خَلْطَ إِثْمِدٍ على الخدِّ إلاَّ مَا تَكُفُّ الأَصَابِعُ

* * *

وقال أبو تمام :

خُذِى عَبَرَاتِ عَيْنِكِ عَنْ زَمَاعِى وصُونِى ما أَزَلْتِ مِنَ القِنَاعِ[5]

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ٧٦٨ دار المعارف (٢) ديوان علقمة الفحل ٤١ – ٤٢ .

(٣) فى ديوانه : «بريمين» والبريم : كل شىء فيه لونان . والشريجان : لونان مختلفان من كل شىء ، كما فى لسان العرب ٣ / ١٣٠

(٤) الأغانى ٢ / ١٠ وحماسة أبى تمام بشرح المرزوقى ٣ / ١٣٥٥

(٥) ديوان أبى تمام ١٩٣ وشرح التبريزى ٢ / ٣٣٦

أَقِلِّى قَدْ أَضَاقَ بُكَاكِ ذَرْعِى ‏ وما ضَاقَتْ بِنَازِلَةٍ ذِرَاعِى[1]

أَآلِفَــةَ النَّحِيبِ كم ٱفْتِرَاقٍ ‏ أَظَلَّ فَكَانَ دَاعِيَةَ ٱجْتِمَاعِ[2]

ولَيْسَتْ فَرْحَةُ الأَوْبَاتِ إلاَّ ‏ لِمَوْقُــوفٍ عَلَى تَرَحِ الوَدَاعِ[3]

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَت جِسْمِى نَحِيفاً ‏ كأَنَّ المَجْدَ يُدْرَكُ بالصِّرَاعِ[4]

وهذه كلها أبيات جِيَادٌ صحيحة الألفاظ والمعانى . وقد عابه ابن « عمار » وغيره بهذا البيت الأخير .

وحدثنى أبو على محمد بن العلاء السِّجستانى قال : حدثنى أبو [محمد] عبد الله بن قُتيبة المؤلف، قال : سمعت على بن هارون الكاتب النصرانى يقول : قلت لأبى تمام :

أنشدنى أجود شعر قلته . فأنشدنى قصيدته : « خُذِى عَبَرَاتِ عَيْنِكِ » فلما بلغ إلى قوله : « تَوَجَّعُ أَنْ رَأَتْ » قلت : يخيل إلى أن هذا غلط منك ؛ لأن الصِّراع ليس من النَّحافة والجَسَامَةِ فى شىء . ولو قلت : كأن المجد يدرك بحرف فى معنى الجسامة — كنت قد أصبت .

و « علىّ بن هارون » هذا ، وكل من عاب هذا البيت — عندى غَالِط .

ولم كان الصراع عنده ليس من النحافة والجسامة فى شىء ؟ وهل تجد القوةَ أبدًا إلا فى العَبَالَة وغِلَظِ الأَلْوَاح ؟ وهل الضَّعْفُ أبدًا إلا فى الدِّقَّةِ والنَّحافة ؟ وهذا هو الأعم الأكثر ، وإلاَّ لمَ صار الفيل يَحْمل ما لا يحمل الجمَل ، والجمل يحمل ما لا يحمل البغل ، والبغل يحمل ما لا يحمل الحمار .

---

(١) م « بنازل »

(٢) م « فرحة الأوباد » !

(٣) فى الديوان وشرحه « توجع أن » وفى م « بالصواع » والبيت فى الصناعتين ٣١٢

(٤) م « كان الصواع . . من المخافة »

فأراد أبو تمام أن المجد لا يدرك بالصراع الذى من كان فيه أَغْلظ وأَعْبَل ، كان أولى بالغلبة . فهذا هو الأَعم الأَكثر فى هذا الباب .

ولست أنكر أن تكون القوة قد توجد مع الدِّقة والنَّحَافة كما قال بعضهم :

* إنا على دِقَّتِنَا صِلاَبُ *

وأن يكون الخَورُ والرَّخَاوة قد يوجدان مع الغِلَظ والعَبَالَة فى بعض الأَشياء . فأَما الشَّجاعة والجُرْأَة فقد توجدان فى النحيفِ الجسم الضعيفِ ، وفى العَبْلِ الغليظ .

وهذا إنما يرجع إلى القلب لا إلى الجسم ؛ ولعل عَامِرَ بن الطُّفَيْل ، وعُتَيْبَةَ بن الحارث بن شهاب ، وبِسْطَامَ بنَ قَيْس – ما كان يقدر كل واحد منهم أن يحمل على كتفه مائة رجل .

فجعل أَبو تمام معناه على الوجه الأَعم الأَكثر . وقد أَحسن عندى فيه ، ولم يُسِئْ .

* * *

وقال البحترى :

رَحَلُوا فأَيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ ... أَسَفاً ، وأَىُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ[1]

قَدْ بَيَّنَ البَيْنُ المُفَرِّقُ بَيْنَنَا ... عِشْقَ النَّوَى لِرَبِيبِ ذَاكَ الرَّبْرَبِ

صَدَقَ الغُرَابُ لَقَدْ رأَيتُ شُمُوسَهُم ... بالأَمْسِ تَغْرُبُ عَنْ جَوَانِبِ غُرَّبِ

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَنَا ومَا صَنَع النَّوَى ... بِقُلُوبِنَا لَحَسَدْتَ مَنْ لَمْ يُحْبِبِ[2]

شُغل الرَّقِيبُ ، وأَسْعَدَتْنا خَلْوَةٌ ... فى هَجْرِهَجْرٍ ، واجْتِنَابِ تَجَنُّبِ

(١) ديوان البحترى ٦٠٠ ، ١ / ٧٨ دار المعارف

(٢) فى الديوان « وما صنع الهوى »

فَتَلَجْلَجَتْ عَبَرَاتُهَا ، ثُمَّ انْبَرَتْ تَصِفُ النَّوَى بِلِسَانِ دَمْعٍ مُعْرِبِ[١]
تَشْكُو الفِرَاقَ إلى قتيلِ صَبَابَةٍ شَرِقِ المَدَامِعِ بِالفِراقِ مُعَذَّبِ[٢]

قوله : « قد بَيَّن البَيْنُ المُفَرِّقُ بَيْنَنَا » . فالبَيْنُ : الفِرَاقُ . يريد قد بَيَّنَ الفراق المفرِّق بيننا .

وبعض أهل اللغة يقول : « البَيْنُ » من الأضداد[٣] يكون الاتصال ، ويكون الافتراق . وليس الأمر كذلك . بل البين : الحَدُّ والقَطْعُ بين الشيئين ، والذى يتميز به[٤] الحَيِّزَان أحدهما عن الآخر . يقال : وصلت بينهما ، وفرّقت بينهما ، وبعدّت[٥] بينهما . فيصلح ذلك كله فيه ؛ لأنه الحدّ ، والبَرْزَخُ ، لا أنّه الاتصال ، ولا الافتراق . إلا أن الشعراء جعلوه فى استعمالهم : الفراق . فقوله : « قد بَيَّنَ البَيْنُ » – يريد قد بيّن الفراق المُفَرِّق بيننا .

والنوى : هى النِّيَّة فى انتقال القوم من موضع إلى آخر . فعشق النِّيَّة لِربيبِ الرَّبْرَبَ – استعارة ليست بحسنة . غير أن الشعراء المتأخرين قد اصطلحوا على أن جعلوا البين ، والفراق ، والنوى كالأشخاص ، وجعلوها الحَائِلةَ بينهم وبين من يَهْوَوْنَه ، فهم يستعيرون الأفعال لها . فربما حسنت الاستعارة لها ، وربما قبحت ،على حسب مواضعها فى الإغراق والاقتصاد .

وقوله : « لو كنت شاهدنا » من أبياته المشهورة فى الحسن والحلاوة .

وقوله : « فى هَجْرِهَجْرٍ ، واَجْتِنَابِ تَجَنُّبِ » – مذهب من مذاهب

---

(١) وفيه : « تصف الهوى »
(٢) م « تشكو الفراق »
(٣) راجع الأضداد لابن الأنبارى ٦٢
(٤) م « بها »
(٥) م « و يعذب »

المولدين . وقد قدمت القول فى أنه غير حسن ولا جميل .

ولم يعتمد البحترى فى هذا الباب ذكر بكاء النساء إلا قوله : «وقَدْ وَرَّدَ سَكْبُ الدُّمُوعِ وَرْدَ الخُدُودِ» وقوله : «فَتَلَجْلَجَتْ عَبَرَاتُها»

ولكنه وصفهن عند التوديع أحسن وصف وأحلاه فقال :

عَجِلَتْ إلى فَضْلِ الخِمَارِ فأَثَّرَتْ عَذَبَاتُهُ بِمَوَاضِعِ التَّقْبِيلِ[1]
وتَبَسَّمَتْ عند الوَدَاعِ فأَشْرَقَتْ إشراقةً عَنْ عَارِضٍ مَصْقُولِ
أَأَخِيبُ عِنْدك والصِّبَا لى شَافِعٌ وأُرَدُّ دُونَك والشَّبابُ رَسُولى؟

* * *

وقال أيضاً :

أَكُنْتَ مُعَنِّفِى يومَ الرَّحِيلِ وَقَدْ لَجَّتْ دُمُوعِى فى الهُمُولِ؟[2]
عَشِيَّةَ لا الفِرَاقُ أفاءَ عَزْمِى إلىَّ ، ولا اللقاءُ شَفَى غَلِيلِى
دَنَتْ عند الوَدَاعِ لِوَشْكِ بَيْنٍ دُنُوَّ الشَّمْسِ تَجْنَحُ لِلأَصِيلِ[3]

وقال أيضاً :

إذَا مَا نَهَى النَّاهِى فَلَجَّ بِىَ الهَوَى أَصَاخَتْ إلى الوَاشِى فَلَجَّ بِها الهَجْرُ[4]
ويومَ تَثَنَّتْ للوَدَاعِ وسلَّمَتْ بِعَيْنَيْن مَوْصُولٍ بِلَحْظِهِمَا السِّحْرُ
تَوَهَّمْتُها أَلْوَى بِأَجْفَانِها الكَرَى كَرَى النَّوْمِ ،أَوْمَالَتْ بِأَعْطَافِها الخَمْرُ

---

(١) ديوان البحترى ٦١٠ ، ١٦٦٢ وفى م «إلى أفضل»
(٢) ديوانه ٤٨ ، ١٧٣٦ .
(٣) م «حنت عند» وفى الديوان «لو شك بعد»
(٤) ديوان البحترى ٨٦ ، ٢ / ٨٤٤ دار المعارف .

وقال أيضاً .

وأَنَا الفِدَاءُ لمُرْهَفٍ غَضِّ الصِّبَا يُوْهِيهِ حَمْلُ وِشَاحِهِ وعُقُــودِهِ[١]
قَصُرَتْ تَحِيَّتُهُ فَجَادَ بِخَدِّهِ يَوْمَ الوَدَاعِ لَنَا ، وضَنَّ بِجِيدِهِ
ولَوِ اسْتَطَاعَ لَكَانَ يَوْمَ وِصَــالِهِ لِلْمُسْتَهَامِ مَكَانَ يَوْمِ صُدُودِهِ

أَراد أَنها لما قصرت تحيتها فلم تَقْدِر[٢] على السلام – أَعْرَضَتْ فرأَى خدَّها ، فكأَنها جادت لما رأَته ، وقد ضنَّت على الحقيقة بجيدها . وهو موضع العِناق[٣] .

* * *

وقال أيضاً :

ما أَرَى البَيْنَ مُخْلِياً مِنْ وَدَاعٍ أَنْفُسَ العَاشِقِينَ حتَّى تَبِينَا[٤]
مِنْ وَرَاءِ العُيُونِ كُثْبَانُ رَمْــلٍ تَتَثَنَّى أَفْنَــانُهُنَّ فُنُونَا[٥]
وبِودِّ القُلُوبِ يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ ظُعُنُ الحَيِّ لَوْ تَكُونُ عُيُونَا

فهذا المذهب الذى سلكه البحترى – أَوْلَى بالصواب فى وصف النساء المُفَارِقات ، وأَشبه بأَحوالهن من مذهب « أَبى تمام » فى وصفه إياهن بشدة الجزع ، والوَلَهِ ، وبكاء الدم ، ولطم الوجه ، والإِشْفَاءِ على الهَلَكَة ، وإِظهارِ التجلُّدَ ، وقلةَ الاحتفال بهن . وذلك قوله :

وقَالَتْ :أَتَنْسَى البَدْرَ؟ قُلْتُ تَجَلُّدًا : إذا الشمسُ لَمْ تَغْرُبْ فَلاَطَلَعَ البَدْر[٦]

* * *

(١) ديوان البحترى ٦٥٨ ، ٢ / ٦٩٤ دار المعارف
(٢) م « يقدر »
(٣) م « العنان » !
(٤) ديوان البحترى ٢٤٥ ، ٤ / ٢١٦١
(٥) م « وراء الغيور » وفى الديوان « من وراء السجوف » وانظر ص ١٥
(٦) ديوان أبى تمام ٤٧٤

وقال أيضاً :

وَمَا الدَّمْعُ ثَانٍ عَزْمَتى ولَوَ أنَّهُ سَقَى خَدَّها مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَها نَهْرُ[١]

وقوله :

لَهَا مِنْ لَوْعَةِ البَيْنِ ٱلْتِدَامُ يُعِيدُ بَنَفْسَجاً وَرْدَ الخُدُودِ[٢]

وقوله :

وَصَلَتْ دُموعاً بالدِّمَاءِ فَخَدُّها فى مِثْلِ حاشيةِ الرِّداءِ المُعْلَمِ[٣]
وَلِهَتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شىءٍ دُونَها وأَضَاءَ منهـا كلُّ شىءٍ مُظْلِمِ

ولو كان وصف بهذا زوجته ، أو ابنته ، لكان معذورًا ، ولكنه إنما وصف حبائبه ؛ لأنه ذكرهن بالجمال والحسن ، والزوجات لا يوصفن بذلك .

وما انتهى عمر بن أبى ربيعة – الذى كان مُعَشَّقاً يَنْذِرُ أَشرافُ النساءِ النُّذُورَ فى روْيته ومجالسته – مِنْ ذكرِ صبوتهن به إلى مِثْلِ هذه الأوصاف ، ولا قريبٍ منها . وقد عيب عمر بذلك ، واستقبِحَ منه . على أنه قد صدق فى أكثر ما قال ، ولم يكذب ،وأتى بالأخبار على وجوهها . فلم يقنع أبو تمام إلا بالزيادة عليه ، والتناهى فيما يخرج عن العادة .

* * *

وقال أبو تمام :

لَمَّا ٱسْتَحَرَّ الوَدَاعُ المَحْضُ وٱنْصَرَمَتْ أَوَاخِرُ الصَّبْرِ إلاَّ كاظِماً وَجِمَا[٤]
رَأَيْتَ أَحْسَن مَرْئىٍّ ، وأَقْبَحَهُ مُسْتَجْمِعِينَ لِىَ التَّوْدِيعَ والعَنَمَا

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٧٤ وشرح التبريزى ٤ / ٥٦٨ « ولو انها »
(٢) ديوانه ١٠٤ وشرح التبريزى ٢ / ٣٢
(٣) ديوانه ٣١٢ وشرح التبريزى ٣ / ٢٤٨
(٤) ديوانه ٣٠٢ وشرح التبريزى ٣ / ١٦٧

استحسن إصبعها[١] ، واستقبح إشارتها مُوَدِّعة . والعنم : شجر[٢] له أغصان لطيفة غَضَّة كأنها بنان جارية . الواحدة عَنَمَة .

وهذا خطأ منه أن يستقبح إشارتها بالوداع إليه . أتراه ما سمع قول جرير :

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى بِفَرْعِ بِشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ[٣]

فدعا لِلْبشَام بالسُّقْيَا ؛ لأنها ودَّعته به فَسُرَّ بتوديعها .

وأبو تمام إنما استحسن إصبعها ، واستقبح إشارتها . فما ظنك بمن استقبح إشارة معشوقة إليه عند توديعه . وهذا يدل على أنه ما عرف شيئاً من هذا ، ولا شاهده ، ولا بُلِيَ به .

* * *

وقال فى وصف النساء المفارقات أيضاً :

خَفَّتْ دُمُوعُكَ فى إِثْرِ الخَلِيطِ لَدُنْ خَفَّتْ مِنَ الكُثُبِ القُضْبَانُ والكُثُبُ[٤]

مِنْ كُلِّ مَمْكُورَةٍ ذَابَ النَّعِيمُ لَهَا ذَوْبَ الغَمَامِ فَمُنْهَلٌّ وَمُنْسَكِبُ

أَطَاعَهَا الحُسْنُ ، وَانْحَطَّ الشَّبابُ عَلَى فُؤَادِها ، وجَرَتْ فى رُوحِهَا النِّسَبُ[٥]

لَمْ أَنْسَها وصُرُوفُ البَيْنِ تَخْلِجُها ولا مُعَوَّلَ إِلَّا الوَاكِفُ السَّرِبُ[٦]

---

(١) م « إصنعها » !

(٢) م « أشجار »

(٣) ديوان جرير ٥١٢ وأمالى المرتضى ١ / ٥٤١ ، ٢ / ٢٥٦

(٤) ديوان أبى تمام ٤٧ وشرح التبريزى ١ / ٢٤٥ ويروى : « فى إثر الحبيب » والكثب الأولى : جمع كثيب من الرمل ، والكثب الثانية : مراد بها أرداف النساء ؛ لأنها تشبه بالكثب ، فحذف التشبيه. القضبان : أراد بها القدود ، على ترك آلة التشبيه أيضاً

(٥) يروى : « على قوامها » و « فى وصفها »

(٦) فى الديوان وشرحه : « البين تظلمها »

أَدْنَتْ نِقَاباً على الخَدَّيْن وٱنْتَسَبَتْ ... لِلنَّاظِرِينَ بِقَدٍّ لَيْسَ يَنْتَقِبُ[١]

كانَتْ لَنا لعباً نَلْهُو بِزُخْرُفِهِ ... وقَدْ يُنَفَّسُ عَنْ جِدٍّ الفَتَى اللَّعِبُ[٢]

وهذه أبيات حسان ، جيدة المعانى .

وقوله : «أطاعها الحسن» من أبياته التى يسأل الناس عنها. فقوله : «أطاعها الحسن» من قول[٣] بشّار بن بُرْد :

كَما ٱشْتَهَتْ خُلِقَتْ حتَّى إذَا ٱعْتَدَلَتْ ... تَمَّتْ تَماماً فلا طُولٌ ولا قِصَرُ

وفى نحوه قول أبى نواس :

تُرِكَتْ والحُسْنَ تَأْخُذُهُ ... تَنْتَقِى مِنْهُ وتَنْتَخِبُ[٤]

فٱنْتَقَتْ مِنْهُ طَرائِفَهُ ... وٱسْتَزَادَتْ فَضْلَ مَا تَهَبُ[٥]

قوله : « وانحط الشباب على فؤادها » يريد الذكاء والتيقظ .

وقوله : «وجرَت فى روحها النَّسَبُ» ، هو أن يقال : خفيفة الروح ، وعَذْبَةُ الرُّوح ؛ ونحو هذا . كذا فسره الشيوخ بعد أن جرى فى البيت خَوْضٌ طويل .

---

(١) ويروى « وانتصبت للناظرين » يقول : استترت بالنقاب لئلا تعرف فعرفت بقدها ؛ أى لما رأوا قدها قيل : هذه فلانة ؛ لأنها معروفة بحسن القوام والجمال »

(٢) م « وأنت لنا » وفى الديوان وشرحه « لنا ملعباً » وكل شىء حسن يسمى زخرفاً

(٣) م « الحسن ونحوه القول »

(٤) ديوان أبى نواس ص ٣٦١ « خليت »

(٥) فى الديوان « فاكتست »

ما ذكره من استيلاء النوى على الأحباب المفارقين

قال أبو تمام :

وفى الكِلَّة الصَّفْرَاءِ جُؤْذَرُ رَمْـلَةٍ غَدَا مُسْتَقِلاً ، والفِرَاقُ مُعَادِلُهْ[١]

تَيَقَّنْتَ أَنَّ البَيْنَ أَوَّلُ فَاتِكٍ به مُذْ رَأَيْتَ الهَجْرَ وهْوَ يُغَازِلُهْ

قوله : « الفراق معادله » معنى غير جيد ولا صحيح ؛ لأن الفراق هو مُفَارَقَةُ كلٍّ واحدٍ من الاثنين صَاحِبَه . فإذا جعل الفراق ماضياً مع أحدهما ، وأخلى الآخر منه كان الآخر غير مفارق . وهذا محال . وإنما أوقع أبا تمام فيه أنه جعل الفراق كأنه شخص مُسَلَّطٌ على المحبوب ، استولى عليه فذهب به .

وقد يستعمل مثل هذا ولكن ليس على هذا الوجه .

والاستعارة التى هى أقرب إلى الجواز قوله :

سَعِدَت غُرْبَةُ النَّوَى بِسُعَادِ فهى طوْعُ الإتْهامِ والإنْجَادِ[٢]

وذلك أن النوى إنما هى : نِيَّة القوم المفارقين دون غيرهم من المقيمين .

* * *

وقال البحترى :

قَدْ بَيَّنَ البَيْنُ المُفَرِّقُ بَيْنَنَا عِشْقَ النَّوَى لِرَبِيبِ ذَاكَ الرَّبْرَبِ[٣]

فنسب العشق إلى النوى على سبيل الاستعارة .

وقال البحترى وهو حسن :

نَوَيْنَ النَّوَى ، ثُمَّ اَسْتَجَبْنَ لِهَاتِفٍ مِنَ البَيْنِ نَادَى بالفِرَاقِ فأَسْمَعَا[٤]

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٣٠ وشرح التبريزى ٣ / ٢٣

(٢) ديوانه ٧٥ وشرح التبريزى ١ / ٣٥٨

(٣) سبق ص ٣٤

(٤) ديوان البحترى ٧٠٢ ، ٢ / ١٢٦٣

وحَاوَلْنَ كِتْمانَ التَّرحُّلِ بالدُّجَى فَبَاحَ بِهِنَّ المِسْكُ لَمَّا تَضَوَّعَا[١]

وأردأ من قول أبي تمام : « والفراق معاداه » ، وأقبح وأسخف — قول أبي تمام :

أَتُرَى الفِرَاقَ يَظُنُّ أَنِّي غَافِلٌ عَنْـهُ وقد لَمَستْ يَدَاهُ لَمِيسَا[٢]

ما زلت أسمع الشيوخ من أصحاب أبي تمام المتعصبين[٣] له دون من سواهم يقولون : أتراه أى شيء أراد أن يصنع بالفراق : يقطع يديه أو رجليه ، أو يصلبه على جذع ؟

* * *

وقال أبو تمام :

لا أَظلِمُ النَّأْىَ قَدْ كَانَتْ خلاَئِقُها مِن قَبْلِ وَشْكِ النَّوَى عِنْدِى نَوًى قُذُفَا[٤]

وهذا معنى جيد حسن .

والقُذُفُ : البعيدة .

وقال أيضاً :

دَعِ الفِرَاقَ فإنَّ الدَّهرَ سَاعَدَهُ فَصَارَ أَمْلَكَ مِنْ رُوحِي بِجُثْمَانى[٥]

وهذا فى جملة أبياته المشهورة التى لهج الناس بها وهى :

ما اليومُ أَوَّلَ توديعى ولا الثانِى البَيْنُ أَكثرُ مِنْ شَوقِى وأَحْزَانِى][٦]

---

(١) فى الديوان : « حين تضوعا »

(٢) ديوان أبى تمام ١٥٧ وفى شرح التبريزى ٢ / ٢٦٣ « أى تناولتها يد الفراق . يقول : لا أزال أطلب ثأرى عنده حتى أدركه »

(٣) م « المعميين » والتصويب من ق

(٤) ديوانه ٢٠٠ وشرح التبريزى ٢ / ٣٦١

(٥) ديوانه ٣٢٣ وشرح التبريزى ٣ / ٣٠٨

(٦) الزيادة من ق

خليفةَ الخِضْرِ مَنْ يَرْبعْ على وَطنٍ   في بلدةٍ فَظُهورُ العِيسِ أوطانِي[1]

بالشام قومى ، وبَغْدَادُ الهوَى ، وأنَا   بالرَّقّتَيْنِ ، وبالفُسْطَاطِ إخْوَانى[2]

وما أَظُنُّ النَّوى تَرْضَى بِمَا صَنَعَتْ   حَتَّى تبلِّغ بى أَقْصَى خُرَاسَانِ[3]

قوله : «البَيْنُ أكثر من شَوْقى وأحزانى» أى زاد عليها ، وغَلَبَها حتى صرت لا أشتاق ، ولا أحزن ؛ لكثرة ما أُفارِق .

(١) فى شرح التبريزى «الوجه أن ترفع خليفة على تقدير : أنا خليفة الخضر ؛ لأن طائفة من المسلمين يزعمون أن الخضر حى لم يمت ، وأنه يطوف البلاد . والمعنى أنى أسير فى البلاد على ظهور العيس ، وكأنى خليفة الخضر ، أى على سفر طول الدهر»

(٢) يروى : «بالشام أهلى»

(٣) يروى: «حتى تطوح بى» و «تسافر بى» و «تشافه بى»

ذكر الأنفاس والحرق والزفرات عند الفراق

قال أبو تمام :

فَلَوْ تَرَانَا وإيَّاهُمْ ومَـوْقِفنَا فى مَأْتَم البَيْنِ لِاسْتِهْلَالِنَا زَجَلُ[١]

مِنْ حُرْقَةٍ أَطْلَقَتْهَا فُرْقَةٌ أَسَرَتْ قَلْباً ، ومِنْ عَذَلٍ فى نَحْرِهِ غزَلُ[٢]

قوله : « أَطْلَقَتْهَا فُرْقَةٌ » يعنى أبرزَتْهَا وأظهرتها . وإنما قال : « أطلقتها » من أجل قوله : « أسرت قلباً » ؛ ليطابق بين الإطلاق والإسار .

وقوله : « أسرت قلباً » يعنى الفرقة ــ معنى ردىء ؛ لأن القلب إنما يأسره ويملكه شدَّة الحب لا الفراق . فإن لم يك مأسورًا قبل الفراق فما كان هناك حبٌّ . فلم خص التوديع[٣] ؟ وما كان وجه هذا البكاء والاستهلال والزجل ، وهذه القصة الفظيعة التى وصف الحال فيها عند مفارقتهم ؟

وقد ذكرت هذا مشروحاً فى باب أغاليطه[٤]

* * *

وقال أبو تمام :

أَمَرَ التَّجَلُّدَ بالتَّلَدُّدِ حُرْقَةٌ أَمَرَتْ جُمُودَ دُمُوعه بِسُجُوم[٥]

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٢٧ وشرح التبريزى ٣ / ٦

(٢) ويروى « ومن غزل فى نحره عذل » أى لو رأيتنا ونحن نبكى لاستهلالنا زجل من حرقة أطلقتها فرقة ذهبت بقلبى ، ومن عشق فى نحره لوم يقاتله ويحاربه . ويقال : إنه أراد بنحره : بإزائه .

(٣) م « للتوديع »

(٤) راجع ص ٢١٢ من الجزء الأول

(٥) ديوانه ٣٠٥ وشرح التبريزى ٣ / ١٦١

قوله : «أمر التجلد بالتلدد حرقةٌ». جعل الحرقة آمرةً للتجلد بالتَّلَدُّد . والحرقة التى يكون معها التَّلَدُّدُ تسقط التَّجَلُّدَ ألبتة ، وتذهب به . وأما أن تجعله متلدِّدًا فإن هذا من أحمق المعانى ، وأولاها بالاستحالة . بلى لو قال : إن الفرقة أحالت التجلُّدَ إلى التَّلدّد ، أو أبدلت من التجلُّد التلدد لكان ذلك هو السائغ الحسن .

وأى لفظ أسخف أيضاً من أن جعل الحرقة آمرةً . وإنما العادة فى مثل هذا أن تكون باعثة ، أو جَالِبَة ، أو نحو هذا . فأَما الأَمر فليس هذا موضعه .

* * *

وقال أيضاً :

ومنْ زَفْرَةٍ تُعْطِى الصَّبَابَةَ حَقَّهـــا   وتُورِى زِنَادَ الشَّوْقِ تَحْتَ الحَشَا الصَّلْدِ[1]

قوله : «مِنْ زَفْرَةٍ تُعْطِى الصَّبَابَةَ حَقَّها» معنى جيد حسن .

ولله در البحترى إذ يقول :

باتُوا جميعاً ، ثمَّ فرَّقَ شَمْلَهُمْ   بَيْنٌ كَتَقْوِيضِ الجَهَام المُقْلِعِ[2]

ووراءهم صُعَدَاءُ أنفَـــاسٍ إذَا   ذُكِرَ الفِرَاقُ أَقَمْنَ عُوجَ الأَضْلُعِ[3]

وقال أيضاً :

عَبَرَاتٌ مِلْءُ الجُفُونِ مَرَتْهَا   حُرَقٌ لِلفِرَاقِ مِلْءُ الضُّلُوعِ[4]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٢٧ وشرح التبريزى ٢ / ١١١

(٢) ديوان البحترى ٧٢٧ ، ٢/١٢٨٦ «كانوا جميعاً» .

(٣) م «إصعاد»

(٤) ديوان البحترى ٤٢١ ، ٢ / ١٢٧٩

ومثل قوله : «كتَقَوْيضِ الجِهَام المُقْلِع » – قولُ أبى تمام :

نَوًى كانْقِضَاضِ النَّجْمِ كانَتْ نَتِيجَةً ... مِنَ الهَزْلِ يَوْماً إنَّ هَزْلَ الهَوَى جِدُّ[1]

فقولهما : كتقويض الجهام ، وكانقضاض النجم – يُرِيدَان السّرعة .

والجَهَامُ : السحاب الذى قد أراق ماءه فهو سريع الذهاب .

فى بيت أبى تمام : لا يليق أوله بآخره ؛ لأنه قال : « كانت نتيجة من الهزل » يعنى النوى . أى كان ذكرهم للرحيل قولا عبثا فنتج ذلك أن حقّقوا الرحيل ، وجدُّوا فيه . وهذا معنى جيد بالغ ؛ ولفظ مستقيم . ولكن أفسده بقوله : « إن هزل الهوى جد » ؛ وليس هزل الهوى وجدّه من هذا المعنى فى شىء . وإنما كان وجه الكلام أن يقول : ورب جد نتجه الهزل ، أو ورب كبير هاجه صغير .

ولولا أنَّ فى سائر النُّسخ «إن هزل الهوى» لظننته ما قال إلا "هزل النوى» لأنهم أبدًا ينغمون بالرحيل ولا يعزمون ، فيكون ذلك كالهزل ، ثم يجد الجد فيحققون ، ويرتحلون . وقد عرفنا مثل هذا مشاهدةً فى غير شىء .

* * *

وقال البحترى :

وكَمْ نَافَسُوا مِنْ حُرْقَةٍ إثْرَ فُرْقَةٍ ... تعجَّب من أنفاسنا وامتدادها[2]

فهذا موضع الحرقة والفرقة .

وأجود من هذا كله ما أنشدناه[3] أبو الحسن : موسى بن سليمان الهمدانى

---

(١) ديوان أبى تمام وشرح التبريزى ٢ / ٨١

(٢) ديوان البحترى ١٠٩ ، ٢ / ٦٥٧ دار المعارف

(٣) م « موسى أبو الحسن موسى » وهو خطأ .

عن أَبِى دُلَف : هاشِم بن محمد الخُزَاعِى ، عن ابن الأَعرابى ، وحكى عن أَبِى دُلَف قال :

دخلت على ابن الأَعرابى ، وعنده البحترى . قال : فتذاكرنا « شعر الرجل ». فقال ابن الأَعرابى : ما استحسنت له شيئاً إلا قولَه :

فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ المَنَازِلَ بَالحِمَى ولم أَقْضِ منها حَاجَةَ المُتَزَوِّدِ

زَفَرْتُ إليها زفرةً لو حَشَوْتُها سَرَابِيلَ أَبْدَانِ الحَدِيدِ المُسَرَّدِ

لَذَابَتْ حَوَاشِيها وظَلَّتْ بِحَرِّهَا تَلِينُ كما لاَنَتْ لِدَاوُدَ باليَدِ

والرجل – العَلَوِى البَصْرِى – أشعر من أَبِى تمام والبحترى فى هذا الباب .

زوال الصبر وقلة التجلد

قال أبو تمام :

أَتَظُنُّنِى أَجِدُ السَّبِيلَ إلى العَــزَا ... وَجدَ الحِمَامُ إذًا إلَىَّ سَبِيلاَ[١]

اَلصَّبْرُ أَجْمَلُ غير أَنَّ تَلَدُّدًا ... فى الحُبِّ أَحْرَى أَنْ يكونَ جَمِيلاَ

وهذا معنى حسن .

وقد قال نحوه فى مرثية إدريس بن بدر السَّامى[٢] .

وقد كان يُدْعى لاَبِسُ الصَّبرِ حَازِماً ... فأَصبح يُدْعَى حازِماً حِينَ يَجْزَعُ[٣]

أخذ الجميع من قول العُتْبِى :

أَضْحَتْ بِخَدِّى للدُّمُوع رُسُومُ ... أسفاً عليك ، وفى الفؤادِ كُلُومُ

والصَّبْرُ يُحْمَدُ فى المواطن كلِّها ... إلا عليك فإنَّه مَذْمُومُ[٤]

وقال أبو تمام :

وما أَحَدٌ طَارَ الفِرَاقُ بِقَلْبِهِ ... بِجَلْدٍ ولكنَّ الفِرَاقَ هُوَ الجَلْدُ[٥]

وهذا معنى سخيف جدًّا .

ولكن قد أحسن ، وألطف ، وأجاد فى قوله حين قال :

يُصَبِّرُنِى أَنْ ضِقْتُ ذَرْعاً بِحُبِّهِ ... ويَجْزَعُ أَنْ ضَاقَتْ عليه خَلاَخِلُهْ[٦]

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٤٢ وشرح التبريزى ٣ / ٦٦

(٢) م « البيبابى » !

(٣) ديوانه ٣٧٣ وشرح التبريزى ٣ / ٩٤

(٤) الوساطة ٢٩٠

(٥) ديوان أبى تمام ١٢٠ ، وانظر شرح التبريزى ٢ / ٨٢ وهامشه

(٦) ديوانه ٢٣٠ وشرح التبريزى ٣ / ٢٤ « ذرعا بنأيه » ويروى : « يعنفنى أن »

وقال أيضاً :

رَحَلَ العَزَاءُ مَعَ الرَّحيلِ كأَنَّما أُخِذَتْ عُهُـودُهُمَا عَلَى مِيعَادِ[١]
وَكأَنَّ أَفْئدَةَ النَّوَى مَصْدُوعَـةٌ حتَّى تَصَدَّعَ بالفراق فُؤَادِى

و « أفئدة النوى مصدوعة » يشبه قوله :

وكَمْ أَبْرَزَتْ مِنْكُمْ على قُبْح خَدِّها صُرُوفُ النَّوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ القَدِّ[٢]

وما أظن أحدًا انتهى فى الجهل ، والعِىّ ، واللُّكْنَة ، وضيق الحيلة فى الاستعارة إلى أن جعل لِصُروفِ النوى قَدًّا ، وأفئدةً مَصْدُوعَةً — غير أبى تمام .

* * *

وقال البحترى :

ويَأْمُرنِى بالصَّبْرِ مَنْ لَيْسَ وَجْدُهُ كَوَجْدِى ، ولا إعْلانُ حَالِى كَحَالِهِ[٣]
فإنْ أَفْقِدِ العَيْشَ الذى فَاتَ باللِّوَى فَقِدْماً فَقَدْتُ الظِلَّ عِنْدَ انْتقَالِهِ

وهذا ، لعمر الله ، لفظ ومعنى فى غاية الحسن والبراعة .

ومثله قول أبى الشِّيص :

يُصَبِّرُنى قَومٌ بَرَاءٌ مِنَ الهوَى ولَلصَّبْرُ تَاراتٍ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ

* * *

وقال أبو تمام :

تَحَمَّلَ عَنْهُ الصَّبْرُ يَوْمَ تَحَمَّلُوا وعَادَتْ صَبَاهُ فى الصَّبَا وهى شَمْأَلُ[٤]
بِيوْم كَطُولِ الدَّهْرِ فى عَرْضِ مِثْلِهِ ووَجْدِىَ مِنْ هَذَا وهَذَاكَ أَطْولُ

---

(١) ديوان أبى تمام ١٣٣ وشرح التبريزى ٢ / ١٢٧
(٢) ديوانه ١٢٧ وشرح التبريزى ٢ / ١١٠
(٣) ديوان البحترى ٣ / ١٦٢٣
(٤) ديوان أبى تمام ٢٤٤ وشرح التبريزى ٣ / ٧٢

جعل الصَّبَا شَمَالا ؛ لأَن الشَّمال تُفرِّق . وقد تقدم ذكر هذا فى الابتداآت[١] .

ثم انظر إلى هذا السخف : كيف جعل للدهر عرضاً على هذا اللفظ الذى كأَنه به يمسح أرضاً ، أَو يَنْزَعُ ثوْباً .

* * *

وقال أبو تمام أيضاً :

لَمْ يُعْطِ نَازِلَةَ الهَوَى حَــقَّ الهوَى دَنِفٌ أَطَافَ بِهِ الهَوَى فتَجلَّدَا[٢]

صَبٌّ تَوَاعَدَتِ الهُمُومُ فُؤَادَهُ إنْ أَنْتُمُ أَخْلَفْتُمُوهُ مَوْعِدَا

لِمْ تُنْكِرِينَ مَعَ الفِرَاقِ تَلَدُّدِى وَبَراعَــةُ المُشْتَاقِ أَنْ يَتَبَلَّدَا[٣]

وهذا المعنى مأْخوذ من قول قَيْس بن ذَرِيح :

بَلِيغٌ إذَا يَشْكُو إلَى غَيْرِها الهَوَى فإِنْ هُوَ لاَقَاهَا فَغَيْرُ بَلِيغِ

* * *

وقال البحترى :

هَلْ أَنْتَ مُصْطَبِرٌ عَلَى مَضَضِ الأَسَى إذْ كانَ بَيْنَهُم ورِحْلَتُهمْ غدَا[٤]

لاَ تَكْذِبَنَّ ؛ فما أَمَاراتُ النَّوَى للصَّبِّ إلا مِنْ أَمَاراتِ الرَّدَى

لُوْمٌ بعينِى أَنْ يُلائِمها الكَرَى عَنْ سلْوَةٍ ، وبِمَائِها أَنْ يَجْمُدَا

قد أَتى هذا البيت الأَخير على غرض أَبى تمام فى بيته الأَوَّل .

وأَبو تمام فى أَبياته ـ مع مافيها من السَّرق[٥] ـ أَشعر من البحترى فى أَبياته .

---

(١) راجع ص ١٨٧ من الجزء الأول

(٢) ديوان أبى تمام ١٢٥ وشرح التبريزى ٢ / ١٠٢

(٣) ق ٢ م وفى الديوان وشرحه « تبلدى »

(٤) هذه الأبيات لا توجد فى جميع طبعات ديوان البحترى

(٥) م « الشرق » !

ما قالا فى قتل الفراق للمفارق وسفك دمه

قال أبو تمام :

قَالُوا :الرَّحِيلُ غدًا لاَشَكَّ قُلْتُ لَهُمْ ... الآنَ أَيْقَنْتُ أَنَّ [أَسَم] الحِمَامِ غَدُ[1]

كَمْ مِنْ دَمٍ يُعْجِزُ الجَيْشَ الُّلهَامَ إِذَا ... بَانُوا سَتَحْكُمُ فيهِ العِرْمِسُ الأُجُدُ[2]

مَا لِامْرِئٍ خَاضَ فى بَحْرِ الهَوَى عُمُرٌ ... إِلَّا ولِلْبَيْنِ مِنْه السَّهْلُ والجَلَدُ

كأَنَّما البَيْنُ فى إِلْحَاحِهِ أَبَدًا ... على النُّفُوسِ أَخٌ للموتِ أَوْ وَلَدُ

الُّلهَامُ : الذى يلتهم كل شىء لكثرتِه . والعِرْمِسُ : الناقة الشديدة . وكذلك الأُجُدُ : هى المُوَثَّقَةُ[3] الخَلْق .

ولم يك هذا عندى وجه الكلام ، بل كان وجهه لما قال : الجيش الُّلهام أن يقول : النَّابُ الضَّعيفة ، فيهوِّن أمرَهَا ، لا النَّاقَةُ الأُجُدُ ؛ لأَنَّ النَّابَ قد يقطع بها السفر البعيد كما قال[4] :

* وقَدْ تَقْطَعُ الدَّوِّيَّةَ النَّابُ *

وقوله : « مالامرى خَاضَ فى بحر الهوى عُمُرٌ » قد أساء فيه إساءة ذكرتها فيما ذكرت من أغاليطه[5] .

---

(١) ديوان أبي تمام ٩٧ وشرح التبريزى ٢ / ١٠

(٢) قال التبريزى : « والمعنى أن الجيش كان يعجز عن قتل هذا المحب ،فقتلته العرمس ، لأنها حملت محبوبه .

(٣) م « هى الموفقة » وهو تحريف

(٤) م « كما قال : بيت شعر ناب وقد » .

(٥) راجع ص ٢١٤ من الجزء الأول

وقال أبو تمام :

لَوْ حَارَ مُرْتَادُ المَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ إلا الفراقَ علَى النُّفُوسِ سَبِيلاَ[١]
قالُوا : الرَّحيلُ فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّها نَفْسِى عَنِ الدُّنيا تُرِيدُ رَحِيــلاَ
إِنِّى تـأَمَّلْتُ النَّوَى فَوَجَدْتُها سَيْفاً علىّ مَعَ العِدَا مَسْلُولاَ

قد عابه ابن عمار وغيره فى قوله : « إِنى تـأَملت النوى » . وقالوا : مثل هذا الأَمر الفظيع الذى مكروهه أبدًا مَصْبُوبٌ على الخَلْق لا تعلم البلِيَّةُ فيه إلا بعد التـأَمل . وهذا إِنكار صحيح . وليس هذا كقول البحترى :

ولقد تـأَمَّلْتُ الْفِراقَ فلم أَجِــدْ يومَ الفراق على امرئٍ بطويلِ[٢]

لأَن مثل هذا يوجبه التـأَمل . وقد فَسَّرَه البحترى ، وذكر علَّته ، وكـأَنه رد لقول أَبى تمام : «يوم الفراق لقد خلقت طويلا» .

وقد ذكرت ذلك مشروحاً فى باب الابتداآت من هذا الباب[٣] .

* * *

وقال أبو تمام :

أَظَلَّهُ البَينُ حتَّى إِنَّه رَجلٌ لوْ ماتَ مِن شُغْلِهِ بالبَيْنِ مَاعَلِمَا[٤]

أَخذ المعنى من قول أَبى الشِّيص :

فَكَم مِن ميتة قد مِتُّ فيها ولكنْ كانَ ذَاكَ ومَا شَعَرْتُ

---

(١) ق « لو جاز » وفى الديوان ٢٤٢ وشرح التبريزى ٣ / ٦٦ « النفوس دليلا »
(٢) ديوانه ٦١٠
(٣) راجع ص ١٤
(٤) ديوانه ٣٠٢ وشرح التبريزى ٣ / ١٦٦ « أى حتى لو نزعت روحه من جسده لم يعلم به ، شغلا منه بأمر البين »

وبيت أبي تمام أجود . وقوله : «وما شعرت » لفظ سخيف .

وقال أبو تمام أيضاً :

طُلَّتْ دِمَاءٌ هُرِيقَتْ عِنْدَهُنَّ كَمَا ... طُلَّتْ دِمَاءُ هَدَايَا مَكَّةَ الهَمَلُ[1]

هانَتْ على كلِّ شيءٍ فَهْوَ يَسفِكُها ... حتّى المَنَازِلُ ، والأَحدَاجُ ، والإبِلُ

الهَمَلُ : وصف لقوله : «دماءُ هدايا مكة » من هَمَلَ يهْمل ، والمصدر هو الهُمُول . والهمل – ساكنة الميم – فحرَّكَها .

وقوله :

هانت على كل شيء فهو يسفكها ... حتى المنازل ، والأحداج والإبل[2]

–رديءٌ جدًّا ؛ لأنه إذا لم يسفك دماء العاشقين – المنازلُ إذا خلت من أهلها ، والإبل إذا سارت بهم[3] ؛ فلأىّ شىء يسفكها ؟ وهل شىء عند المحبين أعظم من فراق الأحباب حتى يجعل أسباب فراقهم من أهون الأشياء وأقلها فى سفك دمائهم ؟

* * *

وقد قال البحترى :

وقَتْلُ المُحِبِّينَ العيونُ ولم أَكُنْ ... أَظنُّ الرسومَ الدّارِسَاتِ قَوَاتِلاَ[4]

فأحسن ، وأجاد وملح ، ولم يُفْصِح بتخسيس أمرِ الرسوم .

* * *

(١) ديوان أبي تمام ٢٢٧ وشرح التبريزى ٣ / ٨

(٢) ق ، م « والهمل » !

(٣) م « لهم »

(٤) ديوان البحترى ٧٠٩ ، ٣ / ١٦٠٣ وسبق فى الجزء الأول ص ٤٨٩ .

وقال أبو تمام :

ضَعُفَتْ جَوَانِحُ مَن أَذَاقَتْهُ النَّوى　　طَعمَ الفِرَاقِ فَذَمَّ طَعْمَ العَلْقَمِ[١]

هِيَ مِيتَةٌ إلاَّ سَلاَمَةَ أهلِهَا　　مِنْ خَلَّتَينِ : مِنَ الثَّرَى والمَأْتَمِ[٢]

قوله : « ضعفت » دعاء عليها ، أى أضعف الله جوانح من أذاقته النوى طعم الفراق فذم طعم العلقم .

والجَوَانحُ : هى الأَضلاع الصِّغار فى الصدر ، التى تلى الفؤاد . الواحدة جانحة . فكأنه يدعو عليها بأن تَضْعُفَ عن حمل حرارة التشوّق ، وحرق الفراق[٣] إن كان صاحبها قد ذاق طعم الفراق ، وعلم مرارته فذَمَّ طعمَ العلْقَم. و « ضَعُفَتْ » كلام ضعيف فى هذا الغرض جدًّا ، « وأضعف الله » لو كان استوى له أن يقولها ــ أحسنُ ، وأبلغ من ضَعُفَت .

وعلى أنه كلام لا يشبه بعضه بعضاً ، و « حواس » ههنا أحسن وأليق ، وأشبه من « جوانح » ؛ لأنه ذكر الطعم فكانت الحواس مع الطعم لفظاً يُشْبِه لفظاً ، ومعنى يُشْبِه معنى . أو كان يقول لو استوى نظمه : « ضعفت جوانح من أحرقت نار الهوى جوانحه فَذَمَّ حرارة النار ، أو فوجد للنار حرارة » .

ومنهم من يجعل « ضعفت » خبرًا . أى لقد ضعفت جوانح من ذاق

---

(١) ديوان أبى تمام ٣١٢ وشرح التبريزى ٣ / ٢٤٩ « والمعنى أن الذى يذوق طعم الفراق ثم يذم طعم العلقم فقد ضعفت جوارحه ؛ لأنه لا يفرق بين الأشياء ، أى أن الفراق أشد مرارة من العلقم . ويقع فى بعض النسخ " ضعفت جوانح " والصواب " جوارح " والتفسير يدل عليه » !

(٢) فى شرح التبريزى « هى ميتة ، يعنى مرارة الفراق ، إلا أن أهلها يسلمون من الدفن الذى يباشرون فيه الثرى ، ولا يقام عليهم المأتم ، أى على الأموات » .

(٣) م « الفواق » !

طعم الفراق فذمّ طعم العلقم . وليس بشيء . وأظنه لو استوى له ذكر «الحواس» في البيت لما عدل عنه .

وليس هذا البيت من الباب الذى نحن فيه ، وإنما أوردته لأصل به البيت الذى بعده . وكلاهما ردىء .

* * *

وقال أبو تمام :

المـوتُ عِنْدِى والفِرَا قُ كِلاَهُمَا مَا لاَ يُطَاقُ[1]

يَتَعَـاوَنَانِ على النُّفُو سِ فَذَا الحِمَامُ ، وذَا السِّيَاقُ

لو لم يكن هـذَا كَذَا ما قيل : مَوتٌ أو فِرَاقُ

وهذه أبياته المشهورة المتداولة فى الفراق .

ذكر «أبو الحسن : على بن يحيى المُنَجِّم» أنه أخذ هذا المعنى من قول النَّمَرِى[2] . :

إنَّ المَنِيَّةَ والفِرَاقَ لَوَاحِدٌ أو تَوْأَمَانِ تَرَاضَعَا بِلِبَـانِ

وليس هو عندى من دقيق المعانى التى يُتَّهَمُ آخِرٌ أنه أخذها من أوَّل .

* * *

ومما غَرِىَ الناسُ به من شعر أبى تمام فى هذا المعنى قولُه :

البَينُ جَرَّعَنِى نَقِيعَ الحَنْظَلِ البَينُ أثْكَلَنِى وإنْ لَم أثْكَلِ[3]

مَا حَسْرَتِى أنْ كِدتُ أقْضِى إنما حَسَرَاتُ نَفْسِى أنَّنِى لَم أفْعَلِ

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٥٣ وشرح التبريزى ٤/٢٤٠

(٢) ق «قول البحترى» ! !

(٣) ديوان أبى تمام ٤٥٧ «حسرات قلبى» وفى شرح التبريزى ٤/٢٥٣ كما هنا

قوله : « أَثْكَلنى » أى أثكلنى من هويت ، بمفارقته إيَّاى ، وإن لم أُثْكَل على الحقيقة بموته . ويكون أثكلنى أى أثكلنى أهلى ، أى جعلنى قد ثكِلُونى وإن لم أُثْكَل على الحقيقة [وهذا سائغ][1] ؛ لأنه أراد قتل الحُب الذى ليس بإِتْيَانِ على النَّفْس .

وقوله : « ما حَسْرَتِى أنْ كِدتُ أَقْضِى » . أى أهلك ، وأتلف ، « وإنما حسرات نفسى أننى لم أفعل » ، أى لم أَقْضِ وأتلف . وهذا لفظ ومعنى فى غاية الضعف والاختلال والرداءة[2] .

ثم وصل هذا القول بالمعنى الذى كان يَفْتَخِرُ به ، وهو قولُه :

نَقِّل فُؤَادَكَ حَيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ... ما الحبُّ إلاَّ للحبيب الأَوَّلِ[3]
كَم مَنْزِلٍ فى الأَرضِ يَأْلَفُه الفتَى ... وحَنِينُهُ أَبَدًا لأَوَّلِ مَنْزِلِ

وكان أبو تمام يقول : أنا ابن قولى : نقل . . . ويذكر البيت[4] ، كما كان أبو نواس يقول : أنا ابن[5] قولى :

إذا امْتَحَن الدُّنيا لَبيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عَن عَدُوٍّ فى ثِيابِ صَدِيقِ[6]

وكما كان مُسلم بن الوَلِيد يقول : أنا ابن قولى :

تَجُودُ بالنَّفْسِ إذْ ضَنَّ الجَوَادُ بِهَا ... والجودُ بالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ[7]

---

(١) الزيادة من ق

(٢) كذلك فى ق وفى م « والرذالة »

(٣) ديوان أبى تمام ٤٥٧ وشرح التبريزى ٤/٢٥٣

(٤) راجع الخبر فى أخبار أبى تمام ٢٦٣ والأغانى ١٧ / ١٤٦

(٥) م « أنا ان » !

(٦) ديوان أبى نواس ١٩٢

(٧) ديوان مسلم بن الوليد ١٣٢

وكما كان دِعْبل يقول : أنا ابن قولى :

لا تَعْجبى يا سَلْمُ مِن رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى[1]

* * *

وقال البحترى :

أَمَا وفُتُورِ لَحْظِكِ يَومَ أَبْقَى تَقَلُّبُهُ فُتُورًا فى عِظَامِى[2]

لقد كلَّفْتِنِى كَلَفــاً أُعَنَّى به وشَغَلْتِنِى عمَّــا أَمَامِى

سيَقْتُلُ فى المَسِيرِ إِذَا رَحَلْنَا عَلِيلٌ كان يَمْرَضُ فى المَقَامِ

وحسبك بهذا حلاوة وحسناً .

ومما أَبَرَّ[3] فيه على إحسان كلِّ مُحْسِن قولُه :

أَيَا سَكَناً فَاتَ الفِراقُ بِأُنْسِهِ وحَالَ التَّعَادِى دُونَهُ والتَّزَيُّلُ[4]

بِكُرهِى رِضا العُذَّالِ عنِّى وإنَّهُ مَضَى زَمَنٌ كُنْتُ فيه أُعَذَّلُ[5]

فَلاَ تَعْجَبَا إن لم يَغُلْ جِسْمِيَ الضَّنَى ولَم يَخْتَرِم نَفْسِى الحِمَامُ المُعَجَّلُ

فَمِنْ قَبْلُ بَانَ الفَتْح عنِّى مُوَدِّعاً وفَارَقَنِى شَفْعاً لَهُ المُتَوَكِّلُ[6]

---

(١) أمالى المرتضى ١ / ٤٣٧ وفى الأغانى ١٧ / ١٤٦ أن محمد بن وهيب لما سمع أقوال هؤلا الشعراء قال : وأنا ابن قولى :

مـــا لمـــن تمت محاسنـــه أن يعادى طـــرف من رمقا
لك أن تبـــدى لنا حســـنا ولنـــا أن نعمل الحـــدقا

(٢) ديوان البحترى ٣٤٩ ، ٣ / ٢٠٣٠ « أبقى تصرفه »

(٣) م « أبث » والتصويب من ق

(٤) ديوان البحترى ٥٢٩ ، ٣ / ١٨٩٢ وفى ق « أيا ساكناً »

(٥) فى الديوان « فكرهى » !

(٦) فى الديوان « فقبلك بان »

فما بلغَ الدَّمعُ الذى كُنْتُ أَرْتَجِى ولا فعل الوَجدُ الذى خِلْتُ يَفْعَلُ
وماكُلُّ نِيْرَانِ الجَوَى تحرقُ الحَشَا ولا كلُّ أَدْوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

وقد كان قوم من الرواة يقولون : أَجود الشعر أَكذبه . ولا والله ، ما أَجوَدُهُ إلا أَصْدَقُه ، إذا كان له من يُلَخِّصُه هذا التَّلْخِيص، ويُوردُه هذا الإيرَادَ على حقيقة الباب[1].

(١) م « حقيقة لكن ما قالاه » ! والتصويب من ق

ما قالاه فى الغزل من أوصاف النساء

ونعوتهن ، وشدة الشوق ، والتذكر ، والوجد ، والغرام

* * *

وأفتتح هذا الباب بما جاء عنهما من الابتداآت فى هذه المعانى ، وأبوبها أبواباً ؛ لتصحَّ الموازنة بينهما .

ذكر ابتدا آتهما بتشبيه النساء بالظباء والبقر

قال أبو تمام :

نَوَارٌ فى صَواحِبِهَا نَوَارُ كَمَا فَاجَاكَ سِرْبٌ أو صِوَارُ[1]

«نوار» اسم امرأة . «فى صواحبها نوار» أى نفور ، أى هى نفور فى صواحبها ، أى مع صواحبها ، فجعلهن جميعاً نوافر .

«كما فاجاك سرب أو صوار» . فالسِّرْبُ : الجماعة من الظباء ههنا ، والصِّوَارُ : الجماعة من بقر الوحش . أى فيها وفى صواحبها نِفَارٌ كما تفاجئك الظباء والبقر فتراهن نوافر عنك .

وإنما ذكر الظباء والبقر جميعاً لأن النساء يُشَبَّهْن بهن فى حسن عيونهن و [فى] قد تكون بمعنى مع . قال الجَعْدِى :

وَلَوْحُ ذِرَاعَيْنِ فى بِرْكَةٍ إِلَى جُؤْجُؤٍ رَهْلِ المَنْكِبِ[2]

أى مع بركة .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٤٠ وشرح التبريزى ٢ / ١٥٢

(٢) اللوح : العظم العريض . والبركة: البروك . والجؤجؤ : الصدر . والرهل : المسترخى . وإنما أراد أن جلد صدره واسع غير ضيق ، فنكبه يموج ويتقلب، وذلك مستحب فى الفرس. راجع أبيات المعانى ١ / ١٣٧ والاقتضاب ٤٥٣ ، وديوان الجعدى ١٨

وصدر هذا البيت ليس بجيد .

وقال :

مَهَاةُ النَّقَا لَولاَ الشَّوَى والمآبِضُ ... وإنْ مَحَضَ الإِعْرَاضَ لى منكِ مَاحِضُ[1]

الشَّوَى : يريد القوائم ، والمآبِضُ : الأَرْفَاغُ[2] ، والمَهَاةُ : البقر .

يقول : أنت مهاة النقا لولا قوائمها فإنها ليست كقوائمك ، وكذلك المآبض .

وفى البقر أشياء أُخَر ليست فى الناس منها القرون ، والأَذْناب وسائر خلقها ، وما هناك من الشبه غير العيون [و] إذا مشى النساء شُبِّهْنَ بالبقر . فلم يمكنه أن يقول : مهاة النَّقَا لولا الشَّوَى ، والمآبِض ، والأَظْلاَف ، والقُرُون ، والشعر ، والجلد ، وغير ذلك مما ليس فى الإنسان .

وإذا اقتصر الإنسان على بعض هذه الأَشياء أَجْزَأَته ، وإنما أَخْطَرَ أَبو تمام بِبَالِهِ قولَ الشاعر :

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاها ، وجِيدُكِ جِيدُها ... سِوَى أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيقُ[3]

فلذلك قال : الشَّوَى .

وقوله : « والمآبِضُ » عِيٌّ منه ولُكْنَة ، وأَراد القافية .

وقوله : « وإنْ مَحَضَ الإِعْرَاض لى منك مَاحِضُ » . أَى أَنا أَجعلك كمهاة النَّقَا ، وأُشَبِّهُك بها وإن أَعرضْت عنِّى . وهو معنى ضعيف جدًّا .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨٣ وشرح التبريزى ٢ / ٢٩٤

(٢) اللسان ١٠ / ٣١١ وفى م ، ق « الأرقاع »

(٣) اللسان ٧ / ٢٣٣

وقد يجوز أن يكون أراد : لولا[1] الشَّوَى والمآبِضُ وأَنْ مَحضَ الإعراض لى منك ماحض – بفتح أن – أى لولا أن محض الإعراض لى منك ما حض ، يريد أن مهاة النقا لا تقصده بإعراض ، ولا غير إعراض . وهذا أيضاً معنى ضعيف .

* * *

وقال البحترى :

دَنَا السِّرْبُ إلَّا أَنَّ هَجْرًا يُبَاعِدُهْ ولاَحَتْ لَنَا أَفْرَادُهُ وفَـرَائِدُهْ[2]

والسربُ : القطيع من الظباء ، والنساء ، والقطا . وهو ههنا : النساء .

وقوله : « لاَحَتْ لنا أَفْرادُه » أى أفراده فى الحسن ، جمع فَرْد .

وفَرَائِدُهُ : درره ، جمع فريدة ، وهى الدرة . يريد نساء مفردات فى الحسن ونساءً كفرائِدِ الدُّرَر .

وبعضهم سحعل الفرائد ههنا : الثُّغُور .

* * *

وقال أيضاً :

عَارَضْنَنَا أُصُلاً ، فَقُلْنَا : الرَّبْرَبُ حتَّى أضاءَ الأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ[3]

الرَّبْرَبُ : القطيع من بقر الوحش . أى فَحسبنا هُنَّ من البقر ؛ لشبههن بهن من جهة عيونهن .

« حتى أَضَاءَ الأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ » يريد ثُغُورَهُنّ ، أى لمّا ابتسمن علمنا أن لَسْنَ بالبقر ؛ لأن البقر لا يبسمن ، ولا يبدو لَهُنَّ سِنٌّ إلا عند التَّثاوُب ، أو الرَّغْى .

---

(١) م « أراد أولا بالشوى » !

(٢) ديوان البحترى ٤٣٣ ، ١ / ٥٨٢ دار المعارف وفى م « وما السرب »

(٣) ديوان البحترى ٦٨١ ، ١/ ٧١ وفى م « عارضنا »

ونَوْرُ الأُقْحُوَان من أَشبه شيء بالثَّغر . والأَشْنَبُ : البَارِد .

وهذا الابتداء أجود من جميع ما مضى .

* * *

وقد تصرف «البحترى» فى الابتداآت بهذا المعنى تصرفاً حسناً فقال[1] :

إنَّ الظِّبَاءَ غَدَاةَ سَفْحِ مُحَجَّرٍ هَيَّجْنَ حَرَّ جَوًى ، وفَرْطَ تَذَكُّرِ[2]

وقال :

هَلْ فِيكُمُ مِنْ وَاقِفٍ مُتَفَرِّسٍ يُعْدِى عَلَى نَظَرِ الظباءِ الأُنَّسِ[3]

وقال :

يَشُوقُكَ تَخْوِيدُ الجِمَالِ ٱلقَنَاعِسِ بِأَمْثَالِ غِزْلَانِ الصَّرِيمِ الكَوَانِسِ[4]

وقال :

مَا لِذَا الرِّيمِ لَا يُرَامُ ٱقْتِنَاصُهْ وَهْوَ لِلْقُرْبِ بَيِّنٌ إِفْرَاصُهْ[5]

وقال :

تَـوَهَّمَ لَيْلَى وأَظْعَـانَهَا ظِبَاءَ الصَّرِيم وغِزْلَانَهَا[6]

وقال :

عِنْـدَ ظباءِ الرَّمْلِ أَوْعِينِه قَلْبٌ مَشُوق القَلْبِ مَحْزُونِهِ[7]

(١) م «فقال البحترى» !

(٢) ديوان البحترى ٣١ ، ٢ / ١٠٣٩

(٣) ديوانه ١٥٧ ، ٢/١٢٥٠

(٤) ديوانه ١٥ ، ٢/١١٢٣ وفيه «توخيد» والتخويد : الإسراع . والقناعس : جمع قنعاس، وهو الجمل الضخم العظيم .

(٥) ديوانه ٥١٢ ، ٢ / ١١٨٧ «ما لذا الظبى»

(٦) ديوانه ٣٩٤ ، ٤ / ٢١٧٤

(٧) ديوانه ٤ / ٢٣٤٠

وقال :

رُنُوُّ ذَاكَ الغَزَالِ أَوْ غَيَدُهْ مُولِعُ ذى الوَجْدِ بالَّذى يَجِدُهْ[1]

وهذا كله ، من ذكر الظباء ، غاية فى حسنه ، وصحته ، وحلاوته ، على اختلاف فنونه ومعانيه .

ولست أعرف لأَبى تمام غير البيتين الأُولين فى ذكر البقر .

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ٧٣٥ دار المعارف ، م ، ق « دنو ذاك »

ابتداآتهما بذكر الثغور

قال أبو تمام :

وَثَنَايَاكِ إِنَّهـا إِغْرِيضُ وَلآلٍ تُوْمٌ ، وبَرْقٌ وَمِيضُ[١]

وهذا وصف حسن ، وزاد فى حسنه وبهجته أنه جعله يمينا حَلَفَ بها .

والإِغريض : ما تنشق عنه الطَّلْعَةُ ، وهو الضَّحْكُ أَيضاً .

والتُّوْمُ : حَبٌّ يعمل من الفضة يشبَّه باللؤلؤ .

وقد كان يكفيه أن يقول : [ولآل][٢] ولكنه احتاج إلى تُوْم .

* * *

وقال البحترى :

يَضْحَكْنَ عَنْ بَرَدٍ وَنَوْرِ أَقَـاحٍ وَيَشُبْنَ ظَلْمَ رُضَابِهِنَّ بِـرَاحِ[٣]

وقال أيضاً :

أَضَوْءُ بَرْقٍ بَدَا ، أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ أَمْ ٱبْتِسَامَتُها بالمَنْظَرِ الضَّاحِى[٤]

وقال أيضاً :

بِعَيْنَيْكِ ضَوْءُ الأُقْحُوَانِ المُفَلَّجِ وَتَفْتِيرُ عَيْنَى فَاتِرِ اللحْظِ أَدْعَجِ[٥]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨١ وشرح التبريزى ٢/٢٨٧

(٢) الزيادة من ق

(٣) ديوان البحترى طبع بيروت ١ / ١٢٤ ، ١ / ٤٧٦ دار المعارف وفى م « وعن نور »

(٤) ديوانه ٥٨ « ألمع برق سرى » ، ١ / ٤٤٢

(٥) ديوانه ٦٤٤ ، ١ / ٤١٥ « وألحاظ عينى »

وقال أيضاً :

تَبَسَّمُ عَنْ وَاضِحٍ ذِى أَشَرْ   وَتَنْظُرُ مِنْ فَاترٍ ذِى حَوَرْ[١]

شبه أبو تمام فى بَيْته الثَّغْرَ بثلاثة أشياء : بالإغريض ، ولؤلؤ التوم ، والبرق .

وشبَّهه البحترى بالبرد ، والأقاحى فى صدر البيت . وكلا الصَّدْرَيْنِ جَيِّد.

ولو كان أبو تمام قال : « وجنى لؤلؤ وبرق وميض » - لفضَّلْتُ بيته .

وجنى لؤلؤ : هو[٢] اللؤلؤ الرَّطْب . ولكن قوله : « ولَآلٍ تُوْم » ليس بالجيد .

* * *

فاجعلهما فى البيتين متكافئين ، وسائر أبيات البحترى فَضل .

---

(١) ديوان البحترى ٩٩ ، ٢ / ٨٤٨ دار المعارف .

(٢) م « وجنى هذا اللؤلؤ الرطب » والتصويب من ق .

ابتداآتهما بذكر البكاء والدموع

قال أبو تمام :

لوصَحَّحَ الدَّمْعُ لى ، أَوْ نَاصَحَ الكَمَدُ   لَقَلَّمَا صَحِبَاكَ الخدّ والكبدُ[1]

وهذا بيت صالح ، وليس بالجيد ، ولم يستو له أن يقول : العين والكبد ؛ لأنهما مونثتان فكان يقول : صحبتاك ، فجعل مكان العين الخد ؛ لأنه مذكر ، ولأن كثرة البكاء توثر فيه ، وتذهب بلحمه ، وذهاب العين بالبكاء أخص من ذهاب الخد .

ولو قال : « صحباك العين والكبد » لكان ذلك سائغاً وإن كانتا مؤنثتين ؛ لأن هذا يجوز فيما ليس لتأنيثه حقيقة .

ولأبى تمام فى باب الفراق والتوديع من الابتداآت بذكر البكاء والدمع - كل شىء جيد نادر ، وقد مضى فى بابه .

* * *

وقال البحترى :

شَوْقٌ إليكَ تَفِيضُ مِنْهُ الأَدْمُــعُ   وجَوًى عَلَيْكَ تَضِيقُ عَنْهُ الأَضْلُعُ[2]

وهذا من مشهور أبياته فى الحسن والجودة .

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٦٦ وشرح التبريزى ٧٤/٤ « ما صحبانى الروح والجسد »

(٢) ديوان البحترى ٣٣ ؛ ٢ / ١٣١٠ دار المعارف

وقال أيضاً :

يَكَادُ يُبْدِي لِسُعْدَى غَيْبَ مَا أَجِدُ تَحَدُّرٌ مِنْ دِرَاكِ الدَّمْعِ مُطَّرِدُ[1]

وهذا معنى حلو حسن .

وقال أيضاً :

لأَخِي الحُبِّ عَبْرَةٌ ما تَجِفُّ وغَرَامٌ يُذْوِى الحَشَا ، ويَشِفُّ[2]

وقال أيضاً :

تَعُودُ عَوَائِدُ الدَّمْعِ المُرَاقِ عَلى مَا فى الصُّدُور مِنَ ٱحْتِرَاقِ[3]

وقال أيضاً :

دُمُوعٌ عليها السَّكْبُ ضَرْبَةُ لاَزِمٍ تُجَدِّدُ مِنْ عَهْدِ الصِّبَا المُتَقَادِمِ[4]

وقال أيضاً :

أَدْمُعٌ قَدْ غَرِينَ بالهَمَـلاَنِ وفؤادٌ قد لَجَّ فى الخَفَقَـانِ[5]

وقال أيضاً :

بِعَيْنِكَ لَوْعَةُ القَلْبِ الرَّهِـينِ وفَرْطُ تَتَابُعِ الدَّمْعِ الهَتُونِ[6]

وقال أيضاً :

تذكَّر مَحْزُونٌ ، وأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى وفَاضَتْ بغَزْرِالدَّمْعِ مُقْلَتُه العَبْرَى[7]

---

(١) ديوان البحترى ٧٧٣ ، ٦٤٥/٢ دار المعارف

(٢) ديوانه ٣٢٩ ، ١٣٧٥/٣

(٣) ديوانه ٢٠٩ ، ١٥٢٥/٣ « ما فى الضلوع »

(٤) ديوانه ٤٤٨ ، ٣ / ١٩٦٩

(٥) ديوانه ٢٧٥ ، ٤ / ٢١٩٧

(٦) ديوانه ١٣٧ ، ٤ / ٢٢٦٦

(٧) ديوانه ١ / ٥٨ دار المعارف

وقال أيضاً :

بِأَىِّ أسىً تُثْنَى الدُّمُوعُ الهَوَامِلُ ويُرْجَى زِيَالٌ مِنْ جَوًى لا يُزَايِلُ؟[١]

وهذه كلها ابتداآت جياد . وأجود منها ، ومن كل ابتداء فى هذا الباب وغيره بذكر البكاء والدمع ـ قولُه :

قلْبٌ مَشُوقٌ عَنَاهُ البثُّ والكَمدُ ومقلةٌ تَبْذُلُ الدَّمْعَ الذى تَجِدُ[٢]

وقد ذكرته فى باب الفراق[٣] ، وهذا موضعه .

---

(١) ديوان البحترى ٤٩٠ ، ١٧٣١/٣

(٢) ديوانه ٥٩١ ، ١ / ٤٩٥

(٣) راجع ص ٢ من هذا الجزء

ابتداآتهما بذكر السهر وطول الليل

ولا أعرف لهما فى وسط. كلامهما من هذا الباب شيئاً يعتد بمثله كنحو ما جاء فى الشعر القديم والمحدث .

قال أبو تمام :

أَفْنَى ، ولَيْلِى لَيْسَ يَفْنَى آخِـرُهْ هَاتَا مَوَارِدُهُ فَأَيْنَ مَصَادِرُهْ ؟[١]

وهذا ابتداء حسن وكلام مَجْسَج[٢] ، ومعنى جيد بالغ .

وقد أخذ البحترى معنى هذا الصَّدْرِ فوقع دُونَه فقال :

لَهُ الوَيْلُ مِنْ لَيْلٍ بِطَاءٍ أَوَاخِـرُهْ وَوَشْكِ نَوَى حَيٍّ تُزَمُّ أَبَاعِرُهْ[٣]

وقد ذكرته فى ابتداآت باب الفراق[٤] .

* * *

وقال البحترى :

هو الظلام فلا صُبح ، ولا شَفَقُ هل يُطلَقُ الليلُ عن عينى فأَنْطَلِقُ ؟[٥]

عجز هذا البيت فى غاية الصحة والبراعة والحسن والحلاوة ، ولكن قوله : « والظلام فلا صبح » — معنى [غير] صحيح ؛ لتوقُّعِه الصبح وهو مبطئٌ متأخر فما وجه قوله : ولا شفق ؟ لأن من كان فى الليل فإنما يتوقع الصبح ولا يتوقع الشفق . وأظنه أراد نحن فى ظلام ولسنا فى أول نهار ولا آخره .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٥٥ وشرح التبريزى ٢ / ٢١٠

(٢) م ، ق « سجج »

(٣) ديوان البحترى ٢٥٠ « تذم » وهو تحريف

(٤) راجع ص ١٢ من هذا الجزء

(٥) ديوانه ١٤٦٩/٣ « من طرفى فأنطلق » وفى ق « عن ليلى »

وقال أيضاً :

أَبى الليلُ إلا أَنْ يَعُودَ بِطُولِهِ   علىٰ عاشقٍ نَزْرِ المَنَام قَلِيلِهِ[١]

وقال :

لَيْلِي بِذِي الأَثْلِ عَنَّاني تَطَاوُلُهُ   أَرَى بِهِ مُقْبِلاً قِرْناً أُنَازِلُهُ[٢]

وقال أيضاً :

تَرَى الليلَ يَمْضِي عُقْبَةً مِنْ هَزِيعِهِ   أَوِ الصُّبْحِ يَجْلُو غُرَّةً مِنْ صَدِيعِهِ[٣]

وهذه أبيات كلها جيدة المعنى ، بارعة اللفظ ، حسنة السبك ، كثيرة الماء والرونق .

وهذا البيت الأخير أجودها وأبرعها .

وقال أيضاً :

أَيُّها العَاتِبُ الذى لَيْسَ يَرْضَى   نَمْ هَنِيئاً فَلَسْتُ أَطْعَمُ غَمْضَا[٤]

---

(١) ديوان البحترى ٤١ ، ٣/١٦٣٣

(٢) ديوانه ٧٨٩ ، ٣/١٧٨٢

(٣) ديوانه ٣٧٢ ، ٢ / ١٢٧٥

(٤) ديوانه ٢١ ، ٢ / ١٣٢

باب آخر من الابتداآت

قال أبو تمام :

مَتَى أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةِ الحيِّ ذَاهِلُ   وصَدْرُكَ مِنْهَا مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ؟[١]

قوله : « ذاهِل » . أى منصرف . يقال : ذهلت عن الشىء بمعنى انصرفت عنه . فيقول : متى أنت عنها مُنْصرِف ، وصدرك أبَدًا منها آهِل ؟ أى لا تخلو أبدًا من قلبك .

وقال البحترى :

ضَمَانٌ على عَيْنَيْكِ أَنِّىَ لا أَسْلُو   وأَنَّ فُؤَادِى مِنْ جَوًى بِكِ لا يَخْلُو[٢]

فعجز هذا البيت مثل عجز [بيت][٣] أبى تمام . وهو أجود ؛ لتصريحه بذكر الجوى .

وصدرا البيتين[٤] متقاربان . وبيت البحترى أجود وأبرع .

وقال البحترى :

هَوَاهَا – على أَنَّ الصُدُودَ سبيلُها –   مُقِيمٌ بأَكْنَافِ الحَشَا ما يَزُولُها[٥]

وهذا البيت أيضاً أجود من بيت أبى تمام لفظاً ومعنى .

وقال فى نحو هذا :

أَأَفَاقَ صَبٌّ مِنْ هَوى فَأُفِيقَــا   أَوْ خَانَ عَهْدًا ، أَوْ أَطاعَ شَفِيقَا؟[٦]

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٥٥ وشرح التبريزى ٣ / ١١٢ « وقلبك منها »

(٢) ديوان البحترى ٥٩ ، ٣/١٦١٥

(٣) الزيادة من ق

(٤) م « وصدر البيت »

(٥) ديوان البحترى ٣/١٧٩٩

(٦) ديوان البحترى ٧٢٢ ، ٣/١٤٥٠ « أم خان . . أم أطاع » وفى ق « إذ خان »

وقال أيضاً :

أَرادَ سُلُوًّا عَنْ سُلَيْمَى وعَن هِنْدِ فَغَالَبَهُ غَيٌّ السَّفَاهِ على الرُّشْدِ[١]

وقال :

سِوَاىَ مُرَجِّى سَلْوَةٍ ، أَوْمُرِيدُهَا إِذَا وَقَدَاتُ الحُبِّ حبٌّ خُمُودُها[٢]

وهذا كله غاية فى الحسن والجودة .

وقد تصرف البحترى فى باب الوجد والغرام وشدة الحب فى ابتداآته تصرفاً حسناً . فمن ذلك قوله :

حَاشَاك مِنْ ذِكْرَى ثَنَتْهُ كَئِيبَا وصبَابَةٍ ملأَتْ حَشَاهُ نُدُوبَا[٣]

وقال أيضاً :

حَقًّا أَقُولُ : لَقَدْ تَبلْتِ فُؤَادِى وأَطَلْتِ مُدَّةَ غيِّىَ المُتَمـادِى[٤]

وقال أيضاً :

نَاهِيكِ مِنْ حَرَقٍ أَبِيتُ أُقَاسِى وجُرُوحِ حُب مَا لَهُنَّ أَوَاسِ[٥]

وقال أيضاً :

أَتَرَاكَ تَسْمَعُ لِلحَمَام الهُتَّفِ شَجْوًا يَكُونُ كَشَجْوِىَ المُسْتَطرَفِ[٦]

وقال أيضاً :

يَهُونُ عَلَيْها أَنْ أَبِيتَ مُتَيَّمَا أُعَالِجُ وَجْدًا فى الضَّمِيرِ مُكَتَّمَا[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ٧٥٩ دار المعارف ، م « عن السفاه » وهو تحريف

(٢) ديوانه ٢٩٣ ، ٥٣١/١

(٣) ديوانه ٢٥٢ ، ١ / ١٨٤ دار المعارف « من ذكر »

(٤) ديوانه ١٦٣ ، ٢ / ٧٣١

(٥) ديوانه ٣٨٥ ، ٢ / ١١٣٤

(٦) ديوانه ٦٧٥ « شجوا يوء بشجوك المستطرف »، ١٤١٥/٣ « كشجوك »

(٧) ديوانه ٩٣ « أعالج شوقاً » ، ٣ / ١٩٨١

وقال أيضاً :

غَرَامٌ مَا أُتِيحَ مِنَ الغَـرَام وَشَجْوٌ لِلمُحِبِّ المُسْتَهَامِ[١]

وقال أيضاً :

أنافعٌ عند لَيْلَى فَرْطُ حُبِّها ولوعةٌ لِيَ أُبْدِيها وأُخْفِيها[٢]

وقال أيضاً :

قَلِيـلٌ لها أَنِّى بِهَا مُغْرَمٌ صَبٌّ وأَنْ لَمْ يُقَارِفْ غَيْرَ وَجْدٍ بِهَا القَلْبُ[٣]

أراد : قليل لها غرامى بها وصبابتى وإن لم أهو غيرها . ولا وجه لكسر أن الثانية .

فانظر إلى هذا التَّصرُّف الحسن ، والألفاظ المختلفة فى المعانى المتقاربة .

ولا أعرف لأبى تمام فى هذا كلّه شيئاً .

* * *

ومما افتتحه البحترى بالهجر قوله :

نَصِيبِيَ مِنْكِ لَوْمُ العَاذِلَاتِ وهِجْرَانٌ أَطَلْتِ] بِهِ أَذَاتِى[٤]

وقال أيضاً :

شَدَّ مَا أُغْرِيَتْ ظَلُومٌ بِهَجْـرِى بَعْدَ وَجْدِى بها وغُلَّةِ صَدْرِى[٥]

---

(١) ديوان البحترى ٣٤٨ ، ٣ / ٢٠٣١

(٢) ديوانه ٣٦ ، ٤ / ٢٤٠٩ « أنا فمى »

(٣) ديوانه ٢٥٠ ، ١ / ١٢٢ وفى م « لم يفارق » !

(٤) ديوانه طبع بيروت ١ / ٩٧ ، ١ / ٣٧٧ دار المعارف « وهجران بلغت به »

(٥) ديوانه ٣٦٩ ، ٢ / ٩٧٠ « شد ما أغرمت »

وقال أيضاً :

خَيْرُ يَوْمَيْكَ فى الهَوَى واقْتِبَـالِهْ يَوْمُ يُدْنِيكَ هَاجِرٌ مِنْ وِصَـالِهْ[1]

وقال أيضاً :

لَجَّ هَذَا الحَبِيبُ فى هِجْرَانِهْ وغَدَا والصُّدودُ أَكْبَرُ شَانِهْ[2]

وقال أيضاً :

لِى حَبِيبٌ قَدْ لَجَّ فى الهَجْرِ جِدًّا وأَعَادَ الصُّدودَ مِنْهُ وأَبْدَى[3]

وقال أيضاً :

طَافَ الوُشَاةُ بِهِ فَصَدَّ وأَعْـرَضَا وغَلاَ بِه هَجْرٌ أَمَضَّ وأَرْمَضَـا[4]

وقال أيضاً :

مِنِّىَ وَصْلٌ ، ومِنْكَ هَجْرُ وفِىَّ ذُلٌّ ، وفيكَ كِبْرُ[5]

* * *

وليس لأبى تمام فى هذا النحو شىء إلا قوله :

خَشُنْتِ عليه أُخْتَ بَنِى خُشَيْنِ وأَنْجَحَ فِيكِ قَوْلُ العَاذِلَيْنِ[6]

وهذا ابتداء ردىء .

---

(١) ديوان البحترى ٥٧٠ ، ٣/١٨٤٢

(٢) ديوانه ٣٥ ، ٤/ ٢١٦٩ « ومضى والصدود »

(٣) ديوانه ٢٠ ، ٢ / ٧١١ دار المعارف

(٤) ديوانه ٧٣٩ ، ٢ / ١٢٠٣

(٥) ديوانه ٧٠ ، ٢ / ١٠٥٠

(٦) ديوان أبى تمام ٣٢١ وشرح التبريزى ٣ / ٢٩٧

ومما جاء فى ابتداآته فى ذكر العيون

قال البحترى[1] :

تُرِيكَ الذى حُدِّثْتَ عَنْهُ مِنَ السِّحْرِ بِطَرْفٍ عَلِيلِ اللَّحْظِ مُسْتَغْرَبِ الفَتْرِ[2]

وقال أيضاً :

غَالَ صَبْرِى ـ أَمَا سأَلْتِ بِصَبْرِى مَا بِعَيْنَيْكِ مِنْ فُتُورٍ وسِحْرِ[3]

وقال أيضاً :

مَا بِعَيْنَىْ هَذَا الغَزَالِ الغَرِيرِ من فُتُونٍ مُسْتَجْلَبٍ مِنْ فُتُورِ[4]

وقال أيضاً :

ومُهْتَزَّةِ الأَعْطَافِ نَازِحَةِ العِطْفِ مُنَعَّمَةِ الأَطْرافِ فَاتِرَةِ الطَّرْفِ[5]

وقال أيضاً :

سَطَا فَمَا يَأْمَنُهُ خِلُّـهُ أَغْيَدُ سَاجِى الطَّرْفِ مُعْتَلُّهُ[6]

وقال أيضاً :

فُتُورُ العُيونِ وإِمْرَاضُها نُبُوُّ الجُنُوبِ وإِقْضَاضُهَا[7]

وهذا كله جيد حسن عذب .

وليس لأَبى تمام فى معناه شىء .

---

(١) م « قال أبو تمام » وهو خطأ

(٢) ديوان البحترى ٦٢١ ، ٢/١٠٠٤

(٣) ديوانه ٢ / ١٠٧٩

(٤) ديوانه ٢٦٩ ، ٢ / ٨٨٤ وفى م « من فتور »

(٥) ديوانه ٧٦٤ ، ١٣٦٩/٣

(٦) فى ديوانه ٤٢٣ ، ١٨٠٣/٣ « أحوى سقيم الطرف »

(٧) ديوانه ٢ / ١٢١٩ « فتور الجفون »

وقال أيضاً :

لَوَتْ بالسَّلامِ بَنَاناً خَضِيبَا ... ولَحْظاً يَشُوقُ الفُؤَادَ الطَّرُوبَا[1]

عهدت بعض الشيوخ يَكْرَه قوله : «لوت» ، ويقول : كان ينبغى أن يقول : أشارت : أو أومأت ، أو نحو هذا . وكان بعضهم يحتج له ويقول : لم يمكنه ذاك فى نظم البيت .

والذى أظنه «أنا» أنَّه أَوْمَأَ إليها بالسلام فردَّت عليه . والسلام الأَول يشار فيه بمد الإصبع على استقامة ، والرد : فمن الناس من يَرُدُّ بِمَدِّ الإصبع على استقامة أيضاً ، ومنهم من يَفْتِلُها ويَلْوِيها كأنه يقول بإصبعه : وعليك . فيلويها إذا أراد هذا المعنى . وذلك مما نراه أبدًا مشاهدة ، ونَفْعَلُه .

وقد ذكر البحترى لَيَّ البَنَانَةِ فى موضع آخر فقال :

إنَّ الفِرَاقَ جَلَا لَنَــا عَنْ غَادَةٍ ... بَيْضَاءَ تَجْلُو عَنْ شَتِيتٍ أَشْنَبِ[2]

أَلْوَتْ بِمَوْعِدِها القَدِيم ، وأَيْأَسَتْ ... مِنْه بِلَيِّ بَنَانَةٍ لَمْ تُخْضَبِ[3]

فدل هذا على مثل ذاك . وإن كان المعنيان مختلفين فى أنها لم تمد إصبعها مُشِيرَةً بها على استقامة كما يُشير المبتدئُ بالسلام ، وإنما أَلْوَتْ إصبَعَها فى الإشارة إليه إما يَمْنَةً أو شَأْمَةً بمعنى تنحّ عنا ، أو اعدل عنا ؛ فليس إلى ما التمست سبيل .

وفى هذا البيت سؤال آخر وهو قوله : «لَمْ تُخْضَبِ» ومن شأنهم أن

---

(١) ديوان البحترى ٩١ ، ١ / ١٤٩ دار المعارف

(٢) ديوان البحترى ١٢٢ ، ١ / ٢٨٢ دار المعارف

(٣) فى الديوان «وآيست»

يصفوا بَنَانَ المرأة بالخِضَاب نحو قول الشاعر :

ويُبْدِى الحَصَى مِنْها إذَا قَذَفَتْ بِهِ   مِنَ البُرْدِ أطْرَافَ البَنَانِ المُخَضَّبِ

وقول الرَّاعِى :

* حُمْرُ الأَنَامِلِ عِينٌ طَرْفُهَا سَاجِ *

ومثله كثير[١] . وعليه مذاهب الناس .

ولا نعلم أحدًا شرط فى البنان أنه غير مخضوب غير البحترى فى هذا البيت ، وإنما يذكرون الخضاب أَوْ لا يذكرونه .

وما أظن البحترى قال هذا عِيًّا ولا جُزافاً ، ولا قاله ؛ إلا أَنَّ البنانة لم تكن مَخْضُوبةً ، فوصف الحال على مذاهب الناس ومذهبه فى وصف الشىء على ما هو ، لأن هذا إذا أَوْرَدَهُ على ما هو لم تَكُ فائدة ، فأقول :

إنه قد يجوز أن يكون -[٢] والله أعلم - ذهب إلى أحد معنيين :

إما أن يكون خطر بباله عند نظم البيت قول الشاعر :

وإنْ حَلَفَتْ لاَ يَنْقُضُ النَّأْىُ عَهْدَهَا   فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ البَنَانِ يَمِينُ[٣]

فقال هو : « وأَيْأَسَتْ مِنْهُ بِلَىٍّ بنَانَةٍ لَمْ تُخْضَب » ؛ لأَن المرأة لا عهد لها مخضوبة البنان كانت أو غير مخضوبة ؛ ألا ترى إلى قوله بعد هذا :

وأَرَتْ عُهُودَ الغَانِيَاتِ صَبَابَتِى   آلاً جَرَى ، وَوَمِيضَ بَرْقٍ خُلَّبِ[٤]

---

(١) راجع ديوان المعانى ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥

(٢) م « يكون والده أعلم ذهب » ! !

(٣) البيت لكثير كما فى ديوانه ١ / ٢٦٥ وهو غير منسوب فى الموشى ١٢٣

(٤) م ، ق « وأرى عهود . . آل جرى »

فَدَلَّكَ هذا على أنه خطر ذلك البيت بباله فذهب إلى ذلك المعنى .
أى من كان يذم عهد مخضوبة البنان فهذه غير مخضوبة وأنا أذم عهدها
أيضاً . فهذا المعنى - إن شاءَ الله - جَيِّدٌ لائق .

والمعنى الآخر : أن يكون أراد أنها عزفت عن الصبا ، وتركت الزينة ؛
لأنه قال : « أَلْوَتْ بِمَوْعِدِها القَدِيم » . فَدَلَّ على أنه إنما انتجزها مَوْعِدًا
قديماً وأن حالها الآن غير تلك الحال .

وهذا أيضاً وجه قوى دقيق . وكأَنَّه أولى من المعنى الأَول بالصواب . والله أعلم .

وقوله : « ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا » بالنصب[1] إنما أراد أَلْوَت
بالسَّلام بَنَاناً خضيباً ، ولحظت لحظاً يَشُوقُ الفؤاد .

---

(١) م ، ق « وإنما »

ومن ابتداآت البحترى فى التشوق

قال :

أُقِيمُ عَلَى التَّشَوُّقِ أَمْ أَسِيرُ وأَعْدِلُ فى الصَّبَابةِ أَمْ أَجُورُ ؟[١]

وقال أيضاً :

شَوْقٌ لَهُ بَيْنَ الأَضَالِعِ هَاجِسُ وَتَذكُّرٌ للصَّدْرِ مِنْــهُ وَسَاوِسُ[٢]

وقال أيضاً :

عَهْدُ المَشُوق بِوَصْلِ الأُنُّسِ الخُرُدِ يَكادُ يَشْرَكُ نَجْمَ الليلِ فى البُعَدِ[٣]

وقال أيضاً :

لَبَّيْتُ فِيكِ الشَّوْقَ حِينَ دَعَــانِى وعَصَيْتُ نَهْىَ الشَّيْبِ حِينَ نَهَانِى[٤]

وقال أيضاً :

أَمَــا لِعَيْنَىْ كَلِيمِ الهَمِّ تَغْمِيضُ أَمِ الكَرَى عَنْ جُفُونِ العَيْنِ مَرْحُوضُ[٥]

وقال أيضاً :

يَبِيتُ لَهُ مِنْ شَوْقِهِ ونِزَاعِــهِ أَحادِيثُ نَفْسٍ أَوْشَكَتْ مِنْ زَمَاعِهِ[٦]

أى أسرعت من إزْمَاعِهِ على الرَّحيل .

---

(١) ديوان البحترى ٥٠٨ ، ٢ / ٩٣

(٢) ديوانه ٢٨١ ، ١١٣٢/٢

(٣) ديوانه ١ / ٥١٤ دار المعارف

(٤) ديوانه ٣٩ ، ٤ / ٢٢٥٢

(٥) ديوانه ٢ / ١٢١٧ « طليح الشوق » و مرحوض : مغسول

(٦) ديوانه ٤٦٨ ، ٢ / ١٣١٧

وقال أَيضاً :

شَوْقٌ إِلَيْكَ تَفِيضُ مِنْهُ الأَدْمُـعُ   وجوًى عَلَيْكَ تَضِيقُ عَنْهُ الأَضْلعُ[١]

وقد مر هذا البيت فى باب البكاء والدمع[٢] .

* * *

وهذه كلها ابتداآت جيادٌ لفظاً ومعنى .

ولا أَعرف لأَبى تمام فى نحو هذا شيئاً .

---

(١) ديوان البحترى ٣٣ ، ٢/١٣١٠ وفى م « تضيق منه »

(٢) راجع ص ٦٦

وفى ابتداآت البحترى فى معان شتى وهى كثيرة

قال :

رَأَى البَرْقَ مُجْتَازًا فَبَاتَ بِلاَ لُبِّ وأَصْبَاهُ مِنْ ذِكْرِ البَخِيلَةِ ما يُصْبِى[١]

وقال أيضاً :

أَخْفِى هَوًى لَكَ فى الضُّلُوعِ وأُظْهِرُ وأُلاَمُ مِنْ كَمَد عَلَيْكَ وأُعْذَرُ[٢]

وقال أيضاً :

يَزْدَادُ فى غَيٍّ الصِّبَا وَلَعُهْ فكأَنَّما يُغْرِيهِ مَنْ يَزَعُـهْ[٣]

وقال أيضاً :

بِوُدِّى لَوْ يَهْوَى العَذُولُ ويَعْشَقُ فيعلم أَسبابَ الهَوَى كيفَ تَعْلَقُ[٤]

وقال أيضاً :

أَجِرْنِى مِنَ الوَاشِى الذى جَارَ واْعْتَدَى وغابر حُبٌّ غَارَ بِى ثُمَّ أَنْجَدَا[٥]

وقال أيضاً :

بالله أُولى يَمِيناً بَرَّةً قَسَمَا مَا كَانَ مَا زَعَمَ الوَاشِى كما زَعَمَا[٦]

---

(١) ديوان البحترى ٤٠٢ ، ١ / ١٥٤ دار المعارف وفى م « مجتازاً بنات بلا »
(٢) ديوانه ١٧ ، ٢ / ١٠٧٠ « فى كمد » وفى م « كمد لك »
(٣) ديوانه ٢٢٦ ، ٢ / ١٢٤٨
(٤) ديوانه ١٤٨ ، ٣ / ١٥٣٤ وفى م « يهوى فى العذول » !
(٥) ديوانه ١٣٣ ، ٢ / ٦٧٠ « وغابر شوق »
(٦) ديوانه ٥٣٠ « بالله آلى » ، ٣ / ٢٠٤٦

وقال أيضاً :

تَغَيَّرَ ، أَوْحَالَ عَنْ عَهْدِهِ   وأَضْمَرَ غَدْرًا وَلَمْ يُبْدِهِ[١]

وقال أيضاً :

جَائِرٌ فى الحُكْمِ لَوْ شَاءَ قَصَدْ   أَخَذَ النَّوْمَ وأَعْطَانى السُّهُدْ[٢]

* * *

مضت الابتداآت بأنواع الغزل .

وأنا أذكر الآن ما جاء عنهما من أوصاف الغزل فى وسط الكلام ، وأتلقط ذلك من باب الفراق والتوديع ، وسائر أبواب التشبيب[٣] ؛ ليكون كلُّ نوعٍ من أنواع الوصف فى باب واحد لا فى أبواب متفرقة .

(١) ديوان البحترى ٥٣٢ ، ٢ / ٥٦٥ دار المعارف ، وفى م « وأضمر غدرا »

(٢) ديوان البحترى ٢٥٦ ، ٢ / ٦٦٧ دار المعارف

(٣) م « أبواب الشيب »

ذكر ما قالاه فى الجمال والبهجة وحسن الوجوه وتشبيه النساء بالشموس ، والبدور ، والنجوم ، وغير ذلك

قال أبو تمام :

لَحِقْنا بأُخرَاهمْ وَقدْ حَوَّمَ الهوَى ... قُلُوباً عَهِدْنا طيْرَهَا وَهْيَ وُقَّعُ

فَرُدَّتْ عَليْنَا الشَّمْسُ والليلُ رَاغِمٌ ... بِشَمْسٍ لهُمْ مِنْ جَانِبِ الخِدْرِ تطْلُعُ

نَضَا ضوْؤُها صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وانْطَوَى ... لِبَهْجَتِها ثَوْبُ السَّماءِ المُجزَّعُ[1]

فَوَاللهِ مَا أدْرِى أأَحْلامُ نَائِمٍ ... أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كانَ فى الرَّكْبِ يُوشَع ؟

وعَهْدِى بها تُحْيِى الهوَى وتُمِيتُـهُ ... وتَشْعَبُ أعْشَارَ القُلُوبِ وتَصْدَعُ[2]

وأَقْرَعُ بالعُتْبَى حُمَيَّا عِتَـابِها ... وقَدْ تَسْتَقِيدُ الرَّاحُ حين تُشَعْشَعُ ؟

وتَقْفُو لىَ[3] الجَدْوَى بِجَدْوَى ، وإنَّما ... يَرُوقُكَ بَيْتُ الشِّعْرِ حِينَ يُصَرَّعُ

قوله : «حوَّمَ الهوَى قُلُوباً» أى هَيَّجَها الشوق وكانت طيرها ساكنة . يريد أن ظعنهم هَيَّج الشوقَ بعد سكونه والدَّارُ جامعة .

و «ثَوْبُ السَّماءِ المُجَزَّعُ» . يريد طمس نورُها نورَ الكواكب التى هى نقش السماء ، كالجزع نقط البياض .

و «يوشع» . يريد يُوشَعُ بن نون . قيل : إن الشمس رُدَّتْ له ، فى قصة تُؤْثَر .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨٩ وشرح التبريزى ٢ / ٣١٩

(٢) ويروى : «أعشار الفؤاد»

(٣) ويروى «وتقفو إلى الجدى»

وقوله : «تُحْيِي الهَوَى» . أى بهجرها ، و «تُمِيتُهُ» بوصلها ونائلها ، كما قال جَرِير :

فَلَمَّا ٱلتَقَى الحَيَّانِ أُلْقِيَت العَصَا ومَاتَ الهَوَى لَمَّا أُصِيبتْ مَقَاتِلُهْ[١]

أى لما أصيبت مَقَاتِلُهُ بالاجتماع .

«وتَشْعَبُ أَعْشَارَ الفُؤَاد»[٢] . تضمها ، وتلائم بينها . وأَعْشَارُه : أجزاؤُه من قول امرئ القيس

* «فى أعشار قلب مُقَتَّل» *

[٣]وإنما قيل أَعْشَار ؛ لأن العشرة نهاية فى كل شيء من العدد ، واحدها عُشْر . فإنما أراد جميع القلب .

وقوله «تَصْدَعُ» . أى تشق . يريد[٤] تلائم بين أَجزائه مَرَّة ، وتفرِّق مَرَّة أخرى بينها . مثل قوله : «تُحْيِي الهوى وتُمِيتُه» .

وقوله : «وأَقْرَعُ بالعُتْبَى حُمَيَّا عِتَابِهَا» . أى أعتب إذا عاتبت ، وأنتهى إلى ما فيه رضاها . فجعل شدَّة غضبها عند العتاب حُمَيًّا كحُمَيًّا الخمر . وهى شدّتها . وجعل العُتْبَى التى تكون منه حتى يَزُولَ غضبها – قَرْعاً كقَرْعِ الخمر بالماء حتى تلين .

وقوله : «وقَدْ تَسْتَقِيدُ الرَّاحُ حِينَ تُشَعْشَعُ» . أى وهى – مع أنى كسرت غضبها وقمعته – يَقْهَرُنى حبُّها ، ويغلبنى سُكْرُ هواها ، ويملكنى كما تَسْتَقِيدُ الراح فتصرع بالسكر من يَقْرَعها بالمِزَاج .

---

(١) ديوان جرير ٤٧٨

(٢) كذا فى م ، ق وهو الصواب ، وقد سبق فى هذا البيت «أعشار القلوب»

(٣) صدره : «وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك» وهو من معلقته . وانظر إعجاز القرآن للباقلانى ٢٥٨

(٤) م «تشق أى يريد»

وهذه كلها معان صحيحة مستقيمة ، واستعارات لائقة بما استعيرت له .

فأما قوله :

وتَقْفُو لِي الجَدْوَى بِجَدْوَى وإنَّمَا ... يَروقُكَ بَيْتُ الشِّعر حين يُصَرَّعُ

فلفظ حسن حلو ، ولكنه مَثَّلَ شيئاً بشيء كان غيره بالتمثيل أليق ، وذلك لما قال : «وتَقْفُو لى الجَدْوَى» كان سبيله أن يقول : وإنما يبل الغليلَ العَلَلُ بعد النَّهَلِ ، أو ما كان أشبه هذا وقاربه ؛ لأن الجَدْوَى هو نائل المرأة ، وليست من حظوظ السمع فيمثل بها بيت الشِّعر المصرَّع الذى إنما يُروقُ السمعَ فقط .

ولست أقول إنه خطأٌ ، ولكن ليس بالجيد اللائق . والجيد فيه قول البحترى :

فإنْ تُتْبِـــع النُّعْمَى بِنُعْمَى فإنَّهُ ... يَزِينُ اللآلئَ فى النِّظَامِ ازْدوَاجُهَا[١]

فجعل اللآلئ التى هى فرائد تحصل فى اليد والعين والنفس — مِثَالاً لنعمة المنعم وليس للأُذن ههنا ولا هناك حَظٌّ .

* * *

وقال أبو تمام :

عَطَفُوا الخُدُودَ على البُدُورِ [ووَكَّلُوا ... ظُلَمَ السُّتُورِ بِنُورِ حُورٍ نُهَّدِ[٢]

وثَنَوْا علَى وَشْيِ الخُدُودِ صِيَانَةً ... وَشْيَ البُرُودِ بِمُسْجَفٍ ومُمَهَّدِ[٣]

البيت الأول حسن حلو . وأخذ قوله : «وثنوا على وَشْى الخدود صيانة

---

(١) ديوان البحترى ٢١٨ ، ١ / ٤٢٧ دار المعارف « فإن تلحق »

(٢) ديوان أبى تمام ١١١ وشرح التبريزى ٢ / ٤٦ والزيادة منه ومن ق

(٣) م « ومهل »

وشى البرود » من قول الكُمَيْت :

وأَدْنَيْنَ البُرُودَ عَلَى خُدُودٍ يُزَيِّنَّ الفَدَاغِمَ بالأَسِيلِ

أراد بالفداغم : الخدود اللَّحِيمَة ، أى يزيِّنَّها بأَسَالَةِ خدودهن . أو أن يكون أراد بالفداغم المواضع الممتلئة من الجسد بالشحم . فيزينَّ ما كان ممتلئاً بأَسالَةِ خدودهن . وهذا غير حسن . والأَول أشبه بلفظ البيت .

ومعناه أيضاً غير جيد ؛ لأَن الخد الأَسيل إذا اقترن بالخد اللَّحِيم قَبَّحَهُ وشَانَه ، ولم يزنه ؛ لبيان فضله عليه . وقد ذكرت هذا فى أغاليطه مشروحاً[١] .

* * *

وقال أبو تمام :

وفى الخُدُورِ مَهاً لَوْ أَنَّها شَعَرَتْ ... به طَغَتْ فَرحاً ، أَوْ أُلْبِسَتْ أَسَفَا[٢]

لآلِئٌ كالنُّجُومِ الزُّهْرِ قد لَبِسَتْ ... أَبْشارُهَا صَدَفَ الإِحْصَانِ لا الصَّدَفَا

مِنْ كُلِّ خَوْدٍ دَعَاهَا البَيْنُ فَابْتَكَرَت ... بِكْرًا ، ولكنْ غَدا هِجْرَانُها نَصَفَا[٣]

لا أَظْلِمُ النَّأْىَ قَدْ كانتْ خَلائِقُهَا ... مِنْ قَبْلِ وَشْكِ النَّوَى عِنْدِى نَوًى قُذُفَا

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِىُّ الحُسْنِ سُنَّتَهَا ... فَصَاغَها بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أُنُفَا[٤]

مَصْقُولَةٌ سَتَرَتْ عَنَّا تَرَائِبُهَا ... قَلْبًا بَرِيئًا يُنَاغِى نَاظِرًا نَطِفَا[٥]

---

(١) راجع الجزء الأول ٢٣٥

(٢) ديوان أبى تمام ٢٠٠ وفى شرح التبريزى ٢ / ٣٦٠ « أو أبلست أسفاً » معناه : لو علمت كيفية حسنها لورثها وكسبها علمها به أحد شيئين : إما فرحاً يفضى إلى الطغيان ؛ إذ لا ترى لنفسها نظيراً ، وإما حزناً يؤيسها من نفسها شفقة على الناس ورقة لهم ، لأنها تراهم موتى صرعى عليها ، ويروى : لو أنها سفرت » .

(٣) فى شرح التبريزى « أى دعاها البين فأجابت وفارقتنا وهى حديث السن ، ولكن هجرانها قديم »

(٤) وفيه عن أبى العلاء المعرى : « استعار ولى الحسن من المطر الولى ، وهو الذى يجىء بعد الوسمى لأن من شأن النبت أن يكثر إذا أصابه الولى بعد الوسمى ، فدل بقوله ولى الحسن على أن الجمال فى هذه المذكورة عميم »

(٥) النطف : الفاسد الدخلة الملطخ النية . قال المرزوقى « المعنى أنها تريك ظاهراً من أمرها معك يخالفه الباطن ، فهى تتملق لك وتظهر الوجد وتتباكى لفراقك . ومبنى ذلك كله على قلب برىء وصدر من الحب سليم »

[(١)قوله : «صَدَفُ الإِحْصَانِ لا الصَّدَفَا» ليس بالجيد ؛ لأنه قال : قد لبست صدف الإحصان ، فأراك أنها لابسته فى الحال .

وقوله : «لا الصَّدَفَا» ليس له وجه ؛ لأن اللؤلو قد فارق الصدف وليس هو لابسه فى الحال .

والجيد الصحيح المعنى قول البحترى :

إذَا نَضَوْنَ شُفُوفَ الرَّيْطِ آوِنَةً قَشَرْنَ عَنْ لُؤْلُؤِ البَحْرَيْنِ أَصْدَافَا(٢)

فشبه أجسامهن فى وقت تجردهن من الثياب ، باللؤلؤ فى الوقت الذى يقشر عنه الصدف .

والعذر لأبى تمام أن يقال : إنما أراد أنها خلقت لابسة صدف الإحصان لا الصدف ، أى ليست كاللؤلؤ الذى خلق فى الصدف .

وبيت البحترى أجود .

وقول أبى تمام : «صدف(٣) الإحصان» معنى لطيف .

وقوله : «لو شَعَرَتْ به» أى لو شعرت بشدة وجده طغت فرحاً ، أو «ألبست أسفاً على ما فات منه . وهذه طريقة ابن أبى رَبِيعة التى كانت تليق به ، ومع ذلك يُعَابُ بها .

وهذه أبيات متكلفة ، وخاصة قوله : «فابْتَكَرَتْ بِكْرًا ولكنْ غدَا هِجْرَانها نَصَفَا» فإنه غيرُ شهى ، ولا مَرِىءِ اللفظ ، ولا المعنى .

---

(١) الزيادة من ق

(٢) ديوان البحترى ٣٣٧ ، ٣/١٣٨٠

(٣) ق «صنف» !

* * *

ولله دَرُّ أبي عُبَادَةَ إذ يقول على هذا الوزن :

وفى الخُدُورِ بُدُورٌ قَلَّمَا طَلَعَتْ   إلاَّ تَصَرَّمَ ضَوْءُ البَدْرِ أَوْ كُسِفَا

مَقْسُومَةٌ بَيْنَ أَرْدَافٍ مُبَتَّـلَةٍ   تَدْعُو الهَوَى ، وخُصُورٍ أُرْهِفَتْ قَصِفَا

[قَدْ كُنْتُ أَشْكُو تَمَادِى حُبِّها حَدَثاً   فالآنَ أَطمعُ فى إِنْصَافِهَا نَصَفَا] [1]

أَكَادُ مِنْ كَلَفٍ أُعْطِى الحَمَامَ يَدًا   إِذَا الحَمَامُ عَلَى أَغْصَانِهِ هَتَفَا

ما بَاشَرَ النَّارَ - مَشْبُوباً تضرُّمها -   مَنْ لَمْ يُضِفْ تَحْتَ أَحْنَاءِ الحَشَا كلَفَا [2]

أَرَاجعٌ مِنْ شَبَابِى قَيضُ مُبْتَذَلٍ   أَنْفَقْتُهُ فى لُبَانَاتِ الصِّبَا سَرَفَا

للهِ أَيَّامُنا ما كانَ أَحْسَنَهَـا   لَوْ أَنَّ دَهْرًا تَوَلَّى ذَاهِباً وَقَفَـا

لا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِرَاجِعَـةٍ   مَا فَاتَ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيا ومَا سَلَفَا

* * *

وقال أبو تمام :

وَرَقِيقَةِ اللَّحظات يُعْقِبُ رِفْقُهَـا   بَطْشاً بِمُغْتَرِّ القُلُوبِ عَنِيفَا [3]

حُزْنَ الصِّفاتِ : رَوَادِفاً ، وسَوَالِفاً   ومَحَاجِرًا ، ونَوَاظِرًا ، وأُنُوفَا [4]

كُنَّ البُدُورَ الطَّالِعَاتِ فَأَوسعتْ   مِنَّا أُفُولاً بالنَّوَى وكُسُوفَا [5]

آرَامُ حَيٍّ زَعْزَعَتْهُمْ نِيَّـةٌ   تَرَكَتْكَ مِنْ خَمْرِ الفِرَاقِ نَزِيفَا

كانُوا رِدَاءَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا   فكأَنَّما لَبِسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا [6]

---

(١) ديوان البحترى ٣/١٤٣٧ والزيادة من ق

(٢) م « النار مسبوقاً » . لم يصف

(٣) ديوان أبى تمام ٢٠٦ وشرح التبريزى ٢ / ٣٧٩ وفى م « ورقيقة »

(٤) ويروى : « جزن » أى قد تجاوزن حد الصفات فى الأشياء المذكورة

(٥) فى الديوان وشرحه : « عنا أفولا » تقديره : فأوسعت أفولا وكسوفاً عنا : وفائدة « أوسعت » أنها عمت بالكسوف عنا حتى لا يتجلى شىء من جوانبها »

(٦) الوساطة ٧١

وهذه معان جيّدة لائقة إلا قوله : «لَبِسَ الزمانُ الصُّوفَا» ؛ فإن الناس جميعاً استهجنوه . ولو كان اعتمد أن لا يترك قافية على الفاء إلا أوردها – لما كان ينبغي أن يذكر الصوف وخاصّة على هذا الوجه .

* * *

وقال البحترى :

إنَّ فى السِّرْبِ لَوْ يُسَاعِفُنَا السِّرْ ... بُ شُموساً يَمْشِينَ مَشْياً وَئِيدَا[1]

يَتَدَافَعْنَ بالأَكُفِّ وَيَعْرِضْ ... نَ عَلَيْنَا عَوارِضاً وخُـدُودَا

يَتَبَسَّمْنَ عَنْ شَتيتٍ أَرَاهُ ... أُقْحُوَاناً مُفَصَّلاً أَوْ فَرِيدَا

رُحْنَ والليْلُ قد أقامَ رِوَاقاً ... فأَقَمْنَ الصَّبَاحَ فيهِ عَمُودَا

بِفَتاةٍ مثلِ المَهَاةِ أَبَتْ أَنْ ... تَصِلَ الوَصْلَ ، أَوْ تَصُدَّ الصُّدُودَا[2]

ذات حُسْنٍ لو ٱسْتَزَادَتْ مِن الحُ ... سْنِ إليه لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا

فَهِىَ الشمسُ بَهْجَةً ، والقَضِيبُ الْ ... غَضُّ لِيناً ، والرِّئْمُ طَرْفاً وجِيدَا

وحسبك بهذا حسناً ، وصحة ، وجودة . وخاصة هذا البيت الأخير وما جمع من التشبيه بأبرع لفظ ، وأحلى سَبْك ، ولكن أفسده بقوله : «أبت أنْ تَصِلَ الوصلَ ، أو تَصُدَّ الصُّدُودَا» . [وإنما علقه من أبى تمام][3]

* * *

وقال أبو تمام :

سَلَبْنَا غِطَاءَ الحُسْنِ عَنْ حُرِّ أَوْجُهٍ ... تَظَلُّ لِلُبِّ السَّالِبِيها سَوَالِبَا[4]

وجُوهٌ لو ٱنَّ الأَرْضَ فيها كواكبٌ ... تَوَقَّدُ للسَّارِى لكانَتْ كَوَاكِبَـا

(١) ديوان البحترى ٤٥١ ، ١ / ٥٩٠ دار المعارف

(٢) فى الديوان « بمهاة » وفى م « تصد صدودا »

(٣) الزيادة من ق

(٤) ديوان أبى تمام ١٧ وشرح التبريزى ١ / ١٤٥

وهذا معنى قديم متداول ، وأحسن ما قيل فيه قول مُزَاحِم العُقَيْلِي .

وُجُوهٌ لو اَنَّ المُدْلِجينَ اَعْتَشَوْا بِهَا   صَدَعْنَ الدُّجَى حتَّى تَرَى الصُّبْحَ يَنْجَلِي[١]

وهذا كثير .

وقال البحترى .

كالبَدْرِ إلاَّ أَنَّها لاَ تُجْتَلَى   والشمسِ إلَّا أَنَّها لا تغربُ[٢]

فجاء بمعنى آخر فيه سؤال ؛ وذلك أنه لما قال : « كالبدر إلا أنها لا تجتلى » كان هذا من أحسن معنى وألطفه ؛ لأَن عيون الناس كلّهم تَرى البدر وتجتليه ، وهى لا تراها العيون ، ولا تجتلى [ثم قال : « والشمس إلا أنها لا تغرب » وإنما قال لا تجتلى][٣] لأَنها[٤] محجوبة ، وإذا كانت فى حجاب فهى فى غروب ؛ لأَن الشمس إذا غربت فإنما تدخل تحت حجاب . فظاهر المعنى : كالبدر إلا أن العيون لا تراها ، والشمس إلا أن العيون لا تفقدها . وظاهر هذا[٥] القول – كما تراه – متناقض ، وأظنه أنه أراد أنها وإن كانت فى حجاب فإنه لا يقال لها غربت تغرب كما يقال للشمس . وإنما يقال لها إذا سافرت : بعدت ، واغتربت ، وغرّبت إذا توجهت نحو الغرب .

وقد يقال للرجل اغرب عنا أى ابعد . ولو استعار لها اسم الغروب عن الأَرض التى تكون فيها إذا ظعنت عنها إلى أرض أخرى – كان ذلك حسناً جدًّا ، لا سيما وقد جعلها شمساً . كما قال إبراهيم بن العباس الصُّولى :

وزَالَتْ زَوالَ الشمسِ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا   فَمَنْ مُخْبِرِى فى أىِّ أَرضٍ غُرُوبُها[٦]

---

(١) الوساطة ٣٥٥
(٢) ديوان البحترى ٦٨٢ ، ١/٧٢ طبع المعارف
(٣) الزيادة من ق
(٤) م « لأن تلك »
(٥) م « وهذا »
(٦) حماسة ابن الشجرى ١٦٩

وقد يجوز أن يقول قائل : إنه أَراد [أَنها] لا تغرب تحت الأَرض كما تغرب الشمس . وهذه معاذير ضيقة لأَبي عُبَادَة . فإن لم يك قد أَخطأَ فقد أَساءَ [وإن لم يكن أَساءَ فما أَحسن[١]]

* * *

وقال أَبو تمام :

قالتْ وقَدْ أَعْلَقْتُ كفِّى كفَّها   حِـلاًّ وما كُلُّ الحَلالِ بطَيِّبِ[٢]

فَنَعِمْتُ مِنْ شَمْسٍ إذا حُجِبَتْ بَدَتْ   مِنْ نُورِها فَكَأَنَّها لَمْ تُحْجَبِ

وهذا معنى حسن . وقد تقدم الناس فيه وأَكثروا .

قال قَيْس بن الخَطِيم :

قَضَى لَهَا اللهُ حِينَ صَوَّرَهَا الْ   خَالِقُ أَن لا يُكِنَّها سَدَفُ[٣]

وأَجود من هذا قول جرير :

كأَنَّها مُزْنَةٌ غَـرَّاءُ رائحـةٌ   أَوْ دُرَّةٌ لا يُوَارِى ضوءَها الصَّدَفُ[٤]

ووصل أَبو تمام ذلك بأَن قال :

وإذَا رَنَتْ خِلْتَ الظِّباءَ وَلَدْنَهـا   رِبْعِيَّةً ، وَاسْتُرْضِعَتْ فى الرَّبْرَبِ

إنْسِيَّةٌ إنْ حُصِّلَتْ أَنْسَابُهـا   جِنِّيَّـةُ الأَبَوَيْنِ ما لَمْ تُنْسَبِ

قوله : «رِبْعِيَّةً» يريد أَنها وُلِدت فى الربيع أول النِّتاج فهى أَحسن ما تكون ، وأَقوى ، «وَاسْتُرْضِعَتْ فى الرَّبْرَب» . والربرب : القطيع من [بقر][٥] الوحش ، كأَنه يؤكِّد حُسْنَ عينها .

---

(١) الزيادة من ق

(٢) ديوان أبى تمام ١٢ وشرح التبريزى ١ / ١٠١ «أى قد جمع هذا الذى أحلت لى من نفسها أنه حلال وأنه طيب مستلذ

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٥٦ والأغانى ٢ / ١٦٨ والوساطة ٢٩٧

(٤) ديوان جرير ٣٨٦ «غراء واضحة»

(٥) الزيادة من م

وقوله :

إنْسِيَّةٌ إن حُصِّلَتْ أَنْسَابُها جِنِّيَّةُ الأَبَوَيْن ما لَمْ تُنْسَبِ

فيه سؤال وهو أن يقال : قوله : «جنية الأبوين» هو كقوله : تميمِيَّة الأبوين ، أو قُرَشِيَّة الأبوين. وهذا أصح ما يكون من النَّسب ، فكيف يقول : ما لم تنسب ؟ والنَّسَب إلى الجن كالنَّسَبِ إلى الإنس ، فكما تقول : إنْسِيٌّ فكذلك تقول . جِنِّيٌّ ، فكيف يكون ذلك نَسباً ، وهذا غير نَسَب ؟

فالجواب أنه أراد إن حُصِّلَ نَسَبُها فقيل : فلانة بنت فلان من بنى فلان – عُلِمَ أنها من الإنس . وإن أبصرها المبصر ولم يسأل عن نسبها ظن أنها من الجن من فَرْطِ حسنها الزائد على حسن الإنس المعهود . فإنما قال : «ما لم تُنْسَب» أى ما لم تنسبها[1] إلى أبائها من الإنس . وقال المُؤَمَّل بن أُمَيل المُحَارِبى[2] :

جِنِّيَّةٌ ، أَوْ لها جِنٌّ يُعَلِّمُهَا رَمْىَ القُلُوبِ بِسَهْم مَالَهُ وَتَرُ

وأحسن فى هذا كل الإحسان ؛ لأن الرمى عن غير وتر ليس من رمى الإنس

وقال [بشار][3] :

إنْسِيَّةٌ جِنِّيَّةٌ أَوْ فَوْقَ ذَاكَ أَجلُّ قَــدْرًا

فجعلها – لحسنها وجمالها – فَوْقَ الإنس والجن .

وقال حَسَّان :

جِنِّيَّــةٌ أَرَّقَنِي حُبُّهَــا تَذْهَبُ صُبْحاً وتُرَى فى المَنَامْ[4]

---

(١) م «أى ما ينسبها إلى»

(٢) ق «وقال أبو دهبل الجمحى»

(٣) الزيادة من ق

(٤) ديوان حسان ٣٨٠ «أرقنى طيفها» وفى ق «أرقنى حسنها»

فأَما قول الشَّنْفرَى :

* فَلَوْ جُنَّ إنْسَانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّت[١] *

فإنى أظنه أراد : لو عرضت الجنُّ لأَحد من حُسْنِه عَرَضَتْ لها . وقد قيل فيه غير شىء ، وكلُّه ردىء ، وليس مثله يذكر .

* * *

وقال أبو تمام :

أَينَ التى كانتْ إذا شاءَت جَرَى مِنْ مُقْلَتِي دَمْعٌ يُعَصْفِرُهُ دَمُ ؟[٢]

بَيْضَاءُ تَسْرِى فى الظَّلام فَيَكْتَسِى نُورًا ، وتَبْدُو فى الضِّياء فَيُظْلِمُ[٣]

يَسْتَعْذِبُ الرِّعْدِيدُ فيها حَتْفَهُ فَتَرَاهُ ــ وهو المُسْتَمِيتُ ــ المُعْلِمُ[٤]

مَقْسُومَةٌ فى الحُسْن بَلْ هِىَ غَايَةٌ فالحسنُ فيها والجمال مُقَسَّمُ

مَلْطُومَةٌ بالوَرْدِ ، أُطْلِقَ طَرْفُها فى الخَلْقِ فَهْوَ مَعَ المَنُونِ مُحَكَّمُ

قوله : «بيضاءُ تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نورا» ــ هو مذهب الناس نحو قول امرئ القيس :

تُضِىءُ الظَّلامَ بالعشَاءِ كأَنَّها [مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ][٥]

وقول مُزَاحِم : «صَدَعْنَ الدُّجَى» . وأَشباه هذا .

وقوله : «تَبْدُو فى الضِّياءِ فيُظْلِمُ» . يريد أَن نورَها يغلب على ضوءِ

(١) سبق مع تخريجه ص ١٤٥ من الجزء الأول .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٨٣ وشرح التبريزى ٣ / ٢١٢

(٣) ويروى : «بيضاء تبدو . . . وتسرب فى الضياء»

(٤) شرح التبريزى «يستعذب المقدام» والمعلم : الذى يجعل لنفسه علامة يعلم بها فى الحرب .

(٥) الزيادة من ق ، وديوان امرئ القيس ١٣١

النهار حتى يصير كأنه مظلم . وهذا أيضاً معنى معروف ، من قولهم : لو برزت للشمس لَكَسَفَتْها ، والنهارُ عند نُورِ وَجْهِها ليلٌ ، وأشباه هذا .

وقال فى موضع آخر :

وَلِهَتْ فأَظْلَمَ كلُّ شىءٍ دُونَهـا وأَضَاءَ منها كلُّ شَىءٍ مُظْلِمِ[1]

فقوله : «أظلم كلُّ شىءٍ دُونَها » — ليس من هذا الباب . وإنما أراد أن أمر الفراق أَوْلَهَهَا فأظلمت الأشياءُ فى عينها ؛ لِعِظَم ما وَرَدَ عليها . وهذا مثل قول الشاعر ، وأنشده أبو تمام فى الحماسة .

نَعَى لى أَبَا المقدام فاَسْوَدَّ مَنْظَرِى من الأَرضِ ، واَسْتَكَّتْ علىَّ المَسَامِعُ[2]

قوله : و « أَضَاءَ منها كلُّ شىءٍ مُظْلِم » — مثل قوله : «تَبْدُو فى الظلام فيكْتَسِى نُورًا » .

وقوله : «مَقْسُومَةٌ فى الحُسْن » أى محظوظة منه ، كأنها قد قسم لها منه ، والقسم : النصيب .

وقوله : « مَلْطُومَةٌ بالوَرْد » — يريد حُمْرَة خدِّها . فلم لم يقل : مَصْفُوعَة بالقَارِ ، ويريد سَوَادَ شعرها ، ومَخْبُوطَة بالشحم يريد امتلاء لجسمها ، ومضْرُوبة بالقطن يريد بياضها . إن هذا لأَحْمَقُ ما يكون من اللَّفظ ، وأسخفه ، وأوسخه .

وقد جاء مثل هذا فى كلام العرب ولكن على وجه حسن . قال النابغة :

مَقْذُوفَةٌ بِدَخِيسِ اللَّحْم بَازِلُهَـا [لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ][3]

---

(١) ديوان أبى تمام ٣١٢ وشرح التبريزى ٣ / ٢٤٨ « وأنار »

(٢) الحماسة بشرح المرزوق ٢ / ٨٦٧ وفى الأصل : « أبوالمقدام »

(٣) ق « بدخيس النحض» والزيادة منها ومن الديوان ٢٦ والبيت فى اللسان ٧ / ٣٨٠ ، ٩٣/١١ والدخيس : اللحم المكتنز . والنحض : اللحم . والصريف : الصوت . والقعو : البكرة

يريد أنها قُذِفَت بالشَّحْم ، أى كأنه رُمِىَ على جسمها رمياً .

وإنما ذهب أبو تمام إلى قول أبى نواس : «وتَلْطِمُ الوَرْدَ بِعُنَّابِ »[١]

وهذه كانت تلطم على الحقيقة فى مأْتم على ميّت بأَنامل مَخْضُوبة الأَطراف ، فجعلها عنَّاباً تلطم به وردًا ، فأَتى بالظرف كلّه ، والحسن أجمعه ، والتشبيه على حقيقته .

وجاء أبو تمام بالجهل على وجهه ، والحمق بأَسْرِه ، والخطأ بعينه .

* * *

وقال :

وَمَقْدُودَةٍ رُوْدٍ تَكَادُ تَقُدُّها إِصَابَتُها بالعَيْنِ مِنْ حُسُنِ القَدِّ[٢]

تُعَصْفِرُ خَدَّيْهَا العُيُونُ بِحُمْرَةٍ إِذَا وَرَدَتْ كانَتْ وبَالاً عَلَى الوَرْدِ

إذا زَهَّدَتْنِى فى الهَوَى خِيفَةُ الرَّدَى جَلَتْ لِىَ عَنْ وجْهٍ يُزَهِّدُ فى الزُّهْدِ

قوله : «مِنْ حُسُن القَدِّ – بضم السين – من أقبح لفظةٍ وأَهجنها . ومثله قوله :

* «أَعرضت عن الإِعراض» *[٣]

وهذا إذا سمعه الأَعراب ضحكوا منه . بل الجيد قولُه :

لَوْلاَ العُيونُ وتُفَّاحُ الخُـدُودِ إِذًا ما كانَ يَحْسُدُ أَعْمَى مَنْ لَهُ بَصَرُ[٤]

---

(١) صدره : « يبكى فيذرى الدر من نرجس » والبيت فى ديوان أبى نواس ٣٥٠ والصناعتين ٢٠١ والوساطة ٣٨ ، ٣٢٠

(٢) ديوان أبى تمام ١١٤ وشرح التبريزى ٢ / ٦١

(٣) تمام البيت ، كما فى ديوان أبى تمام ١٨٧

أعرضت برهــة فلما أحست بالنوى أعرضت عن الإعراض

(٤) ديوان أبى تمام ١٤٩ وشرح التبريزى ٢ / ١٨٤

وأول هذه القصيدة :

يا هذهِ أَقْصِرِى ما هذِه بَشَرُ ... ولا الخَرَائِدُ من أَتْرَابِهَا الأُخَرُ[1]

خَرَجْنَ فى خُضْرَةٍ كالرَّوْضِ لَيْسَ لها ... إلَّا الحُلِىّ على أَعْنَاقِها زَهَرُ

بِدُرَّةٍ حَفَّها مِنْ حَوْلِهَا دُرَرٌ ... أَرْضَى غَرَامِىَ فيها دَمْعِىَ الدُّرَرُ

صَبٌّ الشبابُ عليها وهْوَ مُقْتَبِـلٌ ... ماءٌ من الحُسْنِ ما فى صَفْوِهِ كَدَرُ

قوله : «خَرَجْنَ فى خُضْرَةٍ» ، فإِنَّ الخضرة ليست من ألوان ثياب نساء البادية ، ولا من صِبْغِ نساء الأَمصار إلا فى الفرط ، لا يلبس إلا أن يكون أصل لون الثوب أخضر

وقد جعل[2] أبو تمام جميع لباس هؤلاءِ النِّسوة الأَخضر ، وشَبَّهه بالروض من أجل تشبيهه الحلى بالزَّهر ، وهو نبت حسن . وغرضه فى ذكر الخضرة غرض صحيح إلا أنه غير معروف .

* * *

وقال البحترى :

وَأَخْضَرَ مَوْشِىٌّ البُرُودِ وقَدْ بَدا ... مِنْهُنَّ دِيباجُ الخُدُودِ المُذْهَبُ[3]

ذكر الخضرة لأَنه لم يجد لوناً غيرها ؛ وذلك أَن البياض ليس مما توصف به ثياب النساء ، والسواد ثياب الحزن والمصائب . وقد جعل خدودهن ديباجاً مُذْهباً ، والذَّهب يشتمل على لون الحمرة ، والصّفرة ، والتَّوْرِيد هو من أَلوان الخد ، والكُحْلِىّ لا يلفظ به ، والعرب لا تَذْكُرُه فى

---

(١) م «وقد جمع»

(٢) ديوان البحترى ٦٨١ ، ١/٧١ طبع المعارف

(٣) م «الحسن» !

الأَلوان ، وكذلك الأَزْرق لا تستعمله إلا فى صفة الماء والصبح . ويقولون : عَدُوٌّ أَزْرَق ، أَى حديد النَّظر ، وسنان أَزْرَق أَى حديده . ولم يبق من الأَلوان ما يخالفُ لونَ الخدود المذهبة كما قال إلا الخُضْرة . فهذا وجه ذكر البحترى الخضرة ؛ لأَنه لو قال :

وأَحْمَرٌ مَوْشِىٌّ الخدودِ وقد بَدَا ... منهن ديباجُ الخدودِ المُذْهَبُ

لكان مدحاً بلونين متفقين .

* * *

وقال البحترى :

هَزَّ مِنْها شَرْخُ الشَّبابِ فَجَالَتْ ... فَوْق خَصْرٍ كثيرِ جَوْلِ الوِشَاحِ[1]

وأَرتْنَا خَدًّا يُرَاحُ لَهُ الـوَرْ ... دُ ويَشْتَمُّهُ جَنَى التُّفَّاحِ

وشَتِيتاً يَغُضُّ مِنْ لُؤْلُؤِ النَّظْ ... مِ ويُزْرِى على شَتِيتِ الأَقَاحِى

فأَضَاءَتْ تَحْتَ الدُّجُنَّةِ لِلشَّرْ ... بِ وكادَتْ تُضِىءُ لِلْمِصْبَاحِ

وأَشَـــارتْ على الغِنَـــاءِ بأَلْحا ... ظٍ مِرَاضٍ مِنَ التَّصَابِى صِحَاحِ

فَطَرِبْنَـــا لَهُنَّ قَبْلَ المَثَانِى ... وَسَكِرْنَا مِنْهُنَّ قَبْلَ الرَّاحِ

قَدْ تُدِيرُ الجُفُونُ مِنْ عَدَمِ الأَلْ ... بَابِ مَا لاَ يَدُورُ فى الأَقْدَاحِ

قوله : « فجَالت فوق خصْر » كلام حسن .

وقوله : « يراح له الورد » حسن أَيضاً .

وقول أَبى تمام : « كانت وَبَالاً على الوَرْد » ــ أَحسن منه وأَلطف ، وأَشبه بما يستعمل فى هذا المعنَى .

---

(١) ديوان البحترى ٣٨٢ ، ١ / ٤٥٧ دار المعارف

وقوله : «ويَشْتَمُّهُ جَنَى التُّفَّاح» – ليس بالجيد ، بل هو ردىءٌ؛ لأنّه لا يدخل فى الاستعارة أن يشتم التفاحُ خدَّها ، ولكنه يحمل على أنه لو كان مما يشْتَمّ لاشْتَمَّ خدَّها ، أو لو كان الورد مما يراح لراح له . و « يراح » أسهل من «يشم» .

وهذا مثل قول [عَوْفُ بن عَطِيَّة][1] بن الخَرِع :

لها حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الوَلِيدِ يَتَّخِذُ الفأْر فيه مَغَارَا[2]

والفأر لا تتخذ فى الحافر مغارًا ، وإنما قال ذلك لعظم الحافر . ومثله أيضاً قولهم : جاء بِجَفْنَة يقعد فيها خمسة . وإنما أراد لوقعدوا فيها لوسعتهم .

وهذا على كل حال أقرب من استعارة البحترى .

وقوله : « وشَتِيتاً يغضّ مِنْ لُؤْلُؤ النَّظْم » بيت فى غاية الجودة ، والصحة ، والبراعة .

وكذلك قوله : « وكادَت تُضِىءُ لِلْمِصْبَاحِ » . وهو أجود من قول أبى تمام : «وتَبْدُو فى الضياءِ فَيُظْلِمُ » ، وأوضح وأليق ، وأشدّ مبالغةً فى الضوء .

* * *

وقال[3] البحترى :

وبِنَفْسِى مُسْتَغْرَبُ الحُسْنِ فِيـهِ حَيَدٌ عَنْ مُحِبِّهِ ونِفَارُ[4]

فَاتِرُ النَّاظِرَيْنِ يَنْتَسِبُ الوَرْ دُ إلى وَجْنَتَيْهِ ، والجُلَّنَـارُ[5]

مُذْنِبٌ يُكْثِرُ التَّجنِّى فَمِنْهُ الذَّ نْبُ ظُلْماً ، ومِنِّى الإعْتِذَارُ

---

(١) الزيادة من ق

(٢) المفضليات ٤١٤ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ١٦٩ والشرح منه .

(٣) م « وقول »

(٤) ديوان البحترى ١٠٤ ، ٢ / ٨٥٢ « محبة وازورار » .

(٥) م « ينسب الورد » والجلنار : زهر الرمان .

وهذا من قول المُؤَمَّل بن أُمَيل المُحَارِبى :

* وَتُذْنِبونَ فَنَأْتيكُمْ فَنَعْتَذِرُ[١] *

وقال البحترى :

وَقَدْ نَهَيْتُ فُؤَادِى لَوْ يُطَاوِعُنى عَنْ ذِى دَلَالٍ غَرِيبِ الحُسْنِ مُفْرَدِهِ[٢]

عَنْ حُبِّ أَحْوَى أَسِيلِ الخدِّ أبيضِهِ ساجِى الجُفُون، كَحِيلِ الطَّرْفِ أَسْوَدِهِ

مثلِ الكثيبِ تعَالَى فى تَرَاكُمِهِ مثلِ القَضيبِ تَثَنَّى فى تَأَوُّدِهِ

فجعل الخدَّ ههنا أَبيضَ من أجل قوله : « كحيلِ الطرفِ أسودِه » . وابيضاضُ الخد عند كثير من الناس – إذا كان له ماء ورونق – أحسنُ من احمراره .

وقوله : « أَحْوَى » . إنما ذهب به إلى الظَّبى . وهو الذى فى ظهره خط أسود ، فقال « أحوى » مكان قوله « ظبى » لَوْ قَالَهُ .

وهذا لفظ ومعنى فى غاية الحسن .

وقال :

بَيْضَاءُ أَوْقَدَ خَدَّيْهَا الصِّبَا وَسَقَى أَجْفَانَها مِنْ مدَامِ الرَّاحِ سَاقِيها[٣]

فى حُمْرَةِ الوَرْدِ شَكْلٌ مِنْ تَلَهُّبِهَا وللقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيها

قوله : « أَوْ قَدَ خدَّيْها الصّبا » يريد احمرارَها . وهذا لفظ حسن ، ومعنى مستقيم .

---

(١) صدره : « إذا مرضنا أتيناكم نعودكم » ، كما نهاية الأرب ٣ / ٩٢ وهو غير منسوب فى عيون الأخبار ٣ / ٤٥

(٢) ديوان البحترى ٥٨٠ ، ١ / ٤٩٨ دار المعارف .

(٣) ديوانه ٣٦ ، ٤/٢٤٠٩ – ٢٤١٠

وقوله : « وسقَى أجفانَها مِنْ مُدام الرَّاحِ ساقِيها » يريد تَفْتِيرَ ألحاظها ، وانكسار أجفانِها من الغَنَج ، كما تتكسَّر أجفانُ السكرانِ .

وهذا كقوله :

تَحْسبَهُ نَشْوَانَ إمَّا رَنَا لِلْفَتْرِ مِنْ أجفانِهِ وَهْوَ صَاحْ[١]

والأشهرُ[٢] الأكثرُ فى كلامهم تشبيههم أجفانَ المحبوب بطرف الوَسْنَان لا بطرف السكران . فذلك نحو قول الشاعر :

وكأنَّها بَيْنَ النِّسَاءِ أعَارَها عَيْنَيْهِ أحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ[٣]
وسْنَانُ أقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ فى عَيْنِهِ سِنَةٌ ، وَلَيْسَ بِنَائِمِ[٤]

ويجعلون طرف المحبوب هو الذى يُسكر ، ويقيمونه مقام الراح . وقد أكثر البحترى من هذا الوصف ، وذلك قوله :

أرْسَلَتْ شُغْلَيْنِ : مِنْ لَفْظٍ مَحَاسِنُهُ تُذْوِى الصَّحِيحَ ، ولَحْظٍ يُسْكِرُ الصاحِى[٥]
حَيَّيْتُ خدَّيْكَ ، بَلْ حَيَّيْتُ مِنْ طَرَبٍ وَرْدًا بِوَرْدٍ ، وتُفَّاحاً بِتُفَّاحِ

[وقوله :

قد تُديرُ الجفُونُ من عدم الألْبابِ ما لا يدور فى الأقْدَاحِ][٦]

---

(١) ديوان البحترى ٦٤٩ ، ١ / ٤٣٥ دار المعارف .

(٢) م « والأشهد » !

(٣) لعدى بن الرقاع كما فى الكامل ١ / ١٢٧ والشعر والشعراء ٢ / ٦٠٢ وأمالى المرتضى ١ / ٥١١ وفى الأغانى ٨ / ١٨١ « الجآذر : جمع جؤذر ، وهى أولاد البقر الوحشية . وجاسم : موضع . ويروى عاسم مكان جاسم . والوسنان : النائم . والوسن . النوم ، الواحدة منه سنة . والترنيق : الدنو من الشىء يريد أن يفعله » .

(٤) له فى اللسان ١١ / ٤١٩

(٥) ديوان البحترى ٥٨ ، ١ / ٤٤٣ وفى م « تروى الصحيح » ! .

(٦) سبق ص ٩٧ .

وقوله :

وَمَا أَسْكَرَتْنِى الرَّاحُ لكِنْ أَعَانَها عَلىَّ بِعَيْنَيْهِ الغَدَاةَ – مُدِيرُهَا[١]

وقوله :

سقَانِى بِكَأْسَيْهِ ، وعَيْنَيْهِ قَادِرًا بِـأَلحاظِهِ دُونَ المُدَامِ عَلَى سُكْرِى[٢]

وقوله :

مُسْكِرِى إنْ شَرِبْتُ مِنْهُ بِعَيْنِى أُرْجُوَانٌ مِنْ خَمْرِ خَدَّيْهِ صِرْفُ[٣]

ولو قال : «خندريس من خمر عينيه» كان ذلك صحيحاً مستقيماً ، ولكن «أرجوان من خمر خديه» أحسنُ وألطف .

ولما قال : «بيضاءُ أَوْقَدَ خدَّيها الصَّبا» كان يجب أن يقول : فى حمرة الورد شكل من تلهبها ، فلم يَقُلْ ، ونسب التَّلَهُّب إليها ، وإن كان للخدَّين ، وذلك من أجل قوله :

* وللقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيها *

ويجوز أن يكون ذهب بقوله من تَلَهُّبها إلى تَلَهّب نار الخدين ؛ لأنه قد دل عليها بالإيقاد .

* * *

وقال أبو تمام فى حُمْرَةِ الخَدّ :

إنَّ فى خَيْمِهِمْ لَمُطْعَمَةُ الحِجْـ ـلَيْنِ والمَتْنُ مَتْنُ خُوطٍ وَرِيقِ[٤]

وكأَنَّ الجِرْيَالَ شِيبَ بِمَاءِ الدُّ رِّ فى خَدِّها بماء العَقِيق

(١) ديوان البحترى ٦٠٥ «وما صرعتنى الكأس» وفى ق «حتى أعانها» وكذلك فى ديوانه ٢ / ٩٩٩ طبع دار المعارف

(٢) ديوانه ١٥١ ، ٢ / ٤١٥ دار المعارف .

(٣) ديوانه ١٣٧٦ «إن سقيت» .

(٤) ديوان أبى تمام ٢١٦ وشرح التبريزى ٢ / ٤٣٢ ويروى : «لمفعمة الحجلين» .

كذا رواية هذا البيت : « شيب بماء الدر فى خدها[١] بماء العقيق » [وهو الصحيح][٢]

والجريال :اللون الأحمر . وأراه أراد لون الخمر، كما قال الأَعْشَى :

«سَلَبْتُها جِرْيَالَهَا»[٣] . أى حمرتها . وقد سئل عن هذا ، فقال : شربتها حمراءَ ، وبلتها بيضاء .

واستقامة اللفظ أن يكون أرام : وكأَن الجِرْيالَ بماءِ العقيق شِيبَ بماءِ الدّر فى خدّها ، كما قال فى نحو هذا اللفظ :

وأَخْلاقٌ كأَنَّ المِسْكَ فيها بِصَفْوِ الرَّاحِ بالنُّطَفِ العِذَابِ[٤]

فإن كان هذا أراد فقد كان ماءُ العقيق يُغْنى عن الجِرْيال ؛ لأَن الدُّرَّ والعَقِيق جوهران ، واختلاط مائهما على الاستعارة حتى يشبه الخد المورَّد ــ سائغ .

وإن كان أراد بالجرْيَالِ الخمر نفسها كما قال الشاعر :

* وتَكَلَّمَتْ بِلِسَانِها الجِرْيَالُ *

ــ فإن الخمرة بحمرة لونها مستغنية عن ماء[٥] العقيق ؛ لأَنها أنصع وأحسن

وهو أيضاً [جمع][٦] بين شيئين لا يتشابهان :

---

(١) م « فى خدها بالعقيق »

(٢) الزيادة من ق

(٣) تمام بيت الأعشى ، كما فى ديوانه واللسان ١٣ / ١١٤

وسبيئة مما تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها

(٤) ديوان أبى تمام ٥٥ وشرح التبريزى ١ / ٢٨٨

(٥) م « مستغبة بماء »

(٦) الزيادة من ق .

والعادية الجارية فى مثل هذا أن يقال : كأن خدها الخمر والماء ، أو كأنها جرت فى خدها الخمر والماء ، فأما الخمر ممزوجة أو مَشُوبة بماء العقيق فإنه خَطَلٌ من القول .

* **

وقال أبو تمام :

رُوْدٌ أَصَابَتْها النَّوَى فى خُرَّدٍ ... كانَتْ بُدُورَ دُجُنَّةٍ وشُمُوسَا[1]

وكأَنَّما أَهْدَى شَقَائِقَهُ إلى ... وَجَنَاتِهِنَّ ضحى أَبُو قَابُوسَا

بيضاً يُدِرْنَ عُيُونَهُنَّ إلى الصِّبا ... فكأَنَّهن بها يُدِرْنَ كُؤُوسَا[2]

وهذه أبيات صالحة .

ثم جُنَّ بعد هذا فقال :

لَوْلاَ حَدَاثَتُها وأَنِّى لا أَرَى ... عَرْشاً لها لَظَنَنْتُهَا بِلْقِيسَا[3]

فأى شىء يزيدك على هذه الحماقة .

* **

وقال البحترى :

سَفَرَتْ كَمَا سَفَرَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ عَنْ ... وَرْدٍ يُرَقْرِقُهُ الضُّحَى مَصْقُولِ[4]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٧٥ وشرح التبريزى ٢٦٤

(٢) فى الديوان وشرحه : « بيض تدور »

(٣) غاية ما علق به التبريزى على هذا البيت قوله : « لأن بلقيس متقادمة العهد، ولو بقيت إلى الآن لصارت قفة » ! ! !

(٤) ديوان البحترى ١٧٨ ، ٣ / ١٨٣٩

وتَبَسَّمتَ عَنْ لُؤْلُؤٍ فى رَصْفِهِ ... بَرَدٌ يَرُدُّ حُشَاشَةَ المَتْبُولِ

أى شىء يزيدك على هذا الإحسان[1] ؟

وأجود من هذا وأحلى – قول كُثَيِّر :

ويوم الخَيْلِ قَدْ سَفَرَتْ وكَفَّتْ ... رِدَاءَ العَصْبِ عَنْ رَتلٍ بَرَادِ[2]

وعَنْ نَجْلَاءَ تَدْمعُ فى بياضٍ ... إذا دَمَعَتْ ، وتَنْظُرُ فى سَوَادِ[3]

وعن مُتَكاوِسٍ فى العَقْصِ جَثْلٍ ... أثِيثِ النَّبْتِ ، ذِى غُدُرٍ جِعَادِ

مُتَكاوِس : شعر كثير قد ركب بعضه بعضاً .

---

(١) فى حماسة ابن الشجرى ١٩٠ «وقال البحترى ولم يقصر عن غاية الإحسان : أسفرت ...»

(٢) ديوان كثير ٢ / ١٥٩ والأغانى ١١ / ٤٧ «ويوم الخيل» وأمالى المرتضى ٢ / ١٧٨ .

و م ، ق : «يوم الحبل»

(٣) سبق فى ص ١٢٤ من الجزء الأول

ما لاقاه فى وصف الثغور

وقال أبو تمام :

وثَنَـاياكِ إنَّها إغْـرِيضٌ ولآلٍ تُومٌ ، وبَرْقٌ وَمِيضُ[١]
وأَقَـاحٍ مُنَوَّرٌ فى بِطَاحٍ هَزَّهُ فى الصَّبَاحِ رَوْضٌ أَرِيضُ
وَارْتِكاضِ الكَرَى بِعَيْنَيْكِ فى النَّوْ مِ فنُوناً ، وَمَا لِعَيْنِى غُمُوضُ[٢]
لَتَكَاءدْنَنِى غِمَارٌ مِنَ الأَحْـ ـدَاثِ لم أَدْرِ أَيُّهُنَّ أَخُوضُ

وهذهَ لعمر الله - يَمِينٌ فى غاية الحسن [والحلاوة][٣] والملاحة .

وقوله : «وأَقَاحٍ مُنَوَّرٌ فى بِطَاحٍ» كلام مستقيم . والبِطَاحُ : ما اطمأَن من الأَرض وانْهبَط[٤] . والندى ، والعشب فيه أَبقى . ورياضُ الحَزْنِ أَحسن . فأَما قول الأَعْشَى :

* ما رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ[٥] *

فإن الحَزْنَ ههنا : موضع كانت إبل الملوك تَرْعَى فيه على ما ذُكر .

وقوله : « هَزَّهُ فى الصَّبَاح رَوْضٌ أَرِيضُ » ليس بالجيد اللائق ؛ لأَن الأَقَاحِىَ هى من الروض ، والرَّوْض إنما يهزُّه ويحرِّكه الندى ، والنسيمُ ، لا أَنْ يهزَّ بعضُه بعضاً .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨١ وشرح التبريزى ٢ / ٢٨٧

(٢) م « فتونا »

(٣) الزيادة من ق

(٤) م « والهبط »

(٥) ديوان الأعشى ٤٣ وعجزه : « خضراء جاد عليها مسبل هطل »

والأَريض(١) : هو المتمكن فى موضعه ، الجيد النبات .

* **

وقال البحترى :

لها غَرَائِبُ دَلٍّ ما يَزَالُ لَهَا على الغَرَام به حَثٌّ وتَحْرِيضُ(٢)

تُفَّاحُ خَدٍّ إذا احْمَرَّتْ مَحَاسِنُهُ مُقَبَّلٌ بِخَفِيٍّ اللَّحْظِ مَعْضُوضُ

وَواضِحَاتٍ تُرِيكَ الدُّرَّ مُتَّسِقاً كأَنَّهنَّ إذا اسْتَغْرَبْنَ إغْرِيضُ(٣)

لو كان يَكْفِيكَ عِلْمُ الشيءِ تَجْهَله فَقَدْ كَفَاكَ مِنَ التَّصْرِيحِ تَعْرِيضُ(٤)

فقوله : «تُرِيكَ الدُّرَّ مُتَّسِقاً» أَحسن وأَصح من قول أَبى تمام :

«ولآلٍ تُوْم» . غير أَن أَبا تمام شَبَّه الثَّغْرَ فى بيته بثلاثة أَشياء . وقد فعل البحترى ذلك فقال :

بَاتَ نَدِيماً لى حتّى الصَّبَاحْ أَغْيَدُ مَجْدُولُ مَكَانِ الوِشَاحْ(٥)

كأَنَّما يَضْحَكُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَظَّم ، أَوْ بَرَدٍ ، أَوْ أَقَاحْ

فشبه الثغر بثلاثة أَشياء ، وشرط فى اللؤلؤ أنه منَظَّم ، كما قال فى البيت الآخر :

«تريك(٦) الدُّرَّ متَّسقاً» ، حتى استوى التشبيه بالإِغْرِيض .

---

(١) م «والأرض» !

(٢) ديوان البحترى ٢ / ١٢١٧ «بنا بث» ، م «حث وتمريض» والتصويب من ق

(٣) م «استغرين»

(٤) ق «لقد كفاك»

(٥) ديوان البحترى ٦٤٩ ، ١ / ٤٣٥ دار المعارف .

(٦) م «يريد» !

وقد شبه الثغر بالبرد والأقاحى فى مصراع فقال :

يَضْحَكْنَ عَنْ بَرَدٍ ، ونَوْرِ أَقَاحٍ ويَشُبْنَ ظَلمَ رُضَابِهِنَّ بِرَاحِ [١]

ووصله ببيت هو فى حسنه وحلاوته فقال :

وإِذَا بَرَزْنَ مِن الخُدُورِ سَفَرْنَ عَنْ هَمَّيْكَ : مِنْ وَرْدٍ ، ومِنْ تُفَّاحِ

وقد شبه البحترى أيضاً بياض ثغر المرأة بالبرق ، وبضوء المصباح ، فقال :

أَضَوْءُ بَرْقٍ بَدَا ، أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ أَم ٱبْتِسَامَتُها بالمَنْظَرِ الضَّاحى [٢]

ثم قال بعده :

ويَرْجعُ الليلُ مُبْيَضًّا إذا ضَحِكَتْ عنْ أَبْيَضٍ خَضِلِ السِّمْطَيْنِ لَمَّاحِ [٣]

وهذا أحسن كلام ، وأصحه ، وأحلاه .

ولكن البديع فى تشبيه الثغر بالبرق قول العُدَيْل بن الفَرْخ العِجْلِي :

ضَحِكَتْ فَقُلْتُ : غَمَامَةٌ بَرَقَتْ لَنَا بِشِعَابِ مَكَّةَ بَرْقُهَا لاَ يَبْرَحُ [٤]

فشرط أن بَرْقَها مقيمٌ لا يبرح . وهذا ألطف ما يكون من المعانى وأحسنها .

وقد أحسن البحترى كل الإحسان فى قوله :

وشَتِيتاً يَغُضُّ مِنْ لُؤْلُؤِ النَّظْ مِ ويزْرِى عَلَى شَتِيتِ الأَقَاحِى [٥]

---

(١) ديوان البحترى ١ / ١٢٤ طبع بيروت ، ١ / ٤٧٦ دار المعارف .

(٢) ديوانه ٥٨ ، ١ / ٤٤٢ « ألمع برق سرى » .

(٣) فى الديوان « إذا ابتسمت » وفى ديوان المعانى ١ / ٢٣٨ « فجعله يجلو الظلام لبياضه ، وذكر كثرة الريق فقال : « خضل » لأن قلة الريق تورث تغير الفم ، وذكر حسن تنضيد الثغر فجعله سمطين . فلا يرى فى هذا المعنى أجمع من هذا البيت

(٤) ق « بشعاف »

(٥) ديوان البحترى ٣٨٢ ، ١ / ٤٥٨ دار المعارف ، وفى م « ويندى على »

ومن إحسانه المشهور لفظاً ومعنى قوله :

ولما ٱلْتقَيْنَا والنَّقَا مَوْعِدٌ لَنَا   تَعجَّبَ رَائِى الدُّرِّ حُسْناً ولَاقِطُهْ[١]
فَمِنْ لُؤْلُؤٍ تُبْدِيه عِنْدَ ٱبْتِسَامِهَا   ومِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الحديثِ تُسَاقِطُهْ[٢]

والعرب تشبه الثغر باللؤلؤ . والإغريض ، وهو ما[٣] يتشقق عنه الطلع من النخل ، [و] بالأقاحى ، وهو أشبهها بالثغر هَيْئَةً ، وشكلاً ، وبياضاً ، وتَفَلُّجاً . وتُشَبِّهُه بالبَرد ، وبشوك السَّيال ، وهو شجر ، ولا يريدون اللَّون ، وإنما يريدون الشَّكل والتَّفَرُّق ، قال الأَعْشَى :

بَاكَرَتْهَا الأَغْرَابُ فى سِنَةِ النَّـــو   مِ فَتَجْرِى خِلَالَ شَوْكِ السَّيَالِ[٤]

الأَغْرَابُ : أَقْداح الفِضَّة باكرتها وفيها الخمر

[وقد] قال أبو تمام :

وعَلَى العِيسِ خُرَّدٌ يتَبَسَّمْـ   نَ عَنِ ، الأَشْنَبِ الشَّتِيتِ البُرَادِ[٥]
كَانَ شَوْكَ السَّيالِ حُسْناً فَأَضْحَى   دُونَه لِلْفِرَاقِ شَوْكُ القَتَادِ[٦]

فالبراد : هو البارد ، والأَشْنَبُ أيضاً : البارد ، والشنب : البرد . وإنما جمع بينهما لاختلاف اللفظ

وقال أبو تمام :

ولَوْ تبَسَّم عُجْنَا الطَّرْفَ فى بَرَدٍ   وفى أَقَاحٍ سَقَتْهُ الخَمْرُ والضَّرَبُ[٧]
مِن شَكْلِهِ الدُّرُّ فى رَصْفِ النِّظَامِ ومِنْ   صِفَاتِهِ الفِتْنَتانِ : الظَّلْمُ ، والشَنَبُ

(١) ديوان البحترى ١٧٩ ، ٢ / ١٢٣٠ وديوان المعانى ١ / ٢٣٨
(٢) فى الديوان « لؤلؤ تجلوه »
(٣) م « وهماما »
(٤) ديوان الأعشى ٥ واللسان ٢ / ١٣٦ ، ١٣ / ٣٧٤
(٥) ديوان أبى تمام ٧٥ وشرح التبريزى ١ / ٣٥٩ وأمالى المرتضى ٢ / ١٧٨
(٦) فى الديوان وشرحه « فأمسى »
(٧) ديوانه ٤٧ وشرح التبريزى ١ / ٢٤٧

قوله : « فى أقاح سقته الخمر والضرب » معنى حسن جدًّا ، ولائق بالمعنى .

والظَّلْمُ : ماء الأسنان . والشَّنَبُ : بَرْدُها .

وتزعم الرواة أن أحسن ما قيل فى وصف الثغر قول بِشْر بن أبى خازم[1] :

يُفَلِّجْنَ الشِّفَاهَ عَن أُقْحُوَانٍ جَلاَهُ غِبٌّ سَارِيَةٍ قِطَارُ[2]

وهذا – لعمرى – يستحق التقديم والتفضيل . وليس بدونه قول النابغة :

كالأُقْحُوَان غَدَاةَ غِبٍّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أعالِيه ، وأَسْفَلُهُ نَدِى[3]

بل قول النابغة أجمع للمعنى ؛ لأن قوله : « كالأُقْحُوانِ غَدَاةَ غِبِّ سمائِه » – بإزاء قول بِشْر : « جَلاَهُ غِبٌّ سَارِيَةٍ قِطَارُ »

وقول النابغة : « جفت أعاليه ، وأسفله ندى » زيادة حسنة .

ولكن بيت بِشْر أبرع ؛ لأنه مستغن بنفسه ، وبيت النابغة متعلِّق على البيت الذى قبله .

---

(١) م « حازم »

(٢) ديوان بشر بن أبى خازم ٦٣ وديوان المعانى ١ / ٢٣٨

(٣) ديوان النابغة ٣٧ وديوان المعانى

ما قالاه فى وصف القدود ، والخصور ، والأخصاف وثقل الأرداف ، وحسن المشى

قال أبو تمام :

وَمَقْدُودَةٍ رُوْدٍ تَكَادُ تَقُدُّهَا ... إصابَتُها بالعَيْنِ مِنْ حُسْنِ القَدِّ[١]

تُعَصْفِرُ خَدَّيْها العيونُ بِحُمْرَةٍ ... إذا وَرَدَتْ كانَتْ وَبَالاً على الوَرْدِ[٢]

وقال :

وخُــوطِيَّةٍ شَمْسيَّةٍ رَشَئِيَّةٍ ... مُهَفْهَفَةِ الأَعْلَى ، رَدَاح المُحَقَّبِ[٣]

تُصَدِّعُ شَمْلَ القَلْبِ مِنْ كُلِّ وجْهَةٍ ... وَتَشْعَبُهُ بالبَثِّ مِنْ كُلِّ مَشْعَبِ

بِمُخْتَتَلٍ سَاجٍ مِنَ الطَّرْفِ أَحْوَرٍ ... ومُقْتَتَلٍ صَافٍ مِنَ الثَّغْرِ أَشْنَبِ

مِنَ المُعْطِيَاتِ الحُسْنَ ، والمُؤْتَيَاتِهِ ... مُجَلْبَبَةً ، أَوْ فَاضِلاً لَمْ تُجَلْبَبِ

وهذه معان حسنة ، وقول حلو .

والرَّدَاح : العظيمة العَجُز .

وقوله : تُصَدِّع شَمْلَ القلبِ ، وتشعبه — بمعنى واحد . واولا قوله : «بالبثِّ» لصلح أن يكون تَشْعَبُه : تضم أَجزاءه ، وتلائم بينها ؛ لأَن شَعَبَ من الأَضداد[٤] : يكون جمعت وفرّقت ، فكأَن المعنى حينئذ : تصدع شمل

---

(١) ديوان أبى تمام ١١٤ وشرح التبريزى ٢ / ٦١

(٢) راجع ص ٩٥

(٣) ديوانه ٢٣ وشرح التبريزى ١ / ١٥٤

(٤) راجع الأضداد لابن الأنبارى ٤٣

القلب أى تفرّقه إذا شاءت ، وتَشْعَبُه أى تضمُّه وتجمعه ، كما قال فى موضع آخر :

وعَهْدِى بها تُحْيِي الهَوَى وتُمِيتُهُ   وتَشْعَبَ أَعْشارَ الفُؤَادِ وتَصْدَعُ[1]

أى تحيي الهوى بهجرها ، وتميته بوصلها .

وقوله : « ساج » أى يختل بنظره . ومقتتل صاف ، يريد قتل الحب ؛ يقال : اقْتَتَلَهُ الحبُّ ، واقْتَتَلَتْهُ الجنُّ ، كأنه اعتمد ازدواج اللفظين بقوله : مُخْتَتَل ، ومُقْتَتَل .

وقوله : «مُجلْبَبَةٌ » من الجلْبَاب وهو : الخِمَار ، وقد يكون أيضاً : الثَّوب .

« أَوْفَاضِلاً لَمْ تُجَلْبَبِ » ، والفَاضِل : هى المُتَفَضِّلَةُ فى ثوب واحد ، وهو الذى تَلْبَسُه[2] المرأة لِلْبِذْلَةِ والاْعْتِمَال .

* * *

وقال :

مِنْ كُلِّ ضَاحِكَةِ التَّرَائِبِ أُرْهِفَتْ   إِرْهَافَ خُوْط البَانَةِ المَيَّاسِ[3]

بَدْرٌ أَطَاعَتْ فيكَ بَادِرَةَ النَّـوَى   خطَأً ، وشَمْسٌ أُولِعَتْ بشِمَاس[4]

وإذا مَشَتْ تَركَتْ بصَدْرِكَ ضِعْفَ مَا   بِحلْيِها مِنْ كَثْرَةِ الوَسْوَاس[5]

والخِطْءُ : ما يعتمده الإنسان ، والخَطأُ : ما لا يعتمد[6] .

---

(١) سبق ص ٨٣

(٢) م « البسته »

(٣) ديوان أبى تمام ١٧٣ وشرح التبريزى ٢ / ٢٤٣ وأرهفت : أى رق خلقها .

(٤) فى الديوان وشرحه « النوى ولعاً »

(٥) هذا البيت فى الأصل مؤخر عن شرح البيتين .

(٦) اللسان ١ / ٥٩

وقوله : « ضاحكة الترائب » : يريد ما على صدرها من الحلى . والتَّرائب : عظام الصّدر .

وقال :

إن فى خَيْمِهِمْ لَمُطعَمَةُ الحِجْـ ـلَيْن ، والمَتْنُ مَتْنُ خُوْطٍ وَرِيقِ[1]
وَهِىَ لا عَقْدُ وُدِّهَا سَاعَةَ البَيْـ ـن ، ولا عَقْدُ خَصْرِهَا بوَثِيـقِ

قوله : « مطعمة الحِجْلَيْن » ، والحِجْل : الخَلْخَال ، والمُطْعَمُ : المَرْزُوق من الطُّعْم . جعل امتلاء لحم ساقها طُعماً لخلخالها ؛ لأَنه يَعَضُّ به .

وقوله : « وهى لا عَقْد وُدِّها ساعةَ البَيْن [أراد : ولا عقد ودها ساعة البين] بوثيق ، ولا عقد خصرها بوثيق على كل حال . ولكنه لما أخبر عنها[2] خبرًا واحدًا ، ونسق بأَحدهما على الآخر – صار الظرف ، وهو ساعة البين ، على ظاهر اللفظ . كأَنه يضمهما[3] معاً ، فيكون عقد خصرها غير وثيق أَيضاً فى ساعة البين . وهو قبيح على جوازه وسَوْغِه .

* * *

وقال البحترى :

وفِيهِنَّ مَشْغُولٌ بهِ الطَّرْفُ هَاربٌ بعَيْنَيْهِ مِنْ لَحْظِ المُحِبِّ المُخَالِسِ[4]
يُخَبِّرُ عَنْ غُصْنٍ مِنَ البَان مَائِدٍ إذا اهْتَزَّ فى ضَرْبٍ مِن الدَّل مَائِسِ

وهذا نمط البحترى الحلو . وإنما قال : « هارب بعينيه » ، فخصهما

---

(١) م « فى حيهم » وسبق ص ١٠١ « خيمهم »

(٢) م « عنها »

(٣) م « يضمها »

(٤) ديوان البحترى ١١٦ ، ٢ / ١١٢٣

دون غيرهما ؛ لأن الحسن[1] إنما هو فى العين ، وعلاقة الحب إنما تكون عند النظر إلى العين[2] .

وقال :

وَقَدْ بَانَ فيهِمْ غُصْنُ بَانٍ إذَا بَدَا ثَوَى مُخْبِرًا عَنْ مِثْلِهِ أَوْ مِثَالِهِ[3]
يَسُوءُكَ أَلاَّ عَطْفَ عِند انْعِطَافِهِ ويُشْجِيكَ أَلاَّ عَدْلَ عِنْد اعْتِدَالِهِ[4]

كأنه أراد بالمثل الشيء نفسه ، والمِثَالُ : الشِّبْهُ ، أى ثوى مُخْبِرًا عن غصن بان مثلِه ، أو شبهِه . إلى هذا ذَهَب .

وقال :

أُعْطِيَتْ بَسْطَةً على النَّاسِ حتَّى هِيَ صِنْفٌ فى الحُسْنِ ،والناسُ صِنْفُ[5]
اعْتِدَالٌ يَمِيل مِنْهُ انْخِنَاثٌ وتَثَنٍّ فيه الفَخَامَةُ لُطْفُ[6]
نَعْمَةُ الغصنِ إنْ تَأَوَّدَ عِطْفٌ مِنْهُ عن هِزَّةٍ تَمَاسَكَ عِطْفُ[7]
مُسْكِرِى إنْ سُقِيتُ مِنْهُ بِعَيْنِى أُرْجُوَانٌ مِنْ خَمْرِ خَدَّيْهِ صِرْفُ[8]

وهذا من إحسانه المشهور .

* * *

(١) م « إلا أن الحسن »
(٢) م « إلى اللعين » !
(٣) فى الديوان ١٦٢٣/٣ « مخبر »
(٤) كذا فى م ، ق وفى الديوان : « إلا العطف . . . إلا العدل »
(٥) ديوان البحترى ٣٢٩ ، ١٣٧٥ « صنف والناس فى الحسن صنف »
(٦) فى الديوان « ويثنى فيه »
(٧) م « عن حمة تماسك »
(٨) سبق ص ١٠١

وقال :

لَمَّا مَشَيْنَ بِذِى الأَرَاكِ تَشَابَهَتْ   أَعْطَافُ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ[١]

فى حُلَّتَىْ حِبَرٍ وروْضٍ فَالْتَقَى   وَشْيَانِ : وَشْىُ رُبًى ، وَوَشْىُ بُرُود

وَسفَرْنَ فامْتَلأَتْ عُيونٌ رَاقَهـا   وَرْدَانِ : وَرْدُ جَنًى ، ووَرْدُ خُدُود[٢]

وضَحِكْنَ فاغْتَرَبَ الأَقَاحِى مِنْ نَدٍ   غَضٍّ ، وَسَلْسَالِ الرُّضَابِ ، بَرُودِ[٣]

وهذا أيضاً من إحسانه المعروف .

وقوله : «فاغترب» يريد الضَّحِك . والمستعمل اَسْتَغْرَبَ فى الضحك إذا اشتد فيه ، وأغرب أيضاً ، قال ذُو الرُّمَّة :

فما يغربُون الضحْكَ إلا تَبَسُّمَا   ولا يِنْسبونَ القَوْلَ إلا تَنَاجِيَا[٤]

ولم أسمع فى الضحك اغترب . إنما ذاك من الغُرْبَة والبعد . فقوله : «اغترب الأَقاحى من ندٍ غض» يريد النور نفسه . «وسَلْسَالُ الرُّضَاب» يعنى : الثغور ، كأنه جعلهما جميعاً من الأَقاحى ، وفصَّله فقال : من ند غض ، ومن سلسال الرضاب ، وسلسال الرضاب هو ند غض أيضاً ، إلا أنه جعل الفرق بينهما أن هذا أندى ، وأجرى من ذاك .

وأظن المُسْتَغْرِب فى الضحك إنما أُخذ من غُرُوب الأَسنان إذا بدت كلها فى الضحك ، وهى أطرافها ، وغرب كل شىء : حدُّه

أو أن يكون استغرب فى الضحك أى امتلأ ضحكاً من قولهم : أَغْرَبْت

(١) ديوان البحترى ص ٨ ، ٢ / ٦٩٧ دار المعارف

(٢) م «ورد ضحى جنى وورد»

(٣) كذا فى م ، ق وفى م «فاعترف الأقاحى» وفى الديوان : «من ندى»

(٤) ديوان ذى الرمة ٦٥٥ «ينبسون» وفى م «فا يعرفون»

السِّقاءَ إذا ملأته ، قال بِشر بن أَبي خَازِم :

وكأَنَّ ظُعْنَهُمُ غَدَاةَ تَحَمَّلُوا سُفُنٌ تَكَفَّأُ فى خَليجٍ مُغْرِبِ[١]

وسبيل هذا البيت أَن يلحق فى « باب الثغور » .

وقوله : « فالتقى وَرْدَان : وَرْدُ جَنًى ، ووَرْدُ خُدُودِ » — إن كان أَراد هذا الورد المعروف ، فمن أَين بذى الأَراك وَرْدٌ ؟ إلا أَن يريد بعض الأَنواع[٢] ، والحمر من الأَنوار فإنها كثيرة . وإياها — إن شاءَ الله — أَراد .

ومن عجيب ما أَوْرَدَهُ فى حُسْن القَدِّ قوله :

تَهْتَزُّ مِثْلَ اهْتِزَازِ الغُصْنِ أَتْعَبَهُ مُرُورُ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ سَحَّاحِ[٣]

وقال :

بَيْضَاءُ يُعْطِيكَ القَضِيبَ قَوَامُهَا ويُرِيكَ عَيْنَيْهَا الغَزَالُ الأَحْوَرُ[٤]

تَمْشِى فَتَحْكُمُ فى القلوبِ بِدَلِّهَا وتَمِيسُ فى بُرْدِ الشَّبَابِ فَتخْطِرُ[٥]

وتَمِيلُ مِنْ لِينِ الصِّبا فَيُقِيمُهَا قَدٌّ يُؤَنَّثُ تَارَةً ويُذَكَّرُ

وقال :

هَل الذَّلْفَاءُ مُخْبِرَتِى أَهَجْرًا أَرَادَتْ بالتَّجَنُّبِ ، أَمْ دَلالاَ ؟[٦]

ذكرتُ بها قَضِيبَ البَانِ لَمَّا غَدَتْ تَخْتَالُ فى الحُسْنِ اخْتِيَالاَ

تُشَاكِلُهُ انْعِطافاً ، واهْتِزَازًا وتَحْكِيهِ قَوَاماً ، واعْتِدَالاَ

---

(١) ديوان بشر بن أَبى خازم ٣٥ واللسان ٢ / ١٣٥

(٢) ق « بيض أَنواع الحمر من »

(٣) ديوان البحترى ٥٨ ، ١ / ٤٤٢ دار المعارف

(٤) ديوانه ١٧ ، ٢ / ١٠٧٠

(٥) فى الديوان « فى ظل الشباب وتخطر »

(٦) ديوانه ٧٧٦ ، ١٧٢٨ « هل الحسناء »

وهذا ما لا يكاد يسمع أحلى ، ولا أعذب ، ولا أبرع منه .

وقال :

أَلامُ عَلَى هَوَى ظَمْيَاءَ ظُلْماً وَقلْبِى فى يَدَىْ ظَمْيَاءَ عَانِ[١]

إِذَا انْصَرَفَتْ أَضَاءَتْ شَمْسَ دَجْنٍ وَمَالَ مِنَ التَّعَطُّفِ غُصْنُ بَانِ

قوله : «أَضاءتْ شَمْسَ دَجْنٍ» . أى إذا انصرفت مُوَلِّيَةً بوجهها كان ضوؤُها كضوء الشمس من تَحْتِ الدَّجْنِ، وهو إلباسُ الغيمِ الأُفق . وهذا أحسن ما يكون من المعنى[٢] وألطفه . أى إذا غاب وجهُها حين تُوَلِّى فأنّا منها أيضاً فى ضياء كضياء[٣] الشمس من تحت الدَّجْن .

وقال أبو تمام :

أَدْنَتْ نِقَاباً عَلَى الخَدَّينِ، وَانْتَسَبَتْ لِلناظرينَ بِقَدٍّ لَيْسَ يَنْتَقِبُ[٤]

وهذا حسن جدًّا .

وقال أبو تمام :

لَيَالِىَ أَضْلَلْتَ العَزَاءَ وَجَوَّلت بِعَقْلِكَ آرَامُ الخُدُورِ الخَوَاذِلُ[٥]

مِنَ الهِيْفِ لَوْ أَنَّ الخَلَاخِلَ صُيِّرتْ لَهَا وُشُحاً جَالَتْ[٦] عَلَيْهَا الخَلَاخِلُ

مَهَا الوَحْشِ إِلَّا أَنَّ هَاتَا أَوانسٌ قَنَا الخَطِّ إِلاَّ أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

(١) ديوان البحترى ٢١٢ ، ٤/٢٢٢٨ «هوى الحسناء . . فى هوى الحسناء عان»

(٢) م «المعانى»

(٣) م «كظياء»

(٤) ديوان أبى تمام ٤٧ وشرح التبريزى ١ / ٢٤٧

(٥) ديوان أبى تمام ٢٥٦ وشرح التبريزى ٣ / ١١٥ ويروى «وخذلت» و «حولت» و «الخدور» العقائل ، وفى ق «لعقلك آرام»

(٦) م «جالت عليه»

قوله : «جَوَّلَتْ» من أجل قوله : «الخَوَاذِلُ» وهُنَّ[1] اللَّوَاتِى تخلَّفن من جملة السرب على أولادهن ، فأراد أن يُطابِقَ بَيْنَ «الجَوَلَان» و«التأخر» . وهو طباق غير جيّد ، ولا لائق .

وقوله : «مِنَ الهِيف لو أنَّ الخَلاَخِلَ صُيِّرتْ لَهَا وُشُحاً» — من أقبح الخطإ وأفحشه ؛ لأن الخلخال لا يكون فى موضع الوشاح ؛ لأن الوشاح : ما تتقلَّدُه المرأة من سير ، أو خيط تنظم فيه خرزًا ، أو حلياً من فضة أو غيرها ، تتزيَّن به فيكون منها فى موضع حَمَائِل السيف من الرَّجُل . والخَلْخَال لا يكون فى هذا الموضع إلا إذا مسخها الله ، وأقمأها .

[[2] وقد أخطأ فى البيت الثانى أيضاً فقال : «قنا الخَطّ إلا أن تلك ذَاوِبلُ» وإنما قيل للرِّماح : «ذوابل» للينها وتثنيها ، فَنَفَى ذلك عن قُدود النساء التى من أكمل أوصافها التَّثَنِّى واللين والانعطاف ، كما قال «تميم بن أُبَىّ ابن مقبل»] :

يَهْزُزْنَ لِلْمَشْى أَوْصَالاً مُنَعَّمَـــةً هَزَّ الجَنُوبِ ضُحًى عِيدَانَ يَبْرِينَا[3]
أَوْ كاهْتِزَازِ رُدَيْنِىٍّ تَدَاوَلَهُ أيدى التِّجارِ فَزَادُوا مَتْنَهُ لِينَـــا

وقد ذكرت هذا مشروحاً فى أغاليطه[4] .

ولله در أبى عبادة إذ يقول :

غَدَتْ قُضْبَانُ أَسْحِلَةٍ عَلَيْهَا لِفَرْطِ الجَدْلِ أَوْ شِحَةً تَجُولُ[5]

---

(١) م «وهى»
(٢) الزيادة من ق .
(٣) ديوان ابن مقبل ٣٢٧ .
(٤) راجع جـ ١ / ١٥١ .
(٥) ديوان البحترى ٣٠٠ ، ١٨٢٣

يُقَوِّمُ مِنْ تَثَنِّيها اعْتِدالٌ تَكَادُ تَقُولُ مِنْ هَيَفٍ: نُحُولُ(١)

مَشَيْنَ عَلَى خَمَائِلِ ذِى طُلُوحٍ وقد ضَاقَتْ بما فيها الحُجُولُ

فَقُلْتُ : أَزِيد مِنْ سَقَمٍ فُؤَادِى ؟ وهَلْ يَزْدَادُ مِنْ قَتْلٍ قَتِيلُ؟(٢)

فهذا ـ والله ـ هو الشعر ، لا تَعْلِيلاَتُ أبى تمام بطباقه وتَجْنيسه ، وفرط تَقَعّره ، وكثرةِ إحالاته . وما زلت أسمع الشيوخ يفضلون هذا البيت الأخير على كل ما سمعوه فى الغزل .

وهذه القصيدة من قلائده . وفيها يقول قبل هذه الأبيات :

بَعِيدَةُ مَطْلَبٍ ، وَجَمادُ نَيْلٍ فَهَا هِىَ لا تُنَالُ ، ولا تُنِيلُ

إذَا خَطَرَتْ تَأَرَّجَ جَانِبَاها كما خَطَرَتْ على الرَّوْضِ القَبُولُ

ويَحْسُنُ دَلُّها ، والموتُ فيهِ وقَدْ يُسْتَحْسَنُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ

***

وقال أبو تمام :

ونَاضِرَةِ الصِّبَا حينٍ اسْبَكَرَّتْ طِلاَعَ المِرْطِ والدِّرْعِ اليَدِىِّ(٣)

تَشَكَّى الأَيْنَ مِنْ نِصْفٍ سَرِيعٍ إذَا قَامَتْ ، ومِنْ نِصْفٍ بَطِىِّ

وهذا ما لا مَدْفَعَ لجودته وحسنه ، وكأنه صفوة خاطر أبى تمام . إذا كان بِجمَامِه يأتى به وبأمثاله ، فإذا أعْيَا ، وكَلَّ زَمَاناً ـ رَمى بالأوساخ والأقذار والغُثَاء .

---

(١) ق « يكاد يقول » وفى الديوان « يكاد يقال »

(٢) فى الديوان « أقول أزيد »

(٣) ديوان أبى تمام ٣٤٣ وشرح التبريزى ٣ / ٣٥٣ « اسبكرت : تم شبابها . ويروى « البدى » وهو البديع العجيب »

وقوله : « طِلاَعُ المِرْط » أى تملأُ المِلْحَفَة تماماً وكمالا ، كأنها تطلع عليها ، أى تعلوه . والدرع : القميص التام . واليدى : الواسع .

* **

وقال البحترى :

نَوَاصِعٌ كَسُيُوفِ الصَّقْلِ مُشْعَلَةٌ ضوءا ، ومُرْهَفَةٌ فى الجَدْلِ إرْهَافَا[1]

إذَا نَضَوْنَ شُفُوفَ الرَّيْطِ آوِنَـةً قَشَرْنَ عَنْ لُؤْلُؤ البَحْرَيْنِ أَصْدَافا

كأَنَّهُنَّ وقَدْ قرّبن مِنْ طَـرَفِى ضِدَّيْنِ فى الحسن: تَثْقِيلاً ، وإخْطَافَا[2]

رَدَدْنَ ما خفَّفَتْ مِنْهُ الخُصُورُ إلَى مَا فى المَآزِرِ فَاسْتَثْقلْنَ أَرْدَافَا

وحسبك بهذا حُسْنَ لفظ ، وحلاوة نظم ، وصحّة معنى .

وألطف من قوله : « قَشَرْنَ عن لُؤْلُؤ البَحْرَينِ أَصْدَافا » ـ قول أبى تمام :

لآلِئٌ كالنُّجُوم الزُّهْرِ قَدْ لَبِسَتْ أَبْشَارُها صدَفَ الإِحْصَانِ لا الصَّدَفَا[3]

وبيت البحترى أبرع وأحلى .

وقال البحترى أيضاً :

غَدَتْ أَتْرَابُها يَنْهَضْنَ هَـوْنًا لثقلٍ مِنْ رَوَادِفِها الثِّقَـالِ[4]

مَشَيْنَ ضُحًى بأَقْدَامٍ لِطَافٍ وسُوقٍ فى خَلاَخِلِها خِـدَالِ

إذا اجْتَبْنَ الحُلِيَّ رأيتَ بِيضاً أَوَانسَ كاللَّآلِئِ فى اللَّآلِى[5]

---

(١) ديوان البحترى ٣٣٧ ، ١٣٨١ وفى م « تواضع لسيوف »

(٢) فى الديوان « وقد قار بن « . . . تيتيلا »

(٣) ديوان أبى تمام ٢٠٠ وشرح التبريزى ٢ / ٣٦٠

(٤) ديوان البحترى ١٧٠٨/٣ « بثقل »

(٥) اجتبن : لبسن

وقال :

أطَاعَ لها دَلٌّ غَرِيرٌ ، وَوَاضِحٌ شَتِيتٌ ، وقَدٌّ مُرْهَفٌ ، وَشَوًى خَدْلُ[١]

وألحاظُ عَيْنٍ ما عَلِقْنَ بفــارغٍ فَخَلَّيْنَه حتَّى يكونَ لَهُ شُغْلُ[٢]

وهذا من مشهور أبي عبادة .

[وقال أبو تمام][٣] :

ومِنْ جِيدِ غَيْدَاءِ التَّثَنِّي كأَنَّما أَتَتْكَ بِلِيتَيْهَا مِنَ الرَّشَإِ الفَــرْدِ[٤]

كأَنَّ عليهــا كُلَّ عِقْدٍ مَلاَحَةً وحُسْناً ،وإن أَمْسَتْ ،وأَضْحَتْ بِلاَعِقْدِ

ومِنْ نَظْرَةٍ بَيْنَ السُّجُوفِ عَلِيــلَةٍ ومُحْتَضَنٍ شَخْتٍ ، ومُبْتَسَمٍ بَرْدِ[٥]

ومِنْ فَاحِمٍ جَعْدٍ ، ومن كَفَلٍ نَهْدٍ ومن قَمَرٍ سَعْدٍ ، ومِنْ نَائِلٍ ثَمْدِ[٦]

مَحَاسِنُ مَا زَالَتْ مَسَاوٍ مِنَ النَّوَى تُغَطِّي عَلَيها ، أَوْ مَسَاوٍ مِنَ الصَّدِّ

شَخْتٌ : دقيق يتمكن الذِّراع من احتضانه ، كأَنه ينفى عنها ضخم البطن وموضع[٧] [الكشح] ويستحب فيها الضُّمْر .

---

(١) ديوان البحترى ٥٩ ، ١٦١٥

(٢) م « ما علقن بفاتر »

(٣) الزيادة من ق

(٤) ديوان أبي تمام ٢٧ وشرح التبريزى ٢ / ١١١ والليت : صفحة العنق

(٥) م « بين السيوف » والمحتضن : موضع الاحتضان

(٦) الثمد : القليل

(٧) م « البطن والموضع ويستحب »

ما قالاه فى : شدة الحب ، والوجد ، والتشوق ، والغرام ، والحزن ، وانتجاز المواعيد ، وإخلافها ، ونحو ذلك

* * *

فى الحزن والوجد

قال أبو تمام :

حُزْنٌ غَدَاةَ الحُزْنِ هـــاجَ غَلِيلَهُ فى أَبْرَقِ الحَنَّانِ مِنْكَ حَنِينُ[1]

سِمَةُ الصَّبَابَةِ زَفْرَةٌ ، أو عَبْرَةٌ متكفل بهمـــا حَشاً ، وشُئُونُ

لَوْلَا التَّفَجُّعُ لادَّعَى هَضْبُ الحِمَى وَصَفَا المُشَقَّرِ أَنَّهُ مَحْزُونُ

وهذا المعنى غاية فى حسنه وجودته . وإنما حَذَاهُ على قول الأَحْوَص :

إِذَا كُنْتَ عِزْهَاةً عَنِ اللَّهْوِ والصِّبَا فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا[2]

ولكنه عبر عنه بعبارة[3] أغرب فيها حتى صار كأنه ليس ذلك المعنى وهو هو بعينه .

والعِزْهَاةُ : الذى قد عَزَفَ عن اللَّهو والصِّبا .

* * *

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٢٨ وشرح التبريزى ٣ / ٣٢٤ وفى م .

« الجنـــان منك جنينـــه وقال : سمـــة الصبـــابة »

الأبيات متصلة فى ق والديوان .

(٢) البيت له فى الشعر والشعراء ١/٥٠٢ ، وطبقات فحول الشعراء ٥٣٩ ، وهو غير منسوب فى اللسان ١٧ / ٤١٠

(٣) م « عبارة »

وقال البحترى :

زَعَمَ الزَّاعِمُون أَنَّ الذى يَهْـ ... وَى مِرَاضَ العُيُونِ غيرُ رَشِيدِ[١]

كذَبَ الزَّاعِمُون قَدْ يَحْسُنُ الحُـ ... بُّ بِمَنْ لَيْسَ قَلْبُهُ مِنْ حَدِيدِ

وقال :

ولو أَنَّ الجبالَ فَقَدْنَ إِلْفـاً ... لأَوْشَكَ جَامِدٌ منها يَذُوبُ[٢]

وقال :

حَقًّا أَقُولُ لَقَدْ تَبَلْتِ فُؤَادِى ... وأَطَلْتِ مُدَّةَ غَيِّىَ المُتَمَادِى[٣]

بِجَوًى مُقِيمٍ لَوْ عَلِمْتِ غَلِيلَهُ ... لَوَجَدْتِهِ غيرَ الهَوَى المُعْتَادِ

والحبُّ سُكْرٌ للنُّفُوسِ يَسُرُّنِى ... سَهْوُ العَوَائِدِ عَنْهُ والعُوَّادِ[٤]

وهذا معنى آخر حسن جدًّا .

وقد قال أبو تمام

بِهِ عِلَّةٌ صَمَّاءُ لِلْبَيْنِ لَمْ تُصِخْ ... لِبُرْءٍ ، ولمْ تُوجِب عيادَةَ عَائِدِ[٥]

ومعنى البحترى أجود وأحلى .

وقال أيضاً :

بَلْ مَا أَوَدُّ بِأَنَّنِى أَفْرَقْتُ مِنْ ... وُجدٍ وَلَا أَنِّى بَرَدْتُ غَلِيلِى[٦]

وأَعُـدُّ بُرْئِى مِنْ هَـوَاك ضَمَانَةً ... والبُرْءُ أكبرُ حَاجَةِ المَخْبُولِ[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ٧٦٨ دار المعارف « العاذلون . . يصبيه نجل العيون »

(٢) ديوانه ٤٨٤ ، ١ / ٢٥٧ دار المعارف وفى م « أن الجياد فقدن »

(٣) ديوانه ١٦٣ ، ٢ / ٧٣١ « لو بلوت »

(٤) فى الديوان « صحو العوائد »

(٥) ديوان أبى تمام ١١٦

(٦) ديوان البحترى ١٧٨ ، ١٨٣٩

(٧) م « رزية » والديوان : « رزيئة »

وفى الشوق والصبابة

قال أبو تمام :

لا شَوْقَ مَا لَمْ تَصِلْ مِنه بالَّتى هَجَرَتْكَ وَجْدًا كالأَبَاءِ المُحْرَقِ[١]
يَغْلِى إذَا لَمْ يَضْطَرِمْ ، ويُرِى إذَا لَمْ يَحْتَدِمْ ، ويُغِصُّ إنْ لَمْ يُشْرِقِ

قوله : ما لم تصل [منه] أى من الشوق . وجدًا : أى من الوجد . كالأَباءِ المُحْرَق : أى فتكون إذا مليت[٢] [به] كالأَباء المُحْرَق من الوجد .

وقوله : «يَغْلِى إذَا لَمْ يَضْطَرِمْ» . كأَنه جعل الاضطرام أشدّ من الغَلْى ، والغَلْى هو اضطرام أيضاً .

و «يُرِى» معناه يحرق . والاْحْتِدَامُ : شدّة الحرّ ، ويقال : وجدت للحر حَدَمَة .

يقول : هو يحرق وإن لم يشتد حرّه .

«ويُغِصّ إن لم يشرق» . فَنَزَلَ من الغليان ، والاضطرام ، والوَرْى ، والاْحْتِدَام — إلى الغَصَص ، والشَّرق . وليس ذلك بخطأ ولا هو بالجيد ، ولا الحلو ، ولا الشَّهى .

* * *

وقال البحترى :

وحَرَّضَ شَوْقِى خَاطِرُ الرِّيحِ إذْ سَرَى وبَرْقٌ بَدَا مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ لامعُ[٣]

(١) ديوان أبى تمام ٢١١ وشرح التبريزى ٢ / ٤٠٦ وق «منه فى التى» وفى الديوان «ما لم تصل وجداً بالتى * تأبى وصالك كالأباء»

(٢) م «صليت» والزيادة من ق

(٣) ديوان البحترى ٧١ ، ٢ / ١٣٠٢ دار المعارف .

وما ذاكَ أنَّ الشوقَ يَدْنُو بِنَازِحٍ ولا أننى فى وَصْلِ عَلْوَةَ طامِعُ
خَلاَ أنَّ وَجْدًا ما يُغِبُّ ، ولَوْعَـةً إذا اضْطَرَمَتْ فَاضَتْ عليها المَدَامِعُ[1]

وهذه طريقة البحترى التى يخبر فيها بالشىء على ما هو فيعفى[2] على كل بديع ، واستعارة إذا اعتمدها ؛ وذلك لحسن عبارته وتلخيصه .

وقوله : « خَاطِرُ الرِّيح » : من الخَطَران كما قال فى موضع آخر :

* كما خَطَرَتْ علَى الرَّوْضِ القَبُولُ *[3]

وقال :

شَوْقٌ إليكَ تَفِيضُ منه الأَدْمُـعُ وجَوًى عَليكَ تَضِيقُ عَنْهُ الأَضْلُعُ[4]
وهَوًى تُجَدِّدُهُ اللَّيالِى كُلَّما قَدُمَتْ ، وتُرْجِعُه السِّنُونُ فَيَرْجِعُ

وقال :

هَلْ أنْتَ مِنْ حَرِّ الصَّبَابَةِ مُنْقِذِى أَوْ أَنْتَ مِنْ شَكْوَى الصَّبابَةِ عَائِدِى[5] ؟
شوقٌ تَلَبَّسَ بالفُـؤادِ دَخِيلُهُ والشَّوْقُ يُسْرِعُ فى الفُؤادِ الوَاجِدِ

ومما أحسن فيه البحترى وأَغْرَب ــ قولُه فى شدة الحب وتمكنه :

غَيْرُ حَبٍّ لِسُلَيْمَى لَمْ يَزِدْ فيه إسْعَافٌ ، ولَمْ يَنْقُصْهُ ضَنْ[6]
ثَبَتَتْ تَحْتَ الحَشَا آخِيَةٌ مِنْهُ لا يَنْزِعُهَا المُهْرُ الأَرِنْ[7]

---

(١) فى الديوان « أن شوقاً » وفى م « إذا اضطربت فاضت عليه »
(٢) ق « فيغل »
(٣) سبق البيت فى صفحة ١١٨ .
(٤) ديوان البحترى ٣٣ ، ٢ / ١٣١٠ وفى ل « و جوى إليك »
(٥) ديوانه ٢٩٨ ، ١ / ٥٥١ « أنت فى سفه الصبابة عازرى » أم أنت من برح الصبابة »
(٦) ديوانه ٦١٣ ، ١٥٤/٤ م « غير حبى » ومن أرن : أى نشط
(٧) ق « أخبية » وفى الديوان ٦١٣ « لا يقطعها المهر »

وقد بالغ أيضاً الذى يقول :

أَحُبُّكِ مَا لَوْ كَانَ بَيْنَ قَبَـائِلٍ مِنَ النَّاسِ أَعْدَاءٍ ـ لَجَرَّ التَّصَافِيَا[١]

وأبلغ من هذا كله وأجود ـ قول الأعْشَى :

كَفى بالذى تُولِينَهُ لَوْ تَجَنَّبَـا شِفاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا كانَ أَشْيَبَا[٢]

ولكنَّما كانَتَ تَوَابِعُ حُبِّهَـا تَوَالَى رِبْعِىٌّ السّقاب فأَصْحَبَا

فَتَمَّ عَلَى مَعْشُوقَةٍ لا يَزِيدُهَا إليه بلاءُ السّوءِ إلا تَحَبُّبَا

وكان حماد الراوية يتعجب من قوله : « فتم على معشوقه » ، ويقول : هذا[٣] ـ والله ـ غاية العشق ، ونهاية الإحسان فى النسيب .

يقول : كفى بالذى توليته من البعد والقطيعة شفاء له من سقم الحب لو تَجَنَّبَ ، ولكنه لا يقدر على ذاك .

وقوله : « تَوَابِعُ حُبِّها » أى ما تتابع وتَوَالَى من حبها كتَوَالِى الرِّبْعِىّ ، وهو: السَّقْبُ الذى نُتِج فى أوّل الربيع ، يتنقل مِنْ سِنٍّ إلى سِنٍّ حتى قَوِىَ ومرنَ ، وانقاد[٤] . جعل هذا مثلا لزيادة حبه شيئاً فشيئاً حتى تمكّن ، فذلك معنى قوله : « تَوَالى » .

وقد روى « تَأَوَّل رِبْعِى » من حال إلى حال ، مِنْ آلَ يَئُولُ .

وقال « أبو حَيَّةَ النُمَيْرِى » فى هذا المعنى ، وجاء به أَكْشَفَ وأَبْيَنَ وأحسن مما جاء به الأَعْشَى ، فقال :

لا مُنكِرٌ لِقَبيح مِنْكَ أَعْرِفُهُ إنى أَرَاهُ ـ إذا أَرْضَاكِ ـ إحْسانَا

أُحدِّثُ النَّفسَ مَسْرُورًا بِذِكْرِكُمُ حتى كأَن الذى قَدْ كَانَ مَا كَانَا

---

(١) لم أعرف قائله

(٢) ديوان الأعشى ص ٨٨

(٣) م « هو »

(٤) راجع الصاحبى لابن فارس بتحقيق ص ٣١٥

ومن هذا أخذ أبو الشِّيص – والله أعلم – قوله :

وأَهَنْتِنِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي عَامِدًا ما من يَهُونُ عَلَيْك مِمَّنْ أكرم[١]

ولكنه تناهى فى التذلّل فأحسن المعنى كلَّ الإحسان ، ولكنَّ الحُرَّ الكَرِيمَ الأَنِفَ: «كُثَيِّرُ بن عبدِ الرحمن» إذ يقول :

ولَمَّا رَأَتْ وَجْدِي بِها وتَبَيَّنَتْ صَبَابَةَ حَرَّانِ الصَّبَابَةِ صَادِ

أَدَلَّتْ بِصَبْرٍ عِنْدَها وجَلاَدَةٍ وتَحْسِبُ أَنَّ النَّاسَ غَيْرُ جلادِ

فيا عزُّ صَادِي القَلْبَ حتى يَوَدَّنى فُؤَادُكِ ، أو رُدِّى عَلَىَّ فُؤَادِى[٢]

وكان هذا مما ينشده «أبو العباس ثعلب كثيرًا» ويستحسنه . ذكر ذلك الأخفش .

[و] قوله : «صَادِي القَلْبَ» أى دَارِيه . والمُصَادَاة : المُدَارَاة .

وقال «كثير» أيضاً ، وأحسن كل الإحسان :

وكنتُ أَلُومُ الجازِعِينَ على البُكَا فكيفَ أَلومُ الجازِعِينَ وأَجْزَعُ؟

ولى كبدٌ قد بَرَّحت بِى مريضةٌ إذا سُمْتها الهِجْرَانَ ظَلَّتْ تَصَدَّعُ

وأظن «أبا الشِّيص» أخذ قوله :

أَشْبَهْتِ أَعْدَائى فَصِرْتُ أُحِبُّهمْ [إِذْ كانَ حَظِّى منكِ حَظِّى منهمُ][٣]

من قول كُثَيّر :

أَلاَ حبَّذَا مِنْ حُبِّها مَنْ تُجَاوِرُ مُجَاوِرَةٌ قَوْماً عِدًى لى صُـدُورُهُمْ

---

(١) فى الأغانى ١٥ /١١٠ «ممن يكرم»

(٢) م «حين يودنى»

(٣) الأغانى ١٥ / ١٠٩ والزيادة من ق .

وقد أحسن أيضاً الإحسان كلَّه ـ الذى يقول :

وَلَمَّا بَدَا لِى مِنْكَ مَيْلاً مَعَ العِـدَا عَلَىَّ ، ولم يحدث سِوَاكَ بَدِيلُ[1]
صَدَدْتِ كما صَدَّ الرَّمِىُّ تطاولت به مُدَّةُ الأَيَّامِ وهو قتيل

* * *

وقال أبو تمام يذكر الوعد وإخْلاَفَه :

وفى الكِلَّة الوَرْدِيَّةِ اللَّوْنِ جُـؤْذَرٌ مِن العِينِ وَرْد الخدّ ، وَرْد المَجَاسِدِ[2]
غَدَتْ مُغْتَدَى الغَضْبَى وأَوْصَتْ خَيَالَها بِحَرَّانَ نِضْوِ العِيسِ ، نِضْوِ الخَرَائِدِ
وقَالَتْ : نِكَاحُ الحُبِّ يُفْسِدُ شَكْلَهُ وكَمْ نَكَحُوا حُبًّا ، ولَيْسَ بِفَاسِدِ
سأَوِى بِهَذَا القلَبِ مِنْ لَوْعَةِ الهوَى إلى ثَغَبٍ مِنْ نُطْفَةِ اليَأْسِ بَارِدِ

وهذه أبيات سخيفة المعانى ، قد أتى فيها بكل قبح وفحش ، لأنه قال :

رَمَتْهُ بِخُلْفٍ بَعْدَما عَاشَ حِقْبَـةً لَهُ رَسَفَانٌ فى قُيودِ المَوَاعِدِ

وبعد ذلك بيّن بأن الوعد كان مُبَاضَعَةً ، وأنه لما حَقَّقَ المطالبة غضبت ، وذلك قوله : « غَدَتْ مُغْتَدَى الغَضْبَى » .

وقوله : « وقالت : نِكَاحُ الحُبِّ يُفْسِدُ شَكْلَهُ » . فقال هو : « وكم نكحوا حُبًّا وليس بفاسد » ، فاحتجت عليه ، واحتج عليها .

وهذه خصومة ومناظرة على ذلك الباب شديدة مُسْتَقْصَاة ما أظن أحدًا سبقه إلى مثلها .

---

(١) أمالى القالى ١ / ٢١٧ وحماسة أبى تمام بشرح المرزوقى ٣ / ١٢٩٦

(٢) ديوان أبى تمام ١١٦ وفى شرح التبريزى ٢ / ٦٩ « ويروى : من الإنس يمشى فى رقاق المجاسد »

وقوله بعد هذا :

سآوِى بِهذَا القَلْبِ مِنْ لَوْعَةِ الهوَى ... إلى ثَغَبٍ مِنْ نُطْفَةِ اليَأْسِ بَارِدِ[١]

هو أيضاً غضب منه لمنعها إيّاه مما التمس . ومثل هذا إنما يفصح به الشاعر إذا هَزَل ومَجَن . وإنما وصل هذه الأبيات بما افتتحه من قوله :

قِفُوا جَدِّدُوا مِنْ عَهْدِكُمْ بالمَعَاهِدِ ... وإنْ هِىَ لَمْ تَسْمَعْ لِنِشْدَانِ نَاشِدِ

لَقَدْ أَطْرَقَ الرَّبْعُ المُحِيلُ لِفَقْدِهِمْ ... وبَيْنِهِمُ إطْرَاقَ ثُكْلانَ فَاقِدِ[٢]

وأَبْقَوْا لِضَيْفِ الهَمِّ والحزنِ منهمُ ... قِرًى منْ جَوًى سَارٍ ، وطيفٍ مُعَاوِدِ[٣]

سَقَتْهُ ذُعَافاً عادَةُ الدَّهْرِ فيهم ... وَسَمُّ اللَّيالى فَوْقَ سَمِّ الأَسَاوِدِ

بِهِ عِلَّةٌ صَمَّاءُ لِلْبَيْنِ الَمْ تُصِـــخْ ... لِبُرْءٍ ، ولَمْ تُوجِبْ عِيادَةَ عَائِدِ

ومن يقف على المعاهد ، ويصف ما به من الهم ، والحزن ، والجوى ، وأن عادة الدهر فيهم سقته الذُّعاف ــ وهو السم ــ ، وأن به علّة للبين صمّاء لم تُصِخْ لبرء : أى لم تصغ إليه ، ولم تقرب منه ــ فإنَّهُ لا يقول بعد ذلك كلِّه : إنه كان التمس من المرأة الفاحشة ، وناظرها[٤] عليها ، وغضب من منعها إيّاه . هذا غاية ما يكون من السّخف والحمق .

فإن قيل : إن المعاهد التى وقف عليها لم تك معاهد هذه المرأة ذات الكِلَّة الوَرْدِيَّةِ اللون ، وإن هذه إنما كانت معه فى الرفاق وهم سائرون ، فاستوقفهم لتجديد عهد بديار كان فيها أحباب أُوَل .

---

(١) م « عن لوعة . . . نطفة الماء »

(٢) م « أطرق الركب »

(٣) فى ديوان أبى تمام وشرحه « الحزن منى بعدهم »

(٤) م « وناظر »

قيل : هذا غلط من التأويل؛ لأنه قال : «به علة صماء للبين لم تصخ لبرء» ، فأوجب بهذا القول أن حُبَّه باق غير منصرم .

وإذا كان لم يبرأ حبّه من امرأة أولَى ، فكيف يقف صَحْبَه على معاهدها وفيهم امرأة أخرَى يهواها ، وقد طالبها سَنَةً ، وهى تَعِدُه ، وذكر أنها أوصت خيالها [به][1] ، وأنه حرَّان ؟ هذا محال . لم يكن الحب إلا لهذه المرأة ذات الكلة [رحم الله غفلته] .

وقوله : «نضو العيس» لطول السفر. و«نِضْوُ الخرائد» ، يعنى الخيالات .

ولله در «أبى عبادة» إذ يقول :

لَوْ تُسْعِفِينَ ـ وَمَا سَأَلْتُ مَشَقَّةً ـ لَعَدَلْتِ حَرَّ جَوًى بِبَرْدِ رُضَابِ[2]

ولَئِنْ شَكَوْتُ ظَمَاىَ إِنَّكِ لَلَّتِى قِدْماً جَعَلْتِ مِنَ السَّرَابِ شَرَابِى[3]

وعَتَبْتِ مِنْ حُبِّيكِ حتَّى إِنَّنِى أَخْشَى مَلاَمَكِ أَنْ أَبُثَّكِ مَا بِى[4]

وقال البحترى :

إذا رَاجَعْت وَصْلاً علَى طُولِ هِجْرَةٍ تَرَاجَعْتُ شيئاً مِنْ بَلاَىَ إلى سُقْمِى[5]

وقد زعمتْ أَنْ سوف تُنْجِحُ مَا وَأَتْ وظَنِّى بها الإخلاف فى ذلك الزَّعْمِ[6]

خَلِيلَىَّ ما لى : لا شِفَاءٌ مِنَ الجَوَى ولا نَعَمٌ مَرْجُوَّةُ النُّجْحِ من نُعْمِ[7]

---

(١) الزيادة من ق

(٢) ديوان البحترى ٣٤١ ، ١ / ٢٩٥

(٣) م «من الشراب شراب»

(٤) ق «أخشى عتابك»

(٥) ديوان البحترى ١٩٠، ٢٠١٤/٣ «رجعت»

(٦) ق «تنجز ما وأت» والوأى : الوعد

(٧) م ، ق «ما فى لا شفاء»

وقال :

بِنَفْسِي مَنْ تَنْأَى ، ويَدْنُو ادِّكَارُهَا ... ويَبْذُلُ عَنْها طَيْفُها وتُمَانِعُ[1]

خَلِيلَيَّ : أَبْلاَنِى هَــوًى مُتَلَوِّنٌ ... لَهُ شِيمَةٌ تَأْبَى ، وأُخْرَى تُطَاوِعُ

وهذا ــ لعمرى ــ حسن . وأحسن منه قول « كثير » لأنه تمنى الحال التى وصفها البحترى فقال :

والله ما يدرى غريمٌ لَوَيْتِهِ ... أَيَشْتَدُّ إِنْ لاقاكِ أَم يَتَضرَّعُ[2]

بَخِلْتِ فكان البخلُ منكِ سَجِيَّةً ... فَلَيْتَكِ ذُولَوْنَيْنِ يُعْطِي ويَمْنَعُ

وقال [البحترى][3] :

ماذَا عَلَى الأَيَّامِ لَوْ سَمَحَتْ لَنَا ... بِثَوَاءِ أَيَّام لَدَيْكِ قَلائِلِ ؟[4]

فَأَوَيْتِ لِلْقَلْبِ المُعَنَّى المُبْتَلَى ... بِهَوَاكِ ، والبَدَنِ الضَّئِيلِ النَّاحِلِ

وقال [أيضاً] :

فِدَاؤُكِ ما أَبْقَيْتِ مِنِّى فإِنَّهُ ... حُشَاشَةُ حُبٍّ فى نُحُولِ عِظامِ[5]

صِلِي مُغْرَماً قَدْ وَاتَرَ الشَّوْقُ دَمْعَهُ ... سِجَاماً عَلَى الخَدَّيْنِ بَعْدَ سِجَامِ[6]

فَلَيْسَ الذى حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ ... ولَيْسَ الذى حَرَّمْتِهِ بِحَــرَامِ

---

(١) ديوان البحترى ٧١ ، ٢ / ١٣٠٢

(٢) فى م ، ق « لاقانى » ولكن الحديث عن « عزة » ويروى : « كريم مطلته أيشتد إن قاضاك» كما فى المحاسن والمساوى للبيهقى ٣٥١/١ وانظر الأغانى ١٧٤/١٤ والموشح ١٦٩ .

(٣) الزيادة من ق

(٤) ديوان البحترى ١ / ١٢٩ ، ١٦٤٧/٣

(٥) ديوانه ١٠ « حشاشة جسم ... عظامى » وفى ق « فإنها » ، وفى ٢٠٠٠/٣ : « حشاشة نفس »

(٦) م « قد أوتر »

وقال :

وَدِدْتُ وهَلْ نَفْسُ آمْرِئٍ بمُلِيمَة ... إذَا هِيَ لَمْ تُعْطَ الهَوَى مِنْ وِدَادِهَا[١]

لوآن سُلَيْمى أسْمَحَتْ ، أوْلو أنَّهُ ... أُعِيرَ فُؤَادِى سَلْوَةً مِنْ فُؤَادِهَا[٢]

وقال :

أيْنَ الغَزَالُ المُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا ... كَفَلاً ،ومِنْ نَوْرِ الأُقَاحِى مَبْسِمَا[٣]

ظَمِئَتْ جَوَانِحُنَـا إليه و رِيُّها ... فى ذلك اللَّعَسِ المُمَنَّعِ واللَّمَى[٤]

مُتَعَتِّبٌ فى حَيْثُ لا مُتَعَتَّبٌ ... إنْ لَمْ يَجِدْ جُرْماً علَىَّ تَجَرَّمَا[٥]

أَلِفَ الصُّدُودَ فَلَوْ يَمُرُّ خَيَالُهُ ... بالصَّبِّ فى سِنَةِ الكَرَى مَا سَلَّمَا

وقال :

أرَى ثِقَةَ الرَّاجِى مُوَاصَلَةَ المَهَا ... تَكَاءدَهَا ، أوْ آدَهَا شَكٌّ خَائِفِ[٦]

كأَنَّ الذى يَكْذِبْنَه نَحْبُ نَاذِرٍ ... يُقَضِّيْنَ مِنْهُ ، أوْ أَلِيَّةُ حَالفِ[٧]

فَلَيْتَ لُبَانَاتِ المُحِبِّ رُدِدْنَ فى ... جَوَانِحِهِ ، أوْ كُنَّ عِنْدَ مُسَاعِفِ

وهذا حسن جداً .

وقال :

إذَا قَرُبْتِ فَهجْرٌ منكِ يُبْعِدُنِى ... وإنْ بَعُدْتِ فَوَصْلٌ مِنْك يُدْنِينِى[٨]

---

(١) ديوان البحترى ١٠٩ ، ٢ ، ٦٧٤ دار المعارف « بملومة تعط المنى »

(٢) فى الديوان « سليمى أسمحت »

(٣) ديوانه ٢٢٩ ، ١٩٥٨/٣ — ١٩٥٩

(٤) ق « تظمى جوانحنا » وفى الديوان : « مراشفنا إليه »

(٥) م « لا متعب »

(٦) ديوانه ٣٧٤ ، ١٣٩٠ وفى م « الراجى موافقة »

(٧) فى الديوان « كأن النوى » وفى ص م « تحت »

(٨) ديوانه ٤١٧ ، ٢٢٤٧/٤

تَصَرَّمَ الدَّهْرُ لا جُــودٌ فَيُطْمِعُنِى فِيمَا لَدَيْكَ ، ولا يَأْس فَيُسْلِينِى
فَلَسْتُ أَعْجَبُ مِنْ عِصْيَان قَلْبِكَ لى يَوْماً إِذَا كانَ قَلْبِى فيكَ يَعْصِينِى [١]

وهذا إحسانه المشهور . ويقال : إنه أخذه من قول « الخليع » :

أَتَطْمَعُ أَنْ يُطِيعَكَ قَلْبُ سُعْدَى وتَزْعُمُ أَنَّ قَلْبَكَ قَدْ عَصَاكَا

وما أحسن ما قال بَشَّار :

وإذا قُلْنَا لَهَا : جُودِى لَنَا خَرَجَتْ بالصَّمْتِ مِنْ لاَ ، وَنَعَمْ [٢]

* * *

وقال أبو تمام فى النائل النزر القليل ما هو فوق كل حسن وحلاوة :

تَأْبَى عَلَى التَّصْرِيدِ إلاَّ نَائِــلاً إِلَّا يَكُنْ مَاءً قَرَاحاً يُمْذَقِ [٣]
نَزْرًا كَمَا اسْتَكْرَهْتَ عَائِرَ نَفْحَةٍ مِنْ فأْرَةِ المِسْكِ التى لم تُفْتَقِ [٤]

* * *

وقد تصرف البحترى فى جملة معانى هذا الباب تصرفاً كثيرًا حسناً .
ومن ذلك قوله :

ظَلَمَتْنِى تَجَنُّباً وصُدُودًا غَيْرَ مُرْتَاعَةِ الجَنَانِ لِظُلْمِى [٥]

---

(١) م « عمداً إذا » وكذلك فى الديوان

(٢) الأغانى ٣ / ٢٦ « وإذا قلت » وكذلك هى فى ق

(٣) ديوان أبى تمام ٢١١ وشرح التبريزى ٢ / ٤٠٧ « يقول : تأبى هذه المرأة المحبوبة مع تقليلها النوال ، إلا نيلا ممذوقاً غير خالص ، ووصلا مشوباً بالامتناع ، فلا تصافى الوصال ولا تترك الإطماع ، فيكون حبيبها أبدا معذباً من جهتها ٢٢ وفى م ، ق « تمذق »

(٤) أى نيلها عندى قليل كأنه عائر من ريح فأرة المسك . وروى التبريزى عن المعرى : « نزرا كما استنكهت » أى عطاء نزراً لا غناء فيه كالرائحة التى تفلت من فأرة مسك لم تفتق ، أى بعد نائلها ، كشمة من هذه الفأرة ، ولا تغنى هذه الشمة عنا ، فكذلك نائلها »

(٥) ديوان البحترى ٣١٧ ، ٣/١٩٤٠

وَيَسِيرٌ عِنْدَ القَتُولِ إِذَا مَا أَثِمَتْ فِيَّ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي[١]
أَجِدُ النَّارَ تُسْتَعَارُ منَ النَّـا رِ وَيَنْشَا مِنْ سُقْمِ عَيْنَيْكِ سُقْمِي

وقوله :

لَوْشِئْتِ عُدْتِ إلى التَّنَاصُفِ فى الهَوَى وَبَذَلْتِ مِنْ مَكْنُونِهِ مَا أَبْذُلُ[٢]
أَحْنُو عَلَيْكِ وفى فُؤَادِى لَـوْعَةٌ وأَصُدُّ عَنْكِ وَوَجْهُ وُدِّى مُقْبِـلُ[٣]
وإذا هَمَمْتُ بِوَصْلِ غيرك رَدَّنِى وَلَهٌ إليك ، وشَافِعٌ لك أَوَّلُ[٤]
وأَعِزُّ ، ثُمَّ أَذِلُّ ذِلَّةَ عَاشِقٍ والحبُّ فيـه تَعَزُّزٌ وتَـذَلُّلُ

وقوله :

وَبِى ظَمَأٌ لاَ يَمْلِكُ المَاءُ دَفْعَـهُ إلى نَهْلَةٍ مِنْ رِيقِهَا الخَصِرِ العَذْبِ[٥]
تَزَوَّدْتُ مِنها نَظْرَةً لَمْ تَجُدْ بها وَقَدْ يُؤْخَذُ العِلْقُ المُمَنَّعُ بالغَصْبِ
وَمَا كَانَ حَظُّ العين فى ذَاكَ مَذْهَبِى ولكنْ رأَيْتُ العَيْنَ باباً إلى القَلْبِ
أُعِيذُكَ أَنْ تُمْنَى بِشَكْوَى صَبَابَة وإنْ أَكْسَبَتْنَا مِنكِ عَطْفًا على الصَّبِّ[٦]
ويَحْزُنُنِى أَنْ تَعْرِفِى الحُبَّ بالجَوَى وإنْ نَفَعَتْنَا فيك مَعْرِفَةُ الحُبِّ[٧]

وقوله :

نَظَرْتُ ، وكَمْ نَظَرْتُ فَأَقْصَدَتْنِى فُجَاءَاتُ البُدُورِ عَلَى الغُصُونِ[٨]

---

(١) م « عند القتيل . . أثمت فيه »
(٢) ديوان البحترى ٢٣ ، ٣ /١٥٩٩
(٣) فى الديوان « أحنو إليك »
(٤) م « وله عليك »
(٥) ديوانه ٢ ٤٠ ، ١ / ١٠٤ دار المعارف
(٦) فى الديوان « أكسبتنا »
(٧) م « أن تعرف » فى الديوان « ولو نفعتنا منك »
(٨) ديوان البحترى ١٣٨، ٤/٢٢٦٦ وفى م « وكم من نظرت »

وَرُبَّةَ نَظْرَةٍ أَقْلَعْتُ عَنْهَا   بِسُكْرٍ فى التَّصَابِى ، أَوْ جُنُونِ
فَيا للهِ ما تَلْقَى القُلُوبُ الْ   هَوَائِمُ مِنْ جِنَايَاتِ العُيونِ
وقَدْ يَئِسَ العَوَاذِلُ من فُؤَاد   لَجُوجٍ فى غَوَايَتِهِ حَرُونِ

وقوله :

قَالَ بُطْلاً ، وَأَفَالَ الرَّأْىَ مَنْ   لَمْ يَقُلْ : إنَّ المَنَايَا فى الحَدَقْ[1]
إنْ تكُنْ مُحتَسِباً مَنْ قَدْ ثَوَى   لِحمَام فاحْتَسِبْ مَنْ قَدْ عَشِقْ
يَمْلأُ الوَاشِى جَنَانِى ذُعْرًا   ويُعَنِّينِى الحديثُ المُخْتَلَقْ[2]
حُبُّهَا أَوْ فَرَقًا مِنْ هَجْرِهَا   وَصَرِيحُ الذُّلِّ حُبٌّ أَوْ فَرَقْ

قولَه : «يُعَنِّينِى الحديثُ المُخْتَلَقْ» — من أحسن المعانى وأحلاها ، وأجراها فى عادات كل عاشق — فأراد يعنينى اختلاق الحديث ، وهو اخْتِرَاصُه أى يُنْصِبَنِى ، ويحزننى ؛ لشدَّة حبِّى لها ، وخوفى من هجرها .

والألف فى قوله : «أو» فى البيت مقحمة فى الموضعين ؛ وإنما أراد حبها وفرق هجرها ، وصريح الذل حب وفرق ، ولم يرد بإدخال الألف أحدَهُمَا

وقال «آخر» فى نحو هذا :

تُكَذِّبُنِى فى الحبِّ سَلْمَى، ولَيْسَ لِى   شُهُودٌ، وأَنِّى بالشهود علَى صِدْقِى
سِوَى ذَوْبِ جِسْمِى ،وانْتِكَاثِ بَشَاشَتِى   ورَوْعَةِ قلبى بالأَبَاطِيل والحَقِّ

[قوله : «روعة قلبى بالأباطيل والحق »][3] نحو قول البحترى :

* ويعنِّينِى الحديث الْمُخْتَلَقْ *

---

(١) ديوان البحترى ٣٢٢ ، ١٤٧٢

(٢) ق «الواشى حياتى »

(٣) الزيادة من ق

وهذا البيت حسن التقسيم .

كان بعض شيوخ الأدب تعجبه[١] التقسيمات فى الشعر ، وكان مما يعجبه قول عباس بن الأحنف :

وِصَالُكُمُ هَجْرٌ ، وحُبُّكُمُ قِلى   وَعْطفُكُمُ صَدٌّ ، وسِلْمُكُمْ حَرْبُ[٢]

ويقول : هذا أحسن من تَقْسِيمَات إِقْلِيدِسْ .

وقال أبو العباس ثعلب : سمعت « سيد العلماء » يستحسنه . يعنى ابن الأعرابى[٣] .

ونحو هذا ما أنشده المُبرِّد لأَعْرَابِىّ ، وليس هو عندى من كلام الأعراب ، وهو بكلام المولدين أشبه :

وأَدْنُو فتُقْصِينِى ، وأَبْعُــدُ طَالباً   رِضَاها فتَعْتَدُّ التَّبَــاعُدَ مِنْ ذَنْبِى[٤]

وَشَكْوَاىَ تُؤْذِيها ، وصَبْرِى يَسُرُّهَا   وَتجْزَعُ مِنْ بُعْدِى.وتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِى[٥]

---

(١) ق « وكان محمد بن موسى بن شاكر المنجم تعجبه »

(٢) ديوان العباس بن الأحنف ٩٩

(٣) فى ق بعد ذلك تعليق أدرج فى أصل الكتاب ، وهو : « وقال عبد السلام : أنشدنى أبو الحسن : عمر بن أبى عمر السنجزى قال : روى لنا ابن طباطبا ، رضى الله عنه فى آخر كتاب « عيار الشعر » — للبحترى ، ولم أجده فى شعر البحترى .

وفى أربع منى حلت منك أربع   فما أنا دار أيهــا هاج لى كربى

أوجهك فى عينى أم الريق فى فى   أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى ؟

ولكنهما فى عيار الشعر ١٢٨ لقائل غير معين . ونقلهما أبو هلال العسكرى فى الصناعتين عنه كذلك من غير نسبة . وهما غير منسوبين فى نهاية الأرب ٢/ ٣٣ وهما لابن الرومى فى المنتظم ٥ / ٦٦

(٤) هما فى ثلاثة أخر فى الكامل ١ / ٢٤٥

(٥) فى ق بعد هذا البيت « وههنا زيادة بيت أنشده المبرد وهو :

فهل عندكم من حيــلة تعلمــونها   أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربى

وهو أدون الأبيات الثلاثة »

وقول البحترى :

وَلِى هَفَوَاتٌ بَاعِثَاتٌ لِىَ الجَوَى ... يُعَرِّضْنَنِى من بَرْحِهِ للمَتَالِفِ[1]
كأَنَّ العُيُونَ الفَاتِنَاتِ تَعَاوَنَتْ ... عَلَى تِرَةٍ عِنْدَ العُيونِ النَّوَارِفِ[2]

وقوله :

وإذَا كَسَرْنَ جفُونَهُنَّ نَظَرْنَ مِنْ ... مرضى ـ يَشُفُّكَ سِحْرُهُنَّ ـ صِحَاحِ[3]
تَظْمَا إليهنَّ القلوبُ ، وقد تَرَى ... فيهِنَّ رىَّ الحَائِمِ المُلْتَاحِ[4]
والحبُّ سُقْمٌ للصَّحِيحِ إذا غَلاَ ... فيه المحبُّ ، ونشوةٌ للصَّاحِى[5]
بَكَرَ العَذُولُ فَكَفَّ غَرْبَ بَطَالَتِى ... وبَدَا المشيبُ فرَدَّ غَرْبَ جِمَاحِى
قَدْ آنَ أَنْ أَعْصِىَ الغَوَايَةَ إذْ نَضَا ... صِبْغُ الشَّباب ، وأَنْ أُطِيعَ اللَّاحِى

وقوله .

جُنُونِى إلى سُعْدَى ، وَسُعْدَى خَلِيَّة ... وصَغْوِى إلى سُعْدَى ، وسُعْدَى تَجَنَّبُ[6]
إذَ لَبِسَتْ كانَتْ جَمَالَ لِبَاسِهَا ... وتَسْلُبُ قَلْبَ المُجْتَلِى حينَ تُسْلَبُ[7]
وسمَّيْتُهُا مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ زَيْنَبـاً ... وكمْ سَتَرَتْ حُبًّا عن النَّاسِ زَيْنَبُ[8]

---

(١) ديوان البحترى ٣٧٤ ، ٣/١٣٩٠

(٢) م « العيون الروادف »

(٣) ديوانه طبع بيروت ١/١٢٤ ، ١/٤٧٦ دار المعارف

(٤) ق والديوان « الهائم الملتاح »

(٥) فى ق والديوان « سقم للحبيب »

(٦) ديوانه ٦٠٧ ، ١ / ١٣٤ « جنونى فى ليل وليل خلية * وصغوى فى ليل وليل »

(٧) م « وتسلب حب » وفى الديوان « لب »

(٨) م « على الناس »

غَضَارَةُ دُنْيَا شَاكَلَتْ بِفُنُونِها مُعَـاقَبَةَ الدُّنْيَا التى تَتَقَلَّبُ
وجَنَّــةُ خُلْدٍ عَذَّبَتْنَا بِدَلِّهَـا وَمَا خِلْتُ أَنَّا فى الجَنَانِ نُعَذَّبُ[١]

وهذا البيت يزيد على إحسان كل محسن فى الغزل[٢]

* * *

ولا خفاء بفضل «أبى عبادة» على «أبى تمام» فى هذا الباب .

---

(١) فى الديوان «بالجنان»

(٢) فى ق بعد ذلك «والرواية : وجنة دنيا . ولا خفاء فى تفضيل ... »

ما قيل فى ائتلاف المحبين

قال البحترى :

وَجَدْتِ نَفْسَكِ مِنْ نَفْسِى بِمَنْزِلَةٍ هِىَ المُصافَاةُ بَيْنَ الماءِ والرَّاحِ[١]

وهذا حسن جدًّا ، وأظنه أخذه من قول « بَشَّار » :

وإِذْ نَلْتقِى خَلْفَ العُيُونِ كأَنَّنَـــا سُلاَفُ عُقَارٍ بالنُّقَاخ مَشُوبُ[٢]

أَخذه أَيضاً من قول « ابن أَبى عُيَيْنَةَ »[٣] فقال :

ذَاكَ إِذْ رُوحُها وَرُوحِى مِزَاجًا نِ كَأَصْفَى خَمْرٍ بأَعْذَبِ مَاءِ[٤]

وقول البحترى أَيضاً أَجود من البيتين . وأَخذه « عباس بن الأَحْنَف » فقال :

ما أَنْسَ لاَ أَنْسَ يُمْنَاهَا مُعَطَّفَـــةً على فؤادى ، ويسرها على راسى[٥]

وقَولَها : لَيْتَهُ ثَوْبٌ عَلَى جَسَدِى أَوْلَيْتَنِى كُنْتُ سِرْبالاً لعَبَّاسِ

أَوْ لَيْتَهُ كَانَ لى خَمْرًا ، وكنتُ لهُ من ماءِ مُزْنٍ فَكُنَّا الدَّهْرَ فى كَاسِ

---

(١) ديوان البحترى ٥٨ ، ١ / ٤٤٢ دار المعارف ، وأمالى المرتضى ٢ / ٦٤

(٢) ديوان بشار ١ / ١٨٥ وأمالى المرتضى ٢ / ٦٣

(٣) م « غينبة »

(٤) أمالى المرتضى ٢ / ٦٤ فى الأغانى ١٧ / ١٣ بعد البيت : « قال محمد بن يزيد : وقد أخذ المعنى غيره منه ، ولم يسمه وهو البحترى فقال :

جعلت حبك من قلبى بمـــنزلة هى المصـــافاة بين الماء والراح

(٥) ديوان العباس بن الأحنف ١٥٦ وأمالى المرتضى ٢ / ٦٤

وأَخَذه «على بن الجهْم» ، وجعله فى العِنَاق [فقال][1] :

وبِتْنَا عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ كَأَنَّنَا خَلِيطَانِ مِنْ مَاءِ الغَمَامَةِ والخَمْرِ[2]

وأجود من هذا كله وأحلى ، وأَلطف معنى ــ قول «بَشَّار» :

لَقَدْ كانَ ما بَيْنِي زَمَاناً وبَيْنَها كما بَيْنَ رِيحِ المِسْكِ والعَنْبَرِ الوَرْدِ[3]

وقال «عبد الصَّمَد بن المُعَذَّل» فى العناق والاختلاط :

كأَنَّنى عَانقْتُ رَيْحَانَةً تَنَفَّسَتْ فى لَيْلِها البَارِدِ[4]

فَلَوْ تَرانَا فى قَمِيصِ الدُّجَى حَسِبْتَنَا فى جَسدٍ وَاحِدِ

وهذا أَحسن من بيتى «العباس» الأَولين .

وقال البحترى :

ولَمْ أَنْسَ لَيْلَتَنَا فى العِنَا قِ لَفَّ الصَّبا بِقَضِيبٍ قَضِيبَا[5]

وما زلت أَسمع أَهل العلم بالشعر يقولون إن هذا البيت أَجود ما قيل فى العناق ؛ لأَنه أَصاب حقيقة التشبيه بأَجود لفظ ، وأَحسن نظم .

ومثلُه قول «آخر» وجدته فى الأَناشيد ، ولست أَدرى أَيهما أَخذ من صاحبه :

وضَمٌّ لا يُنَهْنَهُ ، واْعتِنَاقٌ كما اْلْتَفَّ القَضِيبُ على القَضِيبِ[6]

---

(١) الزيادة من ق .

(٢) ديوان على بن الجهم ١٤٤ وحماسة ابن الشجرى ١٩٦ وأمالى المرتضى ٢ / ٦٣

(٣) ديوان بشار ٢ / ٣١٤ وأمالى المرتضى ٢ / ٦٤

(٤) نقلهما المرتضى فى أماليه ٢ / ٦٢ وهما فى حماسة ابن الشجرى ١٩٦ والمختار من شعر بشار ٢٩٥ ونسبا لابن المعتز فى أمالى القالى ١ / ٢٢٦ وفى م « كأنى علقت »

(٥) ديوان البحترى ٩٢ ، ١ / ١٥٠ «وأنس ليلتنا»

(٦) نقله المرتضى من هنا ٢ / ٦٣ ومن عجب أنه قدم له بقوله : « ولآخر فى مثل هذا المعنى ، ولسنا ندرى هل سبق البحترى أو تأخر عنه » ! !

وبيت «البحترى» أجود سَبْكاً ، وأحلى لفظاً ؛ لقوله : «لَفَّ الصَّبا» ؛ لأن القضيب إنما يلتف بالقضيب بالريح .

وقد قال «بشار» فى نحو هذا ، وأظن هذين منه أخذا :

إنَّنِى أَشْتَهِى لِقَاءَك واللَّـ ـهِ فَماذَا عَلَيْك مِنْ لُقْيَانِى[1]
قَدْ تَلفُّ الرِّياحُ غُصْناً مِنَ البَا نِ إلى مِثْلِهِ فَيَلْتَقِيَـانِ

وقال «على بن الجهم» فى وكيد الالتزام :

سقَى الله ليلاً ضَمَّنا بَعْدَ هَجْعَةٍ وأدْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادٍ مُعَذَّبِ[2]
فَبِتْنَـا جَمِيعاً لو تُرَاقُ زُجَاجَةٌ مِنَ الرَّاحِ فيما بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ

وهذا أيضاً حسن لفظاً ومعنى .

* * *

وأحسن ما قيل فى المُضَاجَعَة قولُ «امرئِ القيس» :

تَقُولُ وقَدْ جَرَّدْتُها مِنْ ثِيَابِها كمارُعْتَ مَكْحُولاً مِنَ العِينِ أتْلَعَا :[3]
وجَدِّكَ لَوْ شَيءٌ أَتَانَا رَسُولُه سِوَاكَ ولكِنْ لَمْ نَجِدْ لكَ مَدْفَعَا
فَبِتْنَا نَذُودُ الوَحْشَ عَنَّا كأَنَّنَـا قَتِيلاَنِ لَمْ يَعْلَمْ لنا الناسُ مَصْرَعَا
تجافَى عن المَأْثُورِ بَيْنِى وبينها وتُدْنِى عَلَيَّ السَّابِرِيَّ المُضَلَّعَا
إذا أَخَذَتْها هِزَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ بِمَنْكِبِ مِقْدَام عَلَى الهَوْلِ أَرْوَعَا

وهذا لا شيء أجود منه ، ولا أحلى ، ولا أبرع ؛ وقد أَخْبَرَ بالأمر على ما كان .

---

(١) أمالى المرتضى ٢ / ٦٣ «عليك أن تلقانى» .

(٢) ديوان على بن الجهم ٨٥ وحماسة ابن الشجرى ١٩٦ وأمالى المرتضى ٢ / ٦٢ والمختار من شعر بشار ٢٩٥

(٣) حماسة ابن الشجرى ١٩٥ وأمالى المرتضى ٢ / ٦٢ وفى ديوانه ١١٣ وق «مكحول المدامع»

وقد أَحسن أيضاً «عبد بنى الحسْحاس» فى قوله :

وبِتْنَــا وسَادَانَا إلى عَلَجَانَةٍ وحِقْفٍ تَهَادَاهُ الرِّياحُ تَهادِيَا[١]

فَمَا زَالَ بُرْدِىَ طَيِّباً مِنْ ثيابَهِا إلى الحَوْلِ حتَّى أَنْهَجَ البُرْدُ بَالِيَا[٢]

* * *

ولست أَعرف لأَبى تمام فى هذا الباب شيئاً .

---

(١) ديوان سحيم ١٩ – ٢٠ وبينهما أبيات . وهو فى اللسان ٣ / ١٥٢ وفى م «وسادتنا على» والعلجانة . شجرة اختلف فى وصفها . والحقف : ما اعوج من الرمل واستطال .

(٢) ديوان المعانى ١ / ٢٦٠ واللسان ٣ / ٢٠٧ ، وأنهج البرد : أى أخذ فى البلى .

باب فى نوح الحمام

قال أبو تمام :

أَتَضَعْضَعَتْ عَبَراتُ عَيْنِكَ أَنْ دَعَتْ   وَرْقَاءُ حِينَ تَضَعْضَعَ الإِظْلَامُ[١]

لا تَنْشِجَنَّ لَها ؛ فإِنَّ بُكَاءَهَا   ضَحِكٌ ، وإِنَّ بُكاءَكَ ٱسْتِغْرَامُ

هُنَّ الحَمَامُ فإِن كسرت عِيَافَةً   مِن حَائِهِنَّ فإِنَّهُنَّ حِمَامُ[٢]

قوله : « أَتَضَعْضعت عبرات عينك » . أى وهت ، وانحل نظامها .

وقوله : « حِينَ تَضَعْضَعَ الإِظْلَامُ » : أى حين تَقَوَّض إلا أقلّه .

والنَّشِيج : البكاء .

وههنا معارضات عورض بها أبو تمام فى هذه الأَبيات ، وهى أن قيل :

قوله : « أتضعضعت عبرات عينك » إنكار على نفسه البكاءَ من أَجل دعاء حمامة ، كأَنه يُخَسِّسُ[٣] أَمْرَها ، فما وجه قوله : « فإنهن حِمام ؟ » فسهَّل أَمرها أَولا ، ثم أَعظمه هذا التعظيم آخرًا . هذا عين المُنَاقَضة . ثم من ذا رآه قتلَه بكاءُ الحمام[٤] حتى يجعلهن حِمَاماً ؟ وزعم أَن بكاءَها ضَحِك ، والحَمَامُ إنما ينوح لفقد إِلْفه وفِرَاخِهِ فيطيل الترنُّم والنَّوْح ، فكيف يكون ذلك ضَحِكاً أَوْ كالضَّحِك ؟

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٧٩ وشرح التبريزى ٣ / ١٥٢ والزهرة ٢٤٢ ويروى « أتحدرت » و « أتصعصعت » . . تصعصع » والتصعصع : التفرق والاضطراب

(٢) الصناعتين ١١٨ وعيون الأخبار ١ / ١٥٠

(٣) م « يحسن »

(٤) م « حمامة »

فقيل للمعارضين : وأى دليل فى [قوله] [١] : «أتضعضعت عبرات عينك أن[٢] دعت وَرْقَاءُ» – على أنه خَسَّس[٣] أمر الورقاء وهى الحمامة ، وحقَّره حتى يكون قوله : فإنهن[٤] حِمام – نَقْضاً لهذا المعنى .

فقالوا : هذا مذهب من مذاهب العرب معروف فى تهوين أمر الحمامة ، وتعنيف من يبكى لبكائها . ومن ذلك قول «البحترى بن عزافر الحرشى» :

أَإِنْ غَرَّدَتْ يوماً بِوَادٍ حَمَـــامَةٌ ... بَكَيْتَ ، ولَمْ يَعْذرْكَ بالجهل عَاذِرُ

فقوله : «أإن غرَّدت حمامةٌ بكيت» – تهوين لأمر الحمامة فى تغريدها ، أى ذلك لا يوجب البكاء . وهذه الألف تسمى ألف التوبيخ .

ونحوه قول «ابن الدُّمَيْنَةَ» :

أَأَنْ هتَفَتْ وَرْقَاءُ فى رَوْنَقِ الضُّحَى ... عَلَى غُصُن غَضِّ النَّباتِ من الرَّنْدِ[٥]

بكيتَ كما يَبْكِي الوَلِيدُ ، ولَمْ تَكُنْ ... جَلِيدًا ، وأَبْدَيْتَ الذى لم تكُنْ تُبْدِى

فقال : «بكيت كما يبكى الوليد» يعنى الصَّبِىّ .

ومثله قول «الأحوص» :

أَأَنْ نَادَى هَدِيلاً يوم فَلْجٍ ... مع الإِشْرَاقِ فى فَنَنٍ حَمَامُ

ظللت كأَنَّ دمعك دُرُّ سِلْكٍ ... هَوَى نَسقاً ، وأَسْلَمَهُ النِّظَامُ

ونحوه قول «آخر» من بنى قُشَيْر – وأنشده أبو حاتم :

أَتَجْزَعُ أَن وُرْقُ الحمامِ تغرَّدَا ... بكَى شجْوَه ، أو جَاوَبَ اليومَ هُدْهُدا[٦]

---

(١) الزيادة من ق

(٢) م «أى»

(٣) ق «حسن»

(٥) الأغانى ١٥ / ١٥٦ والحيوان ٣ / ٣٨٠ والزهرة ٢٤١ والأول فى الكامل ٢ / ٥٠٦ وديوان ابن الدمينة ٨٥

(٦) م «أو جادت»

ومثله فى أشعارهم [كثير][1] موجود .

وإلى هذا المعنى ذهب أبو تمام فى قوله : «أتضعضعت عبرات عينك» كأنَّه يوبِّخ نفسَه على البكاء من أجل بكاء حمامة . ولما قال : «فإنهن حمام» ، كانت هذه مناقضة ظاهرة .

وهذه[2] — لعمرى — معارضة . غير أن أبا تمام قد يجوز أن لا يكون اعتمد تهوين أمر الحمامة كما اعتمد هؤلاء الشعراء ، وأن يكون توبيخه[3] لنفسه ليس على هذا الوجه ، بل إنما أراد : لا تبك لبكاء الحمام ؛ فإنك تسمعه دائماً يُغَرِّد ، فإن كنت كلَّما سمِعته بكيتَ وحزِنت — طَالَ بكاؤُكَ وحزنُك . وذلك كما قال الآخر[4] :

أَأَنْ زُمَّ أَجْمَالٌ ، وفارَقَ جِيرَةٌ وصاحَ غرابُ البَيْنِ — أَنْتَ حَزِينُ؟

وقد عِيبَ هذا الشاعر فى هذا[5] المعنى ، وقيل : إذا كان هذا لا يحزن فأى شىء يحزن ؟

ولا شك فى أن ظاهر هذا القول قبيح ؛ لمخالفته ما فى عادات الناس . إلا أنى أظن هذا الشاعر ما ذهب فى هذا القول إلى تهوين هذه الأشياء ، وتحقيرها ، وإنما أراد أن مثل هذا يقع دائماً ، فإن[6] كان كلَّما شاهدته ورأيته حزنت — طَالَ حزنُك .

---

(١) الزيادة من ق

(٢) م «وهذا»

(٣) م «يكون توضيحه»

(٤) م «لما قال» وفى ق «قال كثير» والبيت لكثير فى الموشى ١٠٦

(٥) ق «بهذا» وقد عابته بذلك : عقيلة بنت عقيل بن أبى طالب ، كما فى الموشح ١٦٠ — ١٦١

(٦) ق «وإن كنت»

وقد قال «مُرَّةُ النَّهْدِىّ» :

أَأَنْ سَجَعَتْ فى بَطْنِ وادٍ حَمَامَةٌ تُجَاوِبُ أُخْرَى ماءُ عَيْنَيْكَ غَاسِقُ[١]

كأَنَّكَ لم تَسْمَع بُكاءَ حَمَامَةٍ بليلٍ ، ولم يحزنك إِلْفٌ مُفَارِقُ

ولم تر مشغوفاً بشىء تحبُّه سِوَاك ولم يَعْشَق كَعِشْقِكَ عاشِقُ[٢]

فقال : «أَأَن سَجَعَتْ» يوبِّخ نفسه على البكاء لبكاء حمامة . ولم يذهب فى ذلك إلى تَخْسِيس أمرها ، بل إلى ما قد دل عليه [قوله][٣] : «كأَنك لم تسمع بكاء حمامة» . أى قد حزنت لذلك[٤] كثيرًا ، وبليت للحزن على مفارقة الإلف دائماً ، ورأيت مَنْ حالُه كحالك أبدًا ، فينبغى أن تقصر .

فكذلك هؤلاء الشعراء فى الأبيات المتقدمة جائز أن لا يكونوا هَوَّنُوا أَمْرَ الحمامة ، إن كانوا اعتمدوه ، على أنه هين عندهم وعلى[٥] الحقيقة ، إنما ذهبوا فى ذلك إلى أن يَرْدَعُوا نُفُوسهم عن البكاء ، فغير منكر ممن أراد أن يردع نفسه عن شىء أن يُهَوِّن السبب الجالب لذلك[٦] الشىء ويُحَقِّره ، وإن كان عظيماً .

غير أن أبا تمام أوقع التوبيخ على نفسه كما فعلوا ، وذهبوا إلى تهوين أمر الحمامة ، وذهب هو إلى تعظيمه فى قوله : «فإنهن حِمام» . فوافقهم فى التوبيخ ، وخالفهم فى المعنى ، كقائل قال لرجل : أمثلك يسامى عمرا ؟

---

(١) م «عاشق» وذكر القالى أنه للعوام بن عقبة ١ / ١٣١ وفى حماسة ابن الشجرى ١٧٢ للصمّة ابن عبد الله القشيرى ، ومن غير نسبة فى أمالى اليزيدى ٥٠

(٢) م ، ق «لعشقك»

(٣) الزيادة من ق

(٤) ق «أى قد سمعت ذلك كثيراً»

(٥) ق «على»

(٦) م «إلى ذلك»

ويقول له قائل آخر كهذا القول سواء ، ويكون أحدهما مُصَغِّرا [له][1] عن مُسَامَاةِ عمرو ، والآخر مُكَبِّرًا معظماً ، فيستويان فى اللفظ ، ويختلفان فى المعنى .

وقد تقدم الناسُ أبَا تمام فى مثل قولِهِ : « فإنهن حِمَامُ » ، وقد ذكروا أن تَغْرِيدَ الحمام يُبْلِي ، ويُميت ، ويَقتل . وهو المذهب الأعم الأكثر ، فمن ذلك قول « نُصَيْب » :

مُحَلاَّةُ طَوْقٍ كَانَ مِنْ غَيْرِ شَرْيَةٍ بمالٍ ، ولم تَغْرَمُ لَهُ جُعْلَ دِرْهَمِ
أَمُوتُ لتبْكَاها أسىً إنَّ عَوْلَتِى وَوَجْدِى بِسُعْدَى شَجْوُه غَيْرَ مُنْجِمِ[2]

وقال [آخر][3] :

أَلاَ يَا حَمَامَاتِ اللِّوَى عُدْنَ عَوْدَةً فإنِّى إلى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ[4]
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَنِى وكدْتُ بأَحْزانِى لَهُنَّ أُبِينُ

[وقال آخر :

وهيَّجَتْنى – فاَهْتَجْتُ للشَّوْقِ والصِّبَا – مُطَوَّقَةٌ خَطْباءُ عالٍ رَنِينُها
تَموتُ لها نَفْسُ الحزين صَبَابَةً إذا مَا دَعَتْ وَهْناً وغَنَّتْ غُنُونُها][5]

---

(١) م « مصعداً عن » .
(٢) أمالى المرتضى ١ / ٣٣٠ « لمبكاها أسى » ومنجم : مقلع .
(٣) الزيادة من ق .
(٤) الأمالى ١ / ١٣٢ والزهرة ٢٤٠ من غيرة نسبه ، وفى نهاية الأرب ٢ / ٢٦٣ لمجنون ليل . وتنسب لعبد الله بن الدمينة كما فى ديوانه ٣٩ ، ٢٢٤
(٥) الزيادة من ق وفيها « عنونها » والغنون : الأصوات .

وقال [آخر] :

أَلا يَاحَمَامَ الشِّعْبِ من غَيْضَةِ اللِّوَى رِدِى الماءَ لا تُؤْخَذْ عَلَيْكِ الكَظَائِمُ[1]

حَمَائِمُ قَدْ أَبْلَيْنَنِى ، وقَتَلْنَنِى كأَنْ لَمْ يَهِمْ قَبْلِى مِنَ النَّاسِ هَائِمُ

وذكر هذا أنهن[2] أَبْلَيْنَه ، وقتلنه ، فما وجه الإنكار على أبى تمام قوله : « فإنهن حمام » ؟

فإن قيل : إنما أراد هؤلاء الشعراء إماتة الحب ، وقتل الحب الذى هو التذليل والتَّتْيِيمُ ، ولم يريدوا القتل الذى هو الإتيان على النفس ، ولا الموت الوَحِىَّ [والحمام] [3] ليس من هذا فى شىء ؛ لأنه قَدَرُ الموت المَقْدُور ، وقضاؤُه المَحْتوم . يقال : قد حُمَّ الأَمْرُ إذا قضى وقُدِّر . قال « الرَّاعِى » :

* وما حُمَّ مِنْ قَدَرٍ يُقْدَرُ[4] *

قيل : إذا استعمل الموت على المجاز فقضاء الموت ، وقدره أيضاً يستعمل على المجاز ؛ لأنك إذا قلت على المجاز : فى هذا الأمر إذا ارتكبته قَتْلِى ، أو مَوْتِى – قلتَ أيضاً على المجاز : فى هذا الأمر حِمَامِى . وقد ذُكِر الحمام على الوجه كما ذُكِر الموت والقتل . فقال [الفزارى .

* وأَوْرَدَنِى يوم العذيب حِمَامِى *

ولم يمت يوم العذيب . ومثله كثير موجود] [5] .

وأما إنكارهم قوله[6] : « فإن بكاءها ضحك » . وقولهم : إن الحمامة

---

(١) الكظائم : فى اللسان ١٥ / ٤٢٥ « وكل ما سد من مجرى ماء أو باب أو طريق : كظم »

(٢) م « أنه »

(٣) الزيادة من ق

(٤) صدره « تغير قوى ولا أحخر » كما فى اللسان ٦ / ١٧

(٥) الزيادة من ق

(٦) م « قولهم »

تغرد لفقد إلفها وفرخها ، وتكثر النوح عليهما ، فكيف يكون ذلك ضحكاً ؟

فالجواب عن هذا : أن ذلك التَّغْرِيدَ بَعينه قد يُسمع منها وإلفها معها ، وتفعله وهى فى عُشِّها مع فَرْخها . والمشاهدة لهذا أكثر وأعم . ويسمى ذلك التغريد نَوْحاً ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَلَا يا حَمَامَ الأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ وغُصْنُكَ مَيَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ ؟[1]
وَناحَتْ وَفَرْخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا ومِنْ دُونِ أَفْرَاخِي مَهَامِهُ فِيحُ

ولهذا قال وَرْدُ بن الجَعْد :

أَحقًّا يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَادٍ بِأَنَّك فى بكائِك تَصْدُقِينَا[2]
غَلَبْتُك فى البكاءِ بأَنَّ لَيْلِى أُوَاصِلُهُ ، وأَنَّك تَهْجَعِينَا[3]
وأنى إن بكيت بكيت حقًّا وأنك فى بكائك تكذبينا[4]

فمن ههنا قال أبو تمام : «لا تَنْشجَنَّ لها فإنَّ بَكاءها ضَحِكٌ» . أى ليس هناك بكاء على الحقيقة ، ولا حزن على الصِّحة ، وإنما يشجوك تغريدها لأن لها تَلْحيناً وتَرْجِيعاً كأنه صوت نائح ؛ ومن أجل ذلك ادعت الأعراب أن فرْخ حمام كان على عهد نوح يقال له[5] الهديل ــ صاده بعض جوارح الطير . فيزعمون أنه ما من حمامة إلا وهى تبكى عليه . وهذا من خرافات الأعراب . وإنما قالوا ذلك لما رأوا الحمام على كل حال يغرد هذا التغريد

(١) البيت الأول فى الكامل ٣ / ٨٤٨ لعرف بن محلم ونهاية الأرب ٢ / ٢٦٤ ، والثانى له فى سمط اللآلى ١ / ٣٧٢ وهما فى فوات الوفيات ٢ / ٢٣٤ ومعجم الأدباء ١٧ / ١٤٢ — ١٤٣ والأول غير منسوب فى الزهرة ٢٤١ .

(٢) الأبيات فى الزهرة ٢٤٢ لنبهان العبشمى ، وفيها : « بطن قو بهذا الوجد أنك تصدقينا » .

(٣) م « بالبكاء » .

(٤) م « وأنى وإن » وفى الزهرة :

وأنى أشتكى فأقول حقًّا وإنك تشتكين فتكذبينا

(٥) م « لها » .

الشَّجِىُّ فسموه نوحاً وبكاءً [واحتراقًا][1] واخترعوا له هذا الحديث ، وذكروه فى أشعارهم[2] .

فمن ذلك قول الكُمَيْت :

وَمَا مَنْ تَهْتِفِينَ لَهُ بِنَصْرٍ   بأَقْرَب جَابَةً لَكِ مِنْ هَدِيلِ[3]

وقال نُصَيْب :

فَقُلْتُ :أَتَبْكِي ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرَتْ   هَدِيلاً وقَدْ أَوْدَى وَمَا كَانَ تُبَّعُ[4]

أى أودى قبل تُبَّع .

وقال نصيب أيضاً :

هَتُوفُ الضُّحَى وَرْقَاءُ يذْكِرُكَ الهوَى   بُكاهَا هَدِيلاً شَجْوُهُ حِين تَهْتِفُ

وقوله : شجوه أى بشجوه .

وقال آخر :

أَيَبْكِي هَدِيلاً بالعَشِيِّ وبالضُّحَى   عَلَى الطَّلْحِ قُمْرِىّ الحَمامِ الْمُغَرِّدِ

وقال آخر :

إنِّي تُذَكِّرُنِى سَلْمَى مُطَوَّقَـةٌ   تَدْعُو هَدِيلاً على أَفْنَانِ أَغْصَانِ

ومثل هذا كثير فى أشعارهم جدًّا . ولا يكادون يخرجون فى نوح الحمام عن أن يجعلوه على الفرخ القديم ، أو على إلفٍ مُفَارِق ؛ وذلك لرقة

---

(١) الزيادة من ق .

(٢) ق « فى أسمائهم » .

(٣) البيت له فى اللسان ١٤ / ٢١٦ « لنصر بأسرع » وفى م « من هذيل » .

(٤) ق « تنكرت هديلا » وقبل البيت فى اللسان ١٤ / ٢١٥ « قال نصيب ، وقيل هو لأبى وجزة » .

تغريدها ، وشدة تشوق من يسمع ذلك إلى إلفه . قال رجل من بنى نهشل :

أيبكى حمام الأَيك من فقد إلفه [وأصبر عنها إننى لصبور[١]

وقال جميل][٢] :

أيبكى حَمامُ الأَيْكِ من أجل إلفه وأَصْبِرُ ، مَالِى عن بُثَيْنَةَ مِنْ صَبْرِ

وقال آخر :

ألا يا حَمَام الأَيْك مالَكُ بَاكيًا أَفَارَقْتُ إلْفاً ، أَمْ جَفَاكَ حَبِيبُ ؟[٣]

ومع هذا فقد جعلوا تغريدها أيضاً غِناء ، لأَن من الغناء ما يَشْجُوك فيحزنك ، ومنه ما يسرك فيطربك ؛ ولهذا مَا جَعَلُوا[٤] نَوْحَ الحمام تفجُّعاً ، وسموه غناءً ، وبكاءً فى حال واحدة . ومنه قول الأَحْوَص :

أَهَاجَ لَكَ الصَّبَابَةَ أَنْ تَغَنَّتْ مُطَـوَّقَةٌ عَلَى فَنَن بَكُورُ

تَفَجَّعُ فَوْقَ غُصْنٍ مِنْ أَرَاكٍ وتَحْتَ لبَانِهَا فَنَنٌ نَضِيرُ

فجعل غناءها تَفَجُّعاً .

وقال على بن عُمَيْرَةَ الجَرْمِى :

لقد هَاجَ ذكرى أُمِّ عَمْرٍو حَمَامَةٌ بنعْمَانَ غَنَّتْنَا غِناءً مُرَجَّعَا

بَكَتْ سَاقَ حُرٍّ بالمَراوِيح ، وأَنْتَحَتْ بها الريح فى وَادٍ أَرَاضَ وأَمْرَعَا[٥]

فقال : غَنتنا ، ثم قال : بكت ساقَ حُرّ . فجعل غناءها بكاءً .

---

(١) أمالى القالى ١ / ١٣١ والزهرة ٢٤١ .

(٢) الزيادة من ق .

(٣) الزهرة ٢٤١ .

(٤) ق « ويطربك والحكماء جعلوا » .

(٥) أراض : كثرت رياضه . وأمرع : أخصب وكثر عشبه .

وقال آخر :

تَغَنَّتْ بِرَأْدٍ مِنْ ضُحَاهَا فأَسْمَعَتْ أَخا طَرَبٍ قَدْ أَسْلَمَتْهُ عَوَاذِلُهْ[١]

إذا سجَعَتْ كَرَّتْ بِجَرْسٍ كأَنَّهُ وَتحوُّبُ ثُكْلَى زايَلَتْ مَنْ تُزَايِلُهْ[٢]

فجعل بكاءها كَتَحَوُّب[٣] ثكلى .

وقال النَّابغة :

بكاء حَمامةٍ تَدْعُو هَدِيلا مُفَجَّعةٍ عَلَى فَنَنٍ تُغَنِّى[٤]

فجعلها باكية ، مفجَّعة ، مُغَنِّية .

وقال نُصَيْب :

لقد كِدْتَ تَبْكِي أَنْ تَغَنَّت حَمَامَةٌ عَلَى رَأْدَةِ الأَفْنَانِ نَاعِمَةَ الأَصْلِ

تَهُزُّ بِها الرِّيحُ الضَّعِيفَةُ غُصْنَها مِرَارًا فَتُدْنِى فَرْعَهُ ثم تَسْتَعْلِى

بِهَاتِفَةٍ لاَ تبْرَحُ الدَّهْرَ وَالِهاً على إِثْرِ إِلْفٍ ، أَوْ تَنُوحُ عَلَى شَكْلِ

فقال : تغنت ، ثم جعلها وَالِهاً ، ونائحةً على شكل ، أى على شبه ومثل .

وقال نُصَيْب :

وقد هَاجَنِى للشوق نَوْحُ حَمَامَةٍ هَتُوفِ الضُّحَى هاجَتْ حَماماً فغَرَّدَا

طَرُوبٍ غَدَتْ مِنْ حَيْثُ بَانَتْ فَباكَرَتْ بِعَوْلَتِها غُصْناً مِنَ الأَثْلِ أَغْيَدَا

تَغَنَّت عليه ذاتُ شَجْوٍ مُرِنَّـةٌ بِصَوْتٍ يَشُوقُ المُسْتَهَامَ المُصَيَّدَا

فقال : هاجنى نَوْحُ حمامة ، ثم قال : تَغَنَّت .

---

(١) الرأد : رونق الضحى . وقيل رأد الضحى : ارتفاعه حين يعلو النهار .

(٢) الجرس : الصوت . والتحوب : البكاء فى جزع وصياح . وفى م « تحرب » وزايلت : فارقت .

(٣) م « كتحرب » .

(٤) ديوان النابغة ١٠٧ وأمالى المرتضى ١ / ٤٣ .

وقال نُصَيْب أيضاً :

لعلَّكَ باكٍ أنْ تَغنَّتَ حمامةٌ يَمِيدُ بها غُصْنٌ من الريح مَائِلُ
من الوُرْقِ يَدْعُوها إلى شَجْوِها الضُّحَى فَتَبْكِي ، وتُبْكى حِينَ تَدْنُو الأَصَائِلُ

فجعلها باكية مُغَنِّية .

ومثله قول ابن مَيَّادَة :

يُذَكِّرنيها أنْ تَغَنَّتَ حَمَائِم لهنَّ على خُضْرِ العِضَاهِ عَوِيلُ
تَجاوَبْنَ فى حَدِّ النهار بعَوْلَة وأُخرى تُوَافِى الشمسَ كُلَّ أَصِيل

وقال عُمَرُ بن أَبى رَبِيعَة :

أُدْمُ الظِّبَاء به تَرَنَّمُ سُنَّحا وبكاءُ نائحة به تترنَّمُ[1]
غَنَّتْ عَلَى فَنَنٍ فأَسْعَدَ شَجْوَهَا وُرْقٌ أَجَبْنَ كَمَا اسْتَجَابَ المَأْتَمُ[2]

وقال رجل من بنى نضر بن معاوية :

أَهاجَ لك الأَحزانَ نَوْحُ حمامةٍ تغنَّت بليل فى ذَرَى ناعِمٍ نَضْرِ

فقال : نوح حمامة ، ثم قال : تغنَّت .

وقال سعد بن الجرّاح بن سفيان بن صَامِت الحارثى :

وحمامة أَوْفَتْ بأَخْضَرَ نَاعِمٍ تبكى على غصن من الأَغْصان
عرفَ الحَمامُ لها الغِناءَ فرَنَّمَتْ فاعتادنى نُكْسٌ من الأَحزانِ

---

(١) فى ديوان عمر بن أبى ربيعة ٢١٧ :
أدم الظباء به تراعى خلفه وبخالها فى رسمه تتبغم
وثنى صبابة قلبه بعد البلى ورقاء ظلت فى الغصون ترنم

(٢) فى الديوان « غردت على » .

وقال حُمَيْد بن ثَوْر :

فأَوْفَتْ على غُصْنٍ ضُحَيًّا فَلَمْ تَدَع لباكيةٍ في شَجْوِها مُتَلَوَّمَا[١]

تغنى إذا غَنَّتْ بأَجْزَاع بِيشَةٍ أَو الرَّخْم من تَثْلِيث أَوْ يَبَنْبَمَا[٢]

وقال أبو شَيْبَة الجَرْمي :

أَلا قاتل الله الحمامةَ غُدْوَةً على الغُصْنِ ماذا هيّجَتْ حين غَنَّتِ[٣]

تَعَلَّتْ على الأَفْنَانِ في تلع الضُّحَا فهاجت حزيناً بالبكاءِ وولَّتِ

وقال يزيد بن عمَّار الهِلاَلى :

وذات فَرْخَيْن غنَّتَ في مُسَوَّقَةٍ عَجْمَاءَ مُعْرِبَةٍ ما ضَرَّها العَجَمُ

بكت فأَبْكَتْ مَرِيضَ القلبِ ذَا شَجَنٍ وليس يجرى لها دَمْعٌ فَيَنْسَجِمُ

وقال أَبو مَخْلَد الرَّاسِبِيّ :

ولكنها لم تُذْرِ دَمْعاً وقد بَكَتْ وعَيْنُك تُذْرِى الدَّمْعَ سَحًّا شُئُونُها

وقال رجل من ولد سالم بن مالك الثَّقَفِى :

ويوم اللِّوَى أَجْرَى دُمُوعَك إِذْ دَعَتْ حَمَائِمُ فِى فَىْءِ الأَرَاكِ صَوَائِحُ[٤]

حَوَائِمُ ما تُذْرِى الدُّمُوعَ إِذا بَكَتْ وهُنَّ بأَسرار الدُّموعِ بَوَائِحُ

---

(١) ديوان حميد بن ثور ٢٦ والكامل ٣ / ٨٤٩ .

(٢) فيهما : « إذا شئت غنتنى بأجزاع أو النخل » ويبنبم : واد ، كما فى معجم البكرى ٤ / ١٣٨٧ .

(٣) من غير نسبة فى الزهرة ٢٤١ .

(٤) م « صوارع » .

وقال حَرْبُ بن الحَكَم بن المُنْذِر بن الجارُود :

وقبْلِيَ أَبْكَى كُلَّ مَنْ كان باكياً هَتُوفُ البَواكِي والدِّيارُ البَلاقِعُ[١]

بواكٍ على الأَطلال من كل جانب نوائح ما تخضلّ منها المدامع[٢]

وقال على بن عَمْرَة الجرْميّ :

هَتُوفُ الضُّحَى مَعْرُوفَةُ اللَّحْنِ لم تَزَلْ تَقُودُ الهَوَى مُهْدًى لَنَا ونَقُودُها[٣]

جَزُوعٌ ، جَمُودُ العَيْنِ ، دائمةُ البُكَا وكيف بكا ذِى مُقْلَةٍ وجُمُودُها

مطوَّقة لم يَضْرِب القَيْنُ فِضَّةً عليها ، ولم يَعْطَل من الحَلْى جِيدُها[٤]

فهذا ما عليه العرب وغيرهم فى أن الحمام وغيره من الطير لا دموع لها .

وقال رباح العُقَيْلِي . فجعل لها دموعاً . وذلك سهو منه أو جهل ، وأنشده أبو حاتم :

وما هاج لى إلاَّ عَشِيَّةَ وَاسِطٍ حمَائمُ غِيطَانِ الأَرَاكِ وُقُوعُ

تَجاوَبْنَ فى أَطْلال أَفْنَانِ أَثْلَةٍ بِمُغْرَوْرِقَاتٍ فَيْضُهُنَّ دُمُوعُ[٥]

وإنِّى لأَرْعَى السِّرَّ منْ أُمِّ عَاصِمٍ ولستُ لِعَهْدٍ صَالحٍ بِمُضِيعِ

فقال : « بمغرورقات تفيض[٦] منهن الدموع » .

---

(١) فى الزهرة من غير نسبة ٢٤٥ «كان ذا هوى » .

(٢) فى الزهرة « وهن على الأطلال » .

(٣) لبعض الأعراب فى الزهرة ٢٤٣ « صدوح الضحى هياجة اللحن . . قيود الهوى تهدى لها وتقودها » .

(٤) فى الزهرة « لم تطرب العين فضة » !

(٥) م « فضهن » .

(٦) م « ىفض »

وقال آخر :

فَعُدْنَ بِقَرْقَارِ الهَدِيرِ كأَنَّمَا شَرِبْنَ حُمَيًّا ، أَوْ بِهِنَّ جُنُونُ[١]

فلم تَرَ عَيْنِي قَبْلَهُنَّ حَمَائِماً بَكَيْنَ فَلَمْ تَقْطُرْ لَهُنَّ جُفُونُ

وهذا قد أفصح – كما ترى – بأَن كُلَّ حمام رآه يبكى قبل هذه الحمائم – رأى له دموعاً . هذا مَحْضُ الجهل ، وأَظنه أَراد أَن يقول : فلم تر عينى ، قبلهن بواكياً . فقال حمائماً كما قال جَهْم بن خَلَف :

فلمْ أَرَ بَاكيةً مثلها [تُبَكِّى] ودَمْعَتُها مَا تُرَى[٢]

لم يرد باكية من الحمام ، ولا من الطير ، وإنما أراد باكية من الإنس مفجعة مثل هذه الحمامة . والله أعلم .

وهذ الفصل ليس من الاحتجاج لأَبى تمام فى أبياته . وقد كان يجوز أَن أَتعداه ، وأَقتصر[٣] أَيضاً على بعض الشواهد التى تقدمته ، ولكن وجدت ذلك متمماً للباب فأَوردته .

* * *

وقال أَبو تمام :

لَئِنْ أَرْقَأَ الدَّمْعَ العيونُ وقد جَرَى لَقَدْ رَوِيَتْ مِنْهُ خُدُودٌ نَوَاعِمُ[٤]

كَمَا كَادَ يَنْسَى عَهْدَ ظَمْيَاءَ باللِّوَى ولكن أَمَلَّتْهُ عليه الحَمَائِمُ[٦]

---

(١) لابن الدمينة كما فى ديوانه ٣٩ ، وهما من غير نسبة فى أمالى القالى ١ / ١٣٢ .

(٢) البيت من قصيدة له فى الحيوان ٣ / ١٩٩ والزيادة منه .

(٣) م « وأقتصره » .

(٤) ديوان أبى تمام ٢٨٥ وشرح التبريزى ٣ / ١٧٦ ويروى : « الدمع الغيور » و « أعطش الدمع العيون » ومعنى أرقأ : سكنه ومنعه من السيلان .

(٥) ويروى « لقد كاد » .

بَعَثْنَ الهَوَى فى قلْبِ مَنْ لَيْسَ هائِماً ... فَقُلْ فى فؤادٍ رُعْنَهُ وهْوَ هَائِمُ

لها نَغَمٌ لَيْسَتْ دُموعــاً فإن جَرَتْ ... مَضَتْ حَيْثُ لاتَمْضِى الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ[1]

قوله : «لئن أَرْقَأَ الدمعَ العيونُ وقد جَرَى» . يريد لئن قطعت العيون التى ترقبنى دمعى وقد جرى ، أى فى حال جريه - لقد رَوِيَتْ منه خدودُ أحبابى .

وهذه حال مفهومة معلومة قلَّما يخلو منها [أحد] وهو أن يدور الدمعُ فى مآقه ، ويستحى أن يُرَى باكيًا ، فيكفّ العبرة ويردّها .

ولم يوضح المعنى ويلخصه .

والجيد النادر ، واللفظ الحسن ، والعبارة الصحيحة - قولُ البحترى :

نَهتْهُ رِقْبَةُ الوَاشِينَ حتَّى ... تَعَلَّقَ : ما يَغِيضُ ، ومَا يَسِيلُ

ومثل هذا لا يكون مسروقاً ؛ لأنه جارٍ فى عادات الناس ، مشاهَدٌ معلوم ، وما علمت أحدًا نظمه نظمَ البحترى .

والجيد الحسن أيضاً لفظاً ومعنى - قوله[2] :

ما لِخُضْرٍ يَنُحْنَ فى قُضُبِ الخُضْـ ... ـرِ على كلِّ صاحبٍ مفقودِ[3]

عَاطِلاَتٍ ، بَلْ حَالِيَاتٍ يُرَدِّدْ ... نَ الشَّجَا فى قَلاَئِدٍ وعُقُودِ

زِدْنَنِى صَبْوَةً ، وَذَكَّرْنَنِى عَهْـ ... ـدًا قديماً من ناقضٍ للعهود

ما يُرِيد الحمَامُ فى كلِّ وادٍ ... مِنْ عَمِيدٍ صَبٍّ بِغَيْرِ عَمِيد

كُلَّمَا أُخْمِدَت لَهُ نَارُ شَوْقٍ ... هِجْنَهَــا بالبكاءِ والتَّغْرِيدِ

---

(١) ويروى : «فإن علت» .

(٢) م «وقوله» .

(٣) ديوان البحترى ٦٩٢ ، «ما لخضر ينحن فى القضب» .

قوله : « عاطلات بل حاليات » . يريد أَطْوَاق الحمام . هو لها [شَبيه][1] بالحليّ ، وهنّ منه عواطل .

وما قال أَحد فى هذا المعنى أَحسن ، ولا أَبرع ، ولا أَحلى من قول أمية ابن أَبِى الصَّلْت فى حمامة نوح :

فلما فرشوا الآيات صاغُوا لها طوْقاً كما عُقِدَ السِّخَابُ[2]
تُوَرِّثُه إذا مَاتَتْ بَنِيهـــا وإن تُقْتَلْ فليس لها اسْتِلاَبُ

وقول البحترى : « يُرَدِّدْن الشجا فى قلائدٍ وعُقُودِ » حسن ؛ لأَن الباكية الحزينة ذات الشجو لا تلبس الحلى ، وإن كان عليها تَسَلَّبَتْ منه .

وأَحسن منه قول الآخر :

مُطَــوَّقَةٌ تُبْكِى ، ولَمْ أَرَ بَاكِيًا بَدَا ما بَدَا مِنْ شَجْوها لَمْ تَسَلَّب

أَخذه ابن الرُّومى فقال :

لو تستطيع تسَلَّبَتْ مِنْ طَوْقِها لو كان منْتَحَلاً مِنَ الأَطْوَاقِ

وقال البحترى :

وَوُرْقٍ تَدَاعَى بالبكاءِ بَعَثْنَ لِى كَمِينَ أَسًى بَيْنَ الحَشَا والحَيَازِمِ[3]
وصلتُ بِدَمْعِى نَوْحَهُنَّ وإنَّما بَكَيْتُ لِشَجْوِى ، لا لِشَجْوِ الحَمَائم

وهذا أَيضاً جيد حسن .

* * *

ولست أَعرف لهما فى ذكر الحمام غير هذا[4] .

---

(١) زيادة لازمة .

(٢) السخاب : القلادة .

(٣) ديوان البحترى ٤٤٨ .

(٤) م « هذه » .

باب
فى وصفهما للأيام التى خلت ، والأزمان التى حمداها ، والتذكر لها ، والأسى عليها ويتصل بذلك شيء من ذكر النساء وأوصافهن

وأذكر أولا ابتداآتهما فى هذا الباب .

قال أبو تمام :

أَأَيَّامَنَا مَا كُنْتِ إِلاَّ مَوَاهِبَا   وكُنْتِ بِإِسْعَافِ الحَبِيبِ حَبائِبَا[٢]

وقال :

أَحْسِنْ بِأَيَّامِ العَقِيقِ ، وأَطْيِبِ   والعَيْشِ فى أَظْلاَلِهِنَّ المُعْجِبِ[٣]

وقال البحترى :

لَيَالِينَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ   مَضَيْتِ حَمِيدَاتِ الفِعَالِ فَعُودِى[٤]

بيت أبى تمام الأول أجود من الأبيات الثلاثة .

ولفظ البحترى لا زيادة على حسنه وجودته .

---

(١) م « ويفصل » .

(٢) ديوان أبى تمام ١٦ وشرح التبريزى ١ / ١٤٥ .

(٣) ديوانه ١٢ وشرح التبريزى ١ / ٩٧ .

(٤) ديوان البحترى ١ / ١٨٠ طبع بيروت ، ٢ / ٧٧٧ دار المعارف .

ما جاء عنهما فى وسط كلامهما من هذا الباب

قال أبو تمام :

أَأَيَّامَنَا مَا كُنْتِ إلاَّ مَوَاهِبَا ... وكُنْتِ بإسْعَافِ الحَبِيبِ حَبَائِبا[1]

سَنُغْرِبُ تَجْدِيدًا لِعَهْدِكِ فى البُكَا ... فما كُنْتِ فى الأَيَّامِ إلاَّ غَرَائِبَا

ومُعْتَرَكٍ للشَّوْقِ أَهْدَى بِهِ الهَوَى ... إلى ذِى الهَوَى نُجْلَ العُيُونِ ربَائِبَا

كَوَاعِبُ زَارَتْ فى لَيَالٍ قصِيرَةٍ ... تُخَيَّلْنَ لِى مِنْ حُسْنِهِنَّ كَوَاعِبَا

قوله : « ومُعْتَرَكٍ للشَّوق » يريد موضعاً زاره فيه الكواعب اللواتى ذكرهن ؛ فإن ذلك الموضع يسقط فيه الشوق فلأَن يكون مُعْتَركاً للوصل أَوْلى . والعُذْرُ له أن يقال : إنه إنما كان معتركاً للشوق بعد تلك الحال التى تَقَضَّتْ فهو أبدًا مشتاق إلى ذلك الموضع إذا ذكر له .

وقال :

أَحْسِنْ بِأَيَّام العَقِيقِ وأَطْيِبِ ... والعيشِ فى أَظْلالِهِنَّ المُعْجِبِ

وَمَصِيفِهِنَّ المُسْتَظَلِّ بِظِلِّهِ ... سِرْبُ المَهَا ، ورَبِيعِهِنَّ الصَّيِّبِ

أُصُلٌ كبُرْدِ العَصْبِ نِيطَ إلى ضُحًى ... عَبِقٍ بِرَيْحَانِ الرِّيَاضِ مُطَيَّبِ[2]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٦ وشرح التبريزى ١/١٤٥ .

(٢) نيط : علق . وقوله : كبرد العصب : أى هو حسن فيه نقوش ، وأصل العصب : الغزل ، ثم قيل لضرب من البرد عصب : لأنها من الغزل تكون كما فى شرح التبريزى ١/٩٩ .

وظِـلالِهِنَّ المُشْرِقَاتِ بِخُرَّدٍ   بِيضٍ كَوَاعِبَ غَامِضَاتِ الأَكْعُبِ[1]

وهذا – لعمرى – حَسَنٌ مُعْجِب .

وقال أيضاً أبو تمام .

ولَقَدْ أَرَاكِ فَهَلْ أَرَاكِ بِغِبْطَـةٍ   والعيشُ غَضٌّ ، والزَّمانُ غُلاَمُ[2]

أَعْوَامَ وَصْلٍ كَانَ يُنْسِي طُولَهَا   ذِكْرُ النَّوى فكأَنَّها أَيَّامُ

ثم انْبَرَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ أعقبت   بِجَوًى أَسًى فكأَنَّها أَعْوَامُ[3]

ثم انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونُ وأَهْلُها   فكأَنَّهـا وكأَنَّهُمْ أَحْلاَمُ

فقوله : « كانَ يُنْسِي طُولَها ذِكْرُ النَّوَى » ، أَى إنا كنا نَذْكُرُ الفراقَ فنُبَادِرُ السرورَ واللذات فكان ذلك يقصر من طولها . وأَيَّامُ السّرور على كل حال قِصار ، اعترض فيها خوف الزوال أَو لم يعترض .

وهذا من مشهور إحسان أَبى تمام لفظاً ومعنى .

* * *

وقال البحترى :

عَيْشٌ لَنَا بالأَبْرَقَيْنِ تَـأَبَّدَتْ   [أَيَّامُهُ] وتَجدَّدَتْ ذِكْرَاهُ[4]

والعيشُ ما فَارَقْتَهُ فَذَكَرْتَهُ   لَهَفاً ، ولَيْسَ العَيْشُ مَا تَنْسَاهُ

وهذا إحسان يزيد على كل إحسان .

---

(١) الظلال . جمع ظلة ، وهى البناء المشرف ، وقوله : غامضات الأكعب : يعنى أنهن منعمات ليس لأكعب أرجلهن حجم .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٧٩ وشرح التبريزى ٣ / ١٥١ .

(٣) فى الديوان وشرحه : « هجر أردفت » .

(٤) ديوان البحترى ٢٩٦ والزيادة منه .

وقال البحترى :

/ سقَى ٱللّهُ أخْلاقاً مِنَ الدَّهْرِ رَطْبَةً سَقَتْنَا الجوَى إذْ أَبْرَقُ الحَزْنِ أَبْرَقُ[١]

لَيَالِ سَرَقْنَاهَا مِنَ الدَّهْرِ بَعْدَمَا أَضَاءَ بِمِصْبَاحٍ مِنَ الشَّيْبِ مفرِقُ[٢]

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى فَمَا شَفَى بماءِ الزُّبَى مَنْ بَاتَ بالماءِ يَشْرَقُ[٣]

وهذا من أحسن معنى وأحلاه . وقوله : «إذْ أَبْرَقُ الحُزْنِ أَبْرَقُ» . أى كما عهدناه ، لا كما هو فى الوقت من الخراب .

وقوله : «تداويتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى» . أى فلم[٤] أبرأ من الداءِ كما أن من شرق بالماء لم يدفع شرقه الماءُ ولو تناهى فى الكثرة حتى يبلغ الزُّبَى وهو من قولهم : بَلَغَ المَاءُ الزُّبَى[٥] : جَمْعُ زُبْيَةٍ ، وهى حُفْرَةٌ تحفر للأَسد فى أعلى ما يمكن من المواضع فلهذا ضرب [بها][٦] المثل فى كثرة الماء فقيل : بَلَغَ الماءُ الزُّبَى .

فالشَّرَقُ بالماء لا يُزيلُه الماءُ كما قال عدِىٌّ بن زَيْد :

لَوْ بِغَيْرِ الماءِ حَلْقِى شَرِقٌ كُنْتُ كالغَصَّانِ بالماءِ ٱعْتِصَارِى[٧]

فقال البحترى ذلك ليؤكِّد بقاءَ حبِّه ، أى لا يكون بُرْئِى من حبِّها أن أتَدَاوَى منها بها كما لا يَدْفَعُ الماءُ شَرَقَ من شَرِقَ بالماءِ .

* * *

(١) ديوان البحترى ٥١٨ ، ١٤٩٣ .

(٢) فى الديوان «بإصباح من» .

(٣) فى الديوان «فما اشتفى الربى» .

(٤) م «أى فلما برأ» .

(٥) مجمع الأمثال ١ / ٩١ .

(٦) زيادة لازمة .

(٧) البيت له فى اللسان ١٢ / ٤٤ .

وقال البحترى :

فَسقَى الغَضَا والنَّازِلِيهِ وإنْ هُمُ ... شَبُّوهُ بَيْنَ جَوَانِحٍ وقُلُوبِ[١]

وقِصَار أَيَّامٍ به سُرِقَتْ لَنَـا ... حَسنَاتُها مِنْ كَاشِحٍ ورَقِيبِ[٢]

خُضْرًا تَسَاقِطُها الصَّبا فكأَنَّها ... وَرَقٌ يُسَاقِطُهُ اهْتِزَازُ قَضِيبِ[٣]

كانتْ فُنُونَ بَطالَةٍ فَتَقَطَّعَتْ ... عَنْ هَجْرِ غانيةٍ ، وَوَخْطِ مَشِيبِ

فقوله : «خضر تساقطها الصّبا» - معنى فى غاية الحسن ، وتمثيل فى نهاية اللطف.

* * *

ومن حلو معانية ، ومشهور إحسانه قولُه :

بَعْضَ هَذَا العِتَابِ والتَّفْنِيدِ ... لَيْسَ ذَمُّ الوَفَاءِ بالمَحْمُودِ[٤]

مَا بَكَيْنَا عَلَى زَرودَ ولكِنْـ ... ـنَا بَكَيْنَا أَيَّامَنَا فى زَرُودِ

وقال أيضاً :

لَيَالِينَا بَيْنَ اللِّوَى فَمُحَجَّرِ ... سُقِيتِ الحَيَا مِنْ صَيِّبِ المُزْنِ مُمْطِرِ[٥]

مَضَى بكِ وَصْلُ الغَانِيَاتِ ونَشْوةُ الشَّـ ... ـبَابِ ، ومَعْرُوفُ الهَوَى المُتَنكِّرِ

فإن أَتَذَكَّرْ حُسْنَ مَا فَاتَ لَمْ أَجِدْ ... رُجُوعاً لِمَا فَارَقْتُهُ بالتَّذَكُّرِ

نَضَوْتُ الأَسَى عَنِّى اصْطِبَارًا ورُبَّمَا ... أَسِيتُ فكَمْ أَصْبِرْ ، ولم أَتَصَبَّرِ

---

(١) ديوان البحترى ١٧٦ ، ١ / ٢٤٦ دار المعارف .

(٢) فى الديوان « شرقت لنا » !

(٣) لا يوجد هذا البيت فى طبعتى الديوان القديمتين .

(٤) ديوان ٦٩١ ، ١ / ٦٣٢ .

(٥) ديوانه ٢١٤ ، و ٢ / ١٠٦١ طبع المعارف .

وقال أيضاً :

عَهْدٌ لِعَلْوَةَ باللِّوَى قَدْ أَشْكَلاَ ... مَا كَانَ أَحْسَنَ مُبْتَدَاهُ وأَجْمَلاَ[١]

أَنْسَى لَيَالِينَا هُنَاكَ وقَدْ حَلاَ ... مِنْ لَهْوِنَا فى ظِلِّها مَا قَدْ حَلاَ[٢]

عَيْشٌ غَرِيرٌ لَوْ مَلَكْتُ لِمَا مَضَى ... رَدًّا إِذًا لَرَدَدْتُهُ مُسْتَقْبَلاَ

قوله : « عيش غرير » . أى رقيق ناعم . قال جَرِير :

بِيضٌ تَرَبَّبَهَا النَّعِيمُ ، وخَالَطَتْ ... عَيْشاً كَحَاشِيَةِ الفِرَنْدِ غَرِيرا[٣]

الفِرَنْدُ : الحرير . والفِرَنْدُ : ماءُ السيف . والحاشية : جانِبُ الثوب . وإنما أراد الفِرَنْدَ نفسَه .

* * *

وقال أبو تمام :

لَيَالِينَـــا بالرَّقَّتَيْنِ وأَهْلِهـــا ... سَقَى العَهْدَ مِنْكِ العَهْدُ والعَهْدُ والعَهْدُ[٤]

سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبْ عَلَى النَّبْتِ ذَيْلَهُ ... فَلاَ رَجِلٌ يَنْبُو عَلَيْهِ ، ولا جَعْدُ[٥]

ضَرَبْتُ لَهَا بَطْنَ الزَّمَانِ وظَهْرَهُ ... فَلَمْ أَلْقَ مِنْ أَيَّامِهَا عِوَضاً بَعْدُ

قوله : « العَهْدُ والعَهْدُ والعَهْدُ » . فالعَهْدُ جمع عُهْدَة ، وجمع عَهْدٍ : عِهَادُ ، وهو المطر يأْتى إِثْرَ مَطَر . فأَراد سقَى العَهْدَ الذى عهدناك هذا المطر[٦] بِأَسْرِه : أَوَّله ، ووسطه ، وآخره . وأَراد سقتك العهاد كلها . ومثله قوله :

---

(١) ديوان البحترى ١٤٢ ، ١٦٥١ .

(٢) م « وقد خلا . . ما قد خلا » .

(٣) ديوانه ٢٨٩ .

(٤) ديوان أبى تمام ١٢١ وشرح التبريزى ٢ / ٨٥ .

(٥) م « ولا رجل » وقال التبريزى ٨٧ « يقول : لا سهل يمتنع من إخراج النبات إذا سقاه هذا السحاب ، ولا حزن » .

(٦) م « هذا الأمطر بأسره » .

* سَقَى عَهْدَ الصِّبا سيْلَ العِهَادِ (1)

وهذا مستقيم . والأول ليس بالجيد .

وقد فسر هذا قوم بما يبعد عن المعنى ، ولا يليق به ، وخلّطوا فيه (2) .

قال أبو تمام :

سَلَامٌ تَرْجُفُ الأَحْشَاءُ مِنْهُ ... على الحَسَنِ بن وَهْبٍ ، والعِرَاقِ (3)

علَى البَلَدِ الحبيبِ إلىَّ غَوْرًا ... وَنجْدًا ، والأَخِ العَذْبِ المَذَاقِ (4)

/ لَيَالِيَ نَحْنُ فِى وَسَنَاتِ عَيْشٍ ... كأَنَّ الدَّهْرَ عَنْها فى وَثَاقِ

وأيامــاً لَنَا ولَهُ لِدَاناً ... غَنِينَا فى حَوَاشِيها الرِّقَــاقِ (5)

كأَنَّ العَهْدَ عَنْ عُفْرٍ لَدَيْنَا ... وإنْ كانَ التَّلاَقِى عَنْ تَلاَقِ (6)

وهذا كلام حلو عذب .

وقوله : « سلامٌ تَرْجُفُ الأَحشاءُ مِنْهُ » . لأَنه فارق العراق وهو كاره ، فسلّم سلام مودِّع متأَسف ، شديد النفس للشوق والأَسف ؛ فلذلك قال : « ترجف الأَحشاء منه » .

* * *

---

(١) ديوان أبى تمام ٧٨ « عهد الحمى » وعجزه : « وروض حاضر منه وباد » .

(٢) راجع الأقوال التى نقلها التبريزى فى شرحه ونقلها ناشره فى الجزء الثانى ٨٤ – ٨٧ .

(٣) ديوانه ٢١٤ وشرح التبريزى ٤٢٥/٢ .

(٤) فى الشرح « والفتى الحلو المذاق » .

(٥) م « وأيام لها ولنا لدان » .

(٦) فى شرح التبريزى عن المعرى : « يقال : لقيته عن عفر ، فقيل هو مقدار شهر ، وقيل : لا حد له . يقول : نحن فى أيام القرب لا يمل بعضنا بعضاً ، فإذا لقيته باكراً ثم رحت إلى لقائه ، فكأن التلاقى عن وقت بعيد ، وقد قرب المدة بقوله : وإن كان التلاقى عن تلاق ؛ لأن ذلك يجوز أن يكون فى أقصر حين » .

وبيت أبي تمام النادر في هذا الباب قولُه :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها ، وكأنهم أحلام[1]

وبيت البحتري قوله :

والعيش ما فارقته فذكرته لهفاً ، وليس العيش ما تنساه[2]

وبيت أبي تمام أَسْيَرُ ، وبيت البحتري أَلْطَفُ معنى .

* * *

وهما في سائر مَا مَرَّ لهما في هذا الباب - مُتَكافِئَان .

* * *

ومن حلو كلام البحتري في معنى الأيام قوله :

ما أَحْسَن الأَيَّامَ إلا أنهـا يَا صَاحِبَيَّ إِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِـعِ[3]

وأحلى منه وأبدع - قول أبي حَيَّةَ النُّمَيْرِى :

إذ الأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ إِلَيْنَـا وظِلُّ أَرَاكَةِ الدنْيا ظَلِيلُ[4]

* * *

وفي هذا الباب لأبي تمام إساءة في قصيدته التي أولها قوله :

* أما إنَّهُ لَوْلَا اللُّوَى ومَعَاهِدُه *

وذلك قوله :

فَيَا مَشْهَدًا يُسْتَهْزَمُ البينُ بِاسْمِهِ إذا عُدَّ أيامُ الهَوى ومَشَاهِدُه

ويا ليلة لو يَعْرِفُ الدَّهْرُ طِيبَهَا لَصَيَّرَهَا ثُغْرًا تَنَاغَى مَرَاصِدُه

---

(١) ديوان أبي تمام ٢٧٩ وسبق ص ١٦٠ .

(٢) ديوان البحتري ٢٩٦ و ٢ / ١٢٨٦ طبع المعارف .

(٣) ديوانه ٧٢٧ « لولا أنها » .

(٤) م « إذا » والبيت له في أمالي المرتضى ١/٤٤٥ « مقبلة علينا » .

وهذا من أقبح ما يكون من الكلام ، وأهجن[1] ما يكون من المعانى ، وأبعد ما تكلفه أهل الاستعارة من الأَغْرَاض .

يقول : ولو علم الدهرُ طيبَ هذه الليلة لَجَعَلَها ثغرًا له مَرَاصِد . والمَرَاصِدُ : مواضع الحرس .

وقوله : تناغى . يريد حراس المرَاصد يخاطب بعضهم بعضاً ، ويُنْذِرُ واحِدٌ آخرَ . وأصْل المُنَاغَاة : الكلام الرَّخِيمُ الخَفِيّ ، مثل مُنَاغَاة الصَّبِيّ . وربما فعل ذلك أهل المراصد المتقاربة : يُوحِي بعضُهم إلى بعض ، وينبِّهُ بعضهم بعضاً على ما يَتَخَوَّفونه ويتوقَّعونه . يقول : فلو علم الدهر طِيبَ هذه الليلة لجعلها ثغرًا يحرسه من أن تلحقه آفة أو جائحة تُزيله وتُبْطِلُه .

وهذا مما ينبغى أن تَسْمَعَه وتضحك منه ، كما أن جَيِّدَه يُسْمَعُ ويُعْجَبُ منه . ومن أجل هذا التفاوت العظيم فى شعره — تفاوت الناس فى التعصب له ، والتعصب عليه . فما ينبغى أن يُقَبّح إحسانه[2] ، ولا [أن] تُحَسَّن إساءته .

---

(١) م « وأهجنه وما يكون » .

(٢) م « يقبح لإحسانه ولا تحسن » .

ما جاء عنهما فى طروق الخيال

/ هذا باب الفَضْلُ فيه للبحترى على أبى تمام . وما زلت أسمع الشيوخ من أهل العلم بالشعر يقولون ؛ هو أشعر الناس والحاس الحمل والخيال[١]

ولم يأت عن أبى تمام فيه إلا أبيات يسيرة منها قوله فى قصيدة :

زَارَ الخَيَالُ لَهَا لا بَلْ أَزَارَكَهُ ... فِكْرٌ إذَا نَامَ فِكْرُ النَّاسَ لَمْ يَنَمِ[٢]

ظَبْىٌ تَقَنَّصْتُهُ لَمَّا نَصَبْتُ لَهُ ... مِن آخِرِ اللَّيْلِ أَشْرَاكاً من الحُلمِ[٣]

ثم اغْتَدَى وبِنَا مِنْ ذِكْرِهِ سَقَمٌ ... بَاقٍ ، وإنْ كَانَ مَعْسُولًا مَنِ السَّقَمِ

قوله : «زارَ الخيالُ لها بل أَزَارَكَهُ » — ليس بالجيد ؛ لأنه إذا أزاره[٤] الفكر فقد زار . فما وجه الاستدراك ؟ فكأنه أراد أن الخيال لم يعتمد الزيارة ، وإنما أزاره[٤] الفكر . ومثله قام زيد ، لا بل أقمته . وكأن قائل هذا يريد ما اعتمد زيد القيام بل أقمته أنا[٥] ويروى : « إذا نام فكر الخِلْو ».

وقوله : «لم يَنَم » . لم يرد حقيقة النَّوم ، وإنما أراد لم يسكن ، ولم يفتر ، كما يقال[٦] : فلان لا ينام عن هذا الأَمر ، أى لا يفتر عنه ، ولا يُقَصِّر .

---

(١) كذا بالأصل .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٦٨ وشرح التبريز ٣ / ١٨٥ وأمالى المرتضى ١ / ٥٤٢ وأمالى القالى ١ / ٢٢٩ وحماسة ابن الشجرى ١٧٦ وطيف الخيال ١٧ وفى الديوان وشرحه « فكر الخلق » .

(٣) فى الديوان وشرحه « فى آخر » .

(٤ ، ٤) م « زاره » .

(٥) راجع نقد الشريف المرتضى لهذا الكلام فى كتاب طيف الخيال ١٧ — ٢٠ ، ٩ — ١٣ .

(٦) م « كما قال » .

وقوله : «من آخر الليل» . ولم يقل من أول الليل . يريد أنه لا ينام بالليل ، وأنه يسهره ، وأنه يهوِّمُ فى آخره تَهْوِيماً فيطرقه الخيال فى ذلك الوقت .

وقوله : «وإن كان مَعْسُولاً من السَّقَم» . [أى] وإن كان حُلْوًا من الأسقام ، أى كأنه ممزوج بالعسل . ويرويه قوم : / «وإن كان مغسولا من السقم» . وليس بشىء .

وهذه أبيات حسان ، وغرض صحيح .

* * *

وقال أبو تمام أيضاً :

عَادَكَ الزَّوْرُ لَيْلَةَ الرَّمْلِ مِنْ رَمْـ ... لَةَ بَيْنَ الحِمَى وَبيْنَ المَطَالِى[1]

نَمْ ، فَما زَارَكَ الخيالُ ولكِنْـ ... نكَ بالفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الخَيَالِ

وقد أكثر أصحاب أبى تمام الفخر بهذا البيت ، والتنويه بذكره ، وأفرطوا فى استحسانه ، وقالوا[2] : كشف عن العلة فى طُرُوق الخيال ، وبَيّنَ عن المعنى .

والبيت حسن . وإنما أخذ معناه من قول جِرَانَ العَوْدِ :

أَهْلًا بِطَيْفِكَ مِنْ زَورٍ أَتَاكَ بِهِ ... حَدِيثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وهْو مَشْغُولُ[3]

فقوله : وهو مشغول . أى . إنه لم يزرك على الحقيقة . فبنى من هذا قوله : «مازارك الخيال» وبنى من قوله : «أتاك به حديث نفسك» — ولكنك

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٥٩ وأمالى المرتضى ١ / ٥٤٢ وطيف الخيال ٢٠ ، ١٣ والزهرة ٢٦٣ .

(٢) م «وقال» .

(٣) ديوان جران العود ٥٥ «سقيالزورك» . . وحماسة ابن الشجرى ١٧٧ .

بالفكر زرت [طيف] الخيال . فالمعنى كله لجران ، وإنما غير أبو تمام اللفظ[١]

وقد قال الكميت :

فلَمَّا ٱنْتَبَهْتُ وَجَدْتُ الخَيَالَ أَمَانِىَّ نَفْسِى وأَفْكَارَهَـا

أى وجدت الخيال أنا الجالبُ له بأَمانىّ . وهذا ذلك المعنى بعينه .

وقد أورد أبو تمام المعنى على حَذْوِ ما قاله جِران سواء فقال :

استزارته فكرتى فى المنام فَأَتَـانِى فى خِفْيَةٍ واكْتِتَامِ[٢]

/ فذكر أن فكرته أتته بالطيف زائرًا كما قال جِرَان : « أتاك به حديث نفسك » .

ووصل أبو تمام بيته بأن قال :

اللَّيَالِى أَحْفَى بِقَلْبِى إِذَا مَا جَرَحَتْهُ النَّوَى مِنَ الأَيَّامِ[٣]

يا لها زَوْرَةٌ تَنَزَّهَتِ الأَرْ وَاحُ فِيهَا سِرًّا مِنَ الأَجْسَامِ[٤]

مَجْلِسٌ لم يكن لَنا فِيه عَيْبٌ غَيْرَ أَنَّا فى دَعْوَةِ الأَحْلَامِ

ليس لهذه الأبيات حلاوة ، ولا عليها طلاوة[٥] .

* * *

وقال أبو تمام :

حَمَدْنَا الطَّيْفَ مِنْ أُمِّ الوَلِيدِ خُطُوبٌ شَيَّبَتْ رَأْسَ الوَلِيدِ[٦]

---

(١) راجع نقد المرتضى لهذا فى طيف الخيالى ٢١ .

(٢) ديوان أبى تمام ٤٦٠ .

(٣) حماسة ابن الشجرى ١٧٧ وأمالى المرتضى ١/٥٤٢ وفى ديوانه « فالليالى أحفى بقلبى إذا جرعته النوى » .

(٤) فى الديوان « يا لها ليلة » .

(٥) راجع نقد المرتضى فى طيف الخيال ٢١ ، ١٨ .

(٦) ديوان أبى تمام ١٠٤ وشرح التبريزى ٢ / ٣٣ .

رَآنَا مُشْعَرِى أَرَقٍ وحُزْنٍ   وبُغْيَتُهُ لَدَى الرَّكْبِ الهُجُودِ[1]

سُهَادٌ يَرْجَحِنُّ الطَّرْفُ مِنْهُ   ويُولِعُ كُلَّ طَيْفٍ بالصُّدُودِ

يرجحنّ : أى يتثاقل فى حركته كالمُعَنَّى فى سَيْرِه المثقل إذا عدل يَمْنَةً وَشأْمَةً مثل السَّحابة المُرْجَحِنَّةِ لكثرة مائها . وإنما يريد ثِقَلَ أَجْفَانِه عند النظر من طول السهر .

ولا أعرف لأبى تمام فى طروق الخيال غير ما ذكرته .

* * *

فأما البحترى فإنه أولع بذكر الخيال فقال فيه ، وأكثر ، وأجاد ، وأبدع ، وتصرف فى معان لم يأْت أحد بمثلها ، وقد استفتح قصائد كثيرة بذكر الخيال ؛ لشدة شغفه به ، فأحسن فى ابتداآته كلها ، / وزاد على الإحسان . فمن ذلك قوله :

أَمِنْكَ تَأَوُّبُ الطيفِ الطَّرُوبِ   حبيبٌ جاءَ يُهْدَى مِنْ حَبِيبِ[2]

وقوله :

أَجِدَّكَ ما يَنْفَكُّ يَسْرِى لِزَيْنَبَا   خيالٌ إذا آبَ الظلامُ تَأَوَّبَا[3]

وقوله :

قَدْ كَانَ طَيْفُكَ مَرَّةً يُغْرَى بِى   يَعْتَادُ رَكْبِى طارِقاً ورِكَابِى[4]

---

(١) فى شرح التبريزى « يقول : لم يجئنا طيفها لأنا لم نم وإنما يطلب من ينام » .
(٢) ديوان البحترى ٣٨٩ ، ١ / ٩٨ دار المعارف .
(٣) ديوانه ٨٢ ، ١/١٩٦ وحماسة ابن الشجرى ١٧٨ .
(٤) ديوانه ٢٢٠ ، ١ / ٨٨٩ وفى م « فإن كان » .

وقوله :

طَيْفٌ أَلَمَّ فَحَيًّا عِنْدَ مَشْهَدِهِ قَدْ كَانَ يَشْفِي المُعَنَّى مِنْ تَلَدُّدِهِ[١]

وقوله :

مِثَالُكَ مِنْ طَيْفِ الخَيَالِ المُعَاوِدِ أَلَمَّ بِنَا مِنْ أُفْقِهِ المُتَبَاعِدِ[٢]

وقوله :

عَجَباً لِطَيْفِ خَيَالِكِ المُتَعَاهِدِ ولِوَصْلِكِ المُتَقَارِبِ المُتَبَاعِدِ[٣]

وقوله :

قُلْ لِلْخَيَالِ إِذَا أَرَدْتَ فَعَاوِدِ تُدْنِي المَسَافَةَ مِنْ هَوًى مُتَبَاعِدِ[٤]

وقوله :

هَجَرَتْ وَطَيْفُ خَيَالِهَا لَمْ يَهْجُرِ وَنَأَتْ بِحَاجَةِ مُغْرَمٍ لَمْ يُقْصِرِ[٥]

وقوله :

/ أَلَمَّت ، وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ وزَارَتْ خَيَالاً والعُيُونُ هَوَاجِعُ[٦]

وقوله :

بِتُّ أُبْدِي وَجْدًا ، وأَكْتُمُ وَجْدَا مِنْ خَيَالٍ قَدْ بَاتَ لِي مِنْكَ يُهْدَى[٧]

وقوله :

بَرَّحَ بِي الطَّيْفُ الذي يُسْرِي وزَادَنِي سُكْرًا إِلى سُكْرِ[٨]

---

(١) ديوان البحترى ٥٨٠ .
(٢) ديوانه ٥٣ .
(٣) ديوانه ٤٦٤ .
(٤) ديوانه ٢٩٨ .
(٥) ديوانه ١١٩ . ، ٢ / ٨٦٠ .
(٦) ديوانه ٧١ ، ٢ / ١٣٠٢ دار المعارف .
(٧) ديوانه ٧٣٧ « لخيال » .
(٨) ديوانه ٦٢٩ . ، ٢ / ١٠١٠ دار المعارف .

وقوله :

سَرَى مِنْ خَيَالِ المَالِكِيَّةِ مَا سَرَى فَتَيَّمَ ذَا القَلْبِ المُعَنَّى وأَسْهرَا[١]

وقوله :

يهْدِى الخيالُ لَنَا ذِكْرَى إِذَا طَـافَا وَافَى يُخَادِعُنَا والصُّبْحُ قَدْ وَافَى[٢]

وقوله :

مَرْحَباً بالخيالِ مِنْكِ المُطِيفِ فى شُمُوسٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِكُسُوفِ[٣]

وقوله :

أَمَّا الخَيالُ فإِنَّهُ لَمْ يَطْرُقِ إلاَّ بعُقْبِ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ[٤]

وقوله :

هَذَا الحبيبُ فَمَرْحَبًا بِخَيَالِهِ أَنَّى اهْتَدَى والليلُ فى سِرْبَالِهِ[٥]

/ وقوله :

خَيَالٌ مُلِمٌّ ، أَوْحَبِيبٌ مُسَلِّمُ وبَرْقٌ مُجَلّى ، أَوْ حرِيقٌ مُضَرَّمُ[٦]

وقوله :

أَأَرَاكَ الحبيبُ خَـاطِرَ وَهْمٍ أَمْ أَزَارَتْكَهُ أَضَالِيلُ حُلْمِ[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٧٦٢ ، ٢ / ٩٣١ دار المعارف .

(٣) ديوانه ٣٣٧ ، ١٣٨٠ .

(٣) ديوانه ٢٧١ ، ١٣٦٣ .

(٤) ديوانه ٦٢٣ ، ١٤٧٩ .

(٥) ديوانه ٤٢٦ .

(٦) ديوانه ٩٦ « وبرق تجلى » .

(٧) ديوانه ٣١٦ وفى م « لا أراك » .

وقوله :

خَيَــالٌ يَعْتَرِينِى فى المَنام لِسَكْرَى اللَّحْظِ ، فَاتِنَةِ الكلام[١]

وقوله :

طيفٌ تَـأَوَّبَ مِنْ سُعْدَى فَحيَّانِى أَهْوَاهُ وَهْوَ بُعَيْدَ النَّوم يَهْوَانِى[٢]

وقوله :

طيفٌ لِعَلْوَةَ مَا يَنْفَكُّ يَـأْتِينِى يَصْبُوا إلىَّ عَلَى خُلفٍ فَيُصْبِينِى[٣]

وقوله :

طَيْفُ الخَيالِ أَلَمَّ مِنْ عُدُوائِهِ وبَعِيدِ مَوْضِعِ أَرْضِهِ وسَمائِهِ[٤]

وقوله :

أَحْبِبْ إلىَّ بَطِيْفِ سُعْدَى الآتِى وطُرُوقِهِ فى أَكْثَرِ الأَوْقَاتِ[٥]

وقوله :

/ خَيَــالُ مَاوِيَّةَ المُطِيفُ أَرَّقَ عَيْنــاً لَهَا وَكِيفُ[٦]

وقوله :

أَرَجٌ لِرَيَّا طَلَّــةٌ رَيَّــاهُ لا يَبْعدُ الطيفُ الذى أَهْدَاهُ[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٦١٧ « فاتنة القوام » .
(٢) ديوانه ٥٠٠ .
(٣) ديوانه ٤١٧ « على بعد ويصبينى » .
(٤) ديوانه ٦٥٧ « طيف الحبيب . . وبعيد موقع » .
(٥) ديوانه ٤٥٤ ، ١ / ٣٦٣ دار المعارف « فى أعجب » .
(٦) ديوانه ٤٧٢ .
(٧) ديوانه ٢٩٦ .

وما أَحْسَن ما قال مُسْلِم بن الوَلِيد :

طيف الخَيال حَمِدْنَا مِنْكَ إلْمَــاما   دَاوَيْتَ سُقْماً ، وقَدْ هَيَّجْتَ أَسْقَامَا[1]

مضت الابتداآت

* * *

وهذا ما جاء عن البحترى من وصف الخيال فى وسط الكلام . قال :

فلا وَصْلَ إلَّا أَنْ يُطِيفَ خَيَالُها   بِنَا تَحْتَ جُؤْشُوشٍ مِنَ اللَّيْلِ أَسْفَعِ[2]

أَلَمَّتْ بِنَا بَعْدَ الهُدُوِّ فَسَامَحَتْ   بِوَصْلٍ متى تَطْلُبْهُ فى الجِدِّ تَمْنَعِ[3]

وَمَا بَرِحَتْ حَتَّى مَضَى الليلُ فَانْقَضَى   وأَعْجَلَها دَاعِى الصَّبَاحِ المُلَمِّعِ[4]

فَوَلَّتْ كأَنَّ البَيْنَ يَخْلِجُ شَخْصَها   أَوَانَ تَوَلَّتْ مِنْ حَشَاىَ وأَضْلُعِى[5]

ورُبَّ لِقَاءٍ لَمْ يُؤَمَّلْ ، وفُرْقَةٍ   لأَسْماءَ لم تُحْزَرْ ولَمْ ، تُتَوَقَّعِ[6]

أَسَرَّ بِقُرْبٍ مِنْ مُلِمٍّ مُسَلِّمٍ   وأَشْجَى بِبَيْنٍ مِنْ حَبِيبٍ مُوَدِّعِ

وَكَائِنْ لَنَا بَعْدَ النَّوَى مِنْ تَفَرُّقٍ   تُزَجِّيهِ أَحْلامُ الكَرَى ، وتَجَمُّعِ[7]

وَمِنْ لَوْعَةٍ تَعْتَادُ فى إثْرِ لَوْعَــةٍ   ومِنْ أَدْمُعٍ تَرْفَضُّ فى إثْرِ أَدْمُعِ

/ فانظر إلى هذه العبارة الحسنة ، وإخباره إياك بالشىء على ما كان .

---

(١) ديوان مسلم بن الوليد ٦١ .

(٢) ديوان البحترى ٨٩ و٢/١٢٣٨ طبع المعارف .

(٣) حماسة ابن الشجرى ١٧٧ وأمالى القالى ١ / ٢٢٨ .

(٤) قال ابن الشجرى فى حماسته ١٧٨ « لم يورد لفظة "الملمع" على سبيل اضطرار القافية إليها ، ولكن لها معنى صحيح لا يقوم غيرها فيه مقامها ؛ لأن أوائل الصباح وقيل ابيضاض الصبح وانتشاره — يكون البياض ممزوجاً بالسواد ملمعاً به ، لأن بياض الصبح لم يظهر كل الظهور ، فكأنه أراد أن الطيف فارقه فى أول الصبح وقبل انتشاره » .

(٥) م « تولت كأن » .

(٦) م « لم تحدد » وفى الديوان « لم تحذر » .

(٧) م « ترجيه » .

ونحو ذلك فى الحسن والصحة قولُه :

وإنِّى وإنْ ضَنَّتْ عَلَىَّ بِوُدِّهَــا ... لَأَرْتَاحُ مِنْهَا لِلخيَالِ المُؤَرِّقِ[١]

يَعِزُّ علَى الوَاشِينَ لَوْ يَعْلَمُونَهـــا ... ليالٍ لنا نَزْدَارُ فيها ونَلْتَقِى

فكمْ غُلَّةٍ للشَّوْقِ أَطفَأْتُ حَرَّهَا ... بطَيفٍ متَى يَطْرُقْ دُجَى اللَّيل يَطرُق

أَضمُّ عَلَيْهِ جَفْنَ عَيْنِى تَعلُّقاً ... بِهِ عِنْدَ إِجْلاءِ النُّعَاسِ المُرَنِّقِ

فقوله : « أَضمُّ عليه جَفْنَ عيْنِى تَعلُّقًا » – من أَحسن كلام ، وأَصح معنى وأَصدقه وأَكثره ، وكثيرًا ما ينال أَكثرَ الناس ذلك عند إجلاءِ النوم ، وابتداء اليقظة إذا كان فى رؤيا يَلَذُّها .

وقال أَيضاً :

أَجِدَّكَ ما يَنْفَكُّ يَسْرِى لِزَيْنَبَا ... خيالٌ إذا آبَ الظَّلَامُ تَـأَوَّبَا[٢]

سَرَى مِنْ أَعالِى الشَّام يَجْلِبُه الكَرَى ... هُبُوبَ نَسِيمِ الرَّوْضِ تَجْلِبُهُ الصَّبَا

ومَا زَارَنِى إلاَّ وَلِهْتُ صَبَــابَةً ... إليه ، وإلاَّ قُلْتُ أَهْلاً وَمرْحَبَا[٣]

ولَيْلَتَنَا بالجِزْعِ بَاتَ مُسَاعِفاً ... يُرِينِى أَنَاةَ الخَطْوِ نَاعِمَةَ الصِّبَا

أَضرَّتْ بِضَوْءِ البدْرِ والبَدرُ طَالِعٌ ... وقامَتْ مَقَامَ البَدْرِ لَمَّا تَغَيَّبَا

قوله : « إذا آب الظلامُ تَـأَوَّبَا » . آبَ : أَى رجع ، وتـأَوب[٤] : تراجع . يعنى [أن] الطيف إذا عاد ، الظلامُ عادَ . وليس ذلك من التَّأْوِيب الذى هو سَيْرُ النهار كلِّه .

---

(١) ديوان البحترى ٧٧ ، ١٥٠٨ وحماسة ابن الشجرى ١٧٨ .

(٢) ديوانه ٨٢ و ١ / ٥١ طبع المعارف وحماسة ابن الشجرى ١٧٨ – ١٧٩ .

(٣) م « زادنى . . إليك وإلا » .

(٤) م « وتلوب » .

وقوله : « سرى من أعالى الشام » ـ بَيْتٌ فى غاية الحسن والحلاوة .

* * *

وقال :

أَمَا رَاعَكَ الحَيُّ الحَلاَلُ بِهَجْرِهِمْ ... وهُمْ لَكَ غُدْوًا بالتَّفَرُّقِ أَرْوَعُ[١]

بَلَى ، وخَيَالٍ مِنْ أُثيلَةَ كُلَّمَا ... تَأَوَّهْتُ مِنْ وَجْدٍ تَعَرَّضَ يُطْمِعُ

إِذَا زَوْرَةٌ منه تَقَضَّتْ مَعَ الكَرَى ... تَنَبَّهْتُ مِنْ وَجْدٍ لَهُ أَتَفَزَّعُ[٢]

تَرَى مُقْلَتِى مَالاَ تَرَى فى لِقَائِهِ ... وتَسْمَعُ أُذْنِى منه ما ليس تَسْمَعُ[٣]

ويَكْفِيكَ مِنْ حَقٍّ تَخَيُّلُ باطلٍ ... تُرَدُّ بِهِ نَفْسُ اللَّهِيفِ فَتَرْجِعُ

ولست أقول فى هذا إلا ما كان البحترىّ يقوله ، وحدثنا به أبو على محمد بن العلاء السِّجِسْتَانِى : إنه كان إذا شرب وسكر أنشد مثل هذه الأبيات وأشباهها من شعره ، وقال : ألا تسمعون ؟ ألا تعجبون ؟

* * *

وقال :

أَخَيَالَ عَزَّةَ كَيْفَ زُرْتَ وعِنْدَنَا ... أَرَقٌ يُشَرِّدُ بالخَيالِ الزَّائِرِ[٤]

طَيْفٌ أَلَمَّ بِنَا وَنَحْنُ بِمَهْمَهٍ ... قَفْرٍ يَشُقُّ عَلَى المُلِمِّ الخَاطِرِ[٥]

حتى إذا نَزَعُوا الدُّجَى وتَسَرْبَلُوا ... من نور هَلْهَلَةَ الصَّبَاحِ النَّائِرِ[٦]

---

(١) ديوان البحترى ٣٠٤ ، ٢ / ١٢٦٨ دار المعارف وطيف الخيال ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) م « زورة ينوى » وفى الديوان « من فقد له » .

(٣) فى الديوان « أذنى رجع » .

(٤) ديوانه ٦٥١ ، ٢ / ١٠١٦ طبع المعارف وطيف الخيال ٢٨ ، ٢٩ « أخيال علوة » .

(٥) م « ألم لها » وفى الديوان : « بمهمه مرت » .

(٦) فى الديوان « من فضل . . الغائر » والنائر : المنير .

ورنَوْا إلى شُعَبِ الرِّحَالِ بأَعْيُنٍ يَكْسِرْنَ مِنْ نَظَرِ النُّعَاسِ الفَاتِرِ[1]
أَهْوَى فَأَسعَفَ بالتَّحِيَّةِ خِلْسَةً والشمسُ تَلْمَعُ فى جَنَاحِ الطَّائِرِ
/ سِرْنَا وأَنْتِ مُقِيمةٌ ، ولَرُبَّمَا كانَ المُقِيمُ عَلاَقَةً للسَّائِرِ

وهذا — والله — الكلام العربى ، والمذهب الذى يبعد على غيره أنْ يأْتى بمثله .

وقال :

إذا ما الكرَى أَهْدَى إلىَّ خَيَالَهُ شَفَى قُرْبُهُ التَّبْرِيحَ ، أَوْ نَقَعَ الصَّدَى
إذا انْتَزَعَتْهُ مِنْ يَدَىَّ انْتِبَاهَةٌ عَدَدْتُ حَبِيباً رَاحَ مِنِّى ، أَوْغَدَا[2]
ولَمْ أَرَ مِثْلَيْنَا ، ولا مِثْلَ شَأْنِنَا نُعَذَّبُ أَيْقَاظاً ، ونَنْعَمُ هُجَّدَا

وقال :

أَقَامَتْ عَلَى الهِجْرَانِ ما إنْ تَجُوزُهُ وخَالَفَهَا بالوَصْلِ طيفٌ لَهَا يَسْرِى[3]
فَكَمْ فى الدُّجَى مِنْ فَرْحَةٍ بِلِقَائِهَا وكمْ تَرْحَةٍ بالبَيْنِ مِنْهَا لَدَى الفَجْرِ
إذا الليلُ أَعطانَا مِنَ الوَصْلِ بُلْغَةً ثَنَتْنَا تَباشِيرُ الصَّبَاحِ إلى الهَجْرِ[4]
ولم أَنْسَ إسْعَافَ الكَرَى بِدُنُوِّهَا وزَوْرَتِهَا بَعْدَ الهُدُوِّ وَمَا تَدْرِى

وقال :

إنَّ رَيًّا لَمْ تَسْقِ رِيًّا مِنَ الوَصْـ ـلِ وَلَمْ تَدْرِمَا جَوَى العُشَّاقِ[5]

---

(١) فى الديوان « ورموا » .

(٢) ديوان البحترى ١٣٣ ، ٦٧٠/٣ وطيف الخيال ٢٩ ، ٣٢ وأمالى المرتضى ١ / ٥٤٣ وفى م « سقى قربه » .

(٣) ديوانه ٦٢١ ، ٢ / ١٠٠٤ وطيف الخيال ٣٠ ، ٣٣ وحماسة ابن الشجرى ١٨٠ .

(٤) فى الديوان « تباشير النهار » .

(٥) ديوانه ٤٣٨ ، ١٤٦١ وحماسة ابن الشجرى ١٨٠ وطيف الخيال ٢٣ ، ٢١ .

بَعَثتْ طَيْفَهَا إلَىَّ وَدُونى وَخدُ شَهْرَيْنِ للمِهَارَى العِتَاقِ

زَارَ وَهْناً مِنَ الشَّامِ فَحَيَّـا مُسْتَهاماً صَبًّا بِأَعْلَى العِرَاقِ

فَقَضَى مَا قَضَى ، وعَادَ إليها والدُّجَى فى بُرُودِها الأَخْلاَقِ

/ قَدْ أَخَذْنَا مِنَ التَّلاَقِى بِحَظٍّ والتَّلاَقِى فى النَّوْم عِدْلُ التَّلاَقِى

وهذا حسن جدًّا .

وألطف وأحسن وأحلى قولُه :

وزائِرٍ زَارَ مِنْ أَعِقَّتِهِ يَمِيلُ وَزْناً بِأُنْسِهِ ذُعُرُهْ[١]

كأَنَّه جَاءَ مُنْجِزًا عِـدَةً وَبِتُّ فى الرَّاقِبِينَ أَنْتَظِرُهْ

لَمْ أَنْسَهُ مُوشِكاً عَلَى وَجَلٍ مُدَامِجاً للحديثِ يَخْتَصِرُهْ[٢]

كأَنَّما الكَاشِحُونَ قَدْ خَرَصُوا مَكَانَهُ ، أَوْ أَتَاهُمُ خَبَرُهْ[٣]

وقال :

تَدْرِيَن كَمْ مِنْ زَوْرَةٍ مَشْكُورَةٍ مِنْ زَائِرٍ وَهَبَ الخَطِيرَ وَمَا دَرَى[٤]

غابَ الوُشَاةُ فَبَاتَ يَسْهُلُ مَطْلَبٌ لو يشهدُونَ طَرِيقَهُ لَتَوَعَّرَا

كانَ الكَرَى حَظَّ العُيونِ ولَمْ أَخَلْ أَنَّ القُلوبَ لَهُنَّ حَظٌّ فى الكَرَى

دَمْعٌ تَعَلَّق بالشُّئُونِ فَلَمْ يَزَلْ بَرْقُ الغَرَام يَسُوقُهُ حَتَّى جَرَى[٥]

قَامَتْ تُمَنِّينِى الوِصَالَ لِتَبْتَلِى جَذَلِى ، وحَاجَةُ أَكْمَةٍ أَنْ يُبْصِرَا[٦]

---

(١) م « من أعتقه » والأبيات فى ديوانه ٢ / ١٠٣٣ دار المعارف وطيف الخيال ٢٤ ، ٢٣ .

(٢) م « على وجل . . مختصره » .

(٣) راجع نقد المرتضى فى طيف الخيال ٢٤ ، ٢٣ .

(٤) ديوان البحترى ٣٧٦ ، ٢ / ٩٧٤ وطيف الخيال ٢٥ ، ٢٤ .

(٥) فى الديوان « فى الشؤون فلم يزل برح » .

(٦) فى الديوان « باتت » .

مَنَّيْتِنَا عَلَلاً ، وَمَا أَنْهَلْتِنَا والوَقْتُ لَيْسَ يُحِيلُ حَتَّى يُشْهِرَا

تَاللهِ لَمْ أَرَ مُذْ رَأَيْتُ كَلَيْلَتِي فى العَلْثِ إلاَّ لَيْلَتِي فى عُكْبَرَا

أَهْوَى الظلامَ وأَنْ أُملاَّهُ وَقَـدْ حَذَرَ الصَّبَاحُ نِقَابَهُ أَوْ أَسْفَرَا

وهذا – لعمرى – هو القول الذى لو ورده الظمآن لروى ؛ لكثرة مائه[1].

وقال :

بِتُّ أُبْدِي وَجْدًا ، وأَكْتُمُ وَجْدَا لِخَيَالٍ قَدْ بَاتَ لى مِنْكَ يُهْدَى[2]

أَقْسِمُ الظَّنَّ فيه أَنَّى تَخَطَّى الرْ رَمْلَ مِنْ عَالِجٍ ، وأَنَّى تَهَدَّى

خَطَـأً مَا أَزَارَنَاهُ طُرُوقاً أَمْ تَوَخِّيهِ للزِّيَارَةِ عَمْدَا[3]

لا تَخِيبُ البِـلادُ تَخْطِرُ فِيهَا رُسُلُ الشَّوْقِ مِنْ خَيَالاتِ سُعْدَى

وَعَـدَتْنَا فَمَا وَفَتْ بِوِصَالٍ ووَفَتْ حِينَ أَوْعَدَتْ أَنْ تَصُدَّا[4]

قَرَّبَ الطيفُ مُنْتَوَاهَا فَأَصْبَحْ تُ حديثاً بِنَاقِضِ العَهْدِ عَهْدَا[5]

قوله : « لا تَخِيبُ البلادُ تَخْطِرُ فيها » – بيت حسن جدًّا ؛ جعل الخيالاتِ رَسُولاً للشوق .

وقال فى قصيدته التى أولها :

* بَانَ عَهْدُ الصِّبَا وبَاقِي جَدِيدِهْ[6] *

---

(١) يحيل : أى يصير حولا ، وانظر تعقيب المرتضى فى طيف الخيال ٢٥ .

(٢) ديوان البحترى ٧٣٧ ، ١ / ٥٦٩ دار المعارف .

(٣) بعده فى الديوان :

جاء يسرى فأشرقت أرض نجد لسراه وواصل الغيث نجـدا

(٤) فى الديوان « أن تصدى » .

(٥) فى الديوان « الطيف منتهاها » .

(٦) ديوانه ٥٧٤ ، ١ / ٥٩٦ وعجزه « بين إعواز طالب ووجوده » وفى م « بان عهد » .

مِنك طيفٌ أَلَمَّ والأُفْقُ مَلْآ ... نُ مِنَ الفَجْرِ ، واْعتِرَاضِ عَمُودِهْ[1]

زَائِرٌ أَشْرَقَتْ لِرُؤْيَتِهِ أَغْـ ... وَارُ أَرْضِ العَرَاقِ بَعْدَ نُجُودِهْ[2]

أَرَبُ النَّفْسِ كُلُّهُ ومَتَاعُ الْـ ... عَيْنِ فى خَدِّهِ ، وَفى تَوْرِيدِهْ

مُعْطِياً مِنْ وِصَالِهِ فِى كَرَى النَّوْ ... مِ الذى كانَ مُعْطِياً مِنْ صُدُودِهْ[3]

يَقَظَاتُ المُحِبِّ ساعاتُ بَؤْسَا ... هُ ، ونَعْمَاءُ عَيْشِهِ فى هُجُودِهْ[4]

/ وقال :

وما أنْفكَّ دَاعِي البَيْنِ حَتَّى تَزَايَلَتْ ... قِبَابٌ بَنَاهَا حَاضِرٌ وخِيَامُ[5]

عَشِيَّةَ مَا بِى عَنْ شُبَيْثٍ تَرَحُّلٌ ... [فَأَمْضِى] وَلَالِى فى شُبَيْثَ مَقَامُ[6]

فَمَا نَلْتَقِى إلاَّ عَلَى حُلْمِ هَاجِـدٍ ... يُحِلُّ لَنَا جَدْوَاكِ وهْوَ حَرَامُ[7]

إذا مَا تَبَاذَلْنَا النَّفَائِسَ خِلْتَنَا ... مِنَ الجِدِّ أَيْقَاظاً ونَحْنُ نِيَـامُ

وهذا قول ليس بينه وبين القلب حِجَاب .

وقال :

أُرَجِّمُ فى لَيْلَى الظُّنُونَ وأَرْتَجِى ... أَوَائِلَ حُبٍّ أَخْلَفَتْنِى أَوَائِلُهْ[8]

ولَيْلَةَ هَوَّمْنَا على العِيسِ أَرْسَلَتْ ... بِطَيْفِ خَيالٍ يُشْبِهُ الحَقَّ بَاطِلُهْ

فَلَوْلاَ بَيَاضُ الصُّبْحِ طَالَ تَشَبُّثِى ... بِعِطْفَىْ غَزَالٍ بِتُّ وَهْناً أُغَازِلُهْ

---

(١) م « من الفخر » !

(٢) فى الديوان « أشرقت لزورته » .

(٣) فى الديوان « كان مانعاً من » .

(٤) فى الديوان : « بؤساه نعماه عيشه » .

(٥) ديوانه ٣٦٣ طيف الخيال ٣٢ ، ٣٧ وفى م « مبام بناها » .

(٦) الزيادة من الديوان .

(٧) فى الديوان « وهى حرام » .

(٨) ديوانه ١٥ وطيف الخيال ٣٣ ، ٣٨ وحماسة ابن الشجرى ١٨٠ .

وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلَّيْلِ عِنْدِى حَمِيدَةٍ وللصُّبْحِ مِنْ خَطْب تُذَمُّ غَوَائِلُهْ

وهذا كله إنما حَسُنَ هذا الحسن ، وقبلته النفوسُ لأنه اعتمد أن يخبر بالأمر على ما هو ، مع حسن عبارته ، وبراعة نَسْجِه ، وجودة تلخيصه ، ومتخيَّر ألفاظه .

وقد ذهب البحترى مذهباً آخر ، وأحسن فيه كل الإحسان . وهو أن شبه الزائر الذى زاره بالخيال ؛ لشدة فرحه ، وخوفه أن لا يكون له حقيقة .

وقال فى قصيدته التى أولها :

* بِوُدِّى لَوْ يَهْوَى العَذُولُ ويَعْشَقُ[1] *

وزَوْرٍ أَتَانِى طَارِقاً فَحَسِبْتُهُ خَيَالاً مِنْ آخِرِ الليل يَطْرُقُ[2]

أُقَسِّمُ فيه الظَّنَّ : طَوْرًا مُكَذِباً بِهِ أَنَّهُ حَقٌّ ، وطَوْرًا أُصَدِّقُ

أخافُ وأرجُو بُطْلَ ظَنِّى وصِدْقَهُ فَلِلَّهِ شَكِّى حِينَ أَرْجُو وَأَفْرَقُ

وقَدْ ضَمَّنَا وَشْكُ التَّلاَقِى ولَفَّنَا عِنَاقٌ عَلَى أَعْنَاقِنَا ثُمَّ ضَيِّقُ

فَلَمْ تَرَ إلاَّ مُخْبِرًا عَنْ صَبَابَةٍ بِشَكْوَى ، وإلَّا عَبْرَةً تَتَدَفَّقُ[3]

فَأَحْسِنْ بِنَا والدَمْعُ بالدَّمْعِ وَاشِجٌ تَمَازُجُهُ ، والخَدُّ بالخَدِّ مُلْصَقُ[4]

ومِنْ قُبَلٍ قَبْلَ التَّشَاكِى وبَعْدَهُ نَكادُ بها مِنْ شِدَّةِ اللَّثْم نَشْرَقُ[5]

فَلَوْ فَهِمَ النَّاسُ التَّلاَقِى وَحُسْنَهُ لَحُبِّبَ مِنْ أَجْلِ التَّلاَقِى التَّفَرُّقُ

---

(١) ديوان البحترى ١٤٨ ، ١٥٣٤ وعجزه « فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق » .

(٢) طيف الخيال ٦٠ ، ٨٨ .

(٣) فى الديوان « عبرة ترقرق » .

(٤) م « يمازجه » .

(٥) م « يكاد بها . . . يشرق » .

وقال فى نحو هذا :

حَبِيبٌ سَرَى فى خِفْيَةٍ وعَلَى ذُعْرِ   يَجُوبُ الدُّجَى حتى ٱلْتَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ[١]

تَشَكَّكْتُ فِيهِ مِنْ سُرُورٍ وخِلْتُهُ   خَيَالاً أَتَى فى النَّوْمِ مِنْ طَيفِهِ يَسْرِى

وأَفْرَطْتُ مِنْ وَجْدٍ بِهِ فَدَرَى بِنَا   عَلَى سَاعَةِ الهِجْرَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِى[٢]

وقال :

أَمَا مُعِينٌ عَلَى الشَّوقِ الذى غَرِيَتْ   بِهِ الجَوَانِحُ ، والبَيْنُ الذى أَفِدَا[٣]

/ كيفَ اللقاءُ وقَدْ أَضحَتْ مُخَيِّمَةً   بالشَّامِ لاكَثَباً مِنْها ، ولاَ صَدَدَا[٤]

تَهاجُرٌ أَمَمٌ لاَ وَصْلَ يَخْلِطُهُ   إلاَّ تَزَاوُرُ طَيْفينَا إِذَا هَجَدَا

وقَدْ يُزِيرُ الكَرَى مَنْ لاَ زِيَارَتُهُ   قَصْدٌ ، وَيُدْنِى الهَوَى مِنْ بُعْدِ مَنْ بَعُدَا[٥]

بِتْنَا عَلَى رِقْبَةِ الوَاشِينَ مُكْتَنِفَىْ   صَبابَةٍ نَتَعَاطَى البَثَّ والكَمَدَا

إِمَّا سَأَلْتَ بِشَخْصَيْنَا هُنَاكَ فَقَدْ   غَابَا ، وأَمَّا خَيَالاَنَا فَقَدْ شَهِدَا

ولم يَعُدْنِى لَهَا طَيْفٌ فَيَفْجَؤُنِى   إلاَّ عَلَى أَبْرَحِ الوَجْدِ الذى عَهِدَا

لو كان قال : « إلا تَزَاوُرُ طيفينا إذا هَجَدْنَا » ــ كان عندى أجود . فكأن المعنى [إذا] هجدت رأيتها فى النوم فكأن نفسى ونفسها اجتمعتا ، وكذلك إذا هَجَدَتْ ترى مثل ما رأيت ، ويكون « طيفينا » محمولا على معنى نَفْسَيْنَا ؛ لأن[٦] النفس هى التى ترى ما ترى فى النوم ، وهى التى تمثل أيضاً ما تتمثله فى اليقظة .

---

(١) ديوان البحترى ١٥١ ، ٣ / ١٠٥٢ وطيف الخيال ٦٠ ، ٨٨ .

(٢) فى الديوان « ساعة اللقيان » .

(٣) ديوانه ٤٦ ، ٣ / ١٧٧ وطيف الخيال ٣٧ ، ٤٧ .

(٤) فى الديوان « لا كثباً منا » .

(٥) فى الديوان « من بعد ما بعدا » .

(٦) م « أن » .

وقد يسوغ مع هذا أيضاً قوله : «إذا هجدا» ـ أن يريد النفسين ؛ لأن نفس الإنسان هى التى تنام كما قال الله ـ عز وجل ـ : «والَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِها» [1] فهذا سائغ [2] ولكن الغلط وقع عليه فى قوله :

هَجَرَتْنَا يَقْظَى ، وكادَتْ عَلَى عَا ... دَتِها فى الصُّدُودِ تَهْجرُ وَسْنَى [3]

إنما أراد طيفها ، وهو يرى طيفها فى نومه يقظى كانت أو نائمة .

وقال :

/ طَيْفٌ تَأَوَّبَ مِنْ سُعدَى فحيَّانِى ... أَهْوَاهُ ، وهْوَ بُعَيْدَ النَّوْمِ يَهْوَانِى [4]

فَيَا لَهَا زَوْرَةً يُشْفَى الغليلُ بها ... لو أَنَّها جَلَبَتْ يَقْظَى لِيَقْظَانِ

مَهْزُوزَةٌ إِنْ مَشَتْ لَمْ تُلْفَ هِزَّتُهَا ... فى الخَيْزُرَانِ ، ولَمْ تُوجَدْ مَعَ البَانِ

يُدْنِى الكَرَى شَخْصَها مِنِّى، ويُوقِظُنِى ... وَجْدٌ فَيُبْعِدُ عَنِّى شَخْصَهَا الدَّانِى [5]

وقال :

أَمَّا الخيالُ فإِنَّهُ لَمْ يَطْرُقِ ... إلاَّ بِعُقْبِ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ [6]

قَدْ زَارَ مِنْ بُعْدٍ فَنَهْنَهَ مِنْ جَوًى ... ضَرِمٍ ، وسَكَّنَ مِنْ فُؤَادٍ مُقْلَقِ [7]

ولَرُبَّمَا كَانَ الكَرَى سَكَنًا لَهَا ... بَعْدَ الفِرَاقِ إلى اللِّقَاءِ فَنَلْتَقِى [8]

---

(١) سورة الزمر : ٤٢ .

(٢) راجع تعقيب المرتضى فى طيف الخيال ٣٨ .

(٣) ديوان البحترى ٣٥٧ وطيف الخيال ٣٤ وفى م «هجرتنى» .

(٤) ديوانه ٥٠٠ وطيف الخيال ٥٣ .

(٥) فى الديوان «منى ويبعدنى هجر فيبعد» .

(٦) ديوانه ٦٢٣ ، ١٤٧٩ وطيف الخيال ٤٢ ، ٥٨ .

(٧) فى الديوان «من بعد فسكن من حشا ضرم» .

(٨) فى الديوان وطيف الخيال «سبباً لنا» .

وقال :

مِثالُك مِنْ طَيفِ الخَيالِ المُعَاوِدِ ألَمَّ بنَا مِنْ أفْقِهِ المُتَبَاعِدِ[1]

يُحَيِّى هُجُودًا مُنْتَشِينَ مِنَ الكَرَى وَمَا نَفْعُ إهْدَاء السَّلاَم لِهَاجِدِ

إذا هِى مَالَتْ لِلعِنَاقِ تَقَطَّعَتْ تَعَطُّفَ أُمْلُود مِنَ البَانِ مَائِدِ

إذا وَصَلَتْنَا لَمْ تَصِلْ عَنْ تَعَمُّد وإنْ هَجَرَتْ أبْدَتْ لَنَا هَجْرَ عَامِدِ

وقال [من قصيدته التى أولها]

* قَالَتِ : الشَّيْبُ أتَى قُلْتُ : أجَلْ[2] *

خَطرتْ فى النَّوْمِ مِنْها خَطْـرَةً خَطْرَةَ البَرْقِ بَدَا ثُمَّ اضْمَحَلْ[3]

أىُّ زَوْرٍ لَكَ لَوْ قَصْدًا سَرَى ومُـلُـمٌّ مِنْكِ لَوْ حَقًّا فَعَلْ

يَتَراءَى والكَرَى فى مُقْلَتِى فإذا فَارَقَهَا النَّوْمُ بَطَلْ

وقال [من قصيدته التى أولها]

* شَدَّمَا أغْرِيَتْ ظَلُومٌ بِهَجْرِى[4] *

طَرَقَتْنَا وفى الخَيَالاَتِ سُقْمٌ أُمُّ بَكْرٍ فَأسْعَفَتْ أمُّ بَكْــرِ[5]

فى بُدُوٍّ مِنَ الشَّبَابِ عَلَيْهَا وَرَقٌ مِنْ جَدِيدِهَا المُسْبَكِرِّ[6]

كَمُلَتْ أرْبَعٌ لَهَا بَعْدَ عَشْرٍ وَمَدَى البَدْرِ أرْبعٌ بَعْدَ عَشْرِ

---

(١) ديوان البحترى ٥٣ ، ١/٥٠٧ دار المعارف وطيف الخيال ٤٢ ، ٥٩ .

(٢) ديوانه ١ ٣٣ وعجزه « سبق الوقت ضراراً وعجل » .

(٣) طيف الخيال ٤٣ .

(٤) ديوانه ٣٦٩ ، ٢ / ٩٧٠ « ما أغرمت » وعجزه « بعد وجدى بها وغلة صدرى » .

(٥) فى الديوان « وفى الخيالات نعمى » .

(٦) فى الديوان « جديده » والمسبكر : التام .

خَلَّفَتْ جَارَها بِحُزْوَى وبَاتَتْ ... بَيْنَ سَحْرَىْ شَرْوَى الضَّجِيعِ ونَحْرِى

لو دَرَتْ مَا أَتَتْ لمَنَّتْ بِنُجْحٍ ... لم يُكَدَّبْ ، ونَائِلٍ غَيْرِ نَزْرِ[1]

وقال :

قُلْ للخيالِ إذا أَرَدْتَ فَعَــاوِدِ ... يَدْنِى المَسَافَةَ مِنْ هَوًى مُتَبَاعِدِ[2]

فَلأَنْتَ فى نَفْسِى وإنْ عَنَّيْتَنِى ... وبَعَثْتَ لِى الأَشْجانَ أَحْلَى وَافِدِ

بَاتَتْ بأَحْلَامِ النيامِ تُغرِنِى ... رُوْدُ التَّثَنِّى كالقَضِيبِ المَائِدِ

ضَاهَتْ بِحُلَّتِهَا تَلَهُّبَ خَدِّهَا ... حتَى غَدتْ فى أَرْجُوَان جَاسِدِ

وقال :

بِعَيْنَيْكِ إعْــوَالِى وطُولُ شَهِيقِى ... وإخْفَاقُ عَيْنِى مِنْ كَرًى وخُفُوقِ[3]

عَلَى أَنَّ تَهْوِيماً إِذَا عَارِضَ اطَّبَى ... سُرَى طَارِقٍ فى غير وَقْتِ طُرُوقِ[4]

سَرَى جَائِباً للخَرْقِ يَخْشَى ولَمْ يَكُنْ ... مَلِيًّا بإِسْرَاءٍ وجَوْبِ خُرُوقِ

فَبَاتَ يُعَاطِينِى عَلَى رِقْبَةِ العِدَا ... ويَمْزُجُ رِيقاً مِنْ جَنَاهُ بِرِيقِى

وبِتُّ أَهَابُ المِسْكَ مِنْهُ وأَتَّقِى ... رُدَاعَ عَبِيرٍ صَابِكٍ وخلُوقِ[5]

أَرَى كَذِبَ الأَحْلَامِ صِدْقاً وكَمْ صَغَتْ ... إلى خَبَرٍ أُذْنَاىَ غَيْرِ صَدُوقِ

ومَا كَانَ مِنْ حَقٍّ وبُطْلٍ فَقَدْ شَفَى ... حَــرَارَةَ مَتْبُولٍ وخَبْلِ ومَشُوقِ

وحسبك بهذا حُسْناً وحلاوة .

---

(١) فى الديوان « بنجح لم يكدر » .

(٢) ديوانه ٢٩٨ ، ١ / ٥٥٠ وطيف الخيال ٤٤ .

(٣) ديوانه ٥٢٢ ، ١٥٢٩ وطيف الخيال ٤٥ .

(٤) اطبى : دعا .

(٥) رداع العبير : أثره فى الجسد ، وصابك : لاصق .

وقال :

أَحْبِبْ إلىَّ بِطَيْفِ سُعْدَى الآتِى   وطُرُوقَهُ فى أَعْجَبِ الأَوْقَاتِ[1]

أَنَّى ٱهْتَدَيْتَ لِمُحْرِمِينَ تَصَوَّبُوا   لِسُفُوحِ مَكَّةَ مِنْ رُبَى عَرَفَــاتِ

ذَكَّرْتَنَا عَهْدَ الشَّآمِ وعَيْشَنَا   بَيْنَ القنان السُّود والهَضَبَاتِ[2]

إذْ أنت شكل مُخَالِفٍ ومُــوَافِقٍ   والدَّهْرُ فيكَ مُمَانِـعٌ ومُوَاتِ

لولا مُكَاثَرَةُ الخُطُــوبِ ونَحْتُهَا   مِنْ جَانِبَىَّ لَكُنْتَ مِنْ حَاجَاتِى[3]

* * *

وما علمت أحدًا من القدماءِ قال فى طُرُوقِ الخيال أَحسن من قولِ قيْس ابن الخَطِيم . قال :

أَنَّى سَرَبْتِ وكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ   وَتُقَرِّب الأَحْلَامُ غَيْرُ قَرِيبِ[4]

ما تَمْنَعِى يَقْظَى فَقَدْ تُؤْتِينَهُ   فى النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبِ

/ ثم جاءَ البحتريُّ فأَبَرَّ على قَيْسٍ وكلِّ أَحَدٍ . ولم أَستقص ههنا كل ما قاله فيه لكثرته .

وما أَحسن ما قال عَدِىّ بن الرِّقَاع :

يَصْطَادُ يَقْظَانَ الرِّجالِ حَدِيثُهَا   وتَطِيرُ بَهْجَتُها بِرُوحِ الحَالِمَ

* * *

(١) ديوان البحترى ٤٥٤ ، ١/٣٦٣ وطيف الخيال ٤٥ .

(٢) فى الديوان « بين القباب البيض » .

(٣) م « لولا مكابرة » .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٥ وديوان المعانى ١ / ٢٧٦ وأمالى اليزيدى ٧٩ والتشبيهات ٧٥ وحماسة ابن الشجرى ١٨٩ ومجموعة المعانى ١٤٥ وأمالى المرتضى ١/٣٩٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٥ وأمالى القالى ٢ / ٢٧٣ والأول فى اللسان ١ / ٤٤٥ .

وقال البحترى :

إذَا نَسِيتُ هَوَى ليلى أَشَادَ بهِ   طَيْفٌ سَرَى فى سَوَادِ اللَّيلِ إذْ جَنَحا[١]

دَنَا إلىَّ عَلَى بُعْدٍ فَأَرَّقَنِى   حتَّى تَبَلَّجَ ضَوْءُ الصُّبْحِ فاتَّضَحَا

عَجِبْتُ مِنْهُ تَخَطَّى القَاعَ مِنْ إِضَمٍ   وجَاوَزَ الرَّمْلَ مِنْ خَبْت ومَا بَرِحَا

قال : «تخَطَّى القَطاعَ من إِضَمٍ ، وجَاوَزَ الرَّمْلَ مِنْ خبْتٍ » . فكيف يقول : وما بَرِحَا ؟

أَراد ما برح على الحقيقة .

فإن قيل : هى لم تبرح على الحقيقة فأَما خيالها إذا طَرَقَ وهى بعيدة نائية فقد برح .

قيل : خيالها إنما هو صورتها التى تتصور فى النفس . والصورة أَيضاً غير نازحة على الحقيقة . فقولهم : طرق الخيال ، وزار الخيال – مَجَازٌ .

ويجوز أَن يكون قوله : «وما برحا » أَى ما برحت هى ، وجعل خيالها بدلاً منها ، ووضعه فى موضعها ؛ لأَنه هى . أَلا ترى إلى قول جرير :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ القُلُوبِ ولَيْسَ ذَا   وَقْت الزِّيَارَةِ فَارْجِعِى بِسَلاَمِ[٢]

قيل : إنه أَراد خيالها فوضعها فى موضعه ؛ لأَن خيالها ليس هو شيئاً غير صورتها .

/ وقد استجفى الناس قوله : «فارجعى بسلام» . وإنما قال هذا لأَنه عَاتِبٌ عليها ، أَلا ترى إلى قوله بعد هذا :

---

(١) ديوان البحترى ٥٦ ، ١ / ٤٤٠ دار المعارف وطيف الخيال ٤٦ .

(٢) ديوانه ٥٥١ .

لَوْ كَانَ عهْدُكِ كالَّذِى عَاهَدْتِنَا لَوَصَلْتِ ذَاكَ فَكَانَ غَيْرَ رِمَامِ[1]

أو لم يمنعه طرده الخيال أن قال بعد هذا :

تُجْرِى السِّوَاكَ عَلَى أَغَرَّ كَأَنَّهُ بَرَد تَحَدَّرَ مِنْ مُتونِ غَمَام

وهذا وإن كان الناس قد تقدموه بتشبيه الثغر [بِالبَرَد] فإن هذا لفظ وسبك فى غاية الجودة والحلاوة والبراعة .

* * *

وأول من طرد الخيالَ طَرَفَةُ فقال :

فَقُلْ لِخَيَالِ الحَنْظَلِيَّةِ يَنْقَلِبْ إليها فإِنِّى وَاصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ[2]

وهذا أَعْذَرُ من جرير ؛ لأَنه قال : « فإنى واصلٌ حبْلَ مَنْ وَصَل » ، فدل على أن الحَنْظَلِيَّةَ هجرته وواصله غيرها فطرد خيالها .

* * *

وقد دعا الأَعْشَى على الخَيال فقال :

هَذَا النَّهارُ بَدَا لَهَـــا مِنْ أَمْرِهَا مَا بَالُهَا باللَّيْلِ زَالَ زَوَالُهَا[3]

أى أَزَالَهُ كَزَوَالِه .

وما أَظن جَرِيرًا ، ولا الأَعْشَى قبله كَرِهَا الخيال على الحقيقة ، وإنما أرادا أن زيارته فى غير وقتها شاغلة لنا عن حالنا التى نحن عليها .

* * *

(١) فى الديوان « كالذى حدثتنا » .

(٢) ديوان طرفة ٢٠ .

(٣) ديوان الأعشى ٢٢ « من همها » وفى اللسان ٣٣٣/١٣ — ٣٣٤ « قيل معناه : زال الخيال زوالها . قال ابن الأعرابى : وإنما كره الخيال لأنه يهيج شوقه . وقد يكون بالرفع « زال زوالها » على الإقواء . قال أبو عمرو ؛ وهذا مثل للعرب قديم تستعمله العرب بالرفع ، فسمعه الأعشى ، فجاء به على استعماله ، والأمثال تؤدى على ما فرط به أول أحوال وقوعها . والمعنى على النصب : زال عنا طيفها بالليل كزوالها هى بالنهار » .

وقال البحترى :

/ أَمِنْكَ تَـأَوُّبُ الطَّيْفِ الطَّرُوبِ حبيبٌ جاءَ يُهْدَى مِنْ حَبِيبِ[١]

تَخَطَّى رِقْبَةَ الواشِينَ وَهْناً وَبُعْدَ مسافَةِ الخَرْقِ المَجُوبِ[٢]

يُكاذِبُنِى وأُصْدُقُهُ وِدَادًا ومِنْ كَلَفٍ مُصَادَقَةُ الكَذُوبِ

---

(١) ديوان البحترى ٣٨٩ ، ١ / ٩٨ دار المعارف وطيف الخيال ٤٩ .

(٢) م « الوشين حتى وهنا » .

ما قالاه فى الشَّيْب والشَّبَاب
ووصف الكبر والعزوف عن الصبا ، ونحو ذلك

* * *

وأفتتح هذا الباب بما لهما من ابتداآت القصائد فى نحو معانيه .

قال أبو تمام :

نَسَجَ المَشيبُ لَهُ لِفَاعاً مُغْدِفا   يَقَقاً فَقَنَّعَ مِذْرَوَيْهِ ونَصَّفَا[١]

قوله : « لِفَاعاً » يريد لباساً . يقال : لَفَعَ المشيبُ رأسَه : إذا شمله وعلاه . والمُغْدِف : المسبل . يقال : أغدفْتُ السِّتر إذا أسبلته . ومِذْرَوَاهُ ها هنا : فَوْدَا . ومِذْرَوا كلِّ شيءٍ : ناحيتاه . وقد استعملا كثيرًا فى أطراف الأَلْيَتَيْن حتى صارا كالاسم لهما .

وقوله : « نَصَّفَا » أى قَنَّعَ جانبى رأْسه حتى بلغ النِّصْفَ منه .

وقد قيل : إنما أَراد بقوله : « نَصَّفا » ـ النَّصِيفا ، وهو قناع لطيف ؛ يكون مثل نِصْفِ القِنَاع الكبير . وقد ذكره النَّابِغَة فقال :

* سَقَطَ النَّصِيفُ ، ولَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ[٢] *

فإن ذلك لا وجه له[٣] بعد ذكر القناع . وإنما أَراد أَبو تمام ما أَراده الآخر بقوله :

/أَصْبَحَ الشَّيْبُ فى المَفَارِقِ شَاعَــا   وَاكْتَسَى الرَّأْسُ مِنْ مَشِيب قِنَاعَا

فالمعنى مُكْتَفٍ بقوله « قَنَّع مِذْرَوَيْه » . وقولُه « نَصَّفَا » أى بلغ نصف رأسه .

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٠١ « له قناعا » .

(٢) ديوان النابغة ٣٦ وعجزه « فتناولته واتقتنا باليد » .

(٣) م « ذلك لا وجمله بعد » .

وقال أبو تمام :

يَضْحَكْنَ مِنْ أَسَفِ الشَّبَابِ المُدْبِرِ يَبْكِينَ مِنْ ضَحكات شَيْب مُقْمِرِ[١]

وهذا بيت ردىء . وما سمعت بضحك من الأسف إلا فى هذا البيت ، وكأنه أراد قول الآخر :

* وشَرُّ الشَّدَائِدِ ما يُضْحِكُ *

فلم يهتد لمثل هذا الصواب .

وقوله : «مِنْ ضَحِكَاتِ شَيْبٍ مُقْمِرِ» - ليس بالجيد أيضاً ، ولو كان ذكر الليل على الاستعارة لحسن أن يقول مقمر ؛ لأنه كان يجعل سواد الشعر لَيْلًا ، وبياضه بالمشيب إِقْمَارَه ؛ لأن قائلاً لو قال : أقمر ليل رأسك ، كان من أصح الكلام وأحسنه . وإن لم يذكر الليل أيضاً حتى يقول : قد أقمر عارضاك ، أو فوداك - لكان حسناً مستقيماً ، وهو دون الأول فى الحسن ؛ وذلك أنه قد علم أنهما كانا مظلمين فاَسْتَنَارَا[٢]

وسقى الله البحترى الغيث إذ يقول :

ليالٍ سَرَقْنَاهَا مِنَ الدَّهْرِ بَعْد مَـا أَضَاءَ بِإِصْبَاحٍ مِنَ الشَّيْبِ مَفْرِقِ[٣]

وإنما أراد أبو تمام قول دعبل :

* ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى[٤] *

فأفسد المعنى .

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٩٨ « فبكين » .

(٢) راجع نقد المرتضى لهذا فى الشهاب ص ٦ .

(٣) ديوان البحترى ٥١٨ .

(٤) صدره : « لا تعجبى يا سلم من رجل » وانظر ديوان دعبل ١٧٨ .

وقال :

أَبْدَتْ أَسًى أَنْ رَأَتْنِى مُخْلِسَ القُصَبِ   وآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْب إلى عَجَبِ[١]

/ يقال : رَأْسٌ مُخْلِسٌ ، وخَلِيسٌ : إذا اختلط به الشيب . والقُصَب : هى خُصْلَةُ الشَّعْر .

« وآل ما كان من عجب إلى عجب » . أى عُجْب ومَحَبَّة . « إلى عَجَب » أى عَجَب من شيبى .

وقال فى العُزُوفِ عن الصِّبَا :

أَبَى : فَلَا شَنَباً يَهْوَى ، ولاَ فَلَجَا   ولاَ اَحْوِرَارًا يُرَاعِيهِ ، ولَا دَعَجَا[٢]

وهذان ابتداآن صالحان .

* * *

وللبحترى فى هذا الباب ابتداآت كثيرة تصرَّف فيها أحسن تصرف ، وافْتَنَّ فيها أحلى افتِنان . وذلك قوله :

أَبَعْدَ المَشِيبِ المُنْتَضَى فى الذَّوَائِبِ   أُحَاوِلُ لُطْفَ الوُدِّ عِنْدَ الكَوَاعِبِ[٣]

وقال :

رأَت وخْط شيب فى عذارى فَصدَّتِ   ولم تُنْظِرَنِّى مِنْ جَوًى قَدْ أَجدَّتِ[٤]

وقوله :

غَلَّسَ الشَّيْبُ ، أَو تَعَجَّلَ وِرْدُهْ   وَاسْتَعَارَ الشَّبَابَ مَنْ لاَ يَرُدُّهْ[٥]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٥ وشرح التبريزى ١/١١٥ والشهاب ١٠ .

(٢) ديوانه ٦٨ وشرح التبريزى ١ / ٣٣٣ .

(٣) ديوان البحترى ١٥٢ ، ١ / ١٠٨ دار المعارف وفى م « المنقضى » .

(٤) ديوانه ٧٥٢ « شيب من قريب . . ولم ينتظره بى نوى قد » ، ١ / ٣٦٩ دار المعارف .

(٥) ديوانه ٤٧٣ ، ١ / ٥٠٩ .

وقوله :

أمّا الشّبابُ فقَدْ سُبِقْتَ بِغَضِّــهِ ❊ وحَطَطْتَ رَحْلَكَ مُسرِعاً مِن نقضهِ[١]

وقوله :

تَرَكَ الشَّبَابَ لِلابِسيهِ وبَيَّضَا ❊ ونَضَا مِنَ السِّتِّينَ عَنْهُ مَا نضَا[٢]

/ وقوله :

لَابِسٌ مِنْ شَبِيبَةٍ أَمْ نَاضٍ ❊ ومُلِيحٌ مِنْ شَيبَةٍ أَمْ رَاضٍ[٣]

وقوله :

شَرْخُ الشبابِ أخُو الصِّبا وأَلِيفُهُ ❊ والشيبُ تَزْجِيَةُ الهَوَى وخُفُوفُهُ[٤]

وقوله :

هَا هُوَ الشيبُ لائِماً فَأَفِيقِي ❊ وأتْرُكِيــهِ إنْ كَانَ غَيْرَ مُفِيقِ[٥]

وقوله :

قَالت : الشيبُ أتَى قُلْتُ : أَجَلْ ❊ سَبَقَ الوقتَ ضِرارًا وعَجِلْ[٦]

وقوله :

تَقَضَّى الصِّبَا إلاَّ تَلَوُّمُ رَاحِلِ ❊ وأَغْنَى المَشِيبُ عَنْ مَلاَمِ العَوَاذِلِ[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٢٨٨ ، ٢ / ١١٩٥ دار المعارف « عن نقضه » .

(٢) ديوانه ٢٩٠ ، ٢ / ١١٩٨ دار المعارف ، « ترك السواد » وأمالى المرتضى ١ / ٦٦٢ ، ٢ / ١٣٥ .

(٣) ديوانه ٣٩٢ ، ٢ / ١٢٠٧ وأمالى المرتضى ١ / ٦١٩ .

(٤) ديوانه ٦٤ .

(٥) ديوانه ٤٣٥ « إذ كان » وأمالى المرتضى ١/٦٠ .

(٦) ديوانه ٣٣١ «الشيب بدا » .

(٧) ديوانه ٦٣٨ .

وقوله :

أَكَانَ الصِّبَا إِلَّا خَيَالًا مُسَلِّمًا ‏ ‏ أَقَامَ كَرَجْعِ الطَّرْفِ ثُمَّ تَصَرَّمَا[١]

وقوله :

لَا جَدِيدُ الصِّبَا ولا رَيْعَــانُهْ ‏ ‏ رَاجِعٌ بَعْدَمَا تَقَضَّى زَمَانُهْ[٢]

وقوله :

/ بَانَ عَهْدُ الصِّبَا وباقٍ جَدِيدِهْ ‏ ‏ بَيْنَ أَعْوَانِ طَالِب ووُجُودِهْ[٣]

وقوله :

خَطَتْهُ فَلَمْ تَحْفِلْ بِهِ الأَعْيُنُ الوُطْفُ ‏ ‏ وكَانَ الصِّبا إِلْفاً فودَّعَــهُ الإِلْفُ

وقال فى العُزُوفِ عن الصِّبا :

إليك ما أَنَا عَنْ لَهْوٍ ولاَ طَرَبِ ‏ ‏ مُنِيتِ مِنِّى بِقَلْبٍ غيرِ مُنْقَلِبِ[٤]

وقال :

أَطَاعَ عَاذِلَه فى الحبِّ إِذْ نَصَحَا ‏ ‏ وكَانَ نَشْوَانَ مِنْ سُكْرِ الصِّبا فَصَحَا[٥]

وقال :

فى الشيبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ ‏ ‏ وَوَاعِظٌ مِنْهُ لَوْلاَ أَنَّهُ حَجَرُ[٦]

---

(١) ديوان البحترى ١٢٦ .

(٢) ديوانه ٣١٩ « تقضى أونه » .

(٣) ديوانه ٥٧٤ « بات » .

(٤) ديوانه ٤٩٩ ، ١ / ١١٩ دار المعارف « من لهو» .

(٥) ديوانه ٥٦ ، ٦ / ٤٤٠ « سكر الهوى » .

(٦) ديوانه ٦٧٣ ، ٢ / ٩٥٣ « وبالغ منه » .

وقال :

أَنِزَاعاً فى الحبِّ بَعْدَ نُزُوعٍ وَذَهاباً فى الغَىِّ بَعْدَ رُجُــوعٍ[١]

وقال :

لِأَيَّةِ حَالٍ أَعْلَنَ الوَجْدَ كاتِمهْ وأَقْصَرَ عَنْ دَاعِى الصَّبَابَةِ لَائِمُهْ[٢]

وقال :

إِنِّى تَرَكْتُ الصِّبا عَمْدًا فَلَمْ أَكَدِ مِنْ غَيْرِ شَيْبٍ ولا عَذْلٍ ولا فَنَدِ[٣]

* * *

/ وهذا باب أبرّ فيه البحترى على أبى تمام .

قوله : «أَبَعْد المَشِيبِ المنْتَضى»[٤] . ويقال : نَضَا الحنَّاءُ عن اليد يَنْضُو ، ونَضَا ثوبه عنه يَنْضُوه ، أى نزعه ، وانْتَضَى السيف : انتزعه من غِمْدِه . فجعل الشيب منتضًى فى الذوائب أى مشهورًا فيها على الاستعارة ، كأنه جعله سيفاً سُلَّ فى رأسه .

وأجود من هذا قوله :

وَدِدْتُ بَيَاضَ السَّيْفِ يَوْمَ لَقِينَنِى مَكانَ بَيَاضِ الشيب كَانَ لِمَفْرِقِى[٥]

---

(١) ديوان البحترى ٤٢٠ « أنزاعا » ! وفسرها ناشره بالمرح والنشاط ! ، ٢ / ١٢٧٩ .

(٢) ديوانه ٤٧٨ وفى م « عن راغى » .

(٣) ديوانه ٤٢٤ ، ١ / ٥٧٣ دار المعارف « ولم » .

(٤) سبق ص ١٩٢ .

(٥) ديوانه ٧٧ « الشيب لاح بمفرق » .

ماجاء عنهما فى وسط كلامهما من ذكر الشيب والشباب ووصف الشيب وذمه

قال أبو تمام :

غَدَا الهَمُّ مُخْتَطًّا بِفَوْدَىَّ خُطَّـةً طَرِيقُ الرَّدَى مِنْها إلى المَوْتِ مَهْيَعُ[١]

هُوَ الزَّوْرُ يُجْفَى ، والمُعاشِرُ يُجْتَوى وذُو الإلْفِ يُقْلَى ، والجَدِيدُ يُرَقَّعُ

لَهُ مَنْظَرٌ فى العينِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ ولكنَّه فى القلبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

ونحن نُزَجِّيه على الكُرْهِ والرِّضَا وأَنْفُ الفتَى مِنْ وَجْهِهِ وهْوَ أَجْدَعُ[٢]

وهذه كلها معانٍ جيدة صحيحة مستقيمة .

* * *

وقال :

شُعْلَةٌ فى المَفَارِقِ اَسْتَوْدَعَتْنِى فى صَمِيمِ الأَحْشَاءِ حُزْناً صَمِيمَا[٣]

يَسْتَثِيرُ الهُمُومَ مَا اكْتَنَّ مِنْهَا صُعُدًا ، وَهْىَ تَسْتَثِيرُ الهُمُومَا[٤]

/ غُرَّةٌ مُرَّةٌ . أَلاَ إِنَّمَا كُنْـ ـتُ أَغَرًّا أَيَّامَ كُنْتَ بَهِيمَا[٥]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٩٠ وشرح التبريزى ٢ / ٣٢٤ وأمالى المرتضى ١ / ٦٠٩ والشهاب فى الشيب والشباب للمرتضى ٦ ومجموعة المعانى ١٢٥ .

(٢) فى شرح التبريزى : « ونحن نزجيه » ونقل شرحها عن أبى العلاء المعرى : « نزجيه : نحمله ونسوقه على أن يسير . يقول : نحن على سخطه راضون به ؛ لأنه لا بد منه وإن كنا نبغضه ، فمثله مثل الأنف الأجدع يعلم الفتى أنه قبيح وقد ثبت أنه من وجهه » .

(٣) ديوان أبى تمام ٢٩١ وشرح التبريزى ٣ / ٢٢٣ « الفؤاد ثكلا صميما » وأمالى المرتضى ١ / ٦٠٩ والشهاب ٧ وحماسة ابن الشجرى ٢٤١ .

(٤) م « تستنير . . . وهى تستنير » .

(٥) « غرة بهمة » وفى شرح التبريزى « ويروى » : وقالوا : غرة بهمة على معنى التضاد ، أى —

رِقَّةٌ في الحياةِ تُدْعَى جَـلاَلاً   مِثْلَمَا سُمِّى اللَّدِيغُ سليما[١]

حَلَّمَتْنِى – زَعَمْتُمُ – وأَرَانِى   قَبْلَ هذا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيما[٢]

وهذه كلها أيضاً [أبيات] جيدة ، والأغراض فيها[٣] حسنة مستقيمة .

وقوله : « تستثير الهموم ما اكتنَّ منها » – يريد أنها لمَّا بدت حَزِنْتُ ، واهتممت ، فصار اهتمامى يزيد فيها ؛ لأن الهم – على كل حال – يشيب .

وقوله : « وهى تَسْتَثِيرُ الهُمُومَا » – قول صحيح أيضاً ؛ لأنه كلَّما بدا منها شىءٌ زاد همه ، فالهم يَجْلِبُهَا ، وهى تَجْلِبُ الهمَّ .

وأخذ البحترى قولَه :

غُـــرَّةٌ مُرَّةٌ . ألَا إنَّمَا كُنْــ   ـتُ أغَرَّا أيَّامَ كُنْتَ بِهِيمَا !

فقال :

عَجِبَتْ لِتَفْوِيفِ القَذَالِ ، وإنَّما   تَفْوِيفُهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ مُفَوَّفِ[٤]

* * *

وقال البحترى :

وكُنْتُ أُرَجِّى فى الشبابِ شَفَاعَةً   وكيفَ لِبَاغِى حَاجَةٍ بِشَفِيعِهِ[٥]

=اسمها غرة ، وهى ضد ذلك فى الحقيقة . والبهمة من قولك : فرس بهيم ، وهو الذى لايخالط لونه غيره ، كأنه أبهم عن الشيات ، أى أغلق دونها . وجائز أن يجعل نفسه بهيما لأنه أراد الشعر ، وأنه أيام كان أسود لم تكن له غرة ، أى شيب » .

(١) فى الديوان وشرحه « دقة » .

(٢) فى شرح التبريزى « أى زعمتم أن شعلة الشيب قد صيرتنى حليما وتم بها عقلى ، وأنا أرى أنى قبل هذا كنت حليما كاملا » .

(٣) م « فيه » .

(٤) ديوان البحترى ٦٧٦ وقد نقله الشريف المرتضى فى الشهاب ٧ ثم نازعه فى دعوى الأخذ ، وفضل بيت أبى تمام . وفى م « عجب » .

(٥) ديوان البحترى ٣٧٢ ، ٢ / ١٢٧٦ دار المعارف . والأبيات فى أمالى المرتضى ١ / ٦١٨ .

مَشِيبٌ كَبَثِّ السرِّ عَيَّ بِحَمْلِهِ مُحَدِّثُهُ ، أَوْضَاقَ صَدْرُ مُذِيعِهِ[١]
تَلاَحَقَ حتَّى كَادَ يَأْتِى بِطِيئُهُ لِحَثِّ اللَّيَالِى قَبْلَ أَتْى سَرِيعِهِ

وهذا أيضاً فى وصف الشيب حسن جدًّا .

وقال البحترى :

/ رُدِّى عَلَىَّ الصِّبَا إِنْ كُنْتِ فَاعِلَةً إِنَّ الصِّبَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِى ولَا أَرَبِى[٢]
جَاوَزْتُ حَدَّ الشَّبابِ النَّضْرِ مُلْتَفِتاً إلى بَنَاتِ الرَّدَى تَرْكُضْن فى طَلَبِى[٣]
والشَّيْبُ مَهْرَبُ مَنْ جَارَى مَنِيَّتَهُ ولا نَجَاءَ لَهُ فى ذلك الهَرَبِ
والمَرْءُ لَوْ كَانَت الشِّعْرَى لَهُ وَطَناً صُبَّتْ عَلَيهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ كَثَبِ[٤]

وقال :

لابِسٌ مِنْ شَبِيبَةٍ أَمْ نَاضِ وَمُلِيحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضِ[٥]
وإِذَا ما امْتَعَضْت مِنْ وَلَعِ الشَّيْـ بِ بِرَأْسِى لَمْ يَثْنِ ذَاكَ امْتِعَاضِى[٦]
لَيْسَ يَرْضَى عَنِ الزَّمَان مُرُوٌّ فِيهِ إِلاَّ عَنْ غَفْلَةٍ أَوْ تَغَاضِ
بَاكَرَتْ لِمَّتِى ، وَنَاكَرْتُ مِنْهَا سُوْءَ هَذِى الأَبْدَالِ والأَعْوَاضِ[٧]
شَعَرَاتٌ أَقُصُّهُنَّ ويَرْجِعْـ نَ رُجُوعَ السِّهام فى الأَغْرَاضِ
وأَبَتْ تَرْكِىَ الغُدَيَّاتِ والآ صَالِ حتَّى خَضَبْتُ بالمِقْرَاضِ[٨]

---

(١) ديوانه « كنث السر » ومعناهما واحد .
(٢) ديوان البحترى ٤٩٩ ، ١ / ١١٩ « أين الهوى » وأمالى المرتضى ١ / ٦١٩ والشباب ١٤ .
(٣) فى الديوان : « بنات الصبى » .
(٤) فى الديوان « حطت عليه . . من صبب » .
(٥) ديوانه ٣٩٢ وأمالى المرتضى ١ / ٦١٩ والشهاب ١٤ .
(٦) فى الديوان « لم يعد ذاك » .
(٧) م « باكرت . . وناكرت » وفى الديوان « ليس سوء الأخلاق » .
(٨) راجع ما قاله المرتضى عن هذا البيت فى الشهاب ١٤ .

غَيرَ نَفْعٍ إلاَّ التَّعَلُّلَ مِنْ شَخْـ ... ـصٍ عَدُوٌّ لَمْ يَعْدُهُ إبْغَاضِى

وَرُوَاءُ المَشِيبِ كالبخْصِ فى عَيْـ ... ـنِى فَقُلْ فيهِ فى العُيُونِ المِرَاضِ[1]

طِبْتُ نَفْساً عَنِ الشَّبَابِ وماسَوَّ ... دَ مِنْ صِبْغِ بُرْدِهِ الفَضْفَاضِ

فَهَلِ الحادِثَاتُ يَاْبْنَ عُوَيفٍ ... تَارِكَاتِى وَلُبْسَ هَذَا البَيَاضِ

/ وهذا هو الذى يأخذ بمجامع القلب ، ويستولى على النفس . ومن حِذْقِ الشاعر أن يُصَوِّر لك الأشياء بصورها ، ويعبر عنها بألفاظها المستعملة فيها ، واللائقة بها . وذلك مذهب البحترى وصناعته ؛ ولهذا مَا كَثُرَ الماءُ والرَّوْنَقُ فى شعره . وقالوا : لِشِعْرِهِ ديباجه . وما قيل ذلك فى شعر أحد من المتأخرين غيره .

* * *

وقال :

وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ عَهْدَ الشَّبَا ... بِ وعَلْوة إذْ عَيَّرتنى الكِبَرْ[2]

وقوله «ما أَنْسَ لا أَنْسَ» جُزِمَ : لأَنه شَرطٌ وجزاء .

كَوَاكِبُ شَوْقٍ عَلِقْنَ الصِّبَا ... فَقَلَّلْنَ مِنْ حُسْنِهِ مَا كَثُرْ[3]

وإنِّى وَجَدْتُ ـ فَلاَ تَكْذِبَنَّ ـ ... سَوَادَ الهَوَى فى بَيَاضِ الشَّعَرْ

وَلاَ بُدَّ مِنْ تَرْكِ إحْدَى اَثْنَتَيْـ ... ـنِ : إمَّا الشَّبَابُ ، وإمَّا العُمُرْ

---

(١) فى اللسان ٨ : ٢٦٩ «البخص : لحم ناتئ فوق العينين أو تحتهما كهيئة النفخة» .

(٢) ديوان البحترى ٩٩ ، ٢ / ٨٤٨ دار المعارف ، وأمالى المرتضى ١ : ٦٢٥ والشهاب ١٥ .

(٣) فى الديوان «كواكب شيب» .

قوله :

ولا بُدَّ مِنْ تَرْكِ إحْدَى ٱلْأَخْتَيْـ ـنِ : إمَّا الشَّباب ، وإمَّا العُمُرْ

عليه فى هذا البيت مُعَارضَة . وهو أن يقال : إنَّ من مات شابًّا فقد فارق الشباب ، وهو مفارق للعمر لا محالة ، فهو أيضاً تارك لهما جميعاً ، وقوله : إما الشباب وإما العمر – لا يوجب إلا أحدهما .

والعُذْرُ للبحترى أن يقال : إنَّ من مات شابًّا فإنما فارق الشباب وحده ؛ لأنه لم يُعَمَّر فيكون مفارقاً للعمر . ألا تراهم يقولون : فلان عُمِّر : إذا أَسَنَّ . وفلان لم يُعَمَّر : إذا مات شابًّا أو وهو فى حدود الشباب . ومن شاب وعمّر ثم مات لم يكن مفارقاً للشباب فى حال موته [لأنه قد قطع أيام الشباب وتقدمت مفارقته له ، وإنما يكون فى حال موته][1] مفارقاً للعمر وحده . فإلى هذا ذهب البحترى ، وهو صحيح . ولم يرد بالعمر ههنا : الكبر ، كما قال زُهَيْر :

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ، وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ[2]

ومثله قول آخر :

مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَماً لِلْمَوْتِ كَأْسٌ والمَرْءُ ذَائِقُهَا[3]

---

(١) الزيادة من الشهاب ١٥ وأمالى المرتضى ١ : ٦٢٦ .

(٢) ديوان زهير ٢٩ وشرح القصائد العشر ١٢٢ وقد قال المرتضى عقب نقله لهذا فى الأمالى ١ : ٦٢٦ « وما رأيت أشد تهافتاً فى الخطأ منه فيما يفسره ويتكلم عليه من شعر هذين الرجلين . ومعنى البيت غير ما توهمه ، وهو أظهر من أن يخفى حتى يحتاج فيه إلى هذا التغلغل والتعسف . . » ثم عاد فنقل كلامه الطويل فى الشهاب ١٥ – ١٦ .

(٣) لامية بن أبى الصلت ، كما فى اللسان ٩ : ٢٢١ وعبطة : شاباً .

وهذا أَجود من بيت زهير ومن بيت البحترى ؛ لأَنه جمع المعنيين فى المصراع الأَول ، وهو مستغْنٍ عن المصراع الثانى .

* * *

ولولا قوله :

«مَشِيبٌ كَبَثٍّ السر» .

و «فَهَل الحادِثَاتُ يا ابن عُوَيْفٍ» — لفضلت أَبا تمام عليه ، ولكنى أَجعلهما متكافئين .

كره النساء للمشيب

قال أبو تمام :

أَلَمْ تَرَ آرَامَ الظِّبَاءِ كأَنَّمَا رَأَتْ بِىَ سِيدَ الرَّمْلِ والصُّبْحُ أَدْرَعُ
لَئِنْ جَزِعَ الوَحْشِىُّ مِنْهـا لِرُؤْيَتِى لإِنْسِيُّها مِنْ شَيْبِ رَأْسِىَ أَجْزَعُ[١]

وهذا غاية فى حسنه وصحة معناه .

قوله : «سِيدُ الرَّمل» يريد الذئب . وقوله : «والصُّبْحُ أَدْرَعُ» أى أوله مختلط بسواد الليل ، يريد وقت طلوع ، الفجر . وكل ما اسودّ أوله ، وابيضَّ آخره فهو أَدْرَع ، وشاةٌ دَرْعَاءُ للتى اسودّ رأسُها وعنقها ، وسائِرُها أبيض .

وإنما قال ذلك لأن الظباء تخاف الذئب فى ذلك الوقت ، لأن لونه يخفى فيه لغُبْشَتِهِ ، فلا تكاد تراه حتى يخالطها . وهو الوقت الذى تَنْتشر[٢] فيه الظباء ، وتخرج من كنسها لطلب المرعى[٣] . والغنم يخرجها أهلها بعد هذا الوقت .

* * *

وقال أبو تمام :

لَعِبَ البَيْنُ بالمَفَارِقِ ، بَلْ جـدْ دَ ، فَأَبْكَى تُمَاضِرًا ولَعُوبَا[٤]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٩٠ وشرح التبريزى ٢ : ٣٢٢ والشهاب ٨ .

(٢) م « الذى تعشر » والتصويب من الشهاب .

(٣) نقل المرتضى هذا التأويل ثم أجازه وقال إن البيت يحتمل سواه ، راجع تفصيل ذلك فى الشهاب ٨ — ٩ .

(٤) ديوانه ٢٥ وشرح التبريزى ١ : ١٦٦ — ١٦٧ وأمالى المرتضى ١ : ٦١٠ والشهاب ٩ وفى جميعها « لعب الشيب » .

خَضَبَتْ خدَّهَا إلى لُؤْلُؤ العِقـ ـدِ دماً أَنْ رَأَتْ شَوَاتى خَضِيبَا

كُلُّ داءٍ يُرْجَى الدَّوَاءُ لَهُ إلاّ الفَظِيعَيْنِ : ميتَةٌ ، ومَشِيبَا

يَا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أَبْقَى حَسَنَاتِى عِنْد الحِسَانِ ذُنُوبا[1]

ولَئِنْ عِبْنَ مَا رَأَيْنَ لَقَدْ أَنْـ ـكَرْنَ مُسْتَنْكَرًا وعِبْنَ مَعِيبَا

أَوْ تَصَدَّعْنَ عَنْ قِلًى لكَفَى بالشـ ـيْبِ بَيْنِى وبَيْنَهُنَّ حَسِيبَا

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ لِلشَّيْبِ فَضْلاً جَـاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فى الخُلْدِ شِيبَا

وهذا البيت الأخير من شعره الجيد المشهور .

ومن يتعصب عليه يقول : إنه ناقض فى هذه الأبيات ؛ لقوله : «فأَبْكَى تُمَاضِرًا ولَعُوبَا » وقوله : «خَضَبت خدَّها إلى لُؤْلُؤ العِقْدِ دَماً » . ثم قال :

يَا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أَبْقَى حَسَنَاتِى ، عنْدَ الحِسَانِ ذُنُوبَا

وقوله : «ولَئِنْ عِبْنَ مَا رَأَيْنَ» .

وقالوا كيف يَبْكِينَ دَماً على مَشِيبه ثم يَعِبْنَه ؟

وليس ها هنا تناقض ؛ لأن الشيب إنما أبكى تُمَاضرًا ولعوبًا أسفاً على شبابه ، والحسان اللواتى عِبْنَه غَيْرُ هاتين المرأتين ، فيكون من أَشْفَق عليه من الشَّيْب منهن وأَسِفَ على شبابه — بَكَى ، كما قال الأَخْطَل :

لَمَّا رَأَتْ بَدَلَ الشبابِ بَكَتْ لَهُ إِنَّ المَشِيبَ لأَرْذَلُ الأَبْدَالِ[2]

ولم تك هذه حال من عابه[3]. وهو مستقيم صحيح[4] .

---

(١) ويروى : «عند الغوانى» .

(٢) ديوانه ١٥٨ .

(٣) م «ومن لم تك هذه حاله عابه» .

(٤) راجع نقد المرتضى فى أماليه ١ : ٦١١ وفى الشهاب ٩ .

وقول الأخطل : بَكَتْ لَهُ . أى الشباب . ولكن أبا تمام لم يرض أن يقول : بكت فيكون أمرًا قريباً مشبهاً . حتى قال : «بكت الدم» على مذهبه فى الخروج عن الحد فى كل شىء .

* * *

وقال :

رَاحَتْ غَوَانِى الحَىِّ عنكَ غَوَانِيا يَلْبَسْن نَـأْياً تَارَةً وصُدُودَا[(١)]

مِنْ كُلِّ سَابِغَةِ الشَّبَابِ إذا بَدَتْ تَرَكَتْ عَمِيدَ القَرْيَتَيْن عَمِيدَا[(٢)]

أَرْبَبْنَ بالمُرْدِ الغَطَارِفِ بُدَّناً غِيدًا أَلِفْنَهُمُ لِدَاناً غِيدَا

أَحْلَى الرِّجَال مِنَ النِّساءِ مَوَاقِعاً مَنْ كان أَشْبَهَهُمْ بِهِنَّ خُدُودَا

قوله : «أَرْبَبْنَ بالمُرْدِ» . هو من أَرَبَّ بالشىء إذا لَزِمَه وأقام عليه ، يقال : أَرَب به ، وأَلَبَّ إذا لَزِمَه . يريد أنهن أَرْبَبْنَ[(٣)] هَوَى المُرْدِ ، وأقمن عليه .

ورواه قوم «أَرْبَيْنَ بالمرد» . من الرِّبَا الذى معناه الزِّيادَة يقال[(٤)] : قد أَرْبَى الرجل إذا زاد . فيقول : «أَرْبَيْنَ بالمُرْدِ أى زِدْن علينا بهم ، أى جعلن المُرْدَ زيادة اخترنها علينا[(٥)] فما يقبل الرجل الزيادة فى الشىء

---

(١) ديوان أبى تمام ٨٧ وشرح التبريزى ١ : ٤١٣ وأمالى المرتضى ١ : ٦١١ والشهاب ١٠ .

(٢) فى شرح التبريزى عن أبى العلاء المعرى : «سابغة الشباب : أى قد جرى شبابها فى جميع جسدها . استعار السبوغ للشباب . وعميد القريتين : رئيسهما ، والقريتان : مكة والطائف . وعميدا : من قولك عمده الحب : إذا ذهب بقلبه . وإنما بنى الطائى هذا الكلام على قوله عز وجل : (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقد استعملوا فى صدر الإسلام نحواً من ذلك فقالوا : ليس فلان بعظيم القريتين ، أى ليس هو برئيس» .

(٣) «أربين» .

(٤) م «فقال» .

(٥) نقل المرتضى شرح الآمدى هذا من غير أية إشارة إليه فى أماليه ١ / ٦١١ .

الذى يُعْطَاهُ فَاضِلاً مِنْ حَقِّه ، ويرغب فيه يقال : قد أَرْبَى . فإلى هذا ذهب من قال : أَرْبَيْنَ ، لا إلى قولهم : أنا أَرْبَأُ بك عن كذا ، لأن هذا مَهْمُوزٌ مَعْنَاهُ : أنا أَرتفع بك ، أو أَرْفَعُكَ عن كذا ، من الرَّبِيئَةِ والاْرْتِبَاء وهو الذى يصعد لأصحابه إلى شَرَفٍ عَالٍ فيرصد أعداءهم[1] إذا قصدوهم فيراهم من بعد فَيُنْذِرَ بهم . فكأن قوله : «أَرْبَيْن بالمُرْدِ » أى أخذن المُرْدَ رِباً علينا لِمَا فيهم من الزيادة التى اخترن[2] علينا وتركننا .

والمعنى الأول أقرب لفظًا .

وعلى أى الوجهين كانت اللفظة فهى غير حسنة ، ولا لائقة ، ولا هذا الموضع موضعها بالباء كانت [أم] بالياء .

وقيل : أخذ قوله[3] «أَحْلَى الرِّجال من النساء مَوَاقِعاً » ؛ من قول الأَعْشَى :

وأَرَى الغَوَانِي لاَ يُوَاصِلْنَ امْرَأً ... فَقَدَ الشَّبَابَ ، وقَدْ يَصِلْن الأَمْرَدَا[4]

وقال مَنْصُور النَّمَرى :

كَرِهْنَ مِنَ الشَّيب الذى لَوْ رَأَيْتَــهُ ... بِهِنَّ رَأَيْتَ الطَّرْفَ عَنْهُنَّ أَزْوَرَا[5]

ونحو هذا قول آخر :

أَرَى شَيْبَ الرِّجَالِ مِنَ الغَوَانِى ... بِمَوْقِعِ شَيْبِهِنَّ مِنَ الرِّجَالِ[6]

***

(١) م « أعدادهم » .
(٢) م « اخترنا » .
(٣) فى أمالى المرتضى ١ : ٦١٢ « ويقال : إنه أخذ قوله أحلى إلخ » .
(٤) ديوان الأعشى ١٥١ والشهاب ١٠ .
(٥) فى أمالى المرتضى « رأينه بهن رأين » .
(٦) فى أمالى المرتضى ١ : ٦١٢ « كوقع مشيبهن » .

وقال البحترى :

تَعِيبُ الغَـانِيَاتُ عَلَيَّ شَيْبِي ... ومَنْ لِي أَنْ أُمَتَّعَ بالمَعِيبِ[1]

ووَجْدِي بالشَّبَابِ وإن تَقَضَّى ... حَمِيدًا – دُونَ وَجْدِي بِالمَشِيبِ

وهذا من فاخر هذا الباب وعجيب مذاهبه ، ومن إحسان أبى عبادة المشهور .

* * *

وقال البحترى أيضاً :

أَعَداوَةً كانت فَمِنْ عَجَبِ الهَوَى ... أَنْ يَصْطَفِى فيه العَدُوُّ حَبِيبَا[2]

أَمْ وَصْلَةٌ صُرِفَتْ فعَادَتْ هجْرَةً ... أَنْ عَادَ رَيْعَانُ الشَّبَابِ مَشِيبَا

أَرَأَيْتِـــه مِنْ بَعْدِ جَثْل فَاحِمٍ ... جَوْنَ المَفَارِقِ بالنَّهارِ خَضِيبَا[3]

فَعَجِبْت مِنْ حَالَيْنِ خَالَفَ مِنْهُمَا ... رَيْبُ الزَّمَانِ وَمَا رَأَيْتِ عَجِيبَا

إنَّ الزَّمَانَ إذَا تَتَابَعَ خَطْـــوُه ... سَبَقَ الطَّلُوبَ وأَدْرَكَ المَطْلُوبَا

قوله : «جَوْنَ المَفَارِق» . والجَوْن هاهنا : الأَبيض ؛ فلذلك قال : «بالنَّهار خَضِيبًا» وخِضاب البياض غير معروف ولا جرت بمثله عادة . وإنما الخضاب بالسواد والصفرة . وذلك أن الخضاب إنما هو صِبْغٌ ، والبياض ليس بصبغ ولكن هو المصبوغ . والبحترى إنما جعله خضاباً لأَنه لون حدث بعد لونٍ قَبْلَه فلهذا مَا جَعَلَهُ كالخضاب .

---

(١) ديوان البحترى ٣٨٩ ، ١ / ٩٩ والشهاب ١٦ «يعيب» وأمالى المرتضى ١ : ٦٢٠ وفى م «أمتع بالمشيب» .

(٢) ديوانه ٢٥٢ ، ١ / ١٨٤ والشهاب ١٧ .

(٣) هذا البيت والأبيات بعده نقلها المرتضى فى أماليه ١ : ٦٢٠ .

(٤) حتى هذا الشرح نقله من غير عزو .

وقال :

رَأَتْ فَلَتَاتِ الشَّيْبِ فَابْتَسَمَتْ لَهَا وقَالَتْ : نُجُومٌ لو طَلَعْنَ بِأَسْعُدِ[١]

أَعَاتِكُ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِي إليكَ فألحى الشَّيْبَ إذ كان مبعدى

تَزِيدِينَ هَجْرًا كُلَّمَا ازْدَدْتُ لَوْعَةً طِلَابًا لِأَنْ أَرْدَى فها أنَا ذَا رَدِى[٢]

مَتَى أُدْرِكُ العَيْشَ الذى فَاتَ آنِفاً إذَا كانَ يَوْمِى فِيكِ أَحْسَنَ مِنْ غَدِى[٣]

وهذا معنى فى غاية الحسن والحلاوة .

وقوله : « فابتسمت لها » . يريدا استهزأت . وبهذا [جرت عادة النساء أن يضحكن من الشيب ويستهزئن لا أن] يبكين كما قال أبو تمام ولم يقنع إلا ببكاء الدم[٥].

وقال البحترى :

عَنَتْ كَبِدِى قَسْوَةٌ مِنْكِ مِا إنْ تَزَالُ تُجَدِّدُ فيها نُدُوبَا[٦]

وحُمِّلْتُ عِنْدَكِ ذَنْبَ المَشِيـ ـبِ حَتَّى كَأَنِّى ابْتَدَعْتُ المَشِيبَا

وَمَنْ يَطَّلِعْ شَرَفَ الأَرْبَعِينَ يُلَاقِ مِنَ الشَّيْبِ زورًا غَرِيباً[٧]

عهدى بالشيوخ من أهل العلم بالشعر إذا تذكروا ما قيل فى الشيب لا يقدِّمون على قوله :

* وحُمِّلْتُ عِنْدَكِ ذَنْبَ المَشيبِ *

---

(١) ديوان البحترى ٢٣١ ، ٢ / ٧٧١ دار المعارف وأمالى المرتضى ١ : ٦٢١ والشهاب ١٧ .

(٢) م « تردين هجرا » .

(٣) فى الديوان « متى ألحق » .

(٤) الزيادة من الشهاب ١٧ .

(٥) راجع ص ٢٠٤ وانظر نقد المرتضى لذلك ١٧ — ١٨ .

(٦) ديوانه ٩٢ ، ١ / ١٥٠ دار المعارف وأمالى المرتضى ١ : ٦٢١ والشهاب ١٨ .

(٧) فى الديوان « يجى من الشيب » .

وقال :

وَقَدْ دَعَانَا ناهِياً فَأَسْمَعَنى ... وَخطٌ على الرأْسِ مُخْلِسٌ شَعَرُهْ[1]

صَغَّرَ قَدْرِى فى الغَانِياتِ وَمَــا ... صَغَّرَ صَبًّا تَصْغِيرُهُ كِبَرُهْ

وقال :

أَيُثَنِّى الشَّباب أَمْ مَا تَوَلَّى ... منه فى الدَّهْرِ دَوْلَةٌ مَا تَعُودُ[2]

لا أَرَى العيشَ والمفارقُ بِيضٌ ... أُسْوَةَ العَيْشِ والمَفَارِقُ سُودُ[3]

وأَعُــدُّ الشَّقِىَّ جِدًّا ولَوْ أُعْـ ... ـطِىَ غُنْماً حتى يُقَالَ سَعِيدُ

مَنْ عَدَتْهُ العُيُونُ وَانْصَرَفَتْ عَنْـ ... ـهُ الْتِفَاتاً إلى سِوَاهُ الخُدُودُ

وقال :

رَاعَنِى مَا يَرُوعُ مِنْ وافِدِ الشَّيْـ ... ـبِ طُرُوقاً ، ورَابَنِى مَا يَرِيبُ[4]

شَعراتٌ سُودٌ إذا حُلْنَ بِيضاً ... حالَ عَنْ وُصْلَةِ المحبِّ الحبيبُ[5]

مَرَّ بَعْد السَّوَادِ مَا كَانَ يَحْلُو ... مُجْتَنَاهُ مِنْ عَيْشِنَا ويَطِيبُ[6]

وقال :

أَجِدَّكَ ما . وصل الغوانى بمطمع ... ولا القلب من رِقِّ الغوانى بمعتق[7]

وَدِدْتُ بَيَاضَ السَّيْفِ يَوْمَ لَقِينَنِى ... مَكَانَ بَيَاضِ الشَّيْبِ كَانَ بِمفْرِقِى[8]

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ١٠٣٤ دار المعارف الشهاب ١٨ .

(٢) ديوانه ٧٦٧ ، ١ / ٥٠٢ « يعود . . أم يتولى » وأمالى المرتضى ١ : ٦٢٣ والشهاب ١٨ .

(٣) فى الديوان « إنما العيش » .

(٤) ديوانه ١ / ١١٢ الشهاب ١٨ وديوانه ١ : ٩٢ .

(٥) فى الديوان : « وصله الحبيب الحبيب » .

(٦) فى الشهاب « بعد الشباب » .

(٧) ديوانه ٧٧ والشهاب ١٩ .

(٨) فى م « بياض الشيب » .

وقال :

عَمْرُ الغَوَانِى لَقَدْ بَيَّنَّ من كَثب   هَضِيمَةً فى مُحِبٍّ غَيْرِ مَحْبُوبِ[١]

إذا مَدَدْنَ إلى أغْرَاضِهِ سَبباً   وَقَيْنَ مِنْ كُرْهِهِ الشُّبَّانَ بالشِّيب

وقال :

خَلِّيَاهُ وجدَّةَ اللَّهْوِ مَادَا   مَ رِدَاءُ الشَّبَابِ غَضًّا جَدِيدَا[٢]

إنَّ أيَّامَهُ مِنَ البِيضِ بِيضٌ   مَا رَأَيْنَ المَفَارِقَ السُّودَ سُودَا

وقال :

قَدْكِ مِنِّى فَمَا جَوَى السُّقْمِ إلاَّ   فى ضُلُوعٍ عَلَى جَوَى الحُبِّ تُحْنَى[٣]

لَوْ رَأَتْ حَادِثَ الخِضَابِ لأَنَّتْ   وأَرَنَّتْ مِن احْمِرَارِ اليَرَنَّا[٤]

كَلَفُ البِيضِ بالمُعمَّرِ قَدْرًا   حِينَ يَكْلَفْنَ ، والمُصَغَّرِ سِنا[٥]

يَتَشَاغَفْنَ بالغَـــرِيرِ المُسَمَّى   مِنْ تَصَابٍ دُونَ الجَلِيلِ المُكَنَّى

وقال :

تَرَكَ السَّوَادَ لِلاَبِسِيهِ وَبيَّضَـــا   وَنَضَا مِنَ السِّتِّين عَنْهُ مَا نَضَا[٦]

وشَآهُ أغْيَدُ فى تَصَرُّفِ لَحْظِهِ   مَرَضٌ أعَلَّ بِهِ القُلُوبَ وأمْرَضَا

وكأنَّهُ وَجَد الصِّبَا وجَدِيدَهُ   دَيْنًا دَنَا مِيقَاتُهُ أنْ يُقْتَضَى[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٣٢٦ ، ١ / ٩٣ دار المعارف والشهاب ١٩ .

(٢) ديوانه ١ : ١٨٣ ، ١٪٥٩٠ دار المعارف وأمالى المرتضى ١ : ٦٢١ والشهاب ١٩ .

(٣) ديوانه ٣٥٨ والشهاب ١٩ وفى أمالى المرتضى « فما جرى » .

(٤) اليرنا : الخضاب .

(٥) فى الديوان « بالمغمر » .

(٦) ديوانه ٢٩٠ ، ١١٩٨/١ وأمالى المرتضى ١ : ٦٢٢ ، ٢ : ١٣٥ والشهاب ١٩ .

(٧) فى الديوان « وكأنه ألف » .

أَسْيَانُ أَثْرَى مِنْ جَوًى وصَبَابَةٍ وأَسَافَ مِنْ وَصْفِ الحِسَانِ وأَنْفَضَا[١]

شآه : سَبَقَهُ أَغْيَدُ الشبابِ الناعم ، وغلبه على وُدِّ الحسان .

وأساف الرجل إذا ذهب ما فى يده فافتقر ، وكذلك أنفض[٢].

وقال :

أُخَىَّ : إنَّ الصِّبَا ٱسْتَمَرَّ بِهِ سَيْرُ اللَّيالِى فأَنْهَجَتْ بُرُدُهْ[٣]

تَصُدُّ عَنِّى الحِسَانُ مُبْعِـدَةً إذْ أنَا لاَ قُرْبُهُ ولاَ صَدَدُهْ[٤]

شَيْبٌ عَلَى المَفْرِقَيْنِ بَارِضُهُ يَكْثُرُنِى أَنْ أُبِينَهُ عَدَدُهْ

تَطْلُبُ عِنْدِى الشَّبَابَ ظَـالِمَةً بُعَيْدَ خَمْسِينَ حِينَ لاَ تَجِدُهْ[٥]

لا عَجَبٌ إنْ مَلِلْتِ خُلَّتَنَـا فَافْتَقَدَ الوَصْلَ مِنْك مُفْتَقِدُهْ

من يَتَطاوَل عَلَى مُطَاوَلَةِ العيْـ ش تُقَعْقَعْ مِنْ مَلَّةٍ عَمَدُهْ[٦]

أَنْهَجَتْ بُرُدُه : يريد بُرُودَه . و فُعْل لا يجمع على فُعُل .

والبَارِضُ : أول ما يطلع من النبات وهو غَضٌّ . يريد أن أوائل الشيب قد زادت عليه فى الكثرة حتى لا يقدر على عددها بعد أن كان يعد الشعرات البيض فى أول طلوع الشيب .

---

(١) فى الديوان وأمالى المرتضى « من وصل » .

(٢) فى الشهاب « الأسيان والأسوان » : الحزين . ومعنى أساف : ذهب ماله ، وكذلك انفض، وجعلهما البحترى ههنا فى من ذهب من يده وصل الحسان وميلهن إليه » .

(٣) ديوان البحترى ١٥٦ ، ٢ / ٧٣٥ وأمالى المرتضى ١ : ٦٢٤ والشهاب ٢٠ .

(٤) فى الديوان « عنى الحسناء » وفى م « إذا » .

(٥) فى الديوان « خمسين حيث » .

(٦) فى الديوان « من يتجاوز » .

وقوله : «تَقَعْقَع من مَلَّةِ عَمَدُه » أى عظامه يجىء لها صوت إذا قام أو قعد من الكبر والضعف[1].

وقوله : «مِنْ ملَّة » : أى من تملِّى العيش . يريد طوله ودوامه . ومنه تمليت حبِّيك[2].

وأخذ قوله[3] :

تَطْلب عِنْدِى الشبابَ ظَـالمةٌ بُعَيْدَ خَمْسِينَ حِينَ لا تجِدُهْ[4]

[من] قول بَشَّار :

يا مَنْظرًا حَسناً رَأَيْتُـهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيةٍ فَدَيْتُهْ
لَمعَتْ إلىَّ تَسُومُنِى شَرْخَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيتُهُ[5]

(١) قال المرتضى: «ورأيت الآمدى قد أخطأ فى معنى البيت الأخير .. والأمر بخلاف ما توهمه . ومعنى «تقعقع من ملة عمده» أن من تطاول عمره تعجل ترحله وانتقاله عن الدنيا، وكنى عن ذلك بتقعقع العمد ، وهذا مثل معروف للعرب ، يقولون : من يتجمع يتقعقع عمده ؛ يريدون أن التجمع داعى التفرق وأن الاجتماع يعقب ويورث ما يدعو إلى الانتقال الذى يتقعقع منه العمد . والآمدى على كثرة ما يدعيه من التنقيب والتنقير على علوم العرب ، إن كان لم يعرف هذا المثل ومعناه فهو طريف ، وإن كان قد سمعه ، وجهل أن معنى بيت البحترى يطابقه فهو أطرف » . ثم نقل كلامه هذا فى الشهاب .

(٢) قال المرتضى : « فأما قوله "من ملة" فإنما أراد به : من ملل ، وملة – فعله – من الملل ، وكيف يكون من تملى العيش ، ولم يسمع فى تمليت "ملة" وهذا خطأ على خطأ » . ثم كرر هذا الكلام وبسطه فى الشهاب كذلك .

(٣) م «ومنه قوله» .

(٤) م «ثم لا تجده» .

(٥) ديوان بشار ٢ : ٢٤ وزهر الآداب ١ : ٤١٩ وفى الأغانى «بعثت إلى» .

نزول الشيب قبل حينه

قال أبو تمام :

أَبْدَتْ أَسًى أَنْ رَأَتْنِي مُخْلَسَ القُصَبِ وآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْب إلى عَجَبِ[١]

سِتٌّ وعِشْرُونَ تَدْعُونِي فَأَتْبَعُهَــا إلى المَشِيبِ فَلَمْ تَظْلِمْ ولَمْ تَحُبِ[٢]

فَلاَ يُؤَرِّقْكِ إِيمَاضُ القَتِيرِ بِهِ فإِنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ الرَّأْى والأَدَبِ[٣]

يقال : رأس مُخْلَسٌ وخَلِيسٌ : إذا اختلط به الشيب .

والقُصَبُ جمع قُصَبَة وهى خصلة الشعر . «وآل ما كان من عجب» بى ومحبة «إلى عجب» أى تعجب من شيبى .

وقال :

شَابَ رَأْسِي . ومَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الْ رَأْسِ إلاَّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفُؤَادِ[٤]

وكَذَاكَ القُلُوبُ فى كلِّ بُؤْسٍ ونَعِيمٍ — طَلاَئِعُ الأَجْسَادِ

طَالَ إِنْكَارِىَ البَيَاضَ وإِنْ عُمْ مِرْتُ شيئاً أَنْكَرْتُ لَوْنَ السَّوَادِ

زَارَنِى شَخْصُه بِطَلْعَةِ ضَيْمٍ عَمَّرتْ مَجْلِسِى مِنَ العُوَّادِ

نَالَ رَأْسِى مِنْ ثُغْرَةِ الهَمِّ لَمَّا لَمْ يَنَلْهُ مِنْ ثُغْرَةِ المِيلاَدِ

---

(١) ديوان أبى تمام ١٥ وشرح التبريزى ١ : ١١٥ وأمالى المرتضى ١ : ٥٩٩ والشهاب ١٠ وسبق ص ١٩٢ .

(٢) م «ولم تجب» وفى شرح التبريزى «يقول : تدعونى إلى المشيب ست وعشرون سنة فأجيبها، ولم تدعنى إلى الشيب فى غير وقته فتكون ظالمة لى جائرة على ، فإنى قاسيت من الدهر ما لو شبت معه فى المهد لم ينكر» . «الحوب : الإثم» .

(٣) البيت فى مجموعة المعانى ١٢٥ وفى م «فلا يروقك» .

(٤) ديوان أبى تمام ٧٥ وشرح التبريزى ١ : ٣٦٠ وأمالى المرتضى ١ : ٦١٢ والشهاب ١١ ومجموعة المعانى ١٢٥ .

فالأبيات الثلاثة الأُولى من فلسفته الحسنة الصحيحة المستقيمة ، ومن مشهور إحسانه . وقد عابه قوم بقوله : « شيب الفؤاد » . وليس عندى بعيب ؛ لأنه لما كان الجالبَ للشيب القلْبُ المَهْمومُ نسب الشيبَ إليه على الاستعارة . وقد أحسن عندى ، ولم يسِئْ (١) .

وقوله : « عَمَّرَتْ مَجْلِسى مِنَ العُوَّادِ » — معنى لا حقيقة له ؛ لأنا ما رأينا ، ولا سمعنا أحدًا جاءه عُوَّاد يَعودُونَه من الشيب ، ولا أن أحدًا أمْرَضَهُ الشيب ، ولا عزّاه المعزُّون عن الشباب (٢).

وقال ابن حازم الباهلى :

أليْس عَجِيباً بِأَنَّ الفَتَى ... يُصَابُ بِبَعْضِ الذى فى يَدَيْهِ (٣)
فَمِنْ بيْنِ بَاكٍ لَهُ مُوجَعٍ ... وبَيْن مُعِزٍّ مُغِذٍّ إلَيْهِ
ويَسْلُبُه الشَّيبُ شَرخَ الشبابِ ... فَلَيْسَ يُعَزِّيهِ خَلْقٌ عَلَيْهِ

(١) راجع تعليق المرتضى فى الشهاب ١١ .

(٢) قال المرتضى فى أماليه ١ : ٦١٣ : « وهذا من الآمدى قلة نقد للشعر ، وضعف بصيرة بدقيق معانيه التى يغوص عليها حذاق الشعراء ، ولم يرد أبو تمام العيادة الحقيقية التى يغشى فيها العواد مجالس المرضى ذوى الأوجاع ، إنما هذه استعارة وتشبيه وإشارة إلى الغرض خفية ؛ فكأنه أراد أن شخص الشيب لما زارنى كثر المتوجعون لى والمتأسفون على شبابى والمتفجعون من مفارقته ، فكأنهم فى مجلسى عواد لى لأن من شأن العائد للمريض أن يتوجع ويتفجع . وكنى بقوله : « عمرت مجلسى من العواد » عن كثرة من تفجع له وتوجع من مشيبه . وهذا من أبى تمام فى نهاية البلاغة والحسن ، وما المعيب إلا من عابه وطعن عليه . » وكلام المرتضى هذا فى نهاية التفاهة والقبح ، وكأنه أحس بسقوط فأعاده فى الشهاب ١٢ ، وزعم أنه كاف شاف ولكن « يمكن فيه وجه آخر ، وهو أن يريد بقوله : « عمرت مجلسى من العواد » الإخبار عن وجوب عيادته واستحقاقه لذلك بما نزل به ، فجعل ما يجب أن يكون كائناً — واقعاً . وهذا له نظائر كثيرة فى القرآن وفى كلام العرب وأشعارهم ، قال الله عز جل : « ومن دخله كان آمنا » وإنما المعنى : أنه يجب أن يأمن ، فجعل قوة الوجوب واللزوم كأنه حصول ووقوع ! ! ! وهذا الوجه أشد تفاهة من سابقه وأشنع قبحاً .

ولقد أثبت المرتضى بنقده هذا على أنه أجدر بالوصف الذى وصف به الآمدى : من قلة النقد للشعر وضعف البصيرة بدقائق معانى الشعراء .

(٣) أمالى القالى ١ : ١٠٩ وأمالى المرتضى ١ : ٦٠٨ والشهاب ١١ .

فأَحَبَّ أبوتمام أن يخرج عن عادات بنى آدم ، ويكون أُمَّةً وحْده .

وقوله : «نَالَ رَأْسى مِنْ ثُغْرَة الهَمِّ . . » بيت رَدِىءٌ ، بعيد المعنى . ولكِنه يقرب ويتخلص إذا وقع التَّأَنِّى للعبارة عنه ، فأَقول : إنَّ الثُّغْرَةَ هى : الفرجة والثلمة تكون فى الشىء ؛ ولذلك سُمِّى كلُّ بلد جَاوَرَ عَدُوًّا - ثَغْرًا كأَن معناه أنه مكشوف للعدو فلذلك قيل : قد سَدَّ الثغر بالرجال . وأصله - والله أعلم - من ثَغْرِ الإنسان ؛ لأَنه أَوَّلُ ما يقابلك من أسنانه ، وأَوَّلُ ما يظهر عند الكلام ، وأول ما يسقط. فيرى موضعه مَثْلُوماً ، فَشَبَّه الثَّغْرَ الذى هو البَلَدُ به . وقالوا : قد أَثْغَرَ الصَّبى وَاثَّغَر . وسميت تلك الثُّغْرَةُ فُرْجَةً فى موضع السِّنّ وفى كلِّ موضعٍ منفرج ، ومنه ثُغْرَةُ النَّحْر .

فأَراد بقوله : « نال رأْسى مِنْ ثُغْرَةِ الهَمِّ » . أى وَجَدَ الشيبُ من الهم فرجة دخل على رأسى منها . جاء به على مذهبه فى الاستعارة ، والهم يشيب لا محالة .

وقوله : «لَمَّا لَمْ يَنَلْهُ مِنْ ثُغْرَةِ المِيلَادِ» . يذهب فى ثُغْرَةِ الميلاد إلى الوقت ، الذى يهجم عليه [1] فيه الشيبُ من عمره ؛ لأَنه يجد السبيل فى ذلك الوقت إلى الحلول برأسه ، فجعله ثغرة حينئذ ، فيقول : إن المشيب حلَّ برأسه من جهة همومه وأحزانه لَمَّا لَمْ يبلغ السن الذى يُوجِبُ حُلولَه به من جهة كبره [2] .

وكان وجه الكلام أن يقول : من ثُغْرَةِ الكِبَرِ ، أو من ثُغْرَةِ السِّنِّ ، لا من ثُغْرَةِ الميلا [3] .

---

(١) م « يهجم على » .

(٢) من أول شرح الآمدى إلى هنا نقله المرتضى فى أماليه ١ : ٦١٢-٦١٣ من غير إشارة إلى مصدره !

(٣) أما هذه الجملة فقد نقلها المرتضى فى الشهاب ١٢ منسوبة للآمدى لأنه أراد نقدها بقوله : « وهذا منه ليس بصحيح ؛ لأن العبارات الثلاث بمعنى واحد ، ويقوم بعضها مقام بعض ؛ لأن الميلاد عبارة عن السن ، فن تقدمت سنه تقادم ميلاده ، ومن قربت سنه قصرت قصر وقرب زمن ميلاده » !

وكان يجب أيضاً أن يقول : حَلَّ برأسى ، أَوْ نَزَل[١] ؛ فإن هذه اللفظة هى المستعملة فى مثل هذا دون قوله : « نال » . كأنَّه يجعل الشيبَ لم يَزَل يَتَرَصَّدُه ، ويَتَطَلَّب فُرْصَةً منه ينْتهزها فى الدخول عليه وذلك لبعده ـ كان ـ عن الأَفراح والمَسَارِّ[٢] ، وكثرة أحزانه وهمومه . وليس لِثُغْرَةِ الصَّبِى ـ وهو إِثْغَارُه إذا ـ سقط سنه ـ هاهنا وجه ؛ لأَن الإنسان قد يشيب وهو حديث السن فأَما فى ذلك الوقت فلا .

* * *

وقال :

نَسَجَ المَشِيبُ لَهُ قِنَاعًا مُغْدِفَا ... يَققًا فَقَنَّعَ مِذْرَوَيْهِ ونَصَّفَا[٣]

نَظَرُ الزَّمَانِ إليه قَطَّعَ دُونَهُ ... نَظَرَ الشَّفِيقِ تَحَسُّرًا وتَلَهُّفَا

ما اَسْوَدَّ حَتَّى ابْيَضَّ كالكَرْمِ الذِى ... لم يَأْنِ حَتَّى جِىءَ كَيْمَا يُقْطَفَا

لَمَّا تفَوَّفَت الخُطُوبُ سَوَادُهَا ... بِبيَاضِها عَبِثَتْ بِهِ فَتَفَوَّفَا

مَا كَانَ يَخْطُرُ قَبْلَ ذَا فى فِكْرَةٍ ... فى البَدْرِ قبل تمامه أَنْ يُكْسَفَا

قوله : نَظَرُ الزَّمانِ إليه » . أَى نَظَرُهُ بالشيب قَطَّعَ دُونَه نَظَرَ الشفيقِ عن أَن ينظر إليه فيتحسَّر عليه ويتلهَّف . وإنما أَراد «قَطَعَ دُونه » خفيفة فثقَّلها ليستوى له الوزن . وقد يجوز أَن يكون أَراد التثقيل ، أَى أَن الشَّفِيقَ الذى كان يُدِيمُ النظر إليه ويُوَاصِلُه إعجاباً به ـ صَارَ لا يملأُ طرفه لَمَّا شاب

---

(١) ونقل المرتضى هذه الجملة وعقب عليها بقوله : « والأمر بخلاف ما ظنه ؛ لأن الجميع واحد ، وما نال رأسه فقد حل به ونزل » !

(٢) م « والمسان » .

(٣) ديوان أبى تمام ٤٠١ والشهاب ٤ وسبق الأول ص ١٩٠ .

تَحَسُّرًا وتَأَسُّفًا ، كلَّما نظر إليه أعرض عنه إعراض آسفٍ عليه ، لا إعْرَاض بِغْضَةٍ وشَنَاءةٍ ، فجعل ذلك الإعراض عنه فى أوقاته تَقْطيعًا للنظر إليه .

وقوله : «ما اسودّ حتى ابيضّ» . يريد سرعة مشيبه .

وقوله : «كالكَرْمِ الذى لَمْ يَأْنِ حتَّى جِيءَ كَيْمَا يُقْطفَا»[1] ـ كلام فى غاية القُبْح والغَثَاثَة والبرد[2]. كأنّه جعل مَجِيءَ القاطفِ إلى الكرم الذى لم يُدْرِكْ لِيقْطفَهُ كَحُلُولِ الشيب برأسه قبل أوانه ليفنى عمره .

وقوله : «لَمَّا تَفَوَّفَت الخُطُوبُ سَوَادُها بِبياضِها» . أذى لَمَّا اختلفت عليه بالخير والشر فَوَّفَت رأسه أى خلطت سواده ببياض الشيب .

وقوله : «ما كان[3] يَخْطُر قَبْلَ ذَا فى فِكْرَة . . .» بيتٌ لفظه ومعناه فى غاية الاضطراب والسخافة[4].

* * *

وقال البحترى :

أَقُولُ لِلِمَّتِى إذْ أَسْرَعَتْ بِى ... إلى الشَّيبِ اخْسَرِى فيه وخِيبِى[5]

مُخَالَفَةً بِضَرْبٍ بَعْدَ ضَرْبٍ ... ومَا أنَا وَاخْتِلَافَات الضُّرُوبِ[6]

وَكَانَ جَدِيدُها فيها غَرِيبًا ... فَصَارَ قَدِيمُهَا حَقَّ الغَرِيبِ[7]

---

(١) م «يقطعا» .

(٢) قال المرتضى فى الشهاب ، «ولعمرى إنه لفظ غير مطبوع ، وفيه أدنى ثقل ، ومثل ذلك يغفر لما لا يزال يتوالى من إحسانه ويترادف من تجويده» !

(٣) م «ما كاد» .

(٤) قال المرتضى «وليس الأمر على ما ظنه ؛ إذ البيت جيد ، وإنما ليس رونق الطبع فيه ظاهراً . وليس ذلك بعيب» !

(٥) ديوان البحترى ٣٨٩ ، ١ / ٩٩ دار المعارف والشهاب ٢٠ .

(٦) م «واحتلاف» .

(٧) فى الديوان «وكان حديثها» .

قوله : وكان جديدها فيها غريباً ـ من قول أبي تمام :

طَالَ إنكارِىَ البَيَاضَ وإنْ عُمْـ ـمِرْتُ شَيْئًا أنْكَرْتُ لَوْنَ السَّوَادِ[١]

وبيت أبي تمام أجود .

وقول البحترى : « مُخَالفَةً بِضَرْبٍ بعْدَ ضَرْبِ » ـ فى غاية الحسن والصحة والبراعة .

* * *

وقال البحترى :

هَلْ أَنْتَ صَارِفُ شَيْبَةٍ إنْ غَلّسَتْ فى الوقت ، أوْ عَجِلَتْ عَنِ المِيعَادِ[٢]

جَاءتْ مُقَدمَةً أمَامَ طَوَالِعٍ هَذِى تُرَاوِحُنِى ، وتِلْكَ تُغَادِى

وأَخُو الغَبِينَةِ تَاجِرٌ فى لِمَّةٍ يُشْرى جَدِيدَ بَيَاضِها بِسَوَادِ

لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الصِّبا بِمُخَلِّفٍ لَهْوًا ، ولا زمن الصبا بمُعَادِ[٣]

وأَرَى الشَّبابَ عَلَى غَضَارَةِ حُسْنِهِ وجَمَالِهِ عَدَدًا مِنَ الأَعْدَادِ

قوله : « يشرى » أى يبيع « جديد بياضها بسواد » يريد الخضاب ؛ لأنه قال : « لا تكْذبنَّ فما الصِّبا بمُخلِّفٍ »[٤].

---

(١) ديوان أبي تمام ٧٥ وسبق ص ٢١٢ .

(٢) ديوان البحترى ١٦٣ ، ٢ / ٧٣١ دار المعارف وآمالى المرتضى ١ : ٦٢٢ والشهاب ٢٠ .

(٣) م « بمخلف بهوى » وفى الديوان « بمخلف فينا » .

(٤) أسقط المرتضى قول الآمدى : « لأنه قال . . » ثم نقده بقوله : فى الشهاب ٢١ « ووجدت الآمدى قد نزل فى معنى قوله : "يشرى" لأنه قال : معنى يشرى : يبيع ، وأراد أن الغبين من باع جديد بياضه بالسواد ، وأراد بالسواد الخضاب ، فكأنه ذم الخضاب . والأمر بخلاف ما ذكره ، وما جرى للخضاب ذكر ، ولا ههنا موضع الكناية عنه . ومعنى يشرى ههنا : يبتاع ، لأن قولهم : شريت ، يستعمل فى البائع والمبتاع جميعاً . وهذا من الأضداد ، نص أهل اللغة على هذا فى كتبهم . فكأنه شهد بالغبن لمن يبتاع الشيب بالشباب ويتعوض عنه . وإنما ذهب على الآمدى لفظة "يشرى" تقع على الأمرين المضادين فتمحل ذكر الخضاب الذى لا معنى له ههنا » !

وقوله : « عَدَدًا مِنَ الأَعْدَادِ » ، أى عَدَدًا قليلا يسيرًا [١].

وقال :

مَا كَانَ شَوْقِى بِبِدْعٍ يَوْمَ ذَاكَ وَلَا ‏ دَمْعِى بِأَوَّلِ دَمْعٍ فِى الهَوَى سُفِحَا [٢]

ولمَّة كُنْتُ مَشْغُوفاً بِجِدَّتِهَا ‏ فَمَا عَفَا الشيبُ لى عَنْهَا ، ولاَ صَفَحَا

وهذا من إحسانه المشهور :

ووجدت فى ديوان أبى تمام فى الخضاب ، وهو يشبه كلامه ، وأظنه منحولا [٣] :

فإنْ يكن المَشِيبُ طَرَا عَلَيْنَا ‏ وأَوْدَى بِالبَشَاشَةِ والشَّبَابِ

فإنِّى لَسْتُ أَدْفَعُهُ بِشَىءٍ ‏ يكُونُ عليه أَثْقَل مِن خِضَابِ

أَراد بأَن ذاك وذا عذاب ‏ فينتقم العذاب من العذاب [٤]

* * *

وقال البحترى :

لَوْ رأَت حادِثَ الخِضَابِ لأَنَّتْ ‏ وأَرنَّتْ مِن احْمِرَارِ اليرَنَّا [٥]

وقال :

قالت الشيب أَتَى قُلْتُ : أَجَلْ ‏ سَبَقَ الوَقْتَ ضِرَارًا وَعَجِلْ [٦]

---

(١) نقلها المرتضى وعقب عليها بقوله : « وقد أصاب فى ذلك إلا أنه ما ذكر شاهده ووجهه » ثم ذهب ليسرد شواهده !

(٢) ديوان البحترى ٥٦ و ١ / ٤٤٠ دار المعارف وآمالى المرتضى ١ : ٦٢٥ والشهاب ٢١ .

(٣) فى الشهاب ١٣ « وله ، وقيل : إنه منحول فى ذكر الخضاب » .

(٤) فى الشهاب « أردت بأن » .

(٥) ديوانه ٣٥٨ وسبق ص ٢٠٩ .

(٦) ديوانه ٣٣١ والشهاب ٢١ ومضى الأول ص ١٩٣ .

وَمَعَ الشَّيبِ عَلَى عِلَّاتِهِ مُهْلَةٌ لِلمَرْءِ حِينًا والغَزَلْ[١]
خَيَّلَتْ أَنَّ التَّصَابِي خَرَقٌ بَعْدَ خَمْسِينَ ، وَمَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ

وقال :

تزيدنى الأَيامُ مَغْبُوطَ عِيشَةٍ فَيَنْقصنى نَقْصَ اللَّيَالِى مُرُورُها[٢]
وأَلْحقَنِى بالشَّيْبِ فى عُقْرِ دَارِهِ مَنَاقِلُ فى عَرْضِ الشَّبابِ أَسِيرُهَا
مَضَتْ لى سَوَادَ اللَّيْلِ أُوْلَى بَطَالَتِى فَدَعْنِى يُصَاحِبْ وَخْطَ شَيْبِى أَخِيرُها[٣]

يقول : إذا زادتنى الأَيامُ شيئًا من غِبْطَةِ العيشِ اجتمعت مع الليالى على انتقاصه ، أى ارتجاعه . والمَنَاقِل : جمع مَنْقَلَةٍ ، وهى المَرْحَلَةُ من مَرَاحِل السفر[٤].

وعَقْر الدار ، وعُقْرها ـ بالفتح والضم ـ أَصْلُها .

وهذا من بارع لفظه وفصيحه وبليغه .

* * *

ومن هذا الباب ، ويصلح أَن يُثْبَتَ فى الباب الذى بعده ـ قولُ آخر :

نَزَلَ المشيبُ بِعَارِضَيْ يَ ، وضِقْتُ ذَرْعًا بالمشيبْ
وبكيتُ إذْ رَحَل الشَّبا بُ بكا المُحِبِّ على الحَبِيبْ

---

(١) فى الديوان الشهاب « مهلة للهو » .

(٢) ديوان البحترى ٦٠٤ ، ٢ / ٩٩٨ والشهاب ٢٢ .

(٣) فى الديوان « مضت فى سواد الرأس » وفى الشهاب « فى سواد الشعر » .

(٤) عقب المرتضى على هذا بقوله : « وغير هذا التأويل الذى ذكره أولى منه ، وهو أن يكون المراد أن الأيام إذا زادتنى غبطة فى العيش نقصنى ذلك مرورها . ويريد بقوله : « نقص الليالى » كما تنقص الأيام من الليالى ؛ لأن الأيام تأخذ من الليالى وتنقصها . وهذا التأويل أشبه بالصواب من تأويله » والحق ما ذهب إليه المرتضى .

دَاءٌ عَيَاءٌ لَيْسَ مِمْ مَا أَشْتَكِيهِ إِلَى الطَّبِيبْ
مَا لِلْمَشِيبِ بَكَيْتُ لَـ كِنْ خَشْيَةَ الأَجَلِ القَرِيبْ

* * *

وما أحسن ما قال عَمْرو بن المُبَارَك الخُزَاعِيّ فى هذا :

مَنْ لِأُذْنِى بِمَلَامٍ وَلِكَفِّى بِمُدَامِ
رَقَّ عَظْمُ الجَهْلِ مِنِّى وَانْحَنَى مَتْنُ عُرَامِى
وَتَمَشَّى السيفُ مِنْ شَيْ بِى إِلَى شَيْبِى التُّؤَامِ
نَظْمَكَ الدُّرَّ إِلَى الدُّرْ رَةِ فى سِلْكِ النِّظَامِ

ومما لا شىء أجود منه فى معناه قول الآخر . ولا تَشِينُه شُهْرَتُه :

أَلْقَى عَصَاهُ ، وأَرْخَى مِنْ عِمَامَتِهِ وَقَالَ ،ضَيْفٌ ،فقُلْتُ :الشَّيْبُ قَالَ :أَجَلْ[1]
فَقُلْتُ : أَخْطَأْتَ دَارَ الحَىِّ .قَالَ لَقَدْ تَمَّتْ لَكَ الأَرْبَعون الوَفْرِ ثُمَّ نَزَلْ[2]
فَمَا شَجِيتُ بِشَىءٍ مَا شجيتُ بِهِ كَأَنَّمَا اعْتَمَّ مِنْهُ مَفْرِقِى بِجَبَلْ

* * *

وقد تصرف البحترى فى هذا الباب تصرفًا حسنًا .

ولولا قول أبى تمام : « فلا يُؤَرِّقْكِ إِيمَاضُ القَتِيرِ بِهِ » .

وقوله : « شَاب رأسى » . والبيتان بعده – لفضلت البحترى عليه فى افتنانه ، وبراعة لفظه ، وسلامة معناه . لكنّى أجعلهما متكافئين .

---

(١) لعلى بن جبلة ، وربما رويت لدعبل ، كما فى الشهاب ٣٢ .
(٢) فى الشهاب « قال ولم مضت لك » .

البكاءُ على الشباب والتعزى عنه والعزوف عن الصبا

قال أبو تمام :

أَصْبَحَتْ رَوْضَةُ الشبابِ هَشِيمَا وغَدَتْ رِيحُهُ البَلِيلُ سَمُومَا[1]

وقال البحترى :

خَلَقُ العَيْشِ فى المشيبِ وإنْ كَا نَ نَضِيرًا ، وفى الشباب جَدِيدُهْ[2]

لَيْتَ أَنَّ الأَيَّامَ قَامَ عَلَيْها مَنْ إذَا مَا انْقضَى زَمَانٌ يُعِيدُهْ

ولو انَّ البَقَاءَ يَخْتَارُ فِينَا كانَ ما تَهْدِمُ اللَّيَالِى تَشِيدُهْ

شَيَّبَتْنِى الخطوبُ إلَّا بَقَايَا مِنْ شَبابٍ لَمْ يَبْقَ إلَّا شريدُهْ[3]

لَا تُنَقِّبْ عَنِ الصِّبَا فَخَلِيقٌ إنْ طَلَبْنَاهُ أَنْ يَعِزَّ وُجُودُهْ[4]

وهذا من الحلاوة والحسن على ما تراه .

وقال ، وقد مضت فى باب آخر[5] :

أَيُدْنِى الشَّبَابُ أَمْ ما تَوَلَّى مِنْهُ فِى الدَّهْرِ دَوْلَةٌ مَا تَعُودُ

لَا أَرَى العَيْشَ والمفَارِقُ بِيضٌ أُسْوَةَ العَيْشِ والمَفَارِقُ سُودُ

ومن جيد هذا الباب قول كُثَيِّر :

وَكَانَ الصِّبَا خِدْنَ الشَّبَابِ فَأَصْبَحَا وقَدْ تَرَكَانِى فى مَغَانِيهِمَا وَحْدِى

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٩١ وشرح التبريزى ٣ : ٢٢٣ .

(٢) ديوان البحترى ١٨٨ ، ٨٥٢ « ولو كان » والشهاب ٢٣ .

(٣) م « شيبنى المشيب » وفى الديوان « سيختنى الخطوب » .

(٤) م « إن بللتاه » .

(٥) باب كره النساء للمشيب ص ٢٠٨ .

فَوَاللهِ مَا أَدْرِى أَطَائِفُ جِنَّةٍ   تأَوَّبَنِى أَمْ لَمْ يَجِدْ أَحَدٌ وَجْدِى

* * *

وقال البحترى :

أَوَاخِرُ العَيْشِ أَخْبَارٌ مُكَرَّرَةٌ   وأَقْرَبُ العَيْشِ مِنْ لَهْوٍ أَوَائِلُهُ[١]

يَجْرِى الشَّبَابُ إِذَا مَا تَمَّ تَكْمِلَةً   والشىءُ يُنْفِدُهُ نَقْصًا تكامُلُهُ[٢]

ويُعقبُ المَرْءَ بُرْءًا مِنْ صَبابَتِهِ   تَجَرُّمُ العَامِ يَمْضِى ثُمَّ قَابِلُهُ[٣]

إِنْ فَرَّ مِنْ عَنَتِ الأَيَّامِ حَازِمُها   فالحَزْمُ فَرُّك مِمَّنْ لا تُقاتِلُهُ[٤]

وإِنْ أَرَابَ صَدِيقِى فى الوِدَاد فكَمْ   أَمْسَيْتُ أَحْذَرُ مَا أَصْبَحْتُ آمُلُهُ

وقال :

أَمَّا الشَّبَاب فَقَدْ فَنِيت بِغَضِّهِ   وحَطَطْتَ رَحْلَكَ مُسْرِعًا عَنْ نُقْضِهِ[٥]

وأَقَامَ مُشْتَاقٌ ، وأَقْصر عَاذِلٌ   أَرْضَاهُ فِيكَ الشَّيْبُ إِذْ لَمْ تُرْضِهِ[٦]

شَعَرٌ صَحِبْتُ الدَّهْرَ حتَّى جَازَنِى   مُسْوَدُّهُ الأَقْصَى إِلى مُبْيَضِّهِ[٧]

فَعَلَى الصِّبَا الآنَ السَّلام وَلَوْعَةٌ   تَثْنِى عَلَيْهِ الدَّمْعَ فِى مُرْفَضِّهِ[٨]

وَلْيُقْنَ تُفَّاحُ الخُدُودِ فَلَسْتُ مِنْ   تَقْبِيلِهِ غَزِلًا وَلَا مِنْ عَضِّهِ[٩]

أى فعليه السلام وعليه لَوْعَة .

---

(١) ديوان البحترى ٧٨٩ والشهاب ٢٣ .

(٢) فى الديوان « ينفذ نقصاناً » .

(٣) فى الديوان « يأتى ثم » .

(٤) فى الديوان « أفرك » .

(٥) ديوانه ٢٨٨ ، ٢/١٩٥ دار المعارف والشهاب ٢٣ وفيهما « فقد سبقت » .

(٦) فيهما « وأفاق مشتاق » وفى م « أن لم » .

(٧) فى الديوان « جازبى » .

(٨) م « من مرقضه » .

(٩) وليقن : أى وليحفظ .

وقال :

وِصَالٌ سَقَانِى الخَبْلَ صِرْفًا وَلَمْ يَكُنْ ... لِيَبْلُغَ ما أَدَّتْ عَقَابِيلُهُ الهَجْرُ[١]
وباقِى شبابٍ فى مَشيبٍ مُغَلَّبٌ ... عليه اخْتِتَاءُ اليَوْمِ يَكْثُرُه الشَّهْرُ[٢]
وَلَيْسَ طَلِيقًا مَنْ يَرُوحُ أَوْغَدَا ... يَسُومُ التَّصابِى ، والمَشِيبُ لَهُ أَسْرُ
تَطَاوَحَنِى العَصْرَانِ فى رَحَوَيْهِمَا ... يُسَيِّبُنِى عَصْرٌ ، ويَقْلَعُنِى عَصْرُ[٣]
مَتَاعٌ مِنَ الدُّنْيَا اسْتَبَدَّ بِجِدَّتِى ... وأَعظَمُ جُرْمِ الدَّهْرِ أَنْ يُمْتَعَ الدهرُ[٤]

قوله : « وِصَالٌ سَقَانِى الخَبْلُ صِرْفًا » . يريد أنه لما جادَه المشيبُ حزن على الوصل ، وأسف أسفاً شديدًا ؛ لأَنه ليس يَجدُ له مثل ما كان ، ولأَنَّ محبوبه إن وَاصَلَ [وَاصَلَ] تَكَلُّفا ، وإن[٥] ذلك لا بقاء له ، وإنه ذاهب حتى إن عقابيله – وهى أواخره وبقاياه – لو كان مكانها الهجر لما بلغ من خَبْلِهِ ما بَلَغَت .

وقوله : « مُغَلَّبٌ عَلَيْهِ اخْتِتَاءُ اليَوْمِ » . فالاخْتِتَاءُ : الانْخِزَالُ والتَّهَيُّبُ من الشيء ، والخشوع له . يريد كاخْتِتَاءِ اليوم إذا كاثَرَهُ الشَّهْرُ فَكَثَرَهُ ؛ لأَنَّ يومًا لا يكون كشهر فى المُكاثَرَة والمُفَاخَرة[٦] .

وقال :

تَقَضَّى الصِّبا إلَّا تَلَوُّمَ رَاحِلٍ ... وأَغْنَى المشيبُ عَنْ مَلَامِ العَوَذِلِ[٧]
وتَأْبَى صُرُوفُ الدَّهْرِ سُودًا شُخُوصَهَا ... عَلَى البيضِ أَنْ يَحْظَيْنَ مِنْهُ بِطَائِلِ

(١) ديوان البحترى ٢٤٢ ، ٢ / ٨٧٠ دار المعارف والشهاب ٢٣ وفى م « عقابيله الدهر » .
(٢) عبث الوليد ١١٣ .
(٣) فى الديوان والشهاب « ويعلقنى عصر » وفى م « تشيّنى عصر » .
(٤) فى الديوان « متاع من الدهر » وفيه وفى الشهاب « أى يمنع » .
(٥) م « ولو » .
(٦) راجع الشهاب ٢٤ .
(٧) ديوانه ٦٣٨ والشهاب ٢٤ .

يُحَاوِلْنَ عِنْدِى صَبْوَةً وإِخَالُنِى عَلَى شُغُلٍ مِمَّا يُحَاوِلْنَ شَاغِلِ
رَمِىٌّ رَزَايَا صَائِبَاتٍ كَأَنَّنِى لِمَا أَشْتَكِى مِنْهَا رَمِىٌّ جَنَادِلِ

وقال :

فى الشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ كَانَ يَنْزَجِرْ وَوَاعِظٌ مِنْهُ لَوْلَا أَنَّهُ حَجَرُ[1]
ابْيَضَّ مَا اسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيْهِ وَارْتَجَعَتْ جَلِيَّةُ الصُّبْحِ مَا قَدْ أَغْفَلَ السَّحَرُ
ولِلْفَتَى مُهْلَةٌ فى العيشِ وَاسِعَةٌ مَا لَمْ يَمُتْ فى نَوَاحِى رَأْسِهِ الشَّعَرُ[2]

قوله : « ارتجعت جَلِيَّةُ الصُّبْحِ ما قَدْ أَغْفَلَ السَّحَرُ » - قريب من قوله :

تَزِيدُنِى الأَيامُ مَغْبُوطَ عِيشَةٍ فتنقصُنِى نَقْصَ اللَّيَالِى مُرُورُها[3]

وقال :

أَيَا صَاحِبِى إِمَّا أَرَدْتَ صحَابَتِى فَكُنْ مُقْصِرًا ، أَوْ مُغْرَمًا مِثْلَ مُقْصِرِ[4]
فَإِنِّىَ إِنْ أُزْمِعْ غُدُوًّا لِطِيَّتِى أُغَلِّسْ ، وإن أُجْمِعْ رَوَاحًا أُهَجِّرِ
وَمَا يَقْرُبُ الطَّيْفُ المُلِمُّ رَكَائِبِى ولا يَعْتَرِينِى الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ يَعْتَرِى
سُقِينَا جَنَى السُّلْوَانِ أَمْ شَغَلَ الهَوَى عَلَيْنَا بَنُو العِشْرِينَ مِنْ كُلِّ مَعْشَرِ

وما قيل فى هذا الباب كقول ابن حَازِم[5] البَاهِلِىّ ، ومنصور النَّمَرِى .

---

(١) ديوان البحترى ٦٧٣ ، ٢ / ٩٥٣ دار المعارف والشهاب ٢٤ وفيهما « وبالغ منه » . وسبق ص ١٩٤ .

(٢) فى الديوان « مهلة فى الحب » .

(٣) سبق ص ٢١٩ وقد قال المرتضى بعد ذلك « إن الأمر بخلاف ما ظنه ، ولا نسبة بين الموضعين لأن أحد البيتين تضمن أن الذى يزيده هو الذى ينقصه . والبيت الآخر تضمن أن الصبح ارتجع بوضوحه وجليته ما أغفله السحر وتركه من السواد الرقيق اليسير . فالمرتجع غير المعطى ههنا » .

(٤) ديوانه ٢١٥ . ، ٢ / ١٠٦١ .

(٥) م « ابن الحازم » .

قال ابن حَازِم :

عَهْدَ الشَّبَابِ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لى حَزَنًا ... مَا جَدَّ ذِكْرُكَ إِلَّا جَدَّ لِى ثُكْلُ (١)

لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنيا بِأَجْمَعِها ... مِنَ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ (٢)

يَكْفِيك بالشَّيب ذَنباً عند غَانِيَةٍ ... وبالشَّباب شفِيعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ (٣)

وقال منصور :

مَا تَنْقَضِى حَسْرَةٌ مِنِّى ولَا جَزَعُ ... إذا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَعُ (٤)

بَانَ الشَّبَابُ وفَاتَتْنِى بِشِرَّتِهِ ... صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٍ لَهَا خُدَعُ

مَا كِدْتُ أُوفِى شَبَابِى كُنْهَ غُرَّتِهِ ... حتى انْقَضَى فإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

وأنشد إسحق الموصلى :

لَعَمْرِى لئِنْ حُلِّئْتُ عَنْ مَنْهَلِ الصِّبَا ... لَقَدْ كُنْتُ وَرَّادًا لِمَشْرَبِهِ العَذْبِ (٥)

ليالىَ أَمْشِى بَيْنَ بُرْدَىّ لَاهِيًا ... أَمِيسُ كَغُصْنِ البَانَةِ النَّاعِمِ الرَّطْبِ

سَلَامٌ عَلَى سَيْرِ القِلَاصِ مَعَ الرَّكْبِ ... وَوَصْلِ الغَوانِى والمُدَامَةِ والشَّرْبِ (٦)

سلامُ امْرِئٍ لَمْ تَبْقَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ ... سِوَى نَظَرِ العَيْنَيْنِ أَوْ شَهْوَةِ القَلْبِ

---

(١) الأغانى ١٢ : ١٩ وأمالى المرتضى ١ : ٦٠٦ .

(٢) حماسة ابن الشجرى ٢٣٩ .

(٣) فى الزهرة ٣٣٨ « كفاك بالشيب » .

(٤) الأغانى ١٢ : ١٥٩ وأمالى المرتضى ١ : ٦٠٦ والزهرة ٣٤٣ وفى م « إذا رأيت شباباً » .

(٥) الشعر لإسحاق فى الكامل ٢ : ٦٦٥ ومعجم الأدباء ٦ : ٦٢ وأمالى ابن الشجرى ١٨٤ وهو غير منسوب فى البيان والتبيين ٣ : ٢٤٣ والأزمنة والأمكنة ٢ : ٢٤٨ وأمالى المرتضى ١ : ٦٠٦ ومعنى حلئت : منعت .

(٦) الشرب : جمع شارب .

الاعتذار من الشيب

قال البحترى :

رُبَّ عَيْشٍ لَنَا بِرَامَةَ رَطْبٍ وَلَيَالٍ فيها طِوَالٍ قِصَارِ[١]

قَبْلَ أَنْ يُقْبِلَ المَشِيبُ وَتَبْدُو هَفَوَاتُ الشَّبَابِ فى إِدْبَارِ[٢]

كُلُّ عُذْرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ولَكِنْ أَعْوَزَ العُذْرُ مِنْ بَيَاضِ العِذَارِ

كَانَ حُلْوًا هَذَا الهَوَى وَأَرَاهُ صَارَ مُرًّا . والسُّكْرُ قَبْلَ الخُمَارِ[٣]

قوله : « كُلُّ عُذْرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْب » مقبول ونافع ناجع سوى العذر من الشيب . أو كل عُذْرٍ من كلِّ ذنب موجودٌ ممكن ، غير العذر من الشيب ، فإنه غير موجود[٤] . وهذا أليق وأشبه .

وقال :

وحُمِّلْتُ عِنْدَكِ ذَنْبَ المَشِيـ ـبِ حتَّى كأَنِّى ٱبْتَدَعْتُ المَشِيبَا[٥]

---

(١) ديوان البحترى ٤٤٥ ، ٢ / ٩٨٦ دار المعارف والشهاب ٢٥ والزهرة ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٢) فى الديوان « المشيب وتغدو » .

(٣) فى الديوان « عاد مرا » .

(٤) الشهاب ٢٥ .

(٥) ديوانه ٩٢ ، ١ / ١٥٠ دار المعارف .

مدح الشيب والتعزى عنه

قال البحترى :

عَيَّرَتْنِى المشيبَ وَهْىَ بدَتْهُ   فى عِذَارِى بالصَّدِّ والإجْتنَاب [1]

لا تَرَيْهِ عَارًا فمَا هُوَ بالشَّيْـ   ـبِ ولَكِنَّهُ جلَاءُ الشَّبَابِ

وَبَيَاضُ البَازِىِّ أَصْدقُ حُسْنًا   لَوْ تـأَمَّلْتِ مِنْ سَوَادِ الغُرَابِ [2]

قوله « بَدَتْهُ » . أراد بدأته فترك الهمز . يقال : بدأت بالأمر ، وأبدأته .

وقوله : « ولكنّهُ جِلَاءُ الشَّبَاب » – من معانيه التى تستحسن .

* * *

وقال أبو تمام :

أَبْدَتْ أَسًى إذْ رَأَتْنِى مُخْلَسَ القُصَبِ   وعادَ مَا كَانَ مِنْ عُجْب إلى عَجَبِ [3]

ستٌّ وعشْرُونَ تَدْعُونِى وأَتْبَعُها   إلى المَشِيب ولَمْ تَظْلِمْ ولَمْ تَحُب [4]

فلا يُؤَرِّقْكِ إيمَاضُ القَتيرِ بِهِ   فإنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ الرَّأْى والأَدَبِ

وقد مرت فى باب « [نزول] الشيب قبل حينه »[5] .

---

(١) ديوان البحترى ٥٦٣ ، ١ / ٨٤ دار المعارف وأمالى المرتضى ١ / ٦٠٠ والشهاب ٢٥ وفى م « وهى جنته » .

(٢) فى الديوان وأمالى المرتضى « إن تأملت »

(٣) ديوان أبى تمام ١٥ وشرح التبريزى ١ / ١١٥ وأمالى المرتضى ١ / ٥٩٩ والشهاب ٠ / ١ وعيون الأخبار ٤ / ٥٣ .

(٤) م « فلا يروقك » .

(٥) راجع ص ٢١٢ .

وقوله : « فإنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ الرَّأى والأَدَبِ » ـ أحسن من قول البحترى : « جِلاءُ الشَّبَاب » ، وأجود وأبرع وأصح معنى .

* * *

وقال البحترى :

هَا هُوَ الشَّيْبُ لَائِمًا فَأَفِيقِى ... وٱتْرُكِيهِ إِنْ كَانَ غَيْرَ مُفِيقِ[1]

فَلَقَدْ كَفَّ مِنْ عَنَاءِ الْمُعَنَّى ... وتَلَافَى مِن ٱشْتِيَاقِ الْمَشُوقِ

عَذَلَتْنَا فى عِشْقِهَا أُمُّ عَمْرٍو ... هَلْ سَمِعْتُمْ بالعَاذِلِ المَعْشُوق

ورَأَتْ لِمَّةً أَلَمَّ بها الشَّيْـ ... ـبُ فَرِيعَتْ مِنْ ظُلْمَةٍ فى شُرُوق

ولَعَمْرِى لَوْلَا الأَقَاحِى لأَبْصَرْ ... تِ أَنِيقَ الرِّيَاضِ غَيْرَ أَنِيقِ[2]

وسَوَادُ العُيونِ لَوْ لَمْ يُكَمَّلْ ... بِبيَاضٍ مَا كَانَ بالمَرْمُوقِ[3]

ومِزَاجُ الصَّهْبَاءِ بالماءِ أَمْلَى ... بِصَبوحٍ مُسْتَحْسَنٍ وغَبُوق

أَىُّ لَيْلٍ يَبْهَى بِغَيْرِ نُجُومٍ ... أَوْ سَحَابٍ يَنْدَى بِغَيْرِ بُرُوقِ

هذا إنما يُخْرِجُه الشاعرُ وأشباهه مخرج النَّادرة فَيُسْتَحْسَن .

وأخذ قوله : « أىُّ ليل يَبْهَى بغيرِ نُجُوم » من قول الآخر :

أَشِيبُ وَلَمْ أَقْضِ الشبابَ حُقُوقَهُ ... وَلَمْ يَمْضِ من عَهْدِ الشَّبَابِ قَدِيمُ[4]

---

(١) ديوان البحترى ٤٣٥ ، ١٤٨٥ وأمالى المرتضى ١ : ٦٠٠ والشهاب ٢٥ وحماسة ابن الشجرى ٢٤٣ .

(٢) م « غير الأنيق » .

(٣) فى الديوان « لو لم يحسن » .

(٤) البيتان من غير نسبة فى حماسة ابن الشجرى ٢٤٤ ومجموعة المعانى ٢٥ وللفرزدق ، كما فى عيون الأخبار ٤ : ٥٢ ونقله المرتضى فى أماليه ١ : ٦٠٦ هذا وقد قال المرتضى عقب نقله لكلام الآمدى فى الشهاب ٢٦ : « وقد قلنا إنه لا ينبغى أن يقال أخذ فلان كذا من فلان ، وإنما يقال فى البيتين : إنهما يتشابهان ويتشاكلان وإن هذا نظير ذاك ولا يزاد على هذا » .

تَفَارِيقُ شَيْبٍ فى السَّوَادِ لَوَامِعٌ وَمَا خَيْرُ لَيْلٍ لَيْسَ فِيهِ نُجُومُ[1]

وقال آخر فى مدح الشيب :

لَا يَرُعْكِ المَشِيبُ يا ٱبْنَةَ عَبْدِ الـــلَّهِ فالشَّيْبُ حِلْيَةٌ وَوَقَارُ[2]

إنَّما تَحْسُنُ الرِّيَاضُ إِذَا مَا ضَحِكَتْ فِى خِلَالِهَا الأَنْوَارُ

* * *

وما أحسن ما قال امرؤُ القَيْس ، وأجوده وأصحَّه فى التعزى عن المشيب :

أَلَا إِنَّ بَعْدَ الْعُدْمِ لِلمَرْءِ قِنْوَةً وبَعْدَ المشيب طُوْلَ عُمْرٍ وَمَلْبَسَا[3]

وقال آخر . ومن هذا أخذَ هُوَ وغَيْرُه :

والشَّيْبُ إنْ يَحْلُلْ فإنْ وَرَاءَهُ عُمْرًا يكُونُ خِلالَهُ مُتَنَفَّسُ[4]

---

(١) قال المرتضى بعد كلامه السابق . ويشبه قول البحترى : «ولعمرى . . قول الشاعر : لا يرعك . . » دون أن يشير إلى نقله من الآمدى .

(٢) البيتان لعلى بن الجهم ، كما فى حماسة ابن الشجرى ٢٤٤ وهما من غير نسبة فى أمالى القالى ١ : ١١٢ « جلة ووقار » ونقلهما المرتضى فى أماليه ١ : ٦٠٢ والشهاب ٢٦ وأحسن ما سمعت ١٢٤ .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٠٨ .

(٤) البيت لغيلان بن سلمة ، كما فى عيون الأخبار ٤ : ٥٢ ولشاعر ثقيف فى الجاهلية ، كما قال عبد الملك بن مروان ، كما فى خبر رواه أبو الفرج الأصفهانى ١١ : ١٠٢ وغير منسوب فى أمالى القالى ١ : ١١٢ وأمالى المرتضى ١ : ٥٩٦ والشهاب ٨٥ .

ذكر الكبر وشكوى الدهر وتغير الحال

قال أبو تمام [١] :

. . . .

. . . .

وقال البحترى :

فإنْ ستٌّ وسِتُّونَ ٱسْتَقَلَّتْ فَلَا كَرَّتْ بطَلْعَتِهَا الخُطُوبُ [٢]

لَقَدْ سَرَّ الأَعادِى فِىَّ أَنِّى بِرَأْسِ العَيْنِ مَحْزُونٌ كَئِيبُ

وأَنِّى اليومَ عَنْ وَطَنِى شَرِيدٌ وشُبَّتْ دُونَ بُغْيَتِىَ الحُرُوبُ [٣]

عَلَى حِينَ ٱسْتَتَمَّ الوَهْنُ عَظْمِى وأَعْطى فِىَّ مَا ٱحْتَكَمَ المَشِيبُ

وقَدْ يَرِدُ المَنَاهِلَ من يُحَلَّا عَلَى ظَمَإٍ ، ويَغْنَمُ مَنْ يخيبُ

وأَيْسَرُ فَائِت خَلَفًا سَرِيعًا رِقَابُ المَال يُرْزَؤُها الكَسُوبُ

فَمَنْ ذَا يَسْأَلُ البَجَلِىَّ عَمَّا يَذُمُّ مِنَ ٱخْتِيارى أَوْ يُعِيبُ

يُعَنِّفُنى عَلَى بَغَتَات عَزْمِى وكُنْتُ ولا يُعَنِّفُنى الأَرِيبُ

وقَدْ أَكْدَى الصَّوَابُ عَلَىَّ حَتَّى وَدِدْتُ بأَنَّ شَانِئِىَ المُصِيبُ

لَعَلَّ [أَخَاكَ] يَرْقُبُ أَنْ تُطَاطِى لَهُ مِنِّى النَّوَائِبُ إِذْ تَنُوبُ [٤]

فَأَيْنَ النَّفْسُ ذَاتُ العَزْمِ عَمَّا تَسَكَّعَ فيهِ والصَّدْرُ الرَّحِيبُ [٥]

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) ديوان البحترى ٤٨٤ ، ١ / ٢٥٨ دار المعارف والأربعة الأول فى الشهاب ٢٦ .

(٣) هذا البيت ملفق ، فعجز صدره : « بلا جرم ومن مالى حريب » وصدر عجزه « تعاظمت الحوادث حول حظى » .

(٤) الزيادة من الديوان .

(٥) فى الديوان « ذاتُ الفضل » .

وقال :

سَيُثْلِجُ صَدْرِى اليَأْسُ، واليَأْسُ مَنْهلٌ ... مَتَى تَغْتَرِفْ مِنْهُ الجَوَانِحُ تثْلَجِ [(١)]

قَنِعْتُ عَلَى كُرْهٍ ، وطَأْطَأْتُ نَاظِرى ... إلَى رَنْقٍ مَطْرُوقٍ مِنَ العَيْشِ حَشْرَجِ

ولَجْلَجْتُ فى قَوْلِى وكنتُ مَتَى أَقُلْ ... بمَسْمَعةٍ فى مَجْمَعٍ لا أُلَجْلِجُ

يَظُنُّ العِدَى أَنِّى فَنِيتُ وإنَّمَا ... هى السِّنُّ فى بُرْدٍ مِنَ الشَّيْبِ مُنْهَجِ

نَضَوْتُ الصِّبَا نَضْوَ الرِّدَاءِ وسَاءَنِى ... مُضِىُّ أَخِى أُنْسٍ مَتَى يَمْضِ لا يَجِى

مَضَى جَعْفَرٌ والفَتْحُ بَيْنَ مَرَمَّلٍ ... وبَيْن ضَجِيعٍ بالدِّمَاءِ مُضَرَّجِ

أَأَطْلُبُ أَنْصَارًا على الدهر بَعْدَمَا ... ثَوَى مِنْهُمَا فى التُّرْب أَوْسِى وخَزْرَجِى

أُولئكَ سَادَاتِى الذين برَأْيِهمْ ... حَلَبْتُ أَفَاوِيقَ الرَّبِيعِ المُثَجَّجِ

مَضَوْا أَمَمًا قَصْدًا وخُلِّفْتُ بَعْدَهُمْ ... أُخَاطِبُ بالتَّأْمِيرِ والىَ مَنْبج

وهذا من إحسانه المشهور .

وقال :

ومُعَيِّرِى بالدَّهْرِ يَعْلَمُ فى غَدٍ ... أَنَّ الحَصَادَ وَرَاءَ كُلِّ نَبَاتِ [(٢)]

أُبَنَىَّ إنِّى قَدْ نَضوتُ بَطَالَتِى ... فَتَحَسَّرتْ ، وصَحَوْتُ مِنْ سَكَرَاتِى

نَظَرَتْ إلىَّ الأَرْبَعُونَ فَأَصْرَخَتْ ... شَيْبِى ، وهَزَّتْ لِلْحُنُوِّ قَنَاتِى

وأَرَى لِدَات أَبِى تَتَابَعَ كُثْرُهُمْ ... فَمَضَوْا ، وكَرَّ الدَّهْرُ نَحْوَ لِدَاتِى

ومِنَ الأَقَارب مَنْ يُسرُّ بمِيتَتِى ... سَفَهًا وعِزٌّ حَيَاتِهِمْ بِحَيَاتِى

---

(١) ديوان البحترى ٦٤٥ ، ٤١٧/١ دار المعارف . والأبيات الأربعة التى تليه فى الشهاب ٢٦ .

(٢) ديوانه ٤٥٥ ، ١ / ٣٦٤ والشهاب ٢٦ .

وقال :

عَقَلْتُ فَوَدَّعْتُ التَّصَابِى وإنَّمَا تَصَرُّمُ لَهْوِ المَرْءِ أنْ يَكْمُلَ العَقْلُ[1]

أرَى الحِلْمَ بُؤْسى فى المَعِيشَةِ لِلْفَتَى ولا عَيْشَ إلَّا مَا حَبَاكَ بِهِ الجَهْلُ

وهذا إحسان البحترى الذى لا يفِى ببراعةِ مَعْنَاهُ شىء .

---

(١) ديوان البحترى ٦٠ .

باب

فى ذكر الزمان ، وذكر ظلمه واعوجاجه ، وتعذر الرزق على ذوى الحزم والفهم ، وتيسره لذوى الجهل والعجز ، وفى التعزى والصبر والقناعة ، وما قالاه فى ضد ذلك من بعد الهمة ، والنهوض فى طلب الرزق ، والسير على الإبل ، وقطع الفيافى ، وفى مواعظ وآداب .

وأفتتح هذا الباب بأبيات الابتداآت فى نحو هذه المعانى .

ولا أعرف لأبى تمام فى شىء من هذا [شعرًا] .

ووجدت للبحترى فى ذم الزمان هذه الأبيات :

لَا الدَّهْرُ مُسْتَنْفَدٌ ولَا عَجَبُهْ　　تَسُومُنَا الخَسْفَ كُلَّهُ نُوَبُهْ[1]

* * *

[وقال][2] :

مَنْ قَائِلٌ لِلزَّمَانِ مَا أَرَبُهْ　　فى خُلُقٍ مِنْهُ قَدْ خَلا عَجَبُهْ[3]

وقال :

مَعَ الدَّهْرِ ظُلْمٌ لَيْسَ يُقْطَعُ دَائِبُهْ　　وحُكْمٌ أَبَتْ إِلَّا آعْوِجَاجًا جَوَانِبُهْ[4]

* * *

(١) ديوان البحترى ٢٠٥ ، ١ / ٢٠٧ دار المعارف .

(٢) زيادة لازمة .

(٣) ديوانه ١٩٧ ، ١ / ٢٧٧ .

(٤) ديوانه ١٥٨٨ / ٢١٩ « يقلع راتبه » .

[وقال] [١] :

إِسَاءَةُ دَهْرٍ بَرَّحَتْ بى نَوَائِبُهْ   وخَطْبُ زَمَانٍ بالكَلَامِ أُخَاطِبُهْ [٢]

وقال :

تَخَلَّ مِنَ الأَطْمَاعِ إِمَّا تَخَلَّتِ   وَوَلِّ صُرُوفَ الدَّهْرِ مَا قَدْ تَوَلَّتِ [٣]

وقال :

اعْجَبْ لِظُلْمِ زَمَانِنَا المُتَوَاتِرِ   ولأَوَّلٍ مِمَّا يُرِيكَ وآخِرِ [٤]

وقال :

نَوَازِلُ دَهْرٍ أَيُّهُنَّ أُنَازِلُ   بِعَزْمِى أَمْ مِنْ أَيِّهِنَّ أُوائِلُ [٥]

وقال :

لَيْسَ الزَّمَانُ بِمُعْتِبٍ فَزَرِينِى   أَلْقَى تجَهُّمَ خَطْبِهِ بجَبِينِى [٦]

وقال :

نَسْعَى وأَيْسَر هَذَا السَّعْى يَكْفِينَا   لَوْلَا تَكَلُّفنَا مَا لَيْسَ يَغْنِينَا

وقال :

صُنْتُ نَفْسى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى   وتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدا كُلِّ جِبْسِ [٧]

وقال فى النهوض لطلب الرزق :

أُشَرِّقُ أَمْ أُغَرِّبُ يَا سَعِيدُ   وأَنْقُصُ مِنْ زَمَاعِى أَمْ أَزِيدُ [٨]

---

(١) زيادة لازمة كذلك .

(٢) ديوانه ٦٦٠ ، ١ / ٢٨٥ .

(٣) ديوان البحترى ٧٨٣ ١ / ٣٦٧ .

(٤) ديوانه ٦٦١ « نوائب دهر . . أو من » .

(٥) ديوانه ٢١١ « الزمان بمعتبى . . أرى » .

(٦) ديوانه ١٦٧ ، ٢ / ١١٥٢ .

(٧) ديوانه ٤١٤ ، ١ / ٥٨٠ .

(٨) ديوانه ٢ / ٩٤٥ دار المعارف .

ماقالاه من هذه المعانى فى وسط الكلام

فى ذم الزمان ومجاهدته والصبر على نُوَبِهِ

قال أبو تمام :

أُسِيءُ عَلَى دَهْرِى الثَّنَاءَ فَقَدْ قَضَى ... عَلَىَّ بَجَوْرٍ صَرْفُهُ المُتَتَابعُ[١]

أَيَرْضَخُنَا رضخ النَّوَى وهو مُصْمَتٌ ... وَيَأْكُلنَا أَكْلَ الدَّبَا وهو جائِعُ[٢]

وإنِّى إذَا أَلْقَى بربْعِىَ رَحْلَهُ ... لأَزْعَرُه فِى سِرْبِهِ وهو رَاتِعُ[٣]

أَخو مَنْزِلِ الهَمِّ الذى لَوْ بغَى القِرَى ... لَدَى حَاتِمٍ لَمْ يَقْرِهِ وهو طَائعُ[٤]

إذَا شَرَعَتْ فيه اللَّيَالِى بنَكْبَةٍ ... تَمَزَّقْنَ عَنْهُ وهو فى الصَّبْرِ دَارِعُ[٥]

[لَهُ هِمَمٌ ما إنْ تَزالُ سُيُوفُهَا ... قَوَاطعَ لَوْ كَانَتْ لَهُن مَقَاطعُ]

قد روى : « ويأْكلنا أكل الدَّبَا وهو جائع » وهو عندى أشبه وأصح إن شاء الله ؛ و « يأْكلنا أكل الرِّبَا » لأن الرِّبَا يأْكل النِّعم ، ويَمْحَقُ المال .

وقوله : « لو كَانَتْ لَهُنَّ مَقَاطِعُ » : أى شىءُ يقطعه.

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٧٨ « الدهر » .

(٢) الدبا : أصغر ما يكون من الجراد والنمل ، كما فى اللسان ١٨ : ٢٧٢ .

(٣) فى الديوان « عن سربه » .

(٤) فى الديوان « أخو منزل » .

(٥) فى الديوان « وهو بالصبر شارع » .

وقال :

لَقَدْ سَاسَنَا هَذَا الزَّمَانُ سِيَاسَةً سُدًى لَمْ يَسُسْهَا قَطُّ عَبْدٌ مُجَدَّعُ[١]
تَرُوحُ عَلَيْنَا كلَّ يَوْمٍ وَتَغْتَدِى خُطُوبٌ كأَنَّ الدَّهرَ مِنْهُنَّ يُصْرَعُ
حَلَتْ نُطَفٌ مِنهَا لِنِكْسٍ، وذُو الحِجَا يُدافُ له سَمٌّ مِنَ العَيْشِ مُنْقَعُ

قد عاب الناس عليه قوله : « كأَنَّ الدهرَ منهن يُصْرَعُ » وهو — لعمرى — قبيح .

وقال :

كَمْ فَتًى ذَلَّ لِلزَّمَان وَقَدْ أَلْقَى مَقَالِيدَهُ إليه القَبيضُ[٢]
لَوْذَعِىٌّ يُهَلِّلُ المَشْرَفِىُّ الـ عَضْبُ عَنْهُ والزَّاعِبِىُّ النَّحيضُ[٣]
أَتْـأَرَتْنِى الأَيَّامُ بالنَّظَرِ الشَّزْ رِ وكَانَتْ وطَرْفُهَا لى غَضِيضُ
كَيْفَ يُمْسِى برأْسِ عَلْيَاءَ مُمْسٍ وجَنَاحُ السُّمُو مِنْهُ مَهِيضُ[٤]
هِمَّةٌ تَنْطَحُ النُّجُومَ ، وَجَدٌّ آلِفٌ للحَضِيضِ فَهْو حَضِيضُ

قوله : « أَتْـأَرَتْنِى الأَيَّامُ » . أى أَدامت نظرها إلىَّ ؛ يقال : أَتْـأَرْتُ إليه النظر : إذا أَحددته .

والقبيض : اسم لِجِلَّةِ[٥] الخَلْق » . واللَّوْذَعِىّ الحَدِيدُ الفؤَاد .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٩٠ وشرح التبريزى ٢ : ٣٢٤ وفى م « لو ساسنا » سدى : مرسلة مهملة ؛ لأنه حرم المستحق وأعطى غير المستحق ، إلى غير ذلك مما تقتضى السياسة غيره . ومجدع : جدع أنفه وأذناه . كما فى شرح التبريزى .

(٢) ديوانه ١٧١ وشرح التبريزى ٢ : ٢٨٩ .

(٣) م « والزاغبى » .

(٤) فى الديوان « علياء مضحٍ » .

(٥) م « الجهلة » .

والمَشْرَفِىّ : السيف منسوب إلى المشارف ، قرى تعمل فيها السيوف .

والنَّحِيضُ : الذى قد ذهب نَحْضُه أى[1] لحمه ، وإنما يعنى سنان الرمح أنه قد دُقِّق وحُدِّد .

والزَّاعِبِىُّ : الرمح . قيل : هو منسوب إلى رجل كان يُقَوِّم الرماح يقال له زَاعِب ، وقال قوم زاعب : موضع لا تعرف حقيقته . ويقال : التَّزَعُّبُ : السرعة والنشاط. فيجوز أن يكون قيل زاعبى لحركته وتثنيه .

* * *

وقال البحترى :

وَمَا جَزَعُ الجَزُوعِ مِنَ اللَّيَالِى ... بِمُحْرِزِهِ ولا جَلَدُ الجَلِيدِ[2]

جَحَدْنا سُهْمَةَ الحَدَثَان فِينَا ... لَو أنَّ الحقَّ يَبْطُلُ بالجُحُودِ[3]

فَيَا وَيْحَ الحَوادث كَيْفَ تُعْطِى ... شَقِىَّ القَوْمِ مِنْ حَظِّ السَّعِيدِ[4]

وكيفَ تَجُورُ إنْ حَكَمَتْ بحُكْمٍ ... فَتَحْمِلُ لِلْغَوِىِّ عَلَى الرَّشِيدِ[5]

وَمَا بَرِحَتْ صُروفُ الدَّهْر حتَّى ... أَرَتْنَا الأُسْدَ قَتْلَى لِلْقُرُودِ

وهذا مما لا مزيد على حسنه وجودته لفظًا ومعنى .

وقال :

يَغْتَرّ بالدَّهْر ذُو الإِضَاعَةِ وَالـــدَّهْرُ عَدُوٌّ مَطْلُوبَةٌ إِحَنُهْ[6]

---

(١) م « إلى لحمه » .

(٢) ديوان البحترى ٧٩٤ ، ١ / ٥١٨ دار المعارف .

(٣) وبعده :

ونـنـكر أن تطرقنا المنـايا ... كأنـا قد خلقنا للخلود

(٤) م « فيار بح » .

(٥) فى الديوان « إن همت بحكم » .

(٦) ديوانه ٣٣٤ .

فى زَمَنٍ رَنَّقَتْ حَوَادِثُهُ أَشْبَهُ شىء بحَادِثٍ زَمَنُهْ
رَضِيتُ مِنْ سَيِّئِ الزَّمَان بأَنْ يَعْشُرهُ غيرُ زائدٍ حَسَنُهْ

رنّقت حوادثه : دَنَتْ ورَفْرَفَتْ كما يُرنِّق النّسر .

وهذا أيضاً حسن .

وقال :

أَرَانَا عُنَاةً فى يَدِ الدَّهْرِ نَشْتَكِى تَـأَكُّدَ عَقْدٍ مِنْ عُرَاهُ وَثِيق[١]
ولَيْسَ طَلِيقُ اليومِ إنْ رَجَعَتْ لَهُ صروف الليالى فى غَدٍ بطَلِيقِ[٢]
تَفَاوَتَتِ الأَيَّامُ فِينَا فَأَفْرَطَتْ بِظَمْآنَ بَاد لَوْحُهُ وغَرِيق
وكُنْتُ إذا مَا الحَادِثَاتُ أَصبْنَنِى بهَايِضَةٍ صُمٍّ العِظَام دَقُوق –
شَمَخْتُ فَلَمْ أَبْدِ ٱخْتِشاعًا لِشَامِتٍ ولَمْ أَبْتَعِثْ شَكْوَى لِغَيْرِ شَقِيقِ[٣]
أَرَى كُلَّ مُؤْذٍ عَاجِزًا عَن أَذِيَّتِى إِذَا هُوَ لَمْ يُنْصَرْ عَلَىَّ بِمُوقِ

فقد ترى هذه الفصاحة والبلاغة ، والألفاظ الحلوة المتمكنة ، والمعانى القريبة العجيبة .

وأجود من قوله : «وكَنْتُ إذا ما الحَادِثَاتُ أَصبْنَنِى. .. » والبيت بعده قَوْل العكَوَّك[٤] :

أَلاَ ربَّ هَمٍّ يُمْنَعُ النَّوْمُ دُونهُ أَقَامَ كَقَبْضِ الرَّاحَتَيْنِ عَلَى الجَمْرِ[٥]

---

(١) ديوان البحترى ٥٢٣ ، ١٥٣٠ .
(٢) فى الديوان « طليق القوم من رجعت » .
(٣) م فى الديوان « فلم أبد اختتاء » .
(٤) م « عكوك » .
(٥) م « كفيض » .

بَسَطْتُ له وَجْهِى لأَكْبِتَ حَاسِدًا ... وأَبْدَيْتُ عَنْ نَابٍ ضَحُوكٍ وعَنْ ثَغْر
وشَوْقٍ كأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ فى الحَشَا ... مَلَكْتُ عليه طاعةَ الدَّمْعِ أن يَجْرِى

* * *

وقال البحترى :

أَطِلْ جَفْوَةَ الدُّنْيَا وتَهْوِينَ شَأْنِهَا ... فَمَا العَاقِلُ المَغْرُورُ فيها بعَاقِلِ [١]
يُرَجِّى الخُلُودَ مَعْشَرٌ ضَلَّ رَأْيُهُمْ ... ودُونَ الذى يَرْجُونَ غَولُ الغَوَائِلِ
ولَيْسَ الأَمَانِى فى البَقَاءِ وإنْ مَضَتْ ... بها عَادَةٌ إلا أَحَادِيثُ بَاطِلِ
إذا مَا حَرِيزُ القومِ بَاتَ وَمَالَهُ ... مِنَ اللهِ وَاقٍ فَهوَ بَادِى المُقَاتِلِ
وَمَا المُفْلِتُونَ أَجْمَلَ الدَّهْرُ فِيهِم ... بِأَكْثَرَ مِنْ أَعْدَادِ مَنْ فى الحَبائِلِ
يُسَارُ بنَا قَصْدَ المَنُونِ وإنَّنَا ... لَنَشْعَفُ أَحْيانًا بطَىِّ المَرَاحِلِ
عِجَالًا عَنِ الدُّنْيَا بأَسْرَع سَعْيِنَا ... إلَى آجِلٍ منها شَبِيهٍ بعَاجِل [٢]
أَوَاخِرُ مِنْ عَيْشٍ إذَا مَا امْتَحَنْتَها ... تَأَمَّلْتَ أَمْثَالًا لَهَا فى الأَوَائِلِ
وَمَا عَامُكَ المَاضِى وإنْ أَفْرطتْ بهِ ... عَجَائِبُهُ إِلَّا أَخُو عَامٍ قَابلِ
غَفَلْنَا عَنِ الأَيامِ أَطْولَ غَفْلَةٍ ... وما خَوْفُها المَخْشِىُّ عَنَّا بِغَافِلِ [٣]
تُغَلْغَلَ رُوَّادُ الفَنَاءِ ونَقَّبَتْ ... دَوَاعِى المَنُونِ عَنْ جَوَادٍ وبَاخِلِ

وقال :

إِذَا عَاجِلُ الدُّنْيَا أَلَمَّ بِمُفْرِحٍ ... فَمِنْ خَلْفِهِ فَجْعٌ سَيَتْلُوهُ آجِلُ [٤]
وكانَتْ حَيَاةُ الحىِّ سَوْقًا إلى الرَّدَى ... وأَيَّامُهُ دُونَ المَمَاتِ مَرَاحِلُ [٥]

---

(١) ديوان البحترى ٦٣٨ « منها بعاقل » .
(٢) فى الديوان : « من الدنيا » .
(٣) فى الديوان « وما خونها » .
(٤) ديوانه ٤٩٠ ، ١٧٣١ .
(٥) م « الحى شوقا » .

وما لُبْثُ مَنْ يَغْدُو وفى كُلِّ لَحْظَةٍ ... لَهُ أَجَلٌ فى مُدَّةِ العُمْرِ قَاتِلُ
وللمرءِ يَوْمٌ لا مَحَالَةَ مَالَهُ ... غَدٌ وَسْطَ عَامٍ مَالَهُ الدَّهْرَ قَابِلُ
كَفَانَا اَعْتِرَافًا بالفَنَاءِ ورِقْبَةً ... لِمَكْرُوهِهِ أَنْ لَيْسَ لِلْخُلْدِ آمِلُ

* * *

وقال :

أَنَاةً أَيُّها الفَلَكُ المُدَارُ ... أَنَهْبٌ مَا تُطَوِّفُ أَمْ خِيَارُ[1]
سَتَفْنَى ، مِثْلَ مَا تُفْنِى وتَبْلَى ... كما تُبْلِى فَيُدْرِكُ مِنْكَ ثَارُ
تُنَابُ النَّائِبَاتُ إِذَا تَنَاهَتْ ... ويَدْمُرُ فى تَصَرُّفِهِ الدَّمَارُ
وَمَا أَهَلُ المَنَازِلِ غيرُ رَكْبٍ ... مَنَايَاهُمْ رَوَاحٌ وَابْتِكَارُ
لَنَا فى الدَّهْرِ آمَالٌ طِوَالٌ ... تُرَجِّيها ، وأَعْمَارٌ قِصَارُ[2]

وقال :

أُخَيَّ : مَتَى خَاصَمْتَ نَفْسَكَ فَاحْتَشِدْ ... لَهَا ، ومتى حَدَّثْتَ نَفْسَكَ فَاصْدُقِ
أَرَى عِلَلَ الأَشياءِ شَتَّى ، ولا أَرَى الـ ... ـتَجَمُّعَ إِلَّا عِلَّةً للتَّفَرُّقِ
أَرَى العَيْشَ ظِلاً تُوشِكُ الشَّمْسُ نَقْلَهُ ... فَكِسْ فى ابْتِغَاءِ العَيْشِ كَيْسَكَ أَوْمِقِ[3]
أَرَى الدَّهْرَ غُولًا للنُّفُوسِ وإِنَّما ... يُقِى اللهُ فى بَعْضِ المَوَاطِنِ مَنْ يُقِى
ولَمْ أَرَ كالدُّنيَا حَلِيلَةَ وَامِقٍ ... مُحِبٌّ مَتَى تَحْسُنْ بِعَيْنَيْهِ تَطْلُقِ
تراهَا عِيَانًا وَهْىَ صَنْعَةُ وَاحِدٍ ... فَتَحْسَبُها صُنْعَىْ لَطِيفٍ وأَخْرَقِ[4]

---

(١) ديوان البحترى ٦٩٤ ، ٢ / ٩٥٩ .

(٢) نقلها المرتضى فى أماليه ١ : ٢٧٩ والثانى ، والثالث وما بعده فى مجموعة المعانى ٦ .

(٣) ديوانه ١٥٥٢ م « فكش . . كلسك أومق »

(٤) فى أمالى المرتضى ٢ : ٢٢٩ « وقد قيل : إن السبب فى خروج البحترى عن بغداد فى آخر أيامه . كان هذه الأبيات : لأن بعض أعدائه شنع عليه بأنه ثنوى من حيث قال : « فتحسبها صنعى لطيف وأخرق » وكانت العامة حينئذ غالبة على البلد ، فخاف على نفسه فقال لابنه أبى الغوث : قم يا بنى حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ، فخرج ولم يعد » .

فانظر أشعار أهل الزهد وتأملها ، هل ترى فيها من هذا النحو شيئًا ؟ هيهات ؛ هذا مذهب يتقدم كل مذهب .

وقال :

أَرَى غَفْلَةَ الأَيَّامِ إِعْطَاءَ مَانِعٍ نَصِيبَكَ أَحْيَانًا وحِلْمَ سَفيهِ[1]

إِذَا مَا نَسَبْتَ الحادِثَاتِ وَجَدْتَهَا بَنَاتِ الزَّمانِ أُرْضِعَتْ لِبَنِيهِ[2]

مَتَى أَرَتِ الدُّنْيَا نَباهَةَ خَامِلٍ فَلَا تَنْتَظِرْ إِلَّا خُمُولَ نَبِيهِ

وقال :

أَغْشَى الخُطُوبَ فَإِمَّا جِئْنَ مَأْرُبَتِي فيما أُسَيِّرُ أَوْ أَحْكَمْنَ تَأْدِيبِي[3]

إن تَلْتَمِسْ تَمْرِ أَخْلَافَ الخُطُوبِ وإنْ تَلْبَثْ مَعَ الدَّهرِ تَسْمَعْ بالأَعاجِيبِ[4]

* * *

وما أحسن ما قال ابن عيينة :

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَيٍّ ولا ٱبْتَكَرَا إِلَّا رَأَى عِبْرَةً فيهِ إن ٱعْتَبَرا

وَلَا أَتَتْ سَاعَةٌ فى الدَّهْرِ فَٱنْصَرَمَتْ حَتَّى تُؤَثِّرَ فى قَوْمٍ لَهَا أَثَرا

إِنَّ اللَّيَالِيَ والأَيَّامَ أَنْفُسَهَا عَنْ عَيْبِ أَنْفُسِها لَمْ تَكْتُمِ الخَبَرا

أنشد المبرد هذه الأبيات[5] ، وذكر أن الطائى أخذ هذا المعنى وجمعه فى ألفاظ يسيرة فقال :

عَمْرِى لَقَدْ نَصَحَ الزَّمَانُ وإِنَّهُ لَمِنَ العَجَائِبِ نَاصِحٌ لَا يُشْفِقُ

(١) ديوان البحترى ٢٣٥ « يصيبك أحياناً » .

(٢) فى الديوان « أرصدت لبنيه » .

(٣) ديوانه ٣٢٧ .

(٤) فى الديوان « أخلاف الأمور » .

(٥) فى الكامل ١ : ٣٥٩ .

أراد أن قوله : «عَمْرِى لَقَدْ نَصَحَ الزَّمَانُ» – من قوله : «إلَّا رَأى عِبْرَةً فيه إن ٱعْتَبَرا» . كأنه أراد أن ما يأتى فيه من العبر كأنه نُصْحٌ[1] منه وتنبيه .

وكذلك قوله : «ولا أَتَت سَاعَةٌ» وقوله : «إنَّ اللَّيَالِىَ والأَيَّام» . فجعل هذا كله كنصح[2] من الزمان لما يُرِينَاهُ من العبر .

قال أبو العباس : وزاد عليه بقوله : «ناصح لَا يُشْفِقُ»[3].

وما قاله الناس فى هذا المعنى أكثر من أن يحتاج الطائى إلى أن يأخذه من وهذه الأبيات .

---

(١) م «فيه» .

(٢) م «لنضح» .

(٣) نص كلام المبرد : «فزاد بقوله : ناصح لا يشفق على قول ابن عيينة – شيئاً طريفاً ، وهكذ يفعل الحاذق بالكلام» .

فى المواعظ والآداب

وقال [البحترى] :

مَتَى تَسْتَزِدْ فَضْلًا مِنَ الْعُمرِ تَغْتَرِفْ بِسَجْلَيْكَ مِنْ شهْدِ الخُطُوبِ وصَابِهَا[١]
تُشَذِّبُنَا الدُّنْيَا بِأَخْفَضِ سَعْيِهَا وغُولُ الأَفَاعِى بَلَّةٌ مِنْ لُعَابِهَا
يُسَرُّ بِعُمْرَانِ الدِّيارِ مُضَلَّلٌ وعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خرَابِهَا
ولَمْ أَرْتَضِ الدُّنْيَا أَوانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ ٱرْتِضَائِيها أَوَانَ ذَهَابِهَا
أَقُولُ لِمَكْذُوبٍ عَنِ الدَّهْرِ رَاغَ عَنْ تَخَيُّرِ آرَاءِ الحِجَا وَٱنْتِخَابِهَا :[٢]
سيُرْدِيكَ أَوْ يُتْوِيكَ أَنَّكَ مُحْبَسٌ إلى شُقَّةٍ يُبْلِيكَ بُعْدُ مابها[٣]

فهذا ، والله ، الوعظ الذى لو سمعه أبو العَتَاهِيَة لَضَلَّت مقاليده .

وقوله : « مُحْبَسٌ » أى موقوف إلى أن تصير إلى هذه الشقة ، من قولك : ٱحْتَبَسْتُ[٤] فرسًا فى سبيل الله ، وٱحْتَبَسْتُ دارًا ، أى وقَفْتُ دارًا . فأَمَّا حَبَسْتُ ، فإن ذاك من حبست الرجل فى الحبس ، وحبسته عن طريقه ، ونحو هذا .

---

(١) ديوان البحترى ٣١٢ ، ٢٣١ دار المعارف .
(٢) فى الديوان « زاغ » .
(٣) فى الديوان : « أنك مخلس » .
(٤) م « احتسبت » .

فى الصبر والقناعة

قال أبو تمام :

عِنْدِى مِنَ الأَيَّامِ مَا لَوْ أَنَّهُ أَضْحَى بِشَارِبِ مُرْقِدٍ مَا غَمَّضَا[١]

لَا تَطْلُبَنَّ الرِّزْقَ بَعْدَ شِمَاسِهِ فَتَرُومَهُ سَبُعًا إِذَا مَا غُيِّضَا

ما عُوِّضَ الصَّبْرَ آمْرُؤٌ إِلَّا رَأَى مَا فَاتَهُ دُونَ الذى قَدْ عُوِّضَا

« شارب مُرْقد » مثل غير جيد ولا حسن ، ولا زال الناس يعيبونه .

وقال :

لا تَأْخُذِينِى بالزَّمَانِ فَلَيْسَ لِى تَبَعًا ، ولَسْتُ عَلَى الزَّمَانِ كَفِيلَا[٢]

مَنْ زَاحَفَ الأَيَّامَ ثُمَّ عَبَا لَهَا غَيْرَ القَنَاعَةِ لَمْ يَزَلْ مَفْلُولَا

مَنْ كَانَ مَرْعَى عَزْمِهِ وهُمُومِهِ رَوْضُ الأَمَانِى لَم يَزَلْ مَهْزُولَا

لَوْ جَازَ سُلْطَانُ القُنُوعِ وحُكْمُهُ فى الخَلْقِ مَا كَانَ القَلِيلُ قَلِيلَا[٣]

الرِّزْقُ لَا تَكْمَدْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَأْتِى وَلَمْ تَبْعَثْ إِليهِ رَسُولَا[٤]

يريد من لم يقنع وكان أبدًا يتمنى — لَمْ يَزَل مَهْزُولا .

---

(١) ديون أبى تمام ١٨٥ وشرح التبريزى ٢ : ٣٠٣ « أى عندى من جهة الأيام من المحن ما لو تصور بشارب دواء منيم لم يغمض غما وتفكراً » .

(٢) ديونه ٢٤٣ وشرح التبريزى ٣ : ٦٧ .

(٣) فى الديوان « فى الأرض » .

(٤) وفيه « لا تحرص » .

وقوله : «لو جَازَ سُلْطانُ القُنُوع» ، وهو يريد القناعة ؛ لأن المتأخرين في هذا الموضع يستعملون القنوع .

«مَا كانَ القَلِيلُ قليلا» أي لو كان حكم القناعة جائزًا نَافِذًا في الخلق . أي لو قنع الخلق ما كان القليل قليلا ، أي ما كان أحد يَسْتَقِلُّ القليلَ ، بل كان عنده بالقناعة كثيرًا . أفصح بمدح القناعة فقال :

الرِّزْقَ لَا تَكْمَدْ عَلَيْه فَإِنَّهُ ... يـأْتِي ولَمْ تَبْعَثْ إليه رَسُولَا

وإنما أخذ هذا من قول [عُرْوَةَ بن] أُذَيْنَة :

أَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعْيِينِي تَطَلُّبُهُ ... ولو قَعَدْتُ أَتانِي لا يُعَنِّينِي[1]

ثم نقض أبو تمام هذا كله بأن قال في إثْرِ هذا البيت – بغير فاصِلَةٍ تَفْصِل بينهما – يَصِفُ النّاقةَ وقَطْعَه عليها الفلاةَ إلى الممدوح ، فقال :

لِلّهِ دَرُّكِ أَيَّ مَعْبَرِ قَفْرَةٍ ... لا تُوحِشُ ابْنَ البَيْضَةِ الإِجْفِيلَا

بِنْتُ الفَضَاءِ مَتَى تَخِدْ بِكَ لا تَدَعْ ... في الصَّدْرِ مِنْكَ عَلَى الفَلَاةِ غَلِيلَا[2]

أَوَ مَا تَرَاهَا لَا تَرَاهَا هِزَّةً ... تَشْأَى العُيُونَ ذَوالِقًا وَذَمِيلَا[3]

لَوْ كَانَ كَلَّفَها عُبَيْدٌ حَاجَةً ... يَوْمًا لَزَنَّ شَدْقَمًا وَجَدِيلَا[4]

«ابن البَيْضَةِ» : الظليم . والإِجْفِيلُ : السَّريع الأنْجِفَال يعني الذهاب. يقول : لا توحشه هذه الناقة لكثرة قطعها الفَيَافِي وإلف الظُّلْمانِ[5] لها.

---

(١) الأغاني ٢١ : ١٦٢ والشعر والشعراء ٢ : ٥٦٠ . وأمالي المرتضى ١ : ٤٠٨ ، ٤١٥ .

(٢) في الديوان «بنت القفار» .

(٣) راجع رواياته المختلفة في شرح التبريزي وهامشه ٣ : ٦٩ .

(٤) إعجاز القرآن ١٦٦ والموشح ٣١١ .

(٥) م «وإلف الظهان» .

ودل على أنه الظليم بقوله : «ابن البيضة» ولو كان جرى له ذكر لما كان لذكر البيضة معنى ، إذ كل ظليم وكل طائر فهو ابن البيضة .

وقوله : «أَوَ مَا تَرَاها هِزَّةً» أى من سرعة مَرِّها واهتزازها فى سيرها لا تكاد ترى صُورتَها .

تَشْأَى العُيُونَ : تسبقها . ذَوَالِقًا : جمع ذليقة ، والذَّلَاقَةُ : السرعة والمَضَاء .

ويروى «دَوَالِقًا» بالدال غير معجمة ، جمع دَالِقَة ، والدالق : الخارج ، يقال : سيفٌ دَالِقٌ إذا كان خارجًا مِنْ غِمْدِه .

وكان ينبغى أن يقول : تشأى العيون اندلاقاً وذميلا ، أو ذلاقة — معجمة الذال — وذميلا ؛ لأن قوله : «وَذَمِيلًا» لا يكون مَنْسُوقًا على ذَوَالِق . وأظنُّه جعل الذَّمِيل ، مَنْسُوقًا على هِزَّة .

والذَّمِيلُ هاهنا رَدِىء ؛ لأنه ضَرْبٌ من سير الإبل لَيِّن ، وهو يَصف السرعة .

وعُبَيدٌ : يعنى البَيْطَارَ الذى ذكره الأَعْشَى فى شعره ، فقال يصف ناقَةً[1] :

لَمْ تَعَطَّفْ عَلَى حُوَارٍ وَلَمْ يَقْ ... طَعْ عُبَيْدٌ عُرُوقَهَا مِنْ خُمَالِ[2]

وكان يعالج الإبل . أى لو كلفها عبيد حاجة ، أى سيرًا عليها لحاجة «لَزَنَّأَ شَدْقَمًا وجَدِيلا» وهما فحلان من فحول العرب النَّجِيبَة المذكورة — لما يرى من سرعتها ونجابتها .

---

(١) م «نصف» .

(٢) ديوانه ٦ وفى اللسان ١٣ : ٢٣٥ «والخمال : داء يأخذ فى مفاصل الإنسان وقوائم الخيل والشاء والإبل ، تظلع منه ، ويداوى بقطع العرق ، ولا يبرح حتى يقطع منه عرق أو يهلك — ثم أنشد بيت الأعشى هذا ، وقال : أى لم يكن لها لبن فتعطف على حوار لترضعه» .

وهذا غاية ما يكون من سُخْفِ المعنى وركاكته ؛ لأنَّ زَنّاً من ألفاظ الجهال والصبيان . وإنما أراد لو سار عليها عبيد ، هذا العالم بأمر الإبل ، فى بعض حاجة — لصغر عنده ، أَوْ لَهَانَ عليه أَمْرُ شَدْقَمْ وجَدِيل . فلم يهتد بلفظ من هذا النحو فقال : «لَزَنّاً شَدْقَمًا وجَدِيلًا » . أتراه كان يقول لهما : يا زانيين ، أو يا بنى الزانيين . إن هذا من حماقات الطائى المُحْكَمَة ، وسخفه العجيب مع ما فى أبياته هذه من نقض المعنى الذى ذكره فى الأبيات قبلها من الحث على القناعة ، والقعود عن الحركة والاضطراب .

* * *

وقال البحترى :

لَعَمْرُكَ كَيْفَ نَرْصُفُ مَا عَدَانَا ... مِنَ الدُّنْيَا ، وَنَسْخَطُ مَا يَجِينَا[1]

عَنَانَا مَا عَسَاهُ يَزُولُ عَنَّا ... وأَنْصَبَنَا تَكَلُّفُ مَا كُفِينَا[2]

يُقَيَّضُ لِلْحَرِيصِ الغَيْظُ بَحْتًا ... [وَتَتَّجِهُ الحُظُوظُ] لِمَنْ قُضِينَا

ومَا هُوَ كَائِنٌ وإن اسْتَطَلْنَا ... إِلَيْهِ النَّهْجَ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَا

فلا تُغْرَرْ مِنَ الأَيَّامِ وَانْظُرْ ... إِلى أَقْسَامِهَا عَمَّنْ زُوِينَا[3]

وقال :

نَسْعَى وأَيْسَرُ هَذَا السَّعْىِ يَكْفِينَا ... لَوْلَا تَكَلُّفُنَا مَا لَيْسَ يَغْنِينَا

نَرُوضُ أَنْفُسَنَا أَقْصَى رِيَاضَتِهَا ... عَلَى مُوَاتَاةِ دَهْرٍ لا يُوَاتِينَا

فَلَيْتَ مُسْلِفَنَا الأَعْمَارَ أَنْظَرَنَا ... مُجَامِلًا فَتَأَنَّى فى تَقَاضِينَا

وهذا كله ما لا مزيد على حسنه وصحته وحلاوته .

---

(١) ديوان البحترى ٥٥٣ « بعمرك . . ما أتانا . . . ما يجينا » .

(٢) فى الديوان « ما عناه يزال عنا » .

(٣) فى الديوان « أقسامنا » .

وقال :

ضيّق العُذْرَ فى الضَّراعَةِ أنَّا ... لَوْ قنعْنَا بقسْمِنا لكَفَانَا[١]

مَا لَنَا نَعْبُدُ العِبَادَ إذا كَا ... نَ إلى اللهِ فَقْرُنَا وغِنَانَا

وقال :

لَوْ أنَّنِي أُوفِى التَّجَارِبَ حَقَّها ... فِيمَا أَرَتْ لَرَجَوْتُ مَا أَخْشَاهُ[٢]

والشَّىْءُ تُمْنَعه تكونُ بِفوْتِهِ ... أجْدَى مِنَ الشَّىْءِ الذى تُعْطَاهُ

خُفِّضْ أَسًى عمَّا شَآكَ طِلَابُهُ ... ما كُلُّ شَائِمِ بَارِقٍ يُسْقَاهُ

وقال :

وكَيْفَ تُعَاطِى الرَّاحِ والرَّأْسُ مُخْلَسٌ ... مَشِيبًا ،وشُرْبُ الرَّاحِ مِنْ بَعْدِ جَعْفَرِ[٣]

قَنِعْتُ ، وجَانَبْتُ المَطَامِعَ لَابِسًا ... لِبَاسِ مُحِبٍّ للنَّزَاهَةِ مُؤْثِرِ

وأيأَسَنِي عِلْمِي بألا تَقَدُّمِي ... مُفِيدِى ، وَلَا مُزْرٍ بِحَظِّى تَأَخُّرِى[٤]

ولَوْ فَاتَنِى المَقْدُورُ مِمَّا أَرُومُهُ ... بِسَعْيٍ لَأَدْرَكْتُ الذى لَمْ يُقَدَّرِ

وقال :

أَجِدَّكَ مَا تَنْفَكُّ تَشْكُو قَضِيَّةً ... تُرَدُّ إلى حُكمٍ مِنَ الدَّهْرِ جَائِرِ[٥]

يَنَالُ الفَتَى مَا لَمْ يُؤَمِّلْ ورُبَّمَا ... أَتَاحَتْ لَهُ الأَقْدَارُ مَا لَمْ يُحَاذِرِ[٦]

وهذا فى غاية الحسن والصحة والبراعة ؛ وإنّما أخذه والله أعلم — من قول أَبِي العَتَاهِيَة :

---

(١) ديوان البحترى ٤٢٤ وفى م « سيق العذر » .

(٢) ديوانه ٢٩٦ .

(٣) ديوانه ٢١٥ « تعاطى اللهو » .

(٤) فى الديوان « وآنسنى علمى » .

(٥) ديوانه ٣٥٠ ، ٢ / ٩٦ .

(٦) م « تحاذر » .

قَدْ يَسْلَمُ المَرءُ مما قَد يحاذِرهُ ... وَقَدْ يَصِيرُ إلى المَكْرُوهِ بالحَذَرِ[١]

وأخذه أبو العتاهية من قول الاخر :

وَحَذِرْتُ مِنْ أَمْرٍ فَمَرَّ بِجَانِبِي ... مُتَنَكِّبًا ، ولَقِيتُ مَا لَمْ أَحْذَرِ

* * *

وقال البحترى :

إنْ تُجَرِّبْ بَنِي الزَّمَانِ تَجِدْهُمْ ... إخْوَةً فيهِ للشِّفَارِ الكَلِيلَهْ[٢]

والفَتَى كَادِحٌ لِفَعْلَةِ دَهْرٍ ... يَرْتَضِيها ، أوْ عِيشَةٍ مَمْلُولهْ[٣]

خَائِفٌ آملٌ لِصَرْفِ اللَّيَالِي ... واللَّيَالِي مَخُوفَةٌ مأْمُولَه

رَاحَ أَهْلُ الآدابِ فيها قَلِيلًا ... وحُظُوظُ الأَقْسام فيها قَلِيلَهْ[٤]

فَعَلَيْكَ الرِّضَا بِمَا رَضِيَتْهُ ... لَكَ هَذِى المَطالِبُ المَجْفُولَهْ[٥]

لن تَنَالَ المُزْوَرَّ عَنْكَ بِتَدْبِيـ ... ـرٍ ، وَلَنْ تَصْعَدَ السَّمَاءَ بِحيلَهْ[٦]

وإذَا مَا اعْتَبَرْتَ ظَاهِرَ حَالٍ ... كَانَ أَمْرًا مِنَ الأُمُورِ الجَلِيلَهْ[٧]

كَمْ تَكَرَّهْتُ غِبَّ أَمْرٍ فَكَانَتْ ... نِعْمَةُ اللهِ فيهِ عِنْدِى جَمِيلَهْ[٨]

لَيْسَ إلَّا فَضْلُ العَزِيمَةِ تُمْضِيـ ... ـهَا ، وإلَّا المَطِيَّةُ المَرحُولَهْ

وهذا كلام يجرى من رقته وحسنه .

---

(١) ديوان أبى العتاهية ١١٥ .

(٢) ديوان البحترى ٤٧٥ .

(٣) م « لغفلة » .

(٤) م « فيها قايلا » .

(٥) فى الديوان : « المطالب المجهولة » .

(٦) م « ينال » والديوان « المزوى » .

(٧) فى الديوان « كان خطباً من الخطوب » .

(٨) م « جليله » .

قوله : «فَعَلَيْكَ الرِّضَا» مدح للقناعة ، ولم يحث على القعود عن المطالب ، وإنما أراد عليك الرضا بما رَضِيَتْهُ لك مَطالبُكَ ، هذه المطالب التى أنت بسبيلها ، ولن تقدر على نيل ما ازْوَرَّ عنك ولذلك قال :

ليس إلا فضل العزيمة تمضيـ ـها ، وإلا المطيَّةُ المَرْحُولَهْ

وعلى أنه قال :

كَمْ تكَرَّهْتُ غِبَّ أَمْرٍ فَكَانَتْ نِعْمَةُ اللهِ فيه عِنْدِى جَمِيلَهْ

يجوز أن يكون أراد غب أَمْرٍ مِنْ تَجَشُّمِ الأَسْفَار ، وبُعْدِ المطالب ، فأحمدت عاقبته فحسن أن يقول : «ليس إلا فَضْلُ العزيمة» .

وأبو تمام صرح بذكر القُعُود عن الطلب بقوله :

الرِّزْقَ لا تَكْمَدْ عَلَيْهِ فإنهُ يَأْتِى ولَم تَبْعَث إليه رُسُولا

فكان ذكره للناقة والرحيل عليها مُنَاقَضَةً ظاهرةً قبيحةً فى أبيات متصل بعضها ببعض .

* * *

وقال البحترى :

تَطْلُبُ الأَكْثَرَ فى الدُّنْيَا وَقَدْ تَبْلُغُ الحَاجَةَ فيها بالأَقَلْ[1]

وقال :

أَسِيفٌ إِذَا أَسْفَفْتُ أَدْنُوا لِمَطْمَعٍ خَفٍ ، وأَرَانِى مُثْرِيًا يَوْمَ أَقْنَعُ[2]

إِذَا شِئْتَ حَازَ الحَظَّ دُونَكَ وَاهِنٌ وَنَازَعَكَ الأَقْسَامَ عَبْدٌ مُجَدَّعُ

(١) ديوان البحترى ٣٣٢ « نطلب . . . نبلغ » .

(٢) ديوانه ٣٠٥ ، ٢/١٢٦٨ دار المعارف « أسف إذا . . حين أقنع » .

أَجِدَّكَ مَا المَكْرُوهُ إِلَّا ارتقَابُهُ وأَبْرَحُ مِمَّا حَل مَا يُتَوَقَّعُ

وقَدْ تَتَنَاهَى الأُسْدُ مِنْ دُونِ صَيْدِهَا شِبَاعًا، وتَغْشَى صَيْدَهَا وهْى جُوَّعُ[1]

قوله: «أَسِيف إذا أَسْفَفْتُ». يقال: أَسَاف الرَّجل يُسيف: إذا ذَهَبَ مالُه.

يقول: إنه[2] يفتقر إذا دنا لمطمع، ويستغنى إذا قنع.

وقوله: «وقد تَتَنَاهَى الأُسْدُ مِنْ دُونِ صَيْدِها شِبَاعًا». يمدح القناعة، وأن مِنْ سبيل الإنسان إذا وَجَدَ البُلْغَةَ اكتفى إلى أن يحتاج.

وقال:

خَلِّى سُعَادُ غُرُوضَ العِيسِ أَوْ سِيرِى وأَنْجِدِى فى الْتِمَاسِ الحَظِّ أَوْغُورِى[3]

كلُّ الذى نَتَرجَّاهُ ونَأْمُلُهُ مُضَمَّنٌ فى ضَرُورَاتِ المَقَادِيرِ

فَمَا يُقَرِّب تَقْدِيمِى شَوَاسِعَها ولا يُبَاعِدُ مَا أَدْنَيْنَ تَأْخِيرِى

تَغْدُو الكِلَابُ ولا فَضْلٌ يُعَدُّ لَهَا سِوَى الذى بَانَ مِنْ نَقْصِ الخَنَازِيرِ

* * *

وقال أبو تمام:

مَا يَخْسِمُ العَقْلُ والدنيا تُسَاسُ بِهِ مَا يَخْسِمُ الصَّبْرُ فى الأَحْدَاثِ والنُّوبِ[4]

الصَّبْرُ كَاسٍ وبَطْنُ الكَفِّ عَارِيَةٌ والعَقْلُ عَارٍ إِذَا لم يُكْسَ بالنَّشَبِ

كَمْ ذُقْتُ فى الدَّهْرِ مِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسُرٍ وفى بَنِى الدَّهْرِ مِنْ رَأْسٍ ومِنْ ذَنَب

---

(١) م «ويغشى».

(٢) م «إنه لم يفتقر».

(٣) ديوان البحترى ٢ / ١٠٢٦.

(٤) ديوان أبى تمام ٤٧٠ وفى م «يساس لها».

بِأَىٍّ وَخْدِ قِلَاصٍ وَاجْتِنَابِ فَلَا إِدْرَاكُ رِزْقٍ إِذَا مَالَجَّ فى الهَرَبِ[1]

ذكر أنه لا يَحْسِم العقلُ ما يَحْسِم الصَّبْرُ . والصبر على شدّة الزمان وأحداثه لا يكاد يقع إلا بالعقل ، وكل الأخلاق الشريفة فبالعقل تكون .

وقوله : « الصَّبْرُ كاسٍ وبَطْنُ الكَفِّ عَارِيَةٌ » ـ من حماقاته فى الطباق يريد أن الصبر مجانِبٌ لخلو اليد ، وأنا ضد الفقر والعُدْمِ ؛ لأن الفقر والعُدْم لا يكون معهما صبر ،[2] فجعل كاسياً من أجل ذكر بطن الكف بالعرى ، ثم جعل العقل أيضًا عاريًا إذا لم يكن مَكْسوًّا بالنَّشَبِ ، وكسوة الصبر والعقل استعارة تتجاوز كُلَّ فحش.

وأعجب من هذا ذوقه الرأس والذنب فى بنى الدهر . وما علمنا أحدًا ذاق ذنب غيره ولا رأسه[3].

وأراد بالذَّوْقِ الاخْتِبَار ، واستعمله فى أقبح موضع وأشنعه .

ولا خفاء بفضل البحترى فى هذا الباب على أبى تمام .

---

(١) فى الديوان « إذا ما كان فى الهرب » .

(٢) لقد ضل الآمدى عن الصواب فى تأويل البيت ، ولم يرد أبو تمام أن الصبر مجانب لخلو اليد وأنه ضد الفقر والعدم فلا يكون معهما ؛ بل أراد أن الصبر نافع فى حالة الفقر وساتر لصاحبه . وآية ذلك أنه قال فى البيت السابق : إن الصبر يحسم فى أحداث الزمان ونوبه ما لا يحسم العقل الذى تساس به الدنيا .

(٣) لم يذهب أبو تمام إلى هذا المعنى السخيف الذى ذهب إليه الآمدى ؛ وإنما ذهب إلى ما تنطق به ألفاظ بيته : من أنه ذاق من حلو العيش ومره ما ذاق ؛ واختبر بنى الزمان طرا ، الرؤساء منهم وغير الرؤساء ، وهم الذين عبر عنهم بالأذناب . ولم يخرج أبو تمام فى تعبيره هذا عن سنن العرب فى كلامها ، فهم يضعون عبارات طرق العلم فى موضع العلم . ويقولون : ذقت الشىء بمعنى علمته وخبرته . وشممت رائحة الفضل من فلان : أى علمته ، ووزنت بنى فلان فأحليت ما ذقت من نجدتهم . أى ما بلوته واختبرته. ويقول : ذقت القوس أى نزعت فيها لأختبر لينها من شدتها ، كما قال الشماخ .

فذاق فأعطته من اللين جانبـا كفى ولها أن يفرق النبل حاجـز

وقال ابن مقبل :

يهززن للمشى أوصـالا منعمة هز الشمال ضحى عيدان يبرينا

أو كاهـتزاز رديني تذاوقه أيدى التجار فزادوا متنه لينا

ويقول بشار :

* إذا كان ذواقا أخوك من الهوى *

ذم ذوى الغنى على البخل، وذكر مساعدة الدهر لذوى الجهل وتحامله على أهل الفضل والعقل

قال أبو تمام :

مَضَى الأَمْلَاكُ وَانْقَرَضُوا، وَأَمْسَى ... سُرَاةُ مُلُوكِنَا وَهُمُ تِجارُ[١]
وقوفًا فى ظِلَالِ الذَّمِّ تُحْمَى ... دَرَاهِمُهم ولا يُحْمَى الذِّمَارُ[٢]
فَلَوْ ذَهَبَتْ سِنَاتُ الدَّهْرِ عَنْهُ ... وأَلقَى عَنْ مَنَاكِبِهِ الدِّثَارُ
لَعَدَّلَ قِسْمَةَ الأَرْزَاقِ فِينَا ... ولكنْ دَهْرُنَا هَذَا حِمَارُ

قوله : «وأَلقَى عَنْ مَنَاكِبِهِ الدِّثَارُ» — لفظ ردىء، وليس من المعنى الذى قصده فى شىء. وصدر البيت لائق بالمعنى فلو كان أتبعه بما يكون فى معناه بأن يقول : فلو ذهبت سنات الدهر عنه، واستيقظ من رقدته، أو انتبه من نومته، أو انكشف الغطاء عن وجهه — لكان المعنى يمضى مستقيمًا. وقد ذكرته فيما مضى من أغاليطه مشروحًا[٣].

وقال : — وهو من إحسانه المشهور — :

سَأُوطِئُ أَهْلَ العَسْكَرِ اليَوْمَ عَسْكَرًا ... من الذنب مَحّاءً لِتِلْكَ المَعَالِمِ[٤]
وَمَالِىَ مِنْ ذَنْبٍ إلى الدَّهْرِ خِلْتُهُ ... سِوَى أَمَلِى إِيَّاكُمُ لِلْعَظَائِمِ[٥]
وإنِّى مَا حُورِفْتُ فى طَلَبِ الغِنَى ... ولَكِنَّكُمْ حُورِفْتُمُ فى المَكَارِمِ

(١) ديوان البحترى ١٤١ وشرح التبريزى ٢/١٥٤ «وأمست».
(٢) فيهما «وقوف . . . . دراهمها».
(٣) راجع الجزء الأول ص ٢٢٣.
(٤) ديوان أبى تمام ٢٩٠ وشرح التبريزى ٣ / ٢١٩ ويروى : «من الذل» و «من الذم».
(٥) فى الديوان وشرحه «إلى الرزق».

ومن جيد معانيه فى هذا النحو قوله :

إنْ شِئْتَ أنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّهُ   فَأَجِلْهُ فى هذا السَّوَادِ الأَعْظَمِ[١]

وقال :

يَنَالُ الفَتَى مِنْ عَيْشِهِ وهْوَ جَاهِلٌ   ويُكْدِى الفَتَى فى دَهْرِهِ وهْوَ عَالِمُ[٢]

ولَوْكَانَت الأَقْسَامُ تَجْرِى عَلَى الحِجَا   هَلَكْنَ إذنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهَائِمُ[٣]

وهذا معنى ما على صحته وحسنه مِنْ مَزِيد .

وقال :

وما القَفْرُ بالبِيدِ القوَاءِ بل التى   نَبَتْ بِى وفِيهَا سَاكِنُوهَاهى القَفْرُ[٤]

ومَنْ قَامَرَ الأَيَّامَ عَنْ ثَمَرَاتِهَا   فَأَحْجِ بِها أنْ تَنْجَلِى وَلَهَا القَمْرُ[٥]

وهذا أيضًا جيد بالغ ، ومن إحسانه المشهور . ثم وصله بأن قال :

فإنْ كَانَ ذَنْبِى أنَّ أَحْسَنَ مَطْلَبِى   أَسَاءَ فَفِى سُوءِ القَضَاءِ لِىَ العُذْرُ

قَضَاءُ الذى مَا زَالَ فى يَدِهِ الغِنَى   ثَنَى غَرْبَ آمَالِى وفى يَدِى الفَقْرُ

رَضِيتُ وهَلْ أَرْضَى إذَا كَانَ مُسْخِطِى   من الأَمْرِ مَا فِيه رِضَا مَنْ لَهُ الأَمْرُ

وأَشْجَيْتُ آمَالِى بِصَبْرٍ حَلَوْنَ لِى   عَوَاقِبُهُ ، والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ صَبْرُ[٦]

---

(١) ديوان أبى تمام ٣١٢ وشرح التبريزى ٣ / ٢٤٩ .

(٢) ديوانه ٢٨٦ وشرح التبريزى ٣ / ١٧٨ .

(٣) ويروى « ولو كانت الأرزاق » .

(٤) ديوانه ٤٧٥ « بالبيد القفار » .

(٥) م « به أن » .

(٦) فى الديوان « فأشجيت أيامى » .

قوله : «فإنْ كَانَ ذَنْبِي أَنَّ أَحْسَنَ مَطْلَبِي أَسَاءَ». يريد شخوصه إلى مصر ؛ لأنها كانت عنده أحسن مطالبه فأخفق فيها ، فذمّها بأن قال :

وما القَفْرُ بالبِيدِ القَوَاء بَلِ التى نَبَتْ بِى وفيها سَاكِنُوهَا هِى القَفْرُ

وقوله : «رَضِيتُ وَهَلْ أَرْضَى» – من أغاليطه وإحالاته فى المعانى . وإنما كان ينبغى أن يقول : «رضيتُ وكيف لا أرضى» . وقوم يحتجون بأنه[1] قال : رضيت وقد أرضى . على ما فسر به قول الله عز وجل : «هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» بأن قالوا معناه : قد أتى على الإنسان .

وقد ذهب إلى هذا قوم فى «قَد» إذا وليت الفعل الماضى ، أما إذا وليت المستقبل فإنها تكون بمعنى «ربما» وتخرج عن هذا التأويل .

وأكثر أهل العربية ، وجميع أهل اللغة يقولون : المعنى : أَلَمْ يأت على الإنسان . بمعنى التقرير والتوبيخ . ويدفعون أن تكون «هل» بمعنى «قد» ؛ لأن ذلك لم يأتِ فى كلام العرب .

وقد بيّنت هذا فى «الجزء» الذى جمعت فيه أغاليط أبى تمام من هذا الكتاب[2].

وقال :

وحَادِثَاتٌ أَعاجِيبٌ خَسًا وَزَكَا ما الدَّهْرُ فى فِعْلِهَا إلَّا أَبُو العَجَبِ[3]
يَمْلِكْنَ قَوْدَ الكُمَاةِ المُعْلمينَ لَهَا ويَسْتَقِدْنَ لِفُرْسَانِ على القَصَبِ[4]

الخَسَا : الفَرْد ، والزَّكَا : الزَّوْج . وفُرْسَانُ القصب : يعنى الصبيان .

---

(١) م «بأن قال» .

(٢) راجع الجزء الأول ص ٢٠١ . ٢٠٥ .

(٣) ديوان أبى تمام ٤٧٠ «فى فعله» .

(٤) فى الديوان «يغلبن قوم . . بها» .

وهذه ألفاظ فى غاية الخُلُوقَة والسَّخافَة . ولو قال : ويستقدن لأهل الجبن والرعب ، أو الرهب — كان أحسن وتعمَّل[١] :

وقال فيها :

فى كلِّ يَوْمٍ صَوَاقِيرِى مُفَلَّلَةٌ تَسْتَنْبِطُ الصُّفْرَ لِى مِنْ مَعْدِنِ الذَّهَبِ[٢]
مَا كُنْتُ كالسَّائِلِ الأَيَّامَ مُجْتَهِدًا عَنْ لَيْلَةِ القَدْرِ فى شَعْبَانَ أَوْ رَجَبِ

أى ما التمست إلا من حيث يجب الالتماس ، ولكنى خِبْت .

بَلْ سَافِعٌ بِنَوَاصِى الأَمْرِ مُشْتَمِلٌ عَلَى قَوَاصِيهِ فى بَدْئِى وفى عَقِبِى[٣]
بِغُرْبَةٍ كَاغْتِرابِ الْجُودِ إنْ بَرَقَتْ بِأَوْبَةٍ وَدَقَتْ بالخُلف والكَذِبِ
إذا عَمَدْتُ لِشَأْوٍ خِلْتُ أَنِّى قَدْ أَدْرَكْتُهُ — أَدْرَكَتْنِى حِرْفَةُ العَرَبِ[٤]

قوله : « سَافِعٌ بِنَوَاصِى الأَمْرِ » — من قوله : جلّ اسمه : « لَنَسْفَعًا بالنَّاصِيَةِ » والسَّفْعُ بالشىء هو أن يؤْخذ ويُجْذَبَ جذبًا فيه عنف .

وكان ينبغى أن يقول : بنواصى الحزم أو العزم . فأما الأمر فإنه[٥] . . .

وقوله :

بِغُرْبَةٍ كَاغْتِرَابِ الجُودِ إنْ بَرَقَتْ بِأَوْبَةٍ وَدَقَتْ بالخُلْفِ والكَذِبِ

فشبه غيابه بغيبة[٦] الجود الذى يقال يقدم ولا يقدم ، يؤكد بهذا عدم الجود ، وأنه كلَّما طمِعَ فيه من أحد كان بعيدًا كالغائب الذى يقال : يقدم ثم لا يقدم .

---

(١) م « ويعمل » .

(٢) ديوان أبى تمام ٤٧١ « يوم أظافيرى . . تستنبط الصبر » والصواقير: المعاول . والصقر : النحاس .

(٣) م « شافع » والديوان « فى بدءِ وفى عقب » .

(٤) فى الديوان : « إذا عنيت لشأو قلت . . حرفة الأدب » .

(٥) كذا بالأصل .

(٦) م « عياته بعيبة » .

وَدَقَتْ : من الوَدْقِ ، وهو قَطْرُ المطر .

يقول هذا وهو قد قدم[١] من غيباته إلا أنه جعل نفسه كمن لم يقدم ؛ لأنه قدم بالخيبة ؛ فلذلك قال بعد هذا :

ما آبَ مَنْ آبَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ولَمْ يَغِبْ طَالِبٌ لِلنُّجْحِ لَمْ يَخِبِ

وهذا تعسف ، والخَرَسُ أحسنُ منه .

وقوله : « إنْ بَرَقَتْ بأَوْبَةٍ » يعنى الغيبة . واستعارة البرق لا تحسن إلا باستعارة[٢] السحاب معه . وكان الجيد أن يقول : بَرَقَتْ سحابُها بأَوْبَة ، لو استقام له .

وقوله : « أَدْرَكَتْنى حِرْفَةُ العَرَبِ » ــ معنى ما قاله غيره ، ولا جعل أحدٌ العَرَب مُحَارَفِينَ سواه . ودليل [عدم] حرفَتهم ما هو إلا أنَّهم قهروا الأُمَمَ حتى صار المُلْكُ فيهم ، وهم على تلك العِزَّة الجاهلية إلى هذا الوقت .

وما زال الناس ينكرون هذا المعنى عليه ويعيبونه . ولو كان قال : « حرفة الأَدب » كان أولى بالصواب ، وبما يستعمله الناس ، ولأنه أديب غير مدفوع ، وليس فى القصيدة أيضًا [ذكر] للأَدب.

وقد رواه قوم « الأَدب » إنكارًا لذكر العرب هاهنا . وغَيْرُه فى عِدَّةٍ من النسخِ القديمة. والذى فى نسخة « أبى سعيد السكرى » ، و «أبى العلاء ، محمد ابن العلاء » وغيرهما : « العرب » .

وإنما ذاك لشدة عشقه بالعربية ، وأن يقال طائى .

---

(١) م « قد تقدم » .

(٢) م « بالاستعارة » .

وقد أنكره عليه ابنُ عمَّار وغيره . وهذا دليل على أنه ما قال إلا « حرفة العرب » .

* * *

وقال البحترى :

أَوْجَلَتْنِي بَعْدَ أَمْنٍ غِرَّتِي وَٱغْتِرَارُ الأَمْنِ يَسْتَدْعِي الوَجَلْ[1]
لَمْ أَوَهِّمْ نعْمَتِي تَغْدِرُ بِي غَدْرَةَ الظِّلِّ سجَا ثُمَّ ٱنْتَقَلْ
زَمَنٌ تَلْعَبُ بِي أَحْدَاثُهُ لَعِبَ النَّكْبَاءِ بالرُّمْحِ الخَطِلْ[2]
وأَرى العُدْمَ – فَلَا تَحْفَلْ بِهِ – عُقْبَةً تُقْضَى ، وكَلْمًا يَنْدَمِلْ
أَكْبَرَتْ نَفْسى – وقِدْمًا أَكْبَرَتْ أَنْ تُلَقَّى النَّيْلَ مِنْ كفِّ الأَشَلْ[3]
ومِنَ المَعْرُوفِ مُرٌّ مَقِرٌ يَلْفِظُ الطَّاعِمُ مِنْهُ مَا أَكَلْ[4]
نَطْلُبُ الأَكْثَرَ فى الدُّنيا وَقَدْ نَبْلُغُ الحاجةَ فيها بالأَقَلْ[5]

وهذا من إحسان أبي عبادة المتداول .

وقال :

تَغَاضَى رِجَالٌ عَنِ المَكْرُمَاتِ وقَدْ مثَّلَتْ نُصْبَ أَعْيَانِهَا[6]
ولم تَلْتَفِت لِوُجُوبِ الحُقُوقِ وَوَاجِبُها خَلْفَ آذَانِهَا
فَتَحْتُ يَدِى ثَانِيَ العِطْفِ عَنْ كَذُوبِ المَوَدَّةِ خَوَّانِهَا
وقَدْ عَلِمَتْ خلَّتِي أَنَّنِي أُفَارِقُها عِنْدَ هِجْرَانِهَا

---

(١) ديوان البحترى ٣٣٢ ، ١٧١٦ .
(٢) الخطل : السريع . وانظر اللسان ١٣ / ٢٢١ – ٢٢٢ .
(٣) فى الديوان : « وكرها أكبرت » .
(٤) م « منه وأكل » !
(٥) سبق فى ص ٢٥٠ .
(٦) ديوان البحترى ٥٩٩ « تعامى رجال » .

وقال :

وعَيَّرتْنِى سِجَالَ الْعُدْمِ جَاهِلَةً ... والنَّبْعُ عُرْيَانُ مَا فِى فَرْعِهِ ثَمَرُ[١]

وَمَا الفَقِيرُ الذى عَيَّرْتِ آوِنَةً ... بلِ الزَّمانُ إلى الأَحْرَارِ يَفْتَقِرُ[٢]

عزَّى عَنِ الحَظِّ أَنَّ العَجْزَ يُدْرِكُهُ ... وَهَوَّنَ العُسْرَ عِلْمِى فى مَنِ اليُسُرُ

لَمْ تَبْقَ مِنْ جُلِّ هَذَا النَّاسِ بَاقِيةٌ ... يَنَالُهَا الوَهْمُ إلَّا هذه الصُّوَرُ[٣]

جَهْلٌ ، وبخْلٌ وحَسْبُ المَجْدِ وَاحِدةٌ ... مِنْ تَيْنِ حَتَّى يُعَفَّى خَلْفَهُ الأَثَرُ[٤]

إذَا مَحاسِنِىَ اللَّاتِى أُدِلُّ بِهَا ... كَانَتْ ذُنُوبِى فَقُلْ لِى كَيْفَ أَعْتَذِرُ

عَلَىَّ نَحْتَ القَوافِى مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَىَّ إذَا لَمْ تَفْهَم البَقَرُ[٥]

ذكر « على بن يَحْيى المُنجِّم » عن شيوخه أن هذا البيت للمخَيِّم[٦] الرَّاسِبِى ، أحد الشعراءِ فى دولة الرشيد ، وكانَ صحب محمد مَنْصُور بن زِياد فكسب معه مالا عظيمًا ، ثم صحب محمد بنِ يحيي بن خالد البَرْمكِي بعد موت ابن منصور[٧] فلم يحمده فهجاه .

وأخذُ بيت بأسره قبيح لأَبى عبادة ، ومثله لا يضطر إلى هذا .

وقد كان « على بن يحيى » انحرف عن[٨] البحترى لأَن البحترى هجاه بأمر المتوكل بأبيات ليس مثلها يضر ، ولكنه ذكر صورته فقال :

---

(١) ديوان البحترى ٦٧٣ ، ٢ / ٩٥٤ دار المعارف .

(٢) فى الديوان « مفتقر » .

(٣) فى الديوان : « ينالها الفهم » .

(٤) وفيه « وحسب المرء » .

(٥) وفيه : « من مقاطعها وما على لهم أن تفهم » والبيت مع سابقه فى أخبار أبى تمام ٥٠ — ٥١

(٦) م « للمختّم » .

(٧) م « ابن متثور » !

(٨) م « أعرف من البحترى » !

كُلُّ ، أَخْلَاق عَلِيِّ تَرْتَضِيها وتُذُمُّهُ[١]
هُو قِرْدٌ حِين يبْدُو غير أَنَّا لَا نَكُمُّهْ
مُقْلَتَاهُ وحِجاجا هُ وشِدْقَاهُ وخَطْمُهْ

فضحك المتوكل حتى استلقى. وبلغ على بن يحيى فعاب[٢] هذا على البحترى لما حدث بينهما من التباعد.

إلا أنى لم أرهم ينكرون استعارة البيت الذى يجرى مجرى المثل إذا جاء موضعه. إلا أن ذلك يكون فى شوارد الأمثال التى لا يكاد يعرف قائلوها.

وقال :

أَضِيعُ فى مَعْشَرٍ ، وكَمْ بَلَدٍ يُعَدُّ عُوْدُ الكِبَاءِ مِنْ حطَبِهْ[٣]
لن يَنْصُرَ المَجْدَ حقَّ نُصْرَتِهِ إِلَّا المَكِينُ المكانِ مِنْ رُتَبِهْ[٤]
يُخْدَعُ عَنْ عِرْضِهِ البخيلُ وَلَا يُخْدَعُ وهْو الغَنِىُّ عَنْ نَشَبِهْ[٥]
أَوْثَقُ مَنْ يُصْطَفَى عُرَاهُ وإِنْ حَلَّ بَعِيدًا مَنْ حَلَّ فى حَسَبِهْ[٦]
لا يَصْرِمُ المُحْدَثُ الكَهَامُ ولَوْ أَخْلَصَهُ الهَالِكِىُّ مِنْ جَرَبِهْ[٧]
نَنْسَى أَيَادِى الزَّمَانِ فِينَا فَمَا نَذْكُرُ مِنْ دهْرِنَا سِوَى نُوَبِهْ

---

(١) ديوان البحترى ٤ / ٢١٠٦ : « نجتويها ونذمه » .
(٢) م « يحى دمعاً هذا » .
(٣) ديوانه ٣٠٢ ، ١ / ٢٤٢ دار المعارف .
(٤) م « لم ينصر المجد حين » .
(٥) م « الغنى » .
(٦) فى الديوان « بعيداً واراك فى حسبه » ، « بعيداً شرواك فى حسبه » .
(٧) « من حربه » .
وفى اللسان ١٢ / ٣٩٨ « والهالكى : الحداد ، وقيل . الصيقل . قال ابن الكلبى : أول من عمل الحديد من العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة ، وكان حداداً نسب إليه الحداد ، فقيل : الهالكى » .

وقال :

أَيذْهَبُ هَذَا الدَّهْرُ لَمْ يَرَ مَوْضِعِى ولَمْ يَدْرِ مَا مِقْدَارُ حَلِّى ولَا عَقْدِى[١]

ويَكْسُدُ مِثْلِى وهْوَ تَاجِرُ سُؤْدَدٍ يَبِيعُ ثَمِينَاتِ المكَارِمِ والحَمْدِ[٢]

سوائِرِ شِعْرٌ جَامِعٍ بَدَدَ العُلَى تعَلَّقْنَ مَنْ قَبْلِى، وأَتْعَبْنَ مَنْ بعْدِى

يُقَدِّرُ فيها صانِعٌ مُتَعَمِّلٌ لأَحْكامِها تَقْدِير دَاودَ فى السَّرْدِ[٣]

خيلَىَّ لَوْ فى المَرْخِ أَقْدَحُ إِذْ أَبَى رِجَالٌ مُوَاتَاتِى، إِذَنْ لَخَبَا زَنْدِى[٤]

وَمَا عارَضَتْنِى كُدْيَةٌ دُونَ مَدْحِهِمْ فَكَيْفَ أَرَنِى دُونَ مَعْروفِهِمْ أُكْدِى

أَأَضْرِبُ أَكْبَادَ المَطَايَا إِليهِمُ مُطَالَبَةً مِنِّى وحَاجَاتُهُمْ عِنْدِى ؟

وهذا صِدْقُ أَبى عبادة عن نفسه ، وما كان له بد من أن ينفث ، وما قال قولا هو أصدق من هذا .

وقال :

ومَا جَهِلْتَ فَلَا تَجْهَلْ مُحَاجَزَتِى لِصَاحِبِ البابِ يَرْمِى عَنْهُ صَاحِبُهُ[٥]

الأَرْضُ أَوْسَعُ مِنْ دَارٍ أُلِظُّ بِها والناسُ أَكْثَرُ مِنْ خِلٍّ أُحَارِبُهُ[٦]

أُعَاتِبُ المَرْءَ فيما جاءَ واحِدَةً ثم السلامُ علَيْهِ لا أُعاتِبُهُ

---

(١) ديوان البحترى ١٨٢ ، ٢ / ٧٤٧ دار المعارف .

(٢) فى الديوان « والمجد » .

(٣) سقط هذا البيت من طبعة بيروت .

(٤) المرخ : شجر كثير الورى سريعه ، كما فى اللسان ٢٢/٣ وفى م « ذا الورى » .

(٥) ديوانه ٧٨٧ ، ١ / ٢٢٦ .

(٦) فى الديوان « دار ألط بها . . . أكثر . . أجاذبه » . وألظ بها : أقيم ، كما فى اللسان ٩ / ٣٤٠ .

وَلَوْ أَخَفْتُ لَئِيمَ القَوْمِ جَنَّبَنِى أَذَاتَهُ ، وَصَدِيقُ الكَلْبِ ضَارِبُهُ
وَلَنْ تُعينَ آمْرأً يَوْمًا وَسَائِلُهُ ما لَمْ تُعِنْهُ عَلَى حُرٍّ ضَرَائِبُهُ[1]

وقال :

لَنَا فى كُلِّ يومٍ أَصْدِقَاءُ تَعُودُ عِدًا ، وحالَاتٌ تَحُولُ[2]
وقَدْ تَعْفُو الظُّنُونُ بِمَنْ يُرجَّى فَتُخْلِفُ مِثْلَ ما تَعْفُو الطُّلُولُ
ومَا فُقِدَ الجَمِيلُ لِقُرْبِ عَهْدٍ فَنَسْأَلَ عَنْهُ ، بَلْ نُسِىَ الجَمِيلُ
وَيَلْؤُمُ سائِلُ البُخَلَاءِ حِرْصًا وإِسْفَافًا كَمَا لَؤُمَ البَخِيلُ[3]

وقال :

لَمْ أَلْقَ مَقْدُورًا عَلَى آسْتِحْقَاقِهِ فى الحَظِّ إمَّا ناقصًا أَوْ زَائِدَا[4]
وَعجِبْتُ لِلْمَحْدُودِ يُحْرَمُ نَاصِبًا كَلِفًا ، ولِلْمجْدُودِ يَغْنَمُ قَاعِدَا
وتَفَاوُتُ الأَرْزَاقِ فِيمَا بيْنَهُمْ لَا يَأْتَلِينَ نَوَازِلًا وَصَوَاعِدَا
ما خَطبُ مَنْ حُرِمَ الإرادةَ وادِعًا خَطْبُ الذى حُرِمَ الإِرَادَةَ جَاهِدَا[5]

وهذا كله فى غاية الجودة والحسن والصحة والبراعة والحلاوة .

* * *

فأقول فى الموازنة بينهما : إنهما[6] أحسنا جميعاً فى هذا الباب وأجادا ، وأجعلهما متكافئين مع ما فيه لأبى تمام من الإساءة .

---

(١) فى الديوان « إن لم تعنه » هنا وقد سها الناسخ فأعاد هنا كتابة تعليق الآمدى على الأبيات السابقة .

(٢) ديوانه ٣٠١ « فى كل دهر » .

(٣) م « وإشفاقاً » .

(٤) ديوانه ٦٤٦ ، ٢ / ٨٢١ دار المعارف .

(٥) م « خطت الذى » !

(٦) م « أيهما » .

ما قالاه فى طلب الرزق والنهوض إليه

قال أبو تمام :

سَيَبْتَعِثُ الرِّكَابَ وراكِبِيها فَتًى كالسَّيْفِ هَجْعَتُهُ غِرَارُ[١]

أَطَلَّ عَلَى كُلَى الآفاقِ حَتَّى كَأَنَّ الأَرْضَ فى عَيْنَيْهِ دَارُ[٢]

غِرار : قليل . وهذا البيت حسن جدًّا ، ولو كان فى مدح خليفة ضبط الدنيا ، وأحسن سياستها ، ومراعاة كل ناحية منها ـ كان أحسن وأليق .

وإنما سرق المعنى من قول منصور النَّمَرى يمدح الرشيد :

وعَيْنٌ مُحِيطٌ بالبَرِيَّةِ طَرْفُها سَوَاء عَلَيْهِ قربها وبعيدها

وقال :

سَلِى هلْ عَمَرْتُ القَفْرَ وهْوَ سَبَاسِبٌ وغَادَرْتُ رَبْعِي مِنْ رِكَابِى سَبَاسِبَا[٣]

تَغَرَّبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ وشَرَّقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ المَغَارِبَا[٤]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٤١ وفى شرح التبريزى ٢ / ١٥٥ عن المعرى « هذا معنى لطيف ، وهو نحو من التورية ، لأنه ذكر السيف ، ثم ذكر الغرار ، وهو يريد به النوم القليل ، والسيف له غرار . فهذا المعنى الذى قصده الطائى » .

(٢) م « على طلى » وقال المعرى– فيما نقل التبريزى –: « كلى : جمع كلية ، واستعارها للآفاق ؛ لأن من اطلع على كلية الشىء فقد خبره ، إذ كانت الكلية لا تكون إلا فى الباطن » .

(٣) ديوانه ١٧ وشرح التبريزى ١/١٤٧ « والركاب : الإبل المركوبة . والسباسب : القفر من الأرض . يقول : غمرت القفر بسفرى ، وصار منزلى كالقفر لتركى له » . وفى م « وهى » .

(٤) فى التبريزى « وغربت » .

خُطُوبٌ إِذَا لَاقَيْتُهُنَّ رَدَدْنَنِي   جَرِيحًا كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الكَتَائِبَا[١]

وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّوائِبِ أَصْبَحَتْ   خَلَائِقُهُ طُرًّا عَلَيْهِ نَوائِبَا

وَقَدْ يَكْهَمُ السَّيْفُ المُسَمَّى مَنِيَّةً   وَقَدْ يَرْجِعُ المَرْءُ المُظَفَّرُ خَائِبَا

فَآفَةُ ذَا أَنْ لَا يُصَادِفَ صَارِمًا   وآفَةُ ذَا أَنْ لَا يُصَادِفَ ضَارِبَا[٢]

قوله : « فآفةُ ذَا أن لا يُصَادِفَ صَارماً » – ليس بالجيد ؛ لأَن الشجاع المظفر قد يقطع السيف الكَهَامُ فى يده ، ألا ترى إلى قول البحترى :

وَمَا السَّيْفُ إلا بزٌّ غَادٍ لِزِينَةٍ   إذَا لَمْ يَكُنْ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ حَامِلُهُ[٣]

وكان الأَجود له أن يقول : فآفة ذا أَن لا يصادف مَغْنمًا ، أَو مَضْرَبًا . يعنى المرء المظفر . وآفةُ ذَا أن لا يصادف ضَارِبًا . يعنى السيف ؛ لأَنه قد جعل آفته فى أن صَارَ كَهَامًا (أى) أنه لم يجد ضاربًا يضرب به . ولم يذهب إلى نحو قول الفَرَزْدَق :

كَذَاكَ سُيُوفُ الهِنْدِ تَنْبو ظُباتُها   وتَقْطَعُ أَحْيَانًا مَنَاطَ القَلَائِدِ[٤]

لأَن هذا معنى آخر .

* * *

وقال أبو تمام :

وأُخْرَى لَحَتْنِى حِينَ لَمْ أُتْبِع الهوى   قِيَادِى ، ولم يَنْقُضْ زَمَاعِىَ نَاقِضُ[٥]

أَرَادَاتْ بِأَنْ يَحْوِى الرَّغِيبَاتِ وَادِعٌ   وهَلْ يَفْرِسُ اللَّيْثُ الطُّلَى وهْوَ رَابِضُ

وهذا بيت الباب كله ، فإنه لا يمر فيه أجود منه ، ولا أليق ، ولا أحسن .

---

(١) ويروى : « لقيت كتائبا » .

(٢) راجع روايات البيت فى شرح التبريزى وهامشه ١ / ١٤٨ .

(٣) ديوانه ٥٢ وفى م « إلا ابن غاد » .

(٤) ديوانه ١٨٦ « و يقطعن أحياناً نياط » .

(٥) ديوانه ١٨٣ وشرح التبريزى ٢/٢٩٦ « لم أمنع الهوى » .

وعلى أنه معنى مأخوذ من مَثَلٍ للأسد : قيل له : لم أنت غليظ الرقبة ؟ فقال :لا أَلزَمُ خِدْرِى وأتكل فى فريستى على غيرى .

وقد سمعت فيه شعرًا أيضًا منظومًا ، ولكن أبا تمام أحسن العبارة عن المعنى جدًّا .

* * *

وقال :

إنَّ خيْرًا [مِمَّا] رَأَيْتُ مِنَ الصَّفْـ ح عن النَّائِبَاتِ والإِغْمَاضِ :[1]

غُرْبَةٌ تَقْتَدِى بِغُرْبَةِ قَيْسِ بْـ نِ زُهَيرٍ والحارِثِ بن مُضَاضِ

غَرَضَى نَكْبَتَينِ مَافتَلَا رَأْ يًا فَخَافَا عَلَيْهِ نَكْثَ انْتِقَاضِ[2]

مَنْ أَبَنَّ الْبُيُوتَ أَصْبَحَ فى ثَوْ بٍ مِنَ العَيْشِ لَيْسَ بالفَضْفَاضِ

والْفَتَى مَنْ تَعَرَّفَتهُ اللَّيَالِى والفَيَافِى كالحَيَّةِ النَّضْنَاضِ[3]

صَلَتَانٌ أَعْدَاوُهُ حَيْثُ حَلُّوا فى حَدِيثٍ مِنْ ذِكْرِهِ مُسْتَفَاضِ[4]

كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِى فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ البَرَّاضِ

أَبَنَّ البُيُوتَ : أقام بها ولَزِمَها . والفَضْفَاض : الواسع . والحيَّةُ النَّضْنَاضُ : هو الخفيف الكثير الحركة .

وقد عيب عليه قوله : «مُستَفَاض» ، وقالوا : إنما هو مستفيض ، وقيل : إنه أراد مستفاض فيه ، وليس ذلك بشىء[5] .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٨٧ وشرح التبريزى ٢ / ٣٠٩ .

(٢) ويروى «غرضاً» .

(٣) تعرفته الليالى : أخذت ما عليه من اللحم ، وهم يثنون على الهزال إذا كان فى طلب المجد والسمو ويذمون السمن . كما فى شرح التبريزى ٢ / ٣١١ .

(٤) فى التبريزى «من عزمه» وصلتان : ماض فى أمره .

(٥) نقل التبريزى عن المعرى : «وأهل اللغة يزعمون أن الصواب أن يقال : حديث مستفيض ، والقياس لا يمنع أن يقال : مستفاض ، وهو من فيض الماء ، فإذا قيل : مستفيض فمعناه منتشر ، وإذا قيل مستفاض فمعناه منشور» .

وقد قاله البحترى أيضًا فى قصيدته التى على هذا الوزن :

أَفْرَطَتْ لَوْثَةُ ابْنِ أَيُّوبَ والشَّا ئِعُ مِنْ ذِكْرِ أَفْنِهِ المُسْتَفَاضِ[1]

وقد نطق بها غير واحد من المتأخرين . وهى رديئة .

وذكرها «الطِّرماحُ» على غير هذا الوجه ، فقال يصف حمار وحش :

ويظل المَلِيءُ يُوفِى عَلَى القَرْ نِ عَذُوبًا كالحُرْضَةِ المُسْتَفَاضِ[2]

القرن : الجبل . عَذُوبًا : رافعًا رأسه لا يذوق شيئًا .

شبهه بالحُرْضَةِ ، وهو رجلٌ يجىءُ به أَصحابُ الميسر ، رَذْلٌ من الرجال ساقط ، ويشدُّون عينَه ، ويدفعون إليه القِدَاحَ فيفيض بها لهم ، فقيل له : المُسْتَفَاض ؛ لأَنه جعله مفيضًا . والإفاضة بالقداح هى أَن يدفعها دفعة واحدة من الرِّبَابَة إلى قُدَّام ، فيخرج من مَخْرَجها الضيق قَدَحٌ واحد ، ويقوم الرقيب فيأْخذه ، وينظر : فإن كان لا حظ له ردّه إلى الرِّبَابَة ، و [قال] للحُرْضَة : أَعِدْ الجَلْجَلَةَ والإفاضة ، وإن كان السهم من ذوات الحظوظ دفعه إلى صاحبه وقال له : اعتزل . فإن كان الفَذُّ أَخذ نصيبًا واحدًا وهو عُشْرُ الجزور ، وإن كان غيره أَخذ على قدر أَنصبائه .

ولقيس بن زهير ، والحارث بن مُضَاض [فى] اغترابهما حديث ، وكذلك لِلْبَرَّاضِ فى فَتَكَتِهِ . وأنا أذكر جميع ذلك بعد الفراغ من [هذا][3] الباب بإذن الله .

* * *

(١) ديوان البحترى ٣٩٢ « من أفن رأيه » .

(٢) اللسان ٨ / ٤٠٤ والمعانى الكبير ٣ / ١١٤٩ والميسر والقداح ١٢٩ وجمهرة أشعار العرب ١٩١ « الملء : القادر » وفى م « علوقاً » .

(٣) م « الفراغ بابا من الباب » .

وقال أبو تمام :

أَعاذِلَتَا : مَا أَخْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا وأَخْشَنُ مِنْهُ فى المُلِمَّاتِ رَاكِبُهْ[١]

دَعِينِى وأَهْوَالَ الزَّمَانِ أُعَانِها فَأَهْوَالُهُ العُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهْ[٢]

أَلَمْ تعْلَمِى أَنَّ الزَّمَاعَ عَلَى السُّرَى أَخُوالنُّجْحِ عِنْدَ النَّائِبَاتِ وصَاحِبُهْ ؟![٣]

دَعِينى عَلَى أَخْلَاقِىَ الصُّمِّ الَّتِى هِىَ الوَفْرُ ، أَوْ سِربٌ تُرِنُّ نَوادِبُهْ[٤]

فإِنَّ الحُسَامَ الهُنْدُوَانِىَّ إِنَّمَا خُشُونَتُهُ مَالَمْ تُفَلَّلْ مَضَارِبُهْ

وقَلْقَلَ نَأْىٌ مِنْ خُرَاسَان جَأْشَهَا فَقُلْتُ اطْمَئِنِّى أَنْضرُ الرَّوْضِ عَازِبُهْ[٥]

ورَكْبٍ كَأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا عَلَى مِثْلِها ، واللَّيْلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهْ

لِأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ ولَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهْ

وحَسْبُك بهذا كلِّه جودةً وحسنًا .

وهذا البيت الأَخير إنما أخذ معناه من قول الشاعر ، وأنشده فى الحماسة :

فكانَ عَلَى الفَتَى الإِقدامُ فيها ولَيْسَ عَلَيهِ مَا جَنَت المَنُونُ[٦]

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٣ وشرح التبريزى ١ / ٢٢٤ .

(٢) أعانها : أقاسها .

(٣) فى شرح التبريزى : « الزماع : المضاء على الأمر . يقول : ألم تعلمى أن من باشر الأسفار وترك الخفض وابتذل نفسه — أنجح ونال الطلبة ؟ »

(٤) م « اخلاق الضمر التى » ويروى « الصمل » أى الشديدة : والوفر : المال . يقول : دعينى أرتحل . فإما أن أتمول وإما أن يقوم علىّ سرب نساء يندبن .

(٥) يقول : « أحزنها بعدى إلى خرسان ، فقلت اسكنى فإن الروض أنضره ما بعد ولم يكن قريباً فينال » .

(٦) سبق تخريجه فى الجزء الأول ص ٢١ .

وقال [أبو تمام] وسبيله أن يقدم فى أول الباب ؛ لأنه من إحسانه المشهور :

وَلِكنَّنِي لَمْ أَحْوِ وَفْرًا مُجمعًا فَفُزْتُ بِهِ إلَّا بِشَمْلٍ مُبدّدِ[1]

ولَمْ تُعْطِنِي الأَيَّامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا أَلَذُّ بِهِ إلَّا بنَوْمٍ مُشَرَّدِ

وطُولُ مَقَامِ المرءِ فى الحىِّ مُخْلِقٌ لِدِيبَاجَتَيْهِ فاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

فإنِّى رأَيتُ الشمس زِيدَتْ مَلَاحَةً إلى النَّاسِ أنْ لَيْسَت عَلَيهِمْ بِسَرْمدِ

قوله : «لَمْ أَحْوِ وَفْرًا مُجَمَّعًا ... إلا بشمل مبدد» يريد أنه لم يَحْوِ ذلك إلا فى الغُرْبَةِ معَ مفارقة وطنه وأحبابه ، وأنه لم ينم نوماً ساكنًا إلا بعد نوم مشرّد فى الأسفار . وهذا مبنى على قول عُرْوَةَ بن الوَرْد :

* ولم تدر أَنّى لِلمقام أطوّف *[2]

وقوله : «فإنى رأيت الشمس» ... مَسْرُوقٌ من قول الكُمَيْت :

* ولَوْ لَمْ تَغِبْ شَمْسُ النَّهَارِ لَمُلَّتِ *

وقال أبو تمام :

هُنَّ البَجَارِىُّ [أ] يا بُجَيْرُ أَهْدَى لَهَا الأَبْؤُسَ الغُوَيْرُ[3]

يَوْمُ مَقَامٍ عَلَى وفَازٍ وسائِرَ الدَّهْرِ فيه سَيْرُ

فى ثُبَةٍ إن سِرْنَ جنٌّ أو يَمَّمُوا شُقَّةً فَطَيْرُ

قَدْ ضُجَّ مِنْ فِعْلِهِم جَدِيل بِنَسْلِهِ وَاشْتَكَى غُرَيْرُ

هَذَا عُبَيْدٌ ، وَذَا زِيَادٌ وذَا لبيدٌ ، وذَا زُهَيْرُ

يَا لَكَ مِنْ هِمَّةٍ وعَزْمٍ لو أنه فى عَصَاكَ سَيْرُ

---

(١) ديوان أبى تمام ١٠٠ وشرح التبريزى ٢ / ٢٣ .

(٢) الكامل ١ / ١٧٣ وعيون الأخبار ١ / ٢٣٤ والصناعتين ٢٢٠ وصدره : «تقول سليمى : لو أقمت بأرضنا» .

(٣) سبق فى الجزء الأول ص ٢٥ .

رُبَّ قليل جدًّا كثيرٌ كَمْ مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ
صَبْرًا عَلَى النَّائِبَاتِ صَبْرًا ما صنَع اللهُ فهو خَيْرُ

فهذه معان مستقيمة صحيحة ، ونسج جيد ، ولفظ حسن إلا قوله : « هُنَّ البَجَارِىُّ يا بُجَيْرُ » ، فإنه لفظ متعسف مستكره . والبجارى : جمع بُجْرِيَّة وهو ما يمر بالإنسان[1] من البُجرِ والمَصَائِب . من قوله عليه السلام : « أَشْكُو إلى الله عُجَرِى وبُجَرِى » فالبُجَرُ : جمع بُجْرة .

ثم قال : « أَهْدَى لها الأَبْؤُسَ الغُوَيْرُ » . وهذا هو المثل : « عَسى الغُوَيْر أَبْؤُسا »[2] .

يقول : جاءها البؤس من حيث لم تعلم أن هناك بؤسًا .[3] والبَجَارِىُّ هى البؤس أنفسها . فكان ينبغى أن يقول : أهدى لى الأَبؤُس الغوير ، لا أهدى لها .

وإن كان أراد أهدى لها يعنى نفسه ، ولم يجر لها ذكر فهو ردىء .

* * *

وقال البحترى :

وأَحَبُّ آفَاقِ البِلَادِ إلى الفَتَى أَرْضٌ [ينال] بها كَرِيمَ المَطْلبِ[4]
كَمْ مَشْرِقٍ قَدْ نَقَلْتُ نَوَالَهُ فجعلْتُه لِى عُدَّةً فى المَغْرِبِ

---

(١) م « ما يمر الإنسان من البحرى » .
(٢) مجمع الأمثال ٣ / ١٧ وجمهرة الأمثال ١٤٣ .
(٣) م « بؤس » .
(٤) ديوان البحترى ١٢٣ ، ١ / ٢٨٣ وفى م « وأحق » .

وقال :

أُمْسِي زَمِيلا لِلظَّلَامِ وأَغْتَدِى ... رِدْفًا عَلَى كَفَلِ الصَّبَاحِ الأَشْهَبِ[(١)]

فَأَكُونُ طَوْرًا مَشْرِقًا لِلْمَشْرِقِ الْـ ... أَقْصَى ، وطَوْرًا مَغْرِبًا لِلْمَغْرِبِ[(٢)]

وإِذَا الزَّمَانُ كَسَاكَ حُلَّةَ مُعْدِمٍ ... فَالْبَسْ لَهَا حُلَلَ النَّوَى وتَغَرَّبِ

ولَقَدْ أَبِيتُ مَعَ الكَوَاكِبِ رَاكِبًا ... أَعْجَازَهَا بِعَزِيمَةٍ كالكَوْكَبِ

واللَّيْلُ فى لَوْنِ الغُرَابِ كَأَنَّهُ ... هُوَ فى حُلُوكَتِهِ وإِنْ لَمْ يَنْعَبِ

حتَّى تَبَدَّى الصُّبْحُ مِنْ جَنَبَاتِهِ ... كالماءِ يَلْمَعُ فى خِلَالِ الطُّحْلُبِ[(٣)]

والعيش تَنْصُلُ مِنْ دُجَاهُ كما انْجَلَى ... صِبْغُ الشَّبَابِ عن القَذَالِ الأَشْيَبِ[(٤)]

وهذا من إحسان أبى عبادة الذى يتقدم على [كل] إحسان فى معناه .

وما قيل فى وضوح الصبح أجود ولا ألطف معنى ، ولا أبرع من قوله : « كالماء يلمع فى خِلال الطحلب » .

وقوله : « فأَكُونُ طَوْرًا مَشْرِقًا للمشرق الأَقْصَى » — أجود من قول أبى تمام :

« تغرَّبت حتَّى لم أجد ذكر مشرق » ؛ لأنه يجوز أن لا يكون سمع[(٥)] أهلَ بلد يذكرون المشرق ، وليسوا جُهَّالًا به .

---

(١) ديوان البحترى ١ / ٦٠١ ، ١ / ٧٩ دار المعارف .

(٢) سبق ص ٢٦٣ .

(٣) فى الديوان « حتى تجلى الصبح فى جنباته . . من وراء الطحلب » وفى م « فى ظلال الطحلب » .

(٤) فى الديوان « والعين تنصل » .

(٥) م « يسمع » .

وقوله : «حتى قد نسيتُ المَغَارِبَا » . يجوز أن ينساها فلا يذكرها ، وأن ينسى أباه فلا يذكره ، وليس ماله بروى[١] ، لأن غرضه فيه معروف ، ولكن قول البحترى أجود .

وقال البحترى :

أُشَرِّقُ أَمْ أُغَرِّبُ يَا سَعِيدُ ... وَأَنْقُص مِنْ زَمَامِى أَمْ أَزِيدُ[٢]

عَدَتْنِى عَنْ نَصِيبِينَ العَوَادِى ... فَحَظِّى أَبْلَهٌ فيها بَلِيدُ[٣]

أَرَى الحِرْمَانَ أَبْعَدُهُ قَرِيبٌ ... بها ، والنُّجْحَ أَقْرَبُهُ بَعِيدُ

تَقَاذَفُ بِى بِلَادٌ عَنْ بِلَادٍ ... كأَنِّى بَيْنَهَا خَبَرٌ شَرُودُ[٤]

قوله : «خبرٌ شَرُود » — معنى غريب طريف .

وقال :

وإنَّ اغْتِرَابَ المَرْءِ فى غَيْرِ بُغْيَةٍ ... يُطَالِبُها مِنْ حَيْفِ دَهْرٍ يُطَالِبُهْ[٥]

فَلَيْسَ بِمَعْذُورٍ إِذَا رُدَّ سِرْبُهُ ... عَلَيْهِ بِأَنْ تَعْيَا عَلَيْهِ مَذَاهِبُهْ

ويُعْطِيه مُرْجُوٌّ العَوَاقِبِ مُسْرِعًا ... إليه ركوبُ الأَمْرِ تُخْشَى عَوَاقِبُهْ

أُرجِّى وَمَا نَفْعُ الرَّجَاءِ إذا الْتَقَتْ ... مَنَاحِسُ أَمْرٍ مُجْحِفٍ ومَعَاطِبُهْ

ومِمَّا يُعَنِّى النَّفْسَ كُلَّ عَنَائِهَا ... تَوَقُّعُهَا الصُّنْعَ البَعِيد تَقَارُبُهْ[٦]

وهذا البيت يصلح أن يكون فى باب الصبر والقناعة ، ومعناه من أتقن المعانى وأحسنها .

---

(١) كذا بالأصل ولعلها « وليس ما قاله بردىء » .

(٢) ديوان البحترى ٤١٤ ، ١ / ٥٨٠ وسبق الأول ص ٢٣٤ .

(٣) فى الديوان « فقلبى أبله » ، « فنجحى أبله » .

(٤) وفيه « جمل شرود » .

(٥) ديوانه ٥٨٨ ، ١ / ٢١٩ .

(٦) فى الديوان « الصنع البطىء » .

وقال :

عَسَت الإِضافَةُ أَنْ تَنَـــالَ بِهَا سَعَةً ونَكَّلَ ضارباً شِبَعُهْ[١]
والفَسْلُ تَسْلُبُهُ عَزِيمَتَهُ أَدْنَى وُجُودِ كِفَايَةٍ تَسَعُهْ
لا يَلْبَثُ المَمْنُوعُ تَطْلُبُهُ حتَّى يَثُوبَ إِلَيْكَ مُمْتَنِعُهْ
والنَّيْلُ دَيْنٌ تَسْتَرِقُّ به فارْتَدْ لِرِقِّكَ عِنْدَ مَنْ تَضَعُهْ[٢]

قوله : « نَكَّل ضَارِبًا شِبَعُه » . أى أَقْعَدَهُ حتى نَكلَ عن المطلب .

* * *

وقال :

أَسِيرُ إِذْ كُنْتُ فى طولِ المَقَامِ بِهَا أَكْدِى لَعَلِّى أُجْدِى عِنْدَ مُرْتَحلِي[٣]
ورُبَّمَا حُرِمَ الغَازُونَ غُنْمَهُمُ فى الْغَزْو ، ثُمَّ أَصَابُوا الغُنْمَ فى قَفَلِ[٤]
شَرِّقْ وغَرِّبْ فَعَهْدُ العَاهِدِينَ لِمَا . طالَبْتَ فى ذَمَلَانِ الأَيْنُقِ الذُّمُلِ[٥]
ولا تَقُلْ أُمَمٌ شَتَّى ولا نَسَقٌ فالأَرْضُ مِنْ تُرْبَةٍ ، والنَّاسُ مِنْ رَجُلِ[٦]

قوله : « ولا تَقُل أُمَمٌ شَتَّى ولا نَسَقٌ » . أى لا يَصُدنَّك عن السفر أن تقول : كيف أُلاقى أُمَمًا متفرقين مُتَباعِدِين ، غير مُقْتَرِنين ، ولا مُتَّسِقِين ، وأترك أهلى وبلدى ؛ فإن تربة الأَرض واحدة ، والناس أبناءُ رجل واحد .

وصدر هذا البيت ردىء ، وعجزه فى غاية الحسن والبراعة .

* * *

---

(١) سقط هذا البيت من الديوان ص ٢٣٧ . وهو فى طبعة مصر ٢ / ٨٣ .

(٢) فى طبعتى الديوان « فاطلب لرقك » .

(٣) ديوان البحترى ٢٢٧ .

(٤) فى الديوان « فى القفل » .

(٥) فى الديوان « بما طاليت » .

(٦) م « شتى ولا فرق » .

ولولا أَن محاسن أَبى تمام فى هذا الباب هى أَبياته الأَربعة والجميع من معانيها مَسْروقة – لفضّلته على البحترى إلا فى بيت الطحلب فإِنَّه معنى ما علمتُ أَحدًا سَبَق إليه ، ولا قيل فى وضوح الصبح أَبرع منه . فأَجعلهما متكافئين .

ومما* ذكرا فيه سُرَى الإبل

قال أبو تمام :

لَا تُذِيلَنْ صَغِيرَ هَمِّكَ وانظُرْ كَمْ بِذِى الأَثْلِ دَوْحَة مِنْ قَضِيبِ(١)
رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السُّرَى وغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ ، ونَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ
فاسْأَلِ العِيسَ مَا لَدَيْها وأَلْطِفْ بَيْنَ أَشْبَاحِهَا وبَيْنَ السُّهُوبِ(٢)

وقال :

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِى إِذَا مَا قَطَفْنَ بِهِ إِلى خُلُقٍ وَسَاعِ(٣)
يُثِير عَجَاجَةً فى كلِّ ثَغْـرٍ يَهِيمُ بِهَا عَدِىُّ بنُ الرِّقَاعِ
أَبَنَّ مَعَ السِّبَاعِ الماءَ [حَتَّى] لَخَالَتْهُ السِّبَاعُ مِنَ السِّباعِ
فَلَبَّ الحزْمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَومًا بأَنْ تَسْطِيعَ غَيْرَ المُسْتَطَاعِ(٤)
فَلَمْ تَرْحَلْ كَنَاجِيَةِ المَهَارِى ولم تُرْكِبْ هُمُومَكَ كالزِّمَاعِ

قوله : « قَطَفْنَ » أى أبطأْ فى الانصراف والانكشاف عنه ، وتثاقلن فى المضى ، مأْخوذ من قولهم : دابَّة قَطُوفٌ ، وهو الذى يقصِّر خطوه فيبطئُ ذهابه .

---

* م « وما » .

(١) ديوان أبى تمام ٣٦ وشرح التبريزى ١ / ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) ويروى : « بين أشخاصها » .

(٣) ديوانه ١٩٣ وشرح التبريزى ٢ / ٣٣٦ ويروى « أطفن » يقول : « هو صاحب النكبات والشدائد يرتكبها و يأوى إلى خلق واسع إذا ضيقن من مذاهبه وأحطن به » .

(٤) م « فليت الحزم » وفى شرح التبريزى « ويروى : فلب العزم ، يقول : إنه أردت أن تقدر على مالا يقدر عليه ، فأوجب عزمك واتبعه ولا تخالفه ، فإن العزم يؤديك إلى النجح . . . وقال المرزوقى .. معنى البيت : أجب الحزم وعليك به فيما تطلبه من المهمات . فإن الحزم يعين على كل شىء حتى على مالا يتأتى ولا يسهل » .

يقول : فإنه مع هذه الحال يأوى إلى خلق واسع ، وصبر على المِحَنِ حتى تنكشف.

وقوله : «يُثِيرُ عَجَاجَةً فى كلِّ ثَغْرٍ». أى يطأ كل بلدة مَخُوفَةٍ ، وتثير مطيتُه غبارَ كلِّ بقعة . ونسب العجاجة إلى عَدِىّ بن الرِّقَاع لأن عَدِيا وصف العَيْرَ والأَتَانَ وما يُثِيرانِه من الغبَار فى السهل من الأَرض ، فإذا صارا إلى الحَزْن لم يوجد لها فيه نَقْعٌ ، فشبَّهه بمُلاءةٍ يَنْشُرَانِها مَرَّةً ،ويَطْوِيَانِها أُخْرى فقال :

يَتَعَاوَرَانِ مِنَ الغُبَارِ مُلَاءَةً سَوْدَاءَ دَاجِيةً هُمَا نَسَجَاهَا[1]

تُطْوَى إذا عَلَوَا مكانًا نَاشِزًا وإذَا السَّنَابِكَ أَسْهَلَتْ نَشَراها

وهذا من تشبيهات العرب الموصوفة. فجعل أبو تمام عَدِيًّا ممن هام بهذه العجاجة ، أتى بوصفها إعجابًا بها ، وأن ناقته أيضًا تُثِير عجاجةً فى كل ناحية كهذه العجاجة .

وهذا تمحل منه لمعنى غير لائق بما هو بسبيله من ذِكْرِ سَيْرِه ؛ لأنه إن كان أراد أنه أيضًا يثير النَّقْعَ فى السهل ، ولا يثيره فى الحَزْن فكلُّ سائر فيهما هذه حَالُه ، فما وجه ذِكْرِهِ عجاجةَ عدىّ ، وإنما حسُن من عَدىّ وصحَّ التشبيه لأن الحِمَارَ إذا طلب الأَتَانَ فليس يَجْرِيَانِ على استقامة بل تراهما بَيْنَا هُمَا فى الحَزْن صَارَا إلى السَّهْل ، ثم يعودان إلى الحَزْن ، فتراهما مُسْهِلَيْن ومُحْزِنَيْنِ لِجَوَلَانِهِمَا ، فترى عجاجتهما تَثُور حِينًا ، وتَلْبَدُ حينًا ، فصح التشبيه وحسن. والمسافر إنما يَمُرُّ على سنن واحد فليس يكاد يخرج من سهل إلى حزن ، ومن حزن إلى سهل فى وقت واحد تدركه

(١) الطرائف ٩٦ وأمالى المرتضى ١٠٣/١ ونقد الشعر ٤٢ ومعجم الشعراء ٢٥٣ وفى م ونشرهما .

منه العيون فيكون الغبار مشبهًا لملاءة تنشر وتطوى . وإنما يقع ذلك فى أوقات متراخية يسقط معها هذا المعنى .

* * *

وقال أبو تمام :

وَرَكْبٍ يُساقُونَ الرِّكابَ زُجَاجَةً مِنَ السَّيْرِ لَمْ تقْصِدْ لَهَا كَفُّ قَاطِبِ[1]

فَقَدْ أَكَلَتْ مِنْهَا الغَوَارِبُ بالسُّرى وَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كالغَوَارِبِ[2]

يَرَى بالكَعَابِ الرُّودِ طلْعَةَ ثَائِرٍ وبالعِرْمِسِ الوَجْنَاءِ غُرَّةَ آيِبِ[3]

كأَنَّ بِهِ ضِغْنًا عَلَى كُلِّ جَانِبٍ مِنَ الأَرْضِ ، أَوْ شَوْقًا إلى كُلِّ جَانِبِ

قوله : « لم تقصد لها كف قاطب » . أى سَيْرًا لا يلين ولا يَفْتُر ، كما تُقْطَبُ الرَّاحُ أَن تُمْزَج وتُكْسَر بالماءِ وتلين .

وقال :

فَاطْلُبْ هُدُوءًا بِالتَّقَلْقُلِ وَاسْتَثِرْ بالعِيسِ مِنْ تَحْتِ السُّهَادِ هُجُودَا[4]

مِنْ كُلِّ مُعْطِيَةٍ عَلَى عَلَلِ السُّرَى وَخْدًا يَبِيتُ النومُ مِنْهُ شَرِيدَا[5]

---

(١) ديوان أبى تمام ٤١ وفى شرح التبريزى ١ / ٢٠٩ عن الصولى : « أى يسكرون المطى بالتعب فكأنهم سقوها زجاجة ، أى شراباً فى زجاجة ، وقاطب : أى مازج . أى ليست هى على الحقيقة زجاجة فيها شراب يناولها الساقى صاحبه بقصد » .

(٢) فى الديوان وشرحه «فقد أكلوا ، يقول : أتعبوها حتى ذابت أسنمتها ، وصاروا لها كالأسنة فوقها » .

(٣) نقل التبريزى عن الصولى قوله : « هذا الرجل من حبه للسفر فى طلب العلى . إذا رأى الكاعب الحسناء فكأنما يرى طلعة ثائر قد جاء ليثأر منه ، لبغضه الكاعب وحبه للسفر ، إلى أن يبلغ مراده و ينال حاجته . و يرى بالعرمس . وهى الناقة الصلبة — من حبه لها طلعة قادم عليه ، حتى يبلغ إلى أبى دلف هذا الممدوح . . . » .

(٤) ديوانه ٨٨ وشرح التبريزى ١ / ٤١٦ « بالعيس : أى بركوب العيس . ومن تحت السهاد : أى من تحت الصبر على السهاد . أى اطلب بالحركة فى الأسفار سكوناً ودعة فيما بعد ، و بالأرق نوماً » .

(٥) فى شرح التبريزى : « علل السرى : يعنى إسراء بعد إسراء ، أخذه من علل الشرب . ومن روى على علل السرى — بكسر العين — أى ما يحدثه السرى من هزالها وغير ذلك » .

يَخْدِى بِمُنْصَلِتٍ يَظَلُّ إذَا وَنَى ضُرَبَاؤُهُ حِلْسًا لَهَا وقُتُودَا(١)
جعَل الدُّجَى جَمَلًا وودَّعَ رَاضِيًا بالهُونِ يَتَّخِذُ القُعُودَ قَعُودَا(٢)

وقال :

ورَأَيْتَ ضَيْفَ الهَمِّ لا يَرْضَى قِرًى إلَّا مُدَاخَلَةَ القِفَارِ دِلَاثَا(٣)
شَجْعَاءَ جِرَّتُها الذَّمِيلُ تَلُوكُهُ أُصُلًا إذَا رَاحَ المَطِىُّ غِرَاثَا(٤)
أُجُدًا إذَا دَنَت المَهَارِى أَرْقَلَتْ رَقَلًا كَتَحْرِيقِ الغضا حَثْحَاثَا(٥)

مُدَاخَلَةُ القَفَار : مُوَثَّقَةُ الخَلْق .

والدِّلَاثُ : السريعة ، والمُنْدَلِثُ : المسرع ، يقال : انْدَلَثَ انْدِلَاثا .

و «شَجْعَاءُ جِرَّتُهَا الذَّميلُ»(٦) مثل ، أى إذا اجْتَرَّتْ الإبلُ العلف من بطونها ولَاكَتْهُ فليس لهذه الناقة جرّة [إلا الذميل] وهو ضرب من السير

---

(١) المنصلت : الماضى فى الأمر . وضرباؤه : نظراؤه يقول : هذا الرجل قد ألف ظهور العيس فكأنه قتود لها وهذا مثل قولهم : بنو فلان أحلاس الخيل . وفى م « لمتصلت » .

(٢) نقل التبريزى عن المرزوقى قوله : « والمعنى أنه امتطى الليل وخلف من كان يرضى بالهوان ويلزم بيته ، ولا يسعى فى كسب المال وتحصيله ، بل اتخذ جلوسه قعوداً له ، أى اقتعده ورضى به مركبا » ومن أمثال العرب : اتخذ الليل جملا : أى سرى الليل كله وركبه فى حاجته . راجع اللسان ١٣ / ١٣١ ومجمع الأمثال ١ / ١٣٥ .

(٣) ديوانه ٦٤ وشرح التبريزى ١ / ٣١٧ والفقار : خرز الظهر . والدلاث : الناقة الجريئة على السير .

(٤) قال المرزوقى : « الشجعاء : الطويلة ، وقيل : هى التى بها جنون من نشاطها ، والجرة : ما تخرجه الناقه من جوفها إلى فمها وتجترّ به . والذميل : السير السريع . وتلوكه : تمضغه . والأصل : العشية . والغراث : الجياع . يصف ناقة فيقول : هى نشيطة تجترّ بالذميل إذا جاء الوقت الذى تكل فيه الإبل ، وهو العشية متى سارت النهار كله ، أى تسير سيرا سريعا . وجعل الاجترار مثلا للحوق الكلال وانقطاع القوى والأشر ، يقول : هى تصل السير بالسرى باقيا نشاطها إذا حسرت الإبل وكلت قواها . ويفسره البيت الذى بعده » .

(٥) الأجد : القوية الموثقة الخلق . والإرقال : الإسراع . والغضا : شجر يوقد به ، وهو من أجود الوقود عند العرب . وحثحاثا : سريعاً . وفى م « جثجاثا » وهو تحريف .

(٦) م « والشجعاء وجرتها الذميل » .

كما قال فى وصف الخيل :

* تَعْلِيقُها الإِسْرَاجُ والإِلْجَامُ *[1]

جعل ذلك مكان الشعير فى المَخَالِى إذا عُلِّقَت عليها .

يقول : إذا وَنَت الرِّكَابُ وغَرِثَتْ ، أى احتاجت إلى العَلَف ، فإنَّ هذه الناقة لاقتدارها على السير ، وصَبْرِها على[2] الرَّمَل – تَلُوكُ الذَّمِيلَ كأَنَّه طَعَامُها .

وهذه القطع كلها جياد صحيحة المعانى والأَلفاظ .

* * *

وقال :

سَأَخْرِقُ الخَرْقَ يا بْنِ خَرْقَاءَ كَالْ   هَيْقِ إذَا ما اسْتَجمّ مِنْ نَجَدِهْ[3]

مُقَابَلٍ فى الجَدِيلِ صُلْبِ القَرَا   لُوحِكَ مِنْ عَجْبِهِ إلى كَتَدِهْ

تَامِكِهِ   نَهْدِهِ   مُدَاخَلِهِ   مَلْمُومِهِ   مُحْزَئِلِّهِ   أُجُدِهْ

« ابن خَرْقَاء » : يريد بعيراً .

والهَيْقُ . الظلِيمُ . شُبِّهه [بِه] لنشاطه وسرعته .

والنَّجَدُ : العَرَقُ . أى هو كالهَيْقِ فى هذه الحال التى يُقَدَّرُ فيها فُتُورُهُ .

مُقَابَلٌ : كريم الآباء والأُمهات . فى الجديل : وهو فَحْلٌ كريم .

لُوحِكَ : شُدَّ وَوُثِّقَ . والكَتَدُ : ما يتصِلُ بالحَارِكِ من العُنُق .

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٨١ وصدره « بسواهم لحق الأياطل شزب » .

(٢) م « عن » .

(٣) ديوانه ٩١ وشرح التبريزى ١ / ٤٣٤ .

والتَّامِكُ : المرتفع ، وكذلك النَّهْدُ[1] .

والمَلْمُومُ : الذى قد استوى لحمه وشحمه من سنمه ، ولم يبق له عظم شاخِص.

والمُخزَئِلُّ : المرتفع ، يقال : اخزَألَّ أى ارتفع فى السير .

وهذه معانٍ صحيحة . ولكن النَّسْجَ لا حلاوة له ، ولا طلاوة عليه .

* * *

وقال :

وَإلى جَنَابِ أَبِى الحُسَيْنِ تَشَنَّعَتْ بِزِمَامِهَا كالمُصْعَبِ المَخْطُومِ[2]

جَاءَتْكَ مِنْ مُعْجٍ خَوَانِفَ فى البُرى وعَوَارِفٍ بالمَعْلَمِ المَأْمُومِ

مِنْ كُلِّ نَاجِيَةٍ كَأَنَّ أَدِيمَها حِيصَتْ ظِهَارَتُهُ بِجِلْدِ أَطُومِ

تُثْنِى مِلَاطَيْهَا إِذَا ما ٱستُكْرِهَتْ سَعْدَانَةً كَإِدَارَةِ القُرْزُومِ

طَلَبَتْكَ مِنْ نَسْلِ الجَدِيلِ وشَدْقَمٍ كُومٌ عَقَائِلُ مِنْ عَقَائِلَ كُومِ

يَنْسَيْنَ أَصْوَاتَ الحُدَاةِ ونَبْرَهَا طَرَبًا لأَصْوَاتِ الصَّدَى والبُومِ

فَأَصَبْنَ بَحْرَ نَدَاكَ غَيْرُ مُصَرَّدٍ وِرْدًا ، وأُمَّ نَدَاكَ غيرَ عَقِيمِ

لَمَّا وَرَدْنَ حِيَاضَ سَيْبِكَ طُلَّحًا خَيَّمْنَ ، ثُمَّ شَرِبْنَ شُرْبَ الهِيمِ

قوله : «تَشنَّعتْ» : أى أخذت أُهْبَتَها للسير ، وشمرت ، من قولهم : تَشَنَّعَ الفارسُ ، إذا لبس سلاحَه .

---

(١) م «النهو» وهو تحريف .

(٢) ديوان أبى تمام ٣٠٦ وفى شرح التبريزى ٣ / ٢٦٢ «ويروى : كالبازل المخطوم» يقال تشنعت الناقة . إذا ترفعت فى سيرها . وإذا شبهوا الإناث بالفحول فذلك مبالغة عندهم» .

ومُعُجٌ : جمع مُعْجَة. والمَعْجُ : التَّغَلُّب فى الجَرْى ، يقال : مَرَّ الحمارُ يمْعَجُ مَعْجًا ، إذا جرى فى كلٍّ وجه بسرعة ، وحِمَارٌ مَعَّاج .

والخَوَانِف : جمع خُنُوف ، وهى الناقة التى تضرب بيدها فى السير من نشاطها وفيه بعض المَيْل .

والمَعْلَمُ : الطَّريق . والمأموم : الذى يُؤْتَمّ . عارِفَةً بالطريق الذى يجب أن تَؤُمَّهُ لطول دَأْبِهَا ، وكثرة سيرها فى الطرق المختلفة .

وقوله : «حَبِصَتْ» خِيطَتْ بجلد أَطُوم ، يقال : إن الأَطُومَ : السُّلَحْفَاءُ البحرىّ الذى يجعل من جلده الذَّبْلُ[1] ، ويشبَّه جلد البعير الأملس به . ويقال : الأُطُومُ : سمكة فى البحر غليظة ، وقيل بل هى بقرة يتخذ من جلدها الخِفَافَ للحَمَّالين . قال الشَّمَاخُ يصف ناقة :

وَجِلْدُها مِنْ أَطُومٍ ما يُؤَيِّسُهُ طِلْحٌ كضَاحِيَةِ الصَّيْداءِ مَهْزُولُ[2]

قيل فى تفسيره : الأُطُومُ : سمكة بحرية تُخْصَفُ الخِفَافُ والنِّعَالُ بجلدها .

ويُؤَيِّسُهُ : يُذَلِّلُه ، والتَّايِيسُ : التَّذْلِيلُ .

والطِّلْحُ : والقُرَادُ هاهنا ، والطِّلْحُ : الضئيل المهزول .

والصَّيْدَاءُ : حَصى . والصَّيْدَانُ[3] : حِجَارَةٌ .

وضاحية : ما ضَحَا لِلشَّمْسِ منها وظَهرَ .

وقال الأخفش فى تفسير هذا البيت : الأُطُومُ : طَىُّ البئر بالصخر الأسود ، ويقال : الأطوم : الصَّدَف .

وقوله : «تَنْئى مِلَاطَيْها» أى تُبَاعِدُ بينهما .

ومِلَاطَاهَا : وعَضُدَاها .

---

(١) المراد بالذبل هنا : الأسورة والأمشاط ، راجع اللسان ١٣ / ٢٧٢ .

(٢) ديوان الشماخ ٧٩ « بضاحية الصيداء » وفى اللسان ٤ / ٣٨٥١ « بضاحية » .

(٣) اللسان ٤ / ٢٥١ .

سَعْدَانَة : والسَّعْدَانَةُ من البعير : هى البَلْدَةُ[١] ، أى تباعد بين عضديها كِرْكِرَة[٢] ، أو بَلْدَةٌ مستديرة كإدارة الفُرْزُوم ، وهى الخشبة المُدَوَّرَةُ التى يَحْذُو عليها الحذَّاء[٣] . وذلك محمود فى الإبل أن يتباعد عَضُدُ البَعير من زَوْرِهِ فى السير .

والكُومُ : العِظَامُ الأَسْنِمَةُ ، واحدتها كَوْمَاءُ .

وقوله :

يَنْسَين أَصْوَاتَ الحُدَاةِ [ونَبْرَهَا] طَرَبًا لِأَصْوَاتِ الصدَى والبُومِ[٤]

أى ألفتْ صوت الصَّدى والبوم لكثرة سيرها فى الفيافى ،حتى صارت تطرب لذلك وتَنْسى أصواتَ الحُدَاة .

وهذا من مبالغاته البعيدة الباطلة .

ولو قال : إلفًا لأَصوات الصدى كان أَشبه بالصواب قليلا من الطَّرَب .

وهذه أبيات صالحة على ما فيها من التكلف .

* * *

وقال :

الهَمُّ ، والعِيسُ ، واللَّيْلُ التَّمامُ مَعًا ثَلَاثَة أَبَدًا يُقْرَنَّ فى قَرَنِ[٥]

حَوْبًا حَلًا ، قَاسِمينى الهَمَّ يا ٱبْنَتَهُ فَقَدْ خُلِقْتِ لِغَيْرِ الحَوْضِ والعَطَنِ[٦]

---

(١) البلدة : ثغرة النحر . راجع اللسان ٤ / ٦٣ .

(٢) فى اللسان ٦ / ٤٥٢ « الكركرة : رحى زور البعير والناقة ، وهى إحدى الثفنات الخمس وهى زور البعير الذى إذا برك أصاب الأرض وهى ناتئة عن جسمه كالقرصة ، وجمعها كراكر » .

(٣) اللسان ١٥ / ٣٧٥ .

(٤) م « الصدق والبوم » !

(٥) ديوان أبى تمام ٢٣٤ وشرح التبريزى ٣ / ٣٣٨ .

(٦) فى الديوان وشرحه « أقول للحرة الوجناء لا تهنى فقد » .

قوله : « حَوْبًا حَلا » زَجْرٌ من زَجْرِ الإبل[1] ، كَأَنه زجر ناقته ، وقال لها : قاسميني الهم يا ابنته : يا بنت الهمّ ، سيرى وانطلقى فقد خُلِقْت لغير الحوض والعطن ، أى خُلِقْتِ لقطع الأَسفار لا للإقامة .

ولفظ هذا البيت الأَخير ردىءٌ ، ونَسْجُه قبيح .

وأَخذ البحترى معنى الأَول فقال :

يَا خَلِيلَىَّ بالسَّوَاجِيرِ مِنْ وُدِّ ... نِ مَعْنٍ وبُخْتُرِ بْنِ عَتُودِ[2]

اطْلُبَــا ثَالِثًا سِوَاىَ فإِنِّى ... رَابِعُ الْعِيسِ واللُّجَى والبيدِ

***

وقال البحترى :

بَنَاتُ العِيدِ تَعْتَادُ الفَيَافِى ... إِذَا شِئْنَا اسْتَمَرَّ بها الذَّمِيلُ[3]

وَمَا طَرَفَا زَمَانِ المَرْءِ إِلَّا ... مَقَامٌ يرْتَضِيهِ ، أَوْ رَحِيلُ

وقال :

وإِذَا مَا تَنكَّرَتْ لِى بِلَادٌ ... أَوْ خَلِيلٌ فَإِنَّنِى بالخِيَارِ[4]

وَخَدَانُ القِلَاصِ حَوْلًا إِذَا قَا ... بَلْنَ حَوْلًا مِنْ أَنْجُمِ الأَسْحَارِ

يَتَرَقْرَقْنَ كَالسَّرَابِ وقَدْ خُضْ ... نَ غِمَارًا مِنَ السَّرابِ الجَارِى[5]

كَالقِسِىِّ المُعَطَّفَاتِ بَلِ الأَسْـ ... ـهُمِ مَبْرِيَّةً بَلِ الأَوْتَارِ[6]

وهذا من أَوصاف الإبل إذا أَضمرها السير [وهى] فى غاية الحسن والصحة والحلاوة فى اللفظ والنَّسْج .

---

(١) اللسان ١ / ٢٣٠ .

(٢) ديوان البحترى ٦٩٢ ، ١ / ٦٣٣ دار المعارف .

(٣) ديوانه ٣٠١ .

(٤) ديوانه ٤٤٥ ، ٢ / ٩٨٧ .

(٥) م « يترقرن » .

(٦) م « الأوتاد » .

ومثله فى الجودة والحسن قوله :

وَهِيَ العِيسُ دَهْرَهَا فى ارْتِحَالٍ ... مِنْ حُلُولٍ، أَوْ فُرْقَةٍ مِنْ جَمِيعِ [١]

رُبَّ مَرْتٍ مَرَّتْ تُجَاذِبُ قُطْرَيْهِ ... سَرابًا كالمَنْهَلِ المَشْرُوعِ [٢]

وَسُرًى تَنْتَحِيهِ بالوَخْدِ حَتَّى ... تَصْدَعَ الليلَ عَنْ بَيَاضِ الصَّدِيعِ

كالبُرَى فى البُرَى ويُحْسَبْنَ أَحْيَا ... نًا نُسُوعًا مَجْدُولَةً مِنْ نُسُوعِ [٣]

وقال :

سَوْفَ أُعْطِى السُّلُوَّ والصَّبْرَ ما أَمْـ ... ـنَعُ مِنْ طَارِفِ الهَوَى أَوْ تَلِيدِ [٤]

بالمَهارَى يَلْبَسْن لَوْنًا جديدًا ... مُسْتَفَادًا فى كُلِّ وَقْتٍ جَدِيدِ

فَهْىَ طُول النَّهارِ بِيضٌ وطَول الْـ ... ـلَيْلِ فى أَقْمُصٍ مِنَ اللَّيْلِ سُودِ

طَالِباتٍ فى الغَوْثِ غَيْثًا سَكُوبًا ... وحَمِيدًا فى آلِ عَبْدِ الحَمِيدِ

وهذا كل جيد بالغ ، وعذب حلو ، ومعان لطيفة لائقة .

* * *

وقد أجاد كل واحد منهما وصْفَ إبلِهِ على الطريقة التى قصدها واعتمدها ، وإن كانت معانى البحترى فيما ذهب إليه من الضمر حلوة جدًّا .

* * *

فأقول : إنهما فى الباب متكافئين .

---

(١) ديوان البحترى ٤٢١ ، ٢ / ١٢٧٩ دار المعارف .

(٢) البيت ليس فى ديوانه ، وهو فى طبعة مصر ٢ / ٩١ .

(٣) فى الديوان « فى النسوع » كالبرى جمع برة وهى كل حلقة من سوار وقرط وخلخال وما أشبهها . والبرى : جمع برة وهى الحلقة من صفر أو غيره تجعل فى لحم أنف البعير . والنسوع جمع نسع ، وهى السير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال ، وقال ابن الأثير : هو سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره ، كما فى اللسان ١٠ / ٢٣٠ .

(٤) ديوانه ١ / ٧٦٩ دار المعارف .

* * *

ولأبى تمام فى وصف الإبل أشياءُ رديئة لم أكتبها ، وفيها قصيدة يصف فيها ناقة حج عليها – رديئة جدًّا أولها :

لَعَلَّكَ ذَاكِرُ الطَّلَلِ القديمِ وَمُوفٍ بالعُهود على الرُّسُومِ[١]

له فيها ألفاظ مختلفة ، ومعان من معانى السوق . وقد تقدم فى الباب[٢] قوله :

ورَكْبٍ كأَطرَافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا على مِثْلِهَا والليلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهْ
لأَمْرٍ عليهم أَنْ يَتِمَّ صُدُورُهُ وليس عليهم أَنْ يَتِمَّ عَواقِبُهْ

فى أبيات [ما هى[٣]] من ذلك الباب ، ثم قال بعدها ما هو من هذا الباب فى وصف الإبل . وسبيلها أن تثبت فى هذا الباب فى أوله :

عَلَى كُلِّ مَوَّارِ المِلَاطِ تَهَدَّمَتْ عَرِيكَتُهُ العَلْيَاءُ ، وَانْضَمَّ حَالِبُهْ[٤]
رَعَتْهُ الفَيَافِى بَعْدَمَا كَانَ حِقْبَةً رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ
فَأَضْحَى الفَلَا قَدْ جَدَّ فى بَرْىِ نَحْضِهِ وَكَانَ زَمَانًا قَبْلَ ذَاكَ يُلَاعِبُهْ
فَكَمْ جِزْعِ وَادٍ جَبَّ ذِرْوَةَ غَارِبٍ وِمِنْ قَبْلُ كانَتْ أَتْمَكَتْهُ مَذَانِبُهْ

قوله : «مَوَّارِ المِلَاطِ» فالمِلَاطُ : عَضُدُ البعير . ومَوَّار : يريد حركته فى السير .

وعريكته العلياءُ : يعنى سَنَامه . تَهدَّمت من طول السفر ، وكذا انضم حَالِبه[٥] .

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٢٣ .
(٢) فى باب طلب الرزق ص ٢٦٧ .
(٣) م « فى أبيات هو من » .
(٤) ديوانه ٤٤ وشرح التبريزى ١ / ٢٢٩ .
(٥) م « جانبه » .

وقوله : «يلاعبه» : لفظة ضعيفة المعنى ، وإنما جاء بها من أجل قوله : [جَدٌّ] فى بَرْىِ نَحْضِه ؛ ليطابق بين الجد واللعب.

أى إن الفلا جَدٌّ فى أخذ لَحْمِهِ فى سيرنا هذا السير ، فجعل مكان هذا القول : «وكان زَمَانًا قبل ذاك يُلَاعِبُهْ » على مذهبه فى عشق «الطِّبَاق» الذى لا بُدَّ له من أن يأْتى به وإن حصل المعنى ضعيفًا رَكِيكًا ، ورَبّما كان مُحَالًا .

وقوله : « أَتْمَكَتْهُ » أى أَسْمَنَتْ تَامِكَهُ ، وهو سنامه .

والمَذَانِبُ : مجارى الماءِ ، وهى أَبَدًا مُعْشِبَة .

* * *

ولئن كانا جميعًا أحسنا فى هذا الباب فما وصفا مطيَّهما بالسرعة وصفَ «مسلم بن الوليد» إذ يقول :

إلى الأَمام تَهَادَانا بأَرحلنَا ... خَلْقٌ مِنَ الرِّيحِ فى أَشْباخِ ظُلْمَانِ[1]

كأَنَّ إفلاتَها والفجْرُ يأْخُذُها ... أَفْلَاتُ صَادِرَة عَنْ صَوتِ مِرْنَانِ[2]

تَنْسَاب فى اللَّيل لا تَرْعَى لِهَاجِسَةٍ ... كأَنَّنِى رَاكِبٌ فى رَأْسِ ثُعْبَانِ[3]

---

(١) ديوان مسلم بن الوليد ٧٦ طبع الهند والأول والثانى فى ديوان المعانى ٢ / ١٢٢ وأمالى المرتضى ٩ / ٥٥٤ وجاء فى شرح الديوان يقول : إلى الأمام . يعنى هارون الرشيد — تهادانا بأرحلنا . أى حملنا بأرحلنا . خلق من الريح ، يعنى النوق . فى أشباح ظلمان أى فى أبداء ظلمان ، وهى ذكور النعام . شبه النوق بسرعتها فى السير بالريح . وذكر وثيمة فى كتاب الهدى : أن الإبل خلقها الله من الريح حين خلق الخلائق فى أول الزمان ، والشعراء المولدون قد كثروا من ذلك . والأشباح : الشخوص ، واحدها شبح بفتح الباء» . وفى م «تهادينا بأرجلنا» وانظر ديوانه طبع دار المعارف ١٢٦ .

(٢) م «والبحر يأخذ» وفى الديوان : «صادرة عن قوس حسبان» يقول : كأن إفلات هذه الناقة ، أى انبعاثها فى السير انبعاث ظبية رماها رام فأخطأها ، وقد سمعت وتر القوس وشعرت بالسهم فهى تفر ، شبه ناقته بها فى السرعة . وقوله : عن قوس حسبان ، يقال لضرب من القسى : حسبانية ، منسوبة إلى رجل أو بلد ، وصادرة : راجعة عن الماء . يريد أنها أرادت شرب الماء فأصابت رامياً تعمدها بسهم فأخطأها فنفرت مسرعة » .

(٣) فى الديوان : «ينساب . . لا يرعى» أى لا يرعى سمعه لحركة فى الليل من صوت ، كأنه راكب فى رأس ثعبان ، يصف ، ما هو فيه من مزاولة السير فى الفلاة بالليل » .

وقد أفرط الذى يقول ، وأحسن فى إفْرَاطِه :

مَرُوحٌ بِرِجْلَيْهَا إِذَا هِىَ هَجّرَتْ وَيَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَطِيرَ زِمَامُهَا

وقال « الشماخ » :

* تكادُ تَطِيرُ مِنْ رَأى القَطِيعِ (١) *

وقال « الحُطَيْئَة » :

وإنْ نَظَرَتْ يَوْمًا بِمُؤْخَرِ عَيْنِها إلى عَلَم بالغَوْرِ قُلْتَ لَهُ ٱبْعِد (٢)

---

(١) ديوان الشماخ ٥٩ وصدره : « مروح تغتلى بالبيد حرف » .

(٢) ديوان الحطيئة ٢٣ « فى الغور قالت له » .

باب الشحوب والتغير من الأسفار

قال أبو تمام :

نَظَرَتْ إِلَيْهِ فَمَا اَسْتَتَمَّتْ لَحْظَهَا ... حَتَّى تَمَنَّتْ أَنَّهَا لَمْ تَنْظُرِ[1]

ورأَتْ شُحوبًا رَابَهَا فى وجهه ... مَاذَا يَرِيبُكِ مِنْ جَوَادٍ مُضْمَرِ[2]

غَرَضِ الحَوَادِثِ لا تَزَالُ مُلِمَّةٌ ... تَرْمِيهِ عَنْ شَزْرٍ بِأُمِّ حَبَوْكَرِ[3]

سَدِكَتْ بِهِ الأَقْدَارُ حَتَّى إِنَّهَا ... لتَكَادُ تَفْجَؤُهُ بِمَا لَمْ يُقْدَرِ[4]

وهذا ما لا غاية وراءه فى الحسن والصحة والبراعة .

قوله : «سَدِكَتْ بِهِ الأَقدار» ، أى لَزِمَتْه ، وغَرِيَتْ به .

وقال البحترى نحو هذا البيت الأَخير ولكن على وجه آخر وأحسن وأَجلى ، قال :

وَلَوْ فَاتَنِى المَقْدُورُ مِمَّا أَرُومُهُ ... بِسَعْىٍ لَأَدْرَكْتُ الذى لَمْ يُقَدَّرِ[5]

* * *

وقال أَبو تمام :

نَكِرَتْ فتًى أَلْوَى بِنَضْرَةِ وَجْهِهِ ... وبِمَائِهِ ــ نَكَدُ الخُطُوبِ وَلُومُهَا[6] .

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٩٦ .

(٢) فى الديوان «شحوبا رابها فى جسمه» .

(٣) وفيه : «عن شلق» وأم حبوكر : أعظم الدواهى ، كما فى اللسان ٥ / ٢٣٤ .

(٤) م «سدكت بها» .

(٥) ديوان البحترى ٢١٥ .

(٦) ديوان أبى تمام ٣١٠ وشرح التبريزى ٣ / ٢٧٢ .

لا تُنْكِرِى شِيَمِى فإنى زَائِدِى حَزْمًا حِضَارُ النَّائِبَاتِ وشِيمُهَا[١]
فَلَقَبْلُ أظْهَرَ صَقلُ سَيْفٍ أثْرُهُ فَبَدَا وهَذَّبَتِ القُلُوبُ هُمُومُهَا
والحادِثَاتُ وإنْ أصَابَكَ بُؤْسُها فَهْوَ الذى أنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا

حِضَارُ النَّائِبَات : بِيضُها ، وشِيمُها : سُودُها . يريد أنه يزيد فى حزمه ومعرفته بالأُمور – ما يقاسيه من الخير والشر .

وقال :

لَا يَطْرُدُ الهَمَّ إلَّا الهَمُّ مِنْ رَجُلٍ مُقَلْقِلٍ لِبَنَاتِ القَفْرَةِ النُّعُبِ[٢]
لا تُنْكِرِى مِنْهُ تَخْدِيدًا تَجَلَّلَهُ فَالسَّيْفُ لَايُزْدَرَى إنْ كَانَ ذَاشُطَبِ[٣]

وهذا كله جيد بالغ حسن نادر .

* * *

وقال البحترى :

مَا تُنْكِرُ الحَسْنَاءُ مِنْ مُتَوَغِّلٍ فى اللَّيْلِ يَخْلِطُ أيْنَهُ بِسُهُودِهِ[٤]
قَدْ لَوَّحَتْ مِنْهُ السُّهُوبُ وأثَّرَتْ فى يَمْنَتَيْهِ وعَنْسِهِ وقُتُودِهِ
فَلِفِضَّةِ السَّيْفِ المُحَلَّى حُسْنُهُ مُتَقَلِّدًا ومَضَاؤُهُ لِحَدِيدِهِ

تمّ الباب .

* * *

وهذا ما قلت أذكره فى آخر الباب من حال قيس بن زُهَيْر ، والحارث ابنُ مُضاض ، والبرَّاض .

---

(١) فى الديوان « لاتنكرى همى » وفى م « حزنا » .

(٢) ديوان أبى تمام ١٥ وشرح التبريزى ١ / ١١٥ « الهم الأول : ما يجده الرجل فى صدره مما يوجب رحيله . والهم الثانى : الهمة . مقلقل : من القلقة وهى الحركة العنيفة . وبنات القفر : الإبل ، جعلها بنات القفر لأنها تقطع بها . والنعب : جمع نعوب ، والنعبان : تحريك الناقة رأسها فى السير ، وذلك من النشاط » .

(٣) م « تخديدا تجلله كالسيف » يقال تخدد لحم الرجل : إذا هزل فصارت فيه طرائق ، وأصل ذلك من الخد ، وهو حفر مستطيل فى الأرض . لا يزدرى : لا يحتقر . وشطب السيف : طرائقه التى فيه .

(٤) ديوان البحترى ٦٥٨ ، ٢ / ٦٩٤ والأين : التعب .

فأما قيس بن زُهَير العَبْسى فإن بنى بَدْرٍ الفَزَارِيِّينَ قتلوا أخاه مالكًا فنشبت الحرب بين عَبْسٍ وذُبْيَان ابنى[1] بغيض.

وكان سبب ذلك رِهَانُ دَاحِس والغَبْرَاءُ فقتل قيسٌ حُذَيفَة بن بَدْر وحَمَل ابن بَدْر وغيرهما . ودامت[2] الحرب بينهما دهرًا طويلا حتى كادوا يفنون .

وتشاءمت العرب بقيس ، وكان سيدًا حكيمًا أريبًا حليمًا . فقال : لا أقم ببلاد قَتَلْتُ بها سادات قومى ولم أحلم ، ولم أُقارِب ، ولم أصلح فقال :

تَعَلَّمْ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيْتًا ... عَلَى جفْرِ الهَبَاءَةِ مَا يَرِيمُ[3]
ولَوْلَا ظُلْمُهُ مَا زِلْتُ أَبْكِي ... عَلَيْهِ الدَّهرَ مَا طَلَعَ النُّجُومُ
ولكنَّ الفَتَى حَمَلَ بن بَدْرٍ ... بَغَى ، والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وخيمُ
أَظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمى ... وقد يُسْتَجْهَل الرَّجُل الحَلِيمُ

ثم خرج ضَارِبًا فى البلاد على وجهه مُتَخَلِّيًا من كل أهل ومال ، وصار إلى بعض نواحى عمان فهلك هناك . وله فى هلاكه خبر . فهذه غربة قيس .

* * *

وأما غُرْبَةُ الحارث بن مُضَاض الجُرْهُمىّ فإنه كان سيد جرهم فى زمانه ، وكان إلى قومه حجابة بيت الله الحرام بمكة فغلبتهم عليه خزاعة ، فخرجوا وتفرقوا فى البلاد .

---

(١) م « ابن » والتصويت من العقد الفريد ٥ / ١٥٠ .

(٢) م « فأدامت » .

(٣) فى معجم البلدان لياقوت ٣ / ١١٥ « جفر الهباءة : اسم بئر بأرض الشربة ، قتل بها حذيفه وحمل ابنا بدر الفزاريان ، قال قيس بن زهير وهو قتلهما . ثم ذكر البيت الأول » . وذكر الأبيات فى « الهباءة » ٨ / ٤٤١ وزاد فى آخرها :

ومارست الرجال ومارسونى ... فمعوج على ومستقيم

وفى ذلك يقول الحارث :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إلَى الصَّفَا   أَنِيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ[١]

بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَزَالَنَا   صُرُوفُ الليالى والجُدُودُ العَوَاثِرُ

ويقال : بل قائل هذه الأبيات بَكْر بن غَالِب بن الحَارِث بن مُضَاض .

* * *

فأما فَتكَةُ البَرَّاض ، فهو برَّاضُ بن قَيْس بن رَافِع الكِنَانِى ، أحد بنى مالك بن كنانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلْيَاس. وفتكته كانت بِعُرْوَة[٢] الرَّحَّال بن عتبة بن جعفر بن كِلَاب ، وكانت من أجله وقعة « الفِجَار العُظْمَى »[٣] .

وسبب ذلك أن البَرَّاضَ [و] كان رجلا شريرًا فاتكًا – صار إلى النُّعْمَان بن المُنْذِر . ولما حضر الموسم جهز اللَّطِيمَةَ إلى « سوق عُكَاظ » ، وهى من كُلِّ المَتَاع ، ولا يقال [لها] لطيمة إلا إذا كان فيها مسك وطيب ، فقال النُّعْمَان : مَنْ يُجِيزُها ؟ قال البَرَّاضُ : أنا أَجيزها على قومى بنى كِنَانَة (قال : وعلى العرب أجمعين[٤]) قال البراض : وعلى بنى كنانة . قال نعم ، على العرب والعجم ، وعلى الجن والإنس. فسار فيها عروة ، وأتبعه البراض حتى إذا كان بذى طلال قريبًا من خيبر حَمَلَ عليه فقتله ، وكانت الحَرْب .

---

(١) له فى اللسان ١٦ / ٢٦٤ ولعمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض فى سيرة ابن هشام ١٢٠/١ .

(٢) م « لعروة الرجال بن عمه » .

(٣) العقد الفريد ٥ / ٢٥٣ .

(٤) كذا فى الأصل وفى العقد : « بن كنانة . فقال النعمان : ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة . فقال عروة الرحال . وهو يومئذ رجل هوازن : أكلب خليع يجيرها لك ، أبيت اللعن ؟ أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد وتهامة . فقال البراض : أعلى بنى كنانة تجيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم » .

باب

مضت أنواع النسيب[١] كلها . وهذا باب أرسم فيه[٢] الأبواب التى خرجا فيها من النسيب إلى المديح .

اعلم أنهما جميعًا قد تَعَمَّلَا فى بعض قصائدهما النسيب ، وصلا به النسيب بالمديح ، وأعرضا فى كثير من أشعارهما عن هذا المعنى ، وابتدآ بالمدح منقطعًا عما قبله . وكلا الوجهين قد فعله شعراءُ الجاهلية والإسلام . وكانوا كثيرًا ما يقولون إذا فرغوا من النسيب وأرادوا المدح أو غيره من الأغراض : « فَدَعْ ذَا » . فتجنبها المتأخرون واستقبحوها ، وكذلك قولهم : « فَعدِّ عَنْ ذَا » . وهى عندهم أحسن .

فمما قطعه أبو تمام مما قبله :

هُنَّ الحَمَامُ فإنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً   مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ[٣]

ثم خرج إلى المدح فقال :

اللهُ أَكْبَرُ جَاءَ أَكْبَرُ مَنْ جَرَتْ   فَتَعَثَّرَتْ فى كُنْهِهِ الأَوْهَامُ

وقال :

حَلَّمتْنِى زَعَمْتُمُ ، وَأَرَانِى   قَبْلَ هَذَا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيمَا[٤]

---

(١) فى الأصل الشيب .

(٢) م « فيها » .

(٣) ديوان أبى تمام ٢٧٩ .

(٤) ديوانه ٢٩١ ، وفى م « وزعمتم » ومضى فى ص ١٩٧ .

ثم قال :

مَنْ رَأَى بَارِقًا سُرى صَامِتِيًّا   جَادَ نَجْدًا سُهُولهـــــاوالحُزونَا

وقال :

أَوَمَا رَأَتْ بُرْدَىَّ مِنْ نَسْجِ الصِّبَا   وَرَأَتْ خِضَابَ اللهِ وهْوَ خِضَابِى[١]

ثم قال :

لَا جُودَ فى الأَقْوَامِ يُعْلَمُ مَا خَلَا   جُودًا حَلِيفًا فى بَنِى عَتَّابِ

وقال :

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ فى الشَّيْبِ فَضْلًا   جَاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فى الخُلْدِ شِيبَا[٢]

ثم قال :

كُلَّ يَوْمٍ تُبْدِى صُرُوفُ اللَّيَالِى   خُلُقًا مِنْ أَبِى سَعِيدٍ غَرِيبَا[٣]

وقال :

كَأَنَّ لَهُ دَيْنًا عَلَى كُلِّ مَشْرِقٍ   مِنَ الأَرْضِ،أَوْثَأْرًا لَدَى كُلِّ مَغْرِبِ[٤]

ثم قال :

رَأَيْتُ لِعيَّاشٍ خَلَائِقَ لَمْ تَكُنْ   لِتَكْمُلَ إِلَّا فى اللُّبَابِ المُهَذَّبِ

وقال :

حَلَتْ نُطَفٌ مِنْهَا لِنِكْسٍ ، وذُو الحجا   يُدَافُ لَهُ سُمٌّ مِنَ العَيْشِ مُنْقَعُ[٥]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٩ وشرح التبريزى ١ / ٨٣ .

(٢) ديوانه ٢٦ وشرح التبريزى ١ / ١٦٨ .

(٣) ويروى : « رغيباً » و « عجيباً » .

(٤) ديوانه ٢٤ وشرح التبريزى ١ / ١٥٩ .

(٥) ديوانه ١٩٠ وشرح التبريزى ٢ / ٣٢٥ .

ثم قال :

لَقَدْ آسَفَ الأَعْدَاءَ مَجْدُ ابن يُوسُفٍ   وذُ النَّقْصِ فى الدُّنْيَا بِذِى الفَضْلِ مُولَعُ

وقال :

فَلَمْ تَرْحَلْ كَنَاجِيَةِ المَهَارَى   ولم تُرْكِبْ هُمومَكَ كالزِّمَاعِ (١)

ثم قال :

بِمَهْدِىٍّ بن أَصْرَمَ عَادَ عُودِى   إلى إيراقِهِ ، وَامْتَدَّ بَارِعى

* * *

ومن ذلك قول البحترى :

تَوَهَّمْتُها أَلْوَى بِأَجْفَانِهَا الكَرَى   كَرَى النَّوْمِ ، أَوْمَالَتْ بِأَعْطَافِهَا الخَمْرُ (٢)

ثم قال :

لَعَمْرُكَ ما الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الجَدَا   إذَا بَقِىَ الفَتْحُ بنُ خَاقَانَ والقَطْرُ

وقال :

وَمَنْ يطَّلِعْ شَرَفَ الأَرْبِعِينَ   يُلَاقِ مِنَ الشَّيْبِ زَوْرًا غَرِيبَا (٣)

ثم قال :

بَلَوْنَا ضرَائبَ مَنْ قَد تَرَى   فَمَا إنْ رَأَيْنَا لِفَتْحٍ ضَرِيبَا

وقال :

تَأْبَى رُبَاهُ أَنْ تُجِيبَ ولَمْ يَكُنْ   مُسْتَخْبِرٌ لِيُجِيبَ حَتَّى يَفْهَمَا (٤)

---

(١) ديوان أبي تمام ١٩٣ وشرح التبريزى ٢ / ٣٣٨ وفى م « هموما » .

(٢) ديوان البحترى ٨٦ ، ٢ / ٨٤٤ دار المعارف .

(٣) ديوانه ٩٢ ، ١ / ١٥٠ دار المعارف « يجىء من الشيب . . . » .

(٤) ديوانه ٢٢٩ ، ٣ / ١٩٥٩ .

ثم قال :

للهِ جَارُ بَنِى المُدَبرِ كُلَّمَا ذُكِرَ المَكَارِمُ مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمَا[١]

وقال :

وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلَّيْلِ عِنْدِى جَمِيلَةٍ وللصُّبحِ من خَطْبٍ تُذَمُّ غَوائِلُهْ[٢]

ثم قال :

وَقَدْ قُلْتُ لِلْمُعْلِى إِلَى المَجْدِ طَرْفَهُ دَعِ المَجْدَ فَالفَتْحُ بن خَاقَانَ شَاغِلُهْ[٣]

وقال فى وصف الغيث :

فَصَاغَ مَا صَاغَ مِنْ حَلْى وَمِنْ حُلَلٍ مَا يُمْتِعُ الْعَيْنَ مِنْ وَشْيٍ ودِيبَاجِ[٤]

ثم قال :

إِلَى عَلِيٍّ بَنِى الفَيَّاضِ بَلَّغَنِى سُرَاىَ مِنْ حَيْثُ لا يُسْرَى وإِدْلَاجِى[٥]

وقال :

مَا كَانَ هَجْرُكَ مَكْرُوهًا أُحَاذِرُهُ ولَا وِصَالُكِ مَعْرُوفًا أُرَجِّيهِ[٦]

ثم قال :

بَنُو ثَوَابَةَ أَقْمَارٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَلبَثْ اللَّيْلُ أَنْ يَنْجَابَ دَاجِيهِ

---

(١) فى ديوان البحترى ٤ / ١٩٥٩ « ذكر الأكارم »

(٢) ديوان البحترى ٥٢ ، ٣ / ١٦١٢ « عندى حميدة » .

(٣) فى الديوان ٥٢ « طوقه » .

(٤) ديوانه ٣٨٧ ، ١ / ٤١١ « ما صاغ من تبر ومن ورق وحاك ما حاك » .

(٥) م « لا تسرى » .

(٦) ديوانه ١٧٥ ، ٤٤ / ٢٤٢٣ .

وقال :

أَمِيلُ بِقَلْبِى عَنْكِ ثُمَّ أَرُدُّهُ   وأَعْذُرُ نَفْسِى فِيكِ ثُمَّ أَلُومُهَا[١]

ثم قال :

إِذَا المُهْتَدِى بِاللهِ عُدَّتْ خِلَالُهُ   حَسِبْتَ سَمَاءً كَاثَرتْكَ نُجُومُهَا[٢]

وقال :

وهَلْ هِىَ إِلَّا لَوْعَةٌ مُسْتَسِرَّةٌ   يُذِيبُ الحَشا والْقَلْبَ وَجْدًا غَلِيلُها[٣]

ثم قال :

وَلَوْلَا مَعَالِى أَحْمَدَ بن مُحَمَّدِ   لَأَضْحَتْ دِيَارُ الحَمْدِ وَحْشًا طُلُولُها[٤]

فهذا الجنس من الخروج إلى المدح هو الأعم فى أشعارهما .

* * *

وأما الوجه الذى يجعلون[٥] له سببًا يَصِلُ النسيب بالمدح فعلى معانى شتى :

منها الخروج بذكر وَصْفِ الإبلِ والمَهَامِهِ إلى الممدوح . وهذا المعنى عام كثير فى أشعار الناس .

فمن ذلك قول أبى تمام :

يُصَبِّرُنى إنْ ضِقْتُ ذَرْعًا بحُبِّهِ   وَيَجْزَعُ أَنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ خلاخِلُهْ[٦]

---

(١) ديوان البحترى ١٠٧ ، ٣ / ٢٠٢٣ .

(٢) فى الديوان « مسيت السماء » .

(٣) ديوانه ٣ / ١٧٧٩ طبع المعارف .

(٤) هو أحمد بن محمد بن بسطام المتوفى سنة ٢٩٧ هـ

(٥) م « يجعلوا له » .

(٦) ديوان أبى تمام ٢٣٠ « يمنفنى . . ذرعا بحبه » فى شرح التبريزى ٣ / ٢٤ « ذرعا بنأيه » .

ثم خرج إلى مدح المعتصم فقال :

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ أَتَى عليْهَا المَلَا أَدْمَاثُهُ وَجَرَاوِلُهْ(١)

نَصَرْنَ السُّرى بالوخْدِ فى كُلِّ صَحْصَحٍ وَبِالسُّهْدِ المَوْصُولِ والنَّوْمُ خَاذِلُهْ(٢)

رَوَاحِلُنَا قَدْ بَزَّنَا الهَمُّ أَمْرَهَا إلى أَنْ حَسِبْنَا أَنَّهُنَّ رَوَاحِلُهْ

إِذَا خَلَعَ الليلُ النَّهارَ رَأَيْتَهَا بِإِرْقَالِهَا فى كُلِّ وَجْهٍ تُقَابِلُهْ(٣)

إلى قُطْبِ الدُّنْيَا الذى لَوْ بِمَدْحِهِ مَدَحْتُ بَنِى الدُّنيا كَفتْهُمْ فَضَائِلُهْ

المَلَا – المقصور – : المُتَّسَعُ من الأَرض .

والأَدْمَاث : جمع دَمْث وهى الأَرض اللينة .

والجَرَاول : جمع جَرْوَل ، وهى [الأَرض] الخشنة ذات الحجارة .

ومنه قول أبى تمام أيضًا :

اليومَ يُسْلِيكَ عَنْ طَيْفٍ أَلَمَّ وَعَنْ بِلَى الرُّسُومِ بَلاَءُ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ(٤)

مِنَ القِلَاصِ اللَّواتِى فِى حَقَائِبِهَا بِضَاعَةٌ غَيْرُ مُزْجَاةٍ مِنَ الكَلِمِ

إِذَا بَلَغْنَ أَبَا كُلْثُومٍ اتَّصَلَتْ تِلْكَ المُنَى وأَخَذْنَ الحَاجَ مِنْ أَمَمِ

ومن ذلك قوله :

سَيَبْتَعِثُ الرِّكَابِ وَرَاكِبِيها فَتًى كالسَّيْفِ هَجْعَتُهُ غِرَارُ(٥)

---

(١) فى الديوان وشرحه « أتتك أمير » وفى م « عليها المدى » .

(٢) م « نصرت » .

(٣) قال الصولى فيما نقل التبريزى « يقول : تجد فى السير إذا أقبل الليل كأنها تقابله ؛ لأن سير النهار أحب إليها . و « تقابله » بالباء يدل على أن سير الليل أحب إليها بجدها فى الإرقال » .

(٤) ديوانه ٢٦٨ وشرح التبريزى ٣ / ١٨٦ وفى م : « يسلبك » .

(٥) ديوانه ١٤١ وشرح التبريزى ٢ / ١٥٥ .

أَطَلَّ عَلَى طُلَى الآفَاقِ حَتَّى ... كَأَنَّ الأَرْضَ فى عَيْنَيْه دَارُ[١]

تَؤُمّ أَبَا الحُسَيْنِ وكَانَ قِدْمًا ... فَتًى أَعْمَارُ مَوْعِدِهِ قِصَارُ

وقوله :

وَبِسَاطٍ كَأَنَّمَا الآلُ فِيهِ ... وعَلَيْهِ سَحْقُ المُلَاءِ الرَّحِيضُ[٢]

يُصْبِحُ الدَّاعِرِىُّ ذُو المِرَّةِ المِرْ ... جَمُ فِيهِ كَأَنَّهُ مَأْبُوضُ[٣]

قَدْ فَضَضْنَا مِنْ بِيدِهِ خَاتَمَ الخَوْ ... فِ ، وَمَا كُلُّ خَاتَمٍ مَفْضُوض

بِالمَهَارَى يَجُلْنَ فِيهِ وَقَدْ جَا ... لَتْ عَلَى مُسْتَمَاتِهِنَّ الغُرُوضُ[٤]

جَازِعَاتٍ سُودَ المَهَامِهِ تَهْدِيـ ... ـهَا وُجُوهٌ لِمَكْرُمَاتِكَ بِيضُ[٥]

وقوله :

فَاطْلُبْ هُدُوًّا بِالتَّقَلْقُلِ وَاسْتَثِرْ ... بِالعِيسِ مِنْ تَحْتِ السُّهَادِ هُجُودَا[٦]

مِنْ كُلِّ مُعْطِيَةٍ عَلَى عَلَلِ السُّرَى ... وَخْدًا يَبِيتُ النَّوْمُ مِنْهُ شَرِيدَا

تَخْدِى بِمُنْصَلِتٍ يَظَلُّ إِذَا وَنَى ... ضُرَبَاؤُهُ حِلْسًا لَهَا وَقُتُودَا

---

(١) فى الديوان وشرحه « على كل » .

(٢) ديوانه ١٨٢ وشرح التبريزى ٢ / ٢٩٠ البساط : الأرض الواسعة . والسحق : البالى . ويروى : « السحل » وهو الثوب الأبيض . والرحيض : المغسول .

(٣) « الداعرى » : الفحل من الإبل . والمرة : القوة ، ويروى « ذو الميعة » وهى النشاط . والمرجم : الذى يرمى بنفسه الأشياء كأنه يرجمها . والمأبوض : الذى عليه إباض، وهو حبل يشد فى مأبض البعير . وهو باطن الركبة .

(٤) المستمات : الإبل العظام الأسنمة . يقول : هذه الإبل قد ذهب لحمها فجالت غروضها لأجل ذلك .

(٥) جازعات : من جزع الوادى إذا قطعه . وعنى بالسود الليالى . ويروى « سود المروراة » والمروراة : الأرض التى لا شىء بها . أى هؤلاء القوم يسرون بالليالى السود بالمروراة .

(٦) ديوانه ٨٧ وشرح التبريزى ١ / ٤١٦ .

جَعَلَ الدُّجَى سِتْرًا ووَدَّعَ رَاضِيًا بالهُونِ يَتَّخِذُ القُعُودَ قُعُودَا[١]

طَلَبَتْ رَبِيعَ رَبِيعَةَ المُمْهَى لَهَا وَوَرَدْنَ ظِلَّ رِوَاقِهِ المَمْدُودَا[٢]

قوله : « فاطْلُبْ هُدُوًّا فى التَّقَلْقُلِ » من قول عُرْوَةَ بن الوَرْد :

* ولم تدر أنى للمقام أطوِّف *

وقوله : « المُمْهَىٰ لَهَا » أى الذى أُكثِرَتْ مِيَاهُهُ . ويروى « المُمْهِى » لها أى الذى يُكْثِر لها الماء . وليس يريد الماء بعينه ، وإنما يريد الخِصب والسَّعة لأنه بالماء يكون .

وهذا الخروج كله جيد بالغ .

وله على هذا الوجه خروجات رديئة ومتوسطة لم أذكرها . ومنها قوله :

دَعْ عَنْكَ هَذَا إِذَا انْتَقَلْتَ إلى الْ مَدْحِ وَشُبْ سَهْلَهُ بِمُقْتَضَبِهْ[٣]

فالسَّهل : ما يأتيه به خاطره عَفْوًا من غير فكر ولا طاب .

والمُقْتَضَبُ ما يقتطعه خاطرُه اقتطاعًا بالفكر والتَّعب ، ويقال : ناقة قَضِيبٌ ، وهى التى رِيضَتْ ولم تُذَلَّ كل الذُّل لِلحَمْلِ والرُّكوب .

فأما قول البحترى لإبراهيم بن المدبر[٤] فى عِتَابٍ حُلْوٍ :

دعْ ذَا وأَخْبِرْنِى بِشَأْنِ صَدِيقِنَا بِشْرٍ وهَلْ يُرْضَى لِبِشْرٍ شَانُ[٥]

---

(١) سبقت روايته « الدجى جملا » .

(٢) ويروى : « فتفيأت ظلالها الممدودا » و « فوردن ظل ربيعة المهودا » .

(٣) ديوانه ٥٢ وشرح التبريزى ١ / ٢٧٥ .

(٤) م « المدبر بن عتاب » .

(٥) لعله بشر بن الفرج الذى مازحه بأبيات ختمها بقوله : « يحب الدناءة حب الوطن » راجع ديوانه طبع مصر ٢ / ٣٠١ .

فإنَّ «دَعْ» ها هنا حسنة ، وليست مثلها فى الخروج من النسيب إلى المدح .

ثم قال أبو تمام هو قوله : «دَعْ عَنْكَ هذا» :

لَسْتُ مِنَ العِيسِ أَوْ أُكَلِّفَها وَخْدًا يُدَاوِى المَرِيضَ مِنْ وَصَبِهْ[١]

إلى المُصَفَّى مَجْدًا أَبِى الحَسَنِ انْـ صَعْنَ انْصِيَاعَ الكُدْرِىِّ فى قَرَبِهْ[٢]

قوله : «يُدَاوِى المَرِيضَ» ، يعنى المريض فى حاله لا فى جسمه ؛ لأنه يُدْنِيهِ من الغنى .

والانْصِيَاعُ : الانحراف فى السير من النَّشاط والسّرعة . والكُدْرِىّ القَطَا . يعنى إذا جنحت فى الطيران وانحرفت نشيطة مسرعة .

* * *

ومن هذا الباب قول البحترى :

فالعِيسُ تَرْمِى بِأَيْدِيهَا عَلَى عَجَلٍ فى مَهْمَهٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ رَحْرَاحِ[٣]

نهْدِى إلى الفَتْحِ ــ والنُّعْمَى بِذَاكَ لَهُ مَدْحًا يُقَصِّرُ عَنْهُ كُلُّ مَدَّاحِ[٤]

وقوله :

سيَحْمِلُ هَمِّى عَنْ قَرِيبٍ وهِمَّتِى قَرَى كُلِّ ذَيَّالٍ جُلالٍ جَلَنْفَعِ[٥]

---

(١) الذى بعده فى الديوان وشرحه :

إنى لذو ميسم يلوح علـى صمود هذا الكلام أو حببه

وقال التبريزى : لست من العيس : أى لست صاحبها حتى أكلفها سيراً يشفى صدر المهموم ويذهب عدم الفقير . والوصب : الوجع ، أخذه من قول القطامى :

وسارت سيرة ترضيك منهـا يـكاد وسيجها يشفى الصداعا

(٢) فى قربه ، أى فى طلبه للماء ، ومنه ليلة القرب وهى التى يصبحون منها على الماء .

(٣) ديوان البحترى ٥٨ ، ١ / ٤٤٣ .

(٤) م «تهدى . . بذلك له» .

(٥) ديوانه ٨٩ ، ٢ /١٢٣٨ ، والقرا : الظهر ، والذيال : طويل الذيل، والجلال : الضخم . وقال أبو العلاء المعرى : ووصفه الجمل بذيال قلما يستعمل ، إنما يوصف بذلك الفرس والثور الوحشى . والجلنفع : الغليظ الشديد وإنما توصف به الإبل ، وربما استعملوه فى الظلم ، والأنثى جلنفعة . راجع عبث الوليد ١٣٣ .

يُنَاهِبْنَ أَجْوَازَ الفَيَافِى بِأَرْجُلٍ ... عِجَالٍ إِلَى طَىِّ الفَيَافِى وأَذْرُعِ[١]
مَتَى تَبْلُغِ الفَتحُ بنَ خَاقَانَ لاتُنِخْ ... بِضَنْكٍ ، ولا تَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعِ

الجَلَنْفَع : المتناهى فى سنّه وقوّته[٢].

«يُنَاهِبْنَ أَجْوَازَ الفَيافى. . .» بيت فى غاية الحسن ، وجودة اللفظ .

وقول البحترى أيضًا :

ولَقَدْ تَعَسَّفْتُ الأُمورَ وَصاحِبِى ... حَزْمٌ يَلُفُّ حُزُونَها بِسُهُولِهَا[٣]
ونَشَرْتُ أَرْدِيَةَ الصِّبَا وطَوَيْتُهَا ... بالعِيسِ بَيْنَ وَجِيفِهَا وذَمِيلِها[٤]
شَامَتْ بُرُوقَ سَحَابَةٍ قُرَشِيَّةٍ ... غَرِقتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ بَيْنَ سُيُولِهَا[٥]

وقوله :

وإِذَا اسْتَصْعَبَتْ مَقَادَةُ أَمرٍ ... سهَّلَتْهَا أَيْدِى المَهَارَى القُودِ[٦]
حَامِلَاتُ وَفْدَ الثنَاءِ إِلَى أَبْ ... لَجَ صَبٍّ إِلَى ثَنَاءِ الوُفُودِ
عَلِقُوا مِنْ مُحَمَّدٍ خَيْرَ حَبْلٍ ... لِرُوَاقِ الخِلَافَةِ المَمْدُودِ[٧]

وقوله :

تَشَكَّى الوَجَى واللَّيْلُ مُلْتَبِسُ الدُّجَى ... غُرَيْرِيَّةُ الأَنْسَابِ مَرْتٌ بَقِيعُهَا[٨]

---

(١) م « أجواد الفيافى » .

(٢) وكان خليقاً بالآمدى أن يزيد بعد ذلك : وهى كلمة فى غاية السخف .

(٣) ديوان البحترى ٣٤٥ ، ٣ / ١٧٧١ .

(٤) م فى الديوان « أردية الدجى . . . والعيس » .

(٥) فى الديوان : « بين سهولها » .

(٦) ديوانه ٦٩٢ ، ١ / ٦٣٤ والمهارى القود : الإبل الطويلة الأعناق .

(٧) يقصد محمد بن عبد الملك الزيات .

(٨) ديوانه ٥ ، ١٢٩٧ وإعجاز القرآن ٩١ وعبث الوليد ١٣١ والوجى : أن يشتكى البعير باطن خفه . ومكان مرت : قفر لا نبات فيه . والبقيع من الأرض . المكان المتسع فيه أروم شجر من ضروب شتى .

وَلَسْتُ بِزَوَّارِ المُلُوكِ عَلَى الوَنَى ... لَئِنْ لَمْ تَجُلْ أَغْرَاضُهَا وَنُسُوعُهَا[١]

تَؤُمُّ القُصُورَ البِيضَ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ ... بِحَيْثُ تَلَاقَى غَرْدُهَا وَبَدِيعُهَا[٢]

إِذَا أَشْرَفَ البُرْجُ المُطِلُّ رَمَيْنَهُ ... بِأَبْصَارِ خُوصٍ قَدْ أَرَثَّتْ قُطُوعُهَا[٣]

يُضِيءُ لَهَا قَصْدَ السُّرَى لَمَعَانُهُ ... إِذَا اسْوَدَّ مِنْ ظَلْمَاءِ لَيْلٍ هَزِيعُهَا

نَزُورُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ ... سُهُوبُ البِلَادِ رَحْبُهَا وَوَسِيعُهَا

وهذه ألفاظ ومعان فى غاية الصِّحة والحسن ، وكَثْرَةِ الماء .

وقوله : « عُرَيْرِيَّةٌ » منسوبة إلى فَحْل من فحول الإبل مذكور يقال له : عُرَيْر .

وغَرْدُها وبديعها : قصران .

* * *

وقال فى ابن المدبّر :

إِنَّنِى لَاجِئٌ إِلَى عَزَمَاتٍ ... مُعْدِيَاتٍ عَلَى طَرِيقِ الهُمُومِ[٤]

يَتَلَاعَبْنَ بِالفَيَافِى وَيُودِينَ ... بِنِقْيِ المُسَوَّمَاتِ الكُومِ[٥]

التَّرَامِى بَعْدَ الوَجِيفِ إِذَا اسْتُو ... نِفَ خَرْقٌ ، والوَخْدُ بعد الرسيمِ[٦]

كُلُّ مَهْزُوزَةِ المِقَذَّيْنِ تَلْقَى ... رَوْحَةَ الجَأْبِ خَلْفَهَا والظَّلِيمِ[٧]

---

(١) فى الديوان : « على الوجى » والأغراض : جمع غرض ، وهو حزام الرحل والنسوع : جمع نسع ، وهو سير مضفور تشد به الرحال .

(٢) فى الديوان « غربها و بديعها » .

(٣) البرج : قصر للمتوكل مكث به ثلاثة أيام فحم ، فأمر بهدمه . والخوص : غؤور العين . أرثت : أخلقت وبليت . والقطوع : جمع قطع بكسر القاف ، وهو الطنفسة تحت الرحل على كتفى البعير .

(٤) ديوان البحترى ٥٩٤ ، ٤ / ٢١٢٢ « على طروق » .

(٥) النقى : مخ العظام وشحمها ، كما فى اللسان ٢٠ / ٢١٤ .

(٦) فى الديوان « بعد الوجيفة . . » وفى طبعة المعارف « قبل الرسيم » .

(٧) قال ناشر الديوان فى شرحه « المقذين : مثنى مقذ ، وهو آلة ، من قذ السهم : ألصق به الريش » وهو خطأ محض . والصواب ما قاله الآمدى . وفى طبعة المعارف « تلفى » .

جُنَّحًا كالسِّمَامِ يَحْمِلْنَ رَكْبًا طُلَّحًا مِنْ ضُئُولَةٍ وسُهُومِ[1]
مَالَهُمْ عَرْجَةٌ وإنْ نَأَت الشُّقْـ قَةُ دُونَ الأَغَرِّ إبْرَاهِيمِ[2]

قوله : «مَهْزُوزَةُ المِقَذَّيْنِ» ، فَالمِقَذَّانِ : أُصول الأُذُنَيْن . وإنما يريد حركة رأسها عند السير ، وما أكثر ما تصف العربُ ذلك .

وقوله : «تَلْقَى رَوْحَةَ الجَأْبِ» إذا سارت مع حمار الوحش ، والظليم ، وهو ذكر النعام ، فوصلت غُدْوَةً – وَصَلَا بعدها عَشِيًّا . يصفها بالسرعة والقوة عا السير .

والسِّمَامُ[3] : جنس من الطير .

وجَنَّحَ يُجَنِّح فى طيرانه ، أى يميل من النَّشاط على أحد جناحيه وكذلك تفعل كرائم[4] الإبل تتصرف فى سيرها .

وقوله :

قَدْ أَقْذِفُ العِيسَ فى لَيْلٍ كأَنَّ لَهُ وَشْيًا مِنَ النَّوْرِ ، أَوْ أَرْضًا مِنَ العُشُبِ[5]
حتَّى إذَا مَا انْجَلَتْ أُخْرَاهُ عَن أُفُقٍ مُضَمخٌ بالصَّبَاحِ الوَرْدِ مُخْتَضَبِ
أَوْرَدْتُ صَادِيَةَ الآمَالِ فَانْصَرَفَتْ عَنِّى بِهَا ، وَأَخَذْتُ النُّجْحَ مِنْ كَثَبِ[6]

(١) م « جنحا كالسما » وهو تحريف ، وفى الديوان « كالسهام . . من سآمة وسهوم » .
(٢) فى الديوان « غير الأغر » .
(٣) م « والشمام » .
(٤) م « جرايم الإبل » !
(٥) ديوانه ٤٩٩ ، ١ / ١١٩ .
(٦) فى الديوان « فانصرفت بريها وأخذت » .

هَاتِيكَ أَخْلَاقُ إسْمَاعِيلَ فى تَعَبٍ   مِنَ العُلَا ، والعُلَا مِنْهُنَّ فى تَعَبٍ[١]

أراد أوردت[٢] صادية الآمال بها أى بالعيس فانصرف عنى[٣] الامال الصادية ، وهى العِطَاشُ ، وأخذتُ النُّجْحَ مِنْ كَثَبٍ ، أى من قُرْبٍ .

وقوله : « فى لَيْلٍ كأَنَّ لَهُ وَشْيًا من النور » [أى] فى ليلٍ شديدِ الظُّلْمَةِ ، فإذا اشتدت ظُلْمَتُهُ أشرقت كواكبُهُ ما صغر منها و [ما] كبر . وأحسَنُ ما تكون السماء إذا كانت هذه حالها .

وإلى هذا المعنى ذهب ذُو الرُّمَّةِ فى قوله :

ولَيْلٍ كَجِلْبَابِ العَرُوسِ ادَّرَعْتُهُ   بِأَرْبَعَةٍ ، والشَّخْصُ فى العَيْنِ وَاحِدُ[٤]

أراد الحلى الذى [على] جِلْبَابها . شبّه الليل به فى حسن نُجُومِه . وإنما يريد أنه ادَّرَعَ ليلًا شديد الظلمة ، مُضِيء الكواكب .

* * *

وفى شدّة ظلمة الليل يقول البحترى أيضًا :

واللَّيْلُ فى صِبْغ الغُراب كأَنَّمَا   هُوَ فى حُلُوكَتِهِ وإنْ لَمْ يَتْعَبِ[٥]

حَتَّى تَجَلَّى الصُّبْحَ مِن جَنَبَاتِهِ   كالماءِ يَلْمَعُ فى خِلَالِ الطُّحْلُبِ[٦]

وهذا معنًى ما سمعت فى شعرٍ قديم ولا محدث أحسن ولا أروع منه .

---

(١) يقصد الوزير إسماعيل بن بلبل .

(٢) م « أراد أو ردت بمعنى أو ردت » .

(٣) م « فانصرفت حتى الآمال » .

(٤) ديوان ذى الرمة ٢٩ وديوان المعانى ١ / ٣٤٢ والصناعتين ٢٣٣ وأخبار أبى تمام ٨٣ وأمالى المرتضى ١ / ٥٤٨ .

(٥) ديوان البحترى ٦٠١ ، ١ / ٨٠ « فى لون الغراب كأنه » .

(٦) فى الديوان « فى جنباته . . . يلمع من وراء » .

ثم قال :

والعِيسُ تَنْصُلُ مِنْ دُجَاهُ كَمَا انْجَلَى صِبْغُ الشَّبَابِ عَنِ القَذَالِ الأَشْيَبِ[١]

يَطْلُبْنَ مُجْتَمَعَ العُلَا مِنْ وَائلٍ فى ذلك الأَصْلِ الزَّكِىِّ الطَّيِّبِ[٢]

* * *

وقال البحترى :

سَوْفَ أُعْطِى السُّلُوَّ والصَّبْرَ مَا أَمْ نَعُ مِنْ طَارِفِ الهَوَى وتَلِيدِ[٣]

بالمَهَارَى يَلْبَسْن ثَوْبًا جَدِيدًا مُسْتَفَادًا فى كلِّ وَقْتٍ جَدِيدِ

فَهْىَ طُولَ النَّهَارِ بيضٌ وطُولَ الْ لَيلِ فى أَقْمُصٍ مِنَ الليل سُودِ

طالباتٌ فى الغيث غيثًا سكُوبًا وحميدًا فى آل عبد الحميد[٤]

وقال فى محمد بن على القُمِّىّ :

لَقَدْ عَلِمَتْ عِيدِيَّةُ العِيسِ أَنَّنِى أَهُبُّ إِذَا نَامَ الهِدَانُ وأُعْنِقُ[٥]

خرجنا بها فى البِيضِ بِيضًا لَمْ نرالْد دَآدِئ إِلَّا وَهْىَ مِنْهُنَّ أَمْحَقُ[٦]

هَشَمْنَ إِلَى ابْنِ الهَاشِمِيَّةِ أَوْجُهًا عَوَابِسَ للظَّلْمَاءِ مَا تَتَطَلَّقُ[٧]

قوله : « خَرَجْنَا بها فى البِيضِ » . يريد فى الليالى البيض ، وهى التى يكون القمر فيها طالعًا من أولها إلى آخرها .

وقوله : « بِيضًا » : يريد الآدَم من الإبل ، وهو الأبيض ، فإن خالطته

---

(١) هذا البيت مقدم فى الديوان عن البيت الثانى . وما هنا أنسب .

(٢) وفيه : « الأطيب » .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ٧٦٩ ، ٣ / ١٤٩٣ – ١٤٩٤ .

(٤) مضت روايته : « غينا سكونا » .

(٥) ديوانه ٥١٨ « أخب إذا » وجاء فى اللسان ١٧ / ٣٢٦ « الهدان : الأحمق الجافى الوخم الثقيل فى الحرب . . . وقيل : الهدان . النوام الذى لا يصلى ولا يبكر فى حاجة » .

(٦) م « خرجت بها » .

(٧) فى الديوان « عوابس للبيداء » .

حمرة فهو أصهب . وأظنه قال هاهنا بيضًا أراد حسنها وصفاءُ ألوانها وسمنها .

والدآدى : هى الليالى فى آخَر الشهر ، وهى مظلمة .

أى لم نصل إليها حتى هزلت مطايانا ، وصارت أمْحَقَ منها . وإنما جعل الدآدئ ممحقة لأنها آخر الشهر[١].

والهِدَانُ : الرجل البليد الذى ترضيه بالكلمة فيرضى .

* * *

وقال :

وأَرَى المَطَايَا لَا قُصُورَ بها عَنْ لَيْلِ سَامِرَّاءَ تَدْرعُهُ[٢]

يَطْلُبْنَ عِنْدَ فَتَى رَبِيعَةَ مَا عِنْدَ الرَّبِيعِ تَخَايَلَتْ بُقَعُهْ

قوله : «تَخَايَلت» . أى صارت مُخِيلَةً للنبات ، ظاهرًا ذلك فيها . أو أن يريد صارت كالخيلان من النبات .

وقال :

كالبُرَى فى البُرَى ويُحْسَبْنَ أَحْيَا نًا نُسُوعًا مَجْدُولَةً فى النُّسُوعِ[٣]

أَبْلَغَتْنَا مُحَمدًا فَحمِدْنَا حُسْنَ ذَاكَ المَرْئِى والمَسْمُوعِ[٤]

وقال :

ومَا ثَنَى مُسْتَهَامًا عَنْ صَبَابَتِهِ مِثْلُ الزَّمَاعِ وَوَجْدِ العُرْمُسِ الأُجُدِ[٥]

---

(١) فى اللسان ١ / ٦٣ «أبو الهيثم : الثلاث التى بعد المحاق سمين دآدئ ، لأن القمر فيها يدأدئ إلى الغيوب أى يسرع . وقال الأصمعى : فى ليالى الشهر ثلاث محاق ، وثلاث دآدئ . والدآدئ الأواخر وأنشد :

أبدى لنـــا غرة وجه بادى كزهـــرة النجوم فى الدآدى »

(٢) ديوان البحترى ٢٣٧ ، ٢ / ١٢٤٩ وفى م «لا قصور لها» .

(٣) ديوانه ٤٢١ ، ٢ / ١٢٨٠ .

(٤) يقصد القائد محمد بن يحيى الواثقى .

(٥) ديوانه ٤٢٤ ، ١ / ٥٧٤ والزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه ، والإسراع فى المشى . والوخد : ضرب من سير الإبل سريع . والعرمس : الناقة الصلبة الشديدة . والأجد : الناقة القوية الموثقة الخلق ، ولايقال للجمل : أجد .

إلى أَبِى نَهْشَلٍ ظَلَّتْ رَكَائِبُنَا   يَحِدْنَ مِنْ بَلَدٍ نَاءٍ إلى بَلَدِ[1] .
إلى فَتًى مُشْرِقِ الأَخْلَاقِ لَوْسُبِكَتْ   أَخْلَاقُهُ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ لم تَزِدِ

وقد جعل البحترى مكان الناقة هاهنا «فرسًا» فقال فى مدح الشَّاهِ بن مِيكَال :

فَتَنَاسَ مَنْ لَمْ تَرْجُ رَجْعَةَ وُدِّهِ   وَوِصَالِهِ فَتَعَزَّ عَنْ ذِكْرَاهُ[2]
بِمُجَنَّبٍ رَحْبِ الفُرُوجِ مُشذَّبٍ   نَابِى القَذَالِ حَدِيدَةٌ أُذُنَاهُ[3]
ضَافِى السَّبِيبِ مُقَلَّصٍ لم تَنْخَزِلْ   مِنْه القَطَاةُ ، ولم تَخُنْهُ شظَاهُ[4]
صافِى الأَدِيمِ كأَنَّ غُرَّةَ وَجْهِهِ   فِلَقُ الصَّبَاحِ انْجَابَ عَنْهُ دُجَاهُ
يَجْرِى إِذَا جَرَت الجِيَادُ عَلَى الوَنَى   فَيَبَذُّ أُولَى جَرْيِها أُخْرَاهُ
يُدْنِيكَ مِنْ مَلِكٍ أَغَرَّ سَمَيْذَعٍ   يُدْنِيكَ مِنْ أَقْصَى مُنَاهُ رِضَاهُ[5]

* * *

وقد خرج أَبو تمام إلى المدح بوصف الخيل أَيضًا فقال :

حَذَوْنَاهَا الوَجَى والأَيْنَ حَتَّى   تَجَاوَزَتِ الرُّكُوعَ إِلَى السُّجُودِ[6]
إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الغَمْرَاتِ قُلْنَا :   خَرَجْتِ حَبَائِسًا إِنْ لَمْ تَعُودِى

---

(١) فى الديوان «يخدين» أبو نهشل : كنية محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسى الطائى .

(٢) ديوان البحترى ٤ / ٢٤٣١ – ٢٤٣٢ طبع المعارف .

(٣) المجنب : المجنوب ، أى المقود . والفرس المشذب : الطويل القليل اللحم . القذال : معقد العذار من الفرس خلف الناصية .

(٤) السبيب : شعر ذنب الفرس . مقلص : طويل القوائم منضم البطن . والقطاة : العجز ، وما بين الوركين أو مقعد الرديف من الفرس . وفى م «شطاه» والشظى : عظم لازق بالذراع . فإذا زال قيل شظى الفرس . وقوله : لم تخنه شظاه ، كقول امرئ القيس : «سليم الشظى» .

(٥) السميذع : السيد الشريف السخى الشجاع . ولعل «مناه» محرفة عن «مناك» ثم رأيتها فى طبعة المعارف «مناك» .

(٦) ديوان أبى تمام ١٠٥ وشرح التبريزى ٢ / ٣٥ «حذوناها : أى جعلنا الوجى لها مثل الأحذية» .

فَكَمْ مِنْ سُؤْدُدٍ أَمْكَنْتِ مِنْهُ ... بِرُمَّتِهِ عَلَى أَنْ لَمْ تَسُودِي
أَهَانَكِ لِلطِّرَادِ وَلَمْ تَهُونِي ... عَلَيْهِ ، ولِلْقِيَادِ - أَبُو سَعِيدِ[١]

* * *

وقد جعل البحترى أيضًا « السفينة » بمكان النَّاقة فقال :

وَرَمَتْ بِنَا سَمْتَ العِرَاقِ أَيَانِقٌ ... سُحْمُ الخُدُودِ لُغَامُهُنَّ الطُّحْلُبُ[٢]
مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ بِخَمْسٍ خَوَافِقٍ ... دُعْجٍ كَمَا ذُعِرَ الظَّلِيمُ المُهْذِبُ[٣]
يَحْمِلْنَ كُلَّ مُفَرَّقٍ فى هِمَّةٍ ... فُضُلٍ يَضِيقُ لها الفَضَاءُ السَّبْسَبُ[٤]
رَكِبُوا الفُرَاتَ إِلى الفُرَاتِ وَأَمَّلُوا ... نَشْوَانَ يُبْدِعُ فى السَّمَاحِ ويُغْرِبُ[٥]

قوله : أَيَانِقٌ جمع أَيْنُق ، وهو جمع نَاقة .

وهذا من المقلوب الذى جاء فى كلامهم ؛ لأَن النون من شأْنها أَن تتقدَّم الياء ، فلو جاء على الاستقامة لكان أَنيق[٦] وأَنايِق . وهذا مثل مَلَك ومَلائكَة ، والأَصل مَأْلَك وَمَآلِكَة .

وقوله : « سُحْمِ الخُدُودِ » . يريد سَوادَ القَارِ .

ولُغَامُهُنَّ الطُّحْلُب : يريد الخضرة التى تتعلق بالسفن من طوال المُكْثِ فى الماء .

وقوله : « خَمْس خَوَافِق » . يريد أَربعة مجاديف ،وسكان ، أَو قائم الشِّراع .

ودُعْجٌ : سَواد القَار أَيضًا .

---

(١) أبو سعيد : محمد بن يوسف الطائى .

(٢) ديوان البحترى ٦٨٢ ، ١ / ٧٣ ولغام البعير : زبده .

(٣) فى الديوان « يضيق بها » .

(٤) فيه « وأملوا جذلان » .

(٥) م « لكان أينق » .

وقوله : « كما ذُعِر الظَّلِيمُ » يريد سرعةَ السفن. وانبِعَاثَهَا كما يَنْبَعِثُ الظليم ويَجْفُل إذا فَزِع .

والإِهْذَابُ : السُّرْعَة .

وقوله : «يَحْمِلْنَ كلَّ مُفَرَّقٍ » . أَى مُتَقَسّم . فى هِمَّةٍ فُضُلٍ . أَى همة واحدة . يضيق لها الفضاءُ لِعِظَمِهَا وسَعَتِها .

والفُضُلُ : الثوب الواحد الذى يقتصر[1] عليه الرجل والمرأة ويبتَذِلُهُ للأَعمال . قال امرؤُ القيس :

* لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ[2] *

وأَظن البحترى أَراد بقوله : « فُضُل » . أَى همّة واحدة[3] . وجَّهُوهَا[4] إليك دُون مَنْ سِوَاكَ ، وجعلها عظيمة على قدر الممدوح . أَى اتسعت الهمَّة فيك وعظمت ؛ قد تقسمته وصار لا فضل فيه لغيرها .

وهذه أَبيات حسان .

* * *

(١) م « يعتسر » .

(٢) بقية البيت كما فى ديوان امرئ القيس ١٣١ :

« وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل»

(٣) لقد أغرب الآمدى فى ظنه فوقع بعيداً عن مراد الشاعر القريب الواضح . وبيان ذلك : أن الهمة : واحدة الهمم ، وهى ما يهم به الإنسان من أمر ليفعله ، وهى توصف بالصغر والعظم ، فيقال : إنه لصغير الهمة ، وإنه لعظيم الهمة بعيدها . وإن همته لزائدة . وهذا المعنى هو الذى أراغ إليه البحترى . فمعنى قوله : « فضل : أى زيادة . يريد أن هذه السفن تحمل أناساً قد فرقتهم فى البلاد : مطوفين فى الآفاق بسبب ما انطوت عليه صدورهم منهمم عظيمة بعيدة المدى يضيق بها الفضاء الفسيح . فقول الآمدى : « فى همة فضل أى همة واحدة» خطأ محض ، لأن المعنى الذى قصد إثباته من كلمة « فضل » وتجشم الاستشهاد عليه بقول امرئ القيس «لم تنتطق عن تفضل » – قد تكفل به ببيت البحترى الثانى الذى يقول فيه : إن جميع هؤلاء الذين قد فرقتهم هممهم وأزعجتهم عن أهلهم وأوطانهم قد ركبوا الفرات إلى الفرات الذى يلذ له الإبداع فى السماح ويسكره الإغراب فيه .

(٤) م « وجهرها إليك » .

وقد قال أبو تمام فى « السفينة » والمسير فيها إلى الممدوح فى قصيدة أوّلها :

دَنِفٌ بَكَى آياتِ رَبْعٍ مُدْنَفِ ... لَوْلَا نَسِيمُ تُرَابِهِ لَمْ يُعْرَفِ[١]

أبياتًا رديئة جدًّا لم أكتبها[٢] .

والجيد النادر فى وصف السفينة قول بَشّار يذكر مَسِيرَهُ إلى المَهْدِى :

وعَذْرَاءَ لا تَجْرِى بلَحْمٍ ولا دَمٍ ... قليلة شَكْوَى الأَيْنِ ، مُلْجَمَةِ الدُّبْرِ[٣]

إذا طَعَنَتْ فيها القَبُولُ تَشَمَّصَتْ ... بِفُرْسَانِها لا فى وُعُوثٍ ولا وَعْرِ[٤]

وإنْ قَصَدَتْ مَرَّتْ عَلَى مُتَنَصِّبٍ ... ذَلِيلِ القَرَا لا شَىْءَ يَفْرِى كَمَا يَفْرِى[٥]

تُلَاعِبُ نِينَانَ البُحُورِ ورُبَّمَا ... رَأَيْتَ نُفُوسَ القومِ مِن جَرْيِهَا تَجْرِى[٦]

سَمَوْنَا إلى المَهْدِىِّ قَصْدًا وإنَّما ... قَطَعْنَا بِهَا أَمْوَاجَ بَحْرٍ إلى بَحْرِ[٧]

فبلغ سيبويه قوله : « نينَانَ البُحُورِ » فأنكر ذلك ، وزعم أن العرب لا تجمع النون — وهو الحوت — على نِينَان . فبلغ ذلك بشّارًا ، فقال : وَيْحَه : أما يقول : حُوتٌ وحيتان ، وغُولٌ وغيلان ، فكذلك نون

---

(١) شرح التبريزى ٢ / ٣٩٤ وهذه القصيدة لا توجد فى ديوان أبى تمام .

(٢) أولها ص ٣٩٦ :

حملت رجاى إليك بنت حديقة ... غلباء لم تفلح لفحل مقرف

نتجت وقد حوت المنيدة وابتنت ... فى شطرهـا وتبوعت فى النيف

فأتت محـلى وهى حمل بناتها ... تسرى بقائمتى خريق حـرجف

فاعتـامها ذو خبرة بفحولها ... ندس بجبلة حلقها متلطف

ثم يمضى فى وصفها على هذا النحو فى ثمانية أبيات أخر .

(٣) ديوان بشار ٣ / ٢٨٠ والأغانى ٣ / ٦٩ . والأين : الإعياء .

(٤) م « ولا دعر » والقبول : ريح الصبا وهى رخاء السفن . وتشمصت : نفرت وأسرعت فى سيرها ، كما تفعل الدابة التى تنخس وتساق . والوعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .

(٥) م « دليل » والقرا : الظهر .

(٦) م « أنكر » .

(٧) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ولا فى الأغانى .

ونينان ، وتوعَّدَ سيبويه ولَدَغَه فكفَّ سيبويه عن تتبُّع شعره ، واحتجّ بشىء [منه] تقربًا إليه ، وٱستكْفَافًا لشره .

* * *

وللبحترى فى الخروج إلى المديح بذكر الإبل غير شىء لو استقصيته ، وأتيت بجميع ما لأَبى تمام فيه — لطال الباب . وما تركتُ لهما إلا وسطا ليس بجيد ولا ردىء .

* * *

ولا خفاء بفضل البحترى فى سائر ما أوردته على أَبى تمام .

وهذا وجه آخر من الخروج
و وخروجهما إلى المديح بمخاطبة النساء

فمن ذلك قول[1] أبي تمام :

لَا تُنْكِرِى عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الغِنى ... فَالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكانِ العَالِى[2]

وتَنَظَّرِى خَبَبَ الرِّكَاب يَحُثُّهَا ... مُحْيِى القَرِيضِ إلى مُمِيتِ المَالِ

وهذا معنى لطيف حسن .

* * *

ومنه قول البحترى :

وَلَمْ أَنْسَهَا عِنْدَ الوَدَاعِ ونَثْرِهَا ... سَوابِقَ دَمْعٍ أُعْجِلَتْ أَنْ تُنَظَّمَا[3]

وقالتْ هَلِ الفَتْحُ بنُ خَاقَانَ مُعْقِبٌ ... رِضًا فَيَعُودَ الشَّمْلُ مِنَّا مُلَأَّمَا

وقوله :

قَامَتْ تُوَدِّعُنِى عَجْلَى وقد بَدَرَتْ ... سَوَابِقُ مِنْ تُوَأَمِ الدَّمْعِ تُجْرِيها[4]

وَاسْتَنْكَرَت ظَعَنِى عَنْهَا فَقُلْتُ لَهَا ... إلى الخليفة أَنْضَى العيس مُنْضِيها[5]

وما أكثر ما يستعمل الشعراءُ فى خروجهم[6] إلى المدح هذا الوجه .

---

(١) م « قال » .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٤٦ وشرح التبريزى ٣ / ٧٧ « الركاب ينصها » .

(٣) ديوان البحترى ٩٤ ، ٣ / ١٩٨٢ .

(٤) ديوان البحترى ٣٦ « وقد حدرت » ، ف ٤ / ٢١٠٤ كما هنا .

(٥) الذى فى الديوان « أمضى العيس ممضيها » .

(٦) م « خروجها » .

ومن جيد ذلك قول جرير :

تَعزَّتْ أم حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ المُورِدِينَ ذَوِى لُقَاحِ[1]

تُعَلِّلُ وَهْىَ سَاغِبَةٌ بَنِيها بأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّبِمِ القَرَاحِ[2]

سأَمْتَاحُ البُحُورَ فَجَنِّبِينِى أَذَاةَ اللَّوْمِ ، وَانْتَظِرِى امْتِيَاحِى

ثِقِى باللهِ لَيْسَ لَهُ شريكٌ ومِنْ عِنْدِ الخليفةِ بالنَّجَاحِ

---

(١) ديوانه ٩٧ .

(٢) ساغبة : جائعة . الشبم : البارد . والقراح : الماء الذى لم يخالطه شىء يطيب به كالعسل والمر والزيت .

وربما خرجا إلى المدح بيمين يحلفان بها

ومن ذلك قول أبي تمام :

حَلَفْتُ بِرَبِّ البِيضِ تَدْمَى نُحُورُهَا ورَبِّ القَنَا المُنْآدِ والمُتَقَصِّدِ[(١)]

لَقَدْ كَفَّ سَيْفُ الصَّامِتِيِّ مُحَمَّدٍ تَبَارِيحَ ثَأْرِ الصَّامِتِيِّ مُحَمَّدِ[(٢)]

فالبيض : هى الأُدْمُ من الإبل ، يقال : بعير آدَم إذا كان أبيض .

وقوله : « تباريح ثأر » أراد أن سيفه كفَّ تَبارِيحَ ثأره ، أى كفَّ ما برح به من الثأر حتى أدركه .

ومن ذلك قوله :

لَا والَّذى هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى صَبِرٌ ، وأَنَّ أَبَا الحُسَيْنِ كَرِيمُ[(٣)]

ما زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الضَّمِيرِ ، ولا غَدَتْ نَفْسى عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ[(٤)]

* * *

ومن ذلك قول البحترى :

حَلَفْتُ بِمَا حَجَّتْ قُرَيْشٌ وحَجَّبَتْ وحَازَ المُصَلَّى والحطيمُ وزَمْزَمُ[(٥)]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٠١ وشرح التبريزى ٢ / ٢٤ « تدمى متونها » والمنآد : المنحنى . والمقتصد : المتكسر .

(٢) قيل : إن الثانى هو الأول . وقيل : الأول : محمد بن يوسف هذا الممدوح ، والآخر : محمد بن حميد الذى قتله بابك ، وهما جميعاً من بنى الصامت .

(٣) ديوانه ٢٩٩ وشرح التبريزى ٣ / ٢٩٠ .

(٤) ويروى « سنن الوداد » .

(٥) ديوان البحترى ٩٦ ، ٣ / ١٩٢٩ .

وأَهْل مِنًى إِذْ جَاوَزُوا الخَيْفَ مِنْ مِنًى ... وَهُمْ عُصَبٌ شَتَّى ، مُحِلٌّ ، ومُحْرِمُ[1]

يُهِلّونَ مِنْ حَيْثُ ٱبْتَدَا الصُّبْحُ يَرْتَقِى ... سَنَاهُ إِلى حَيْثُ ٱنْتَهَى اللَّيلُ يُظْلِمُ[2]

لَقَدْ جَشِمَ الفَتْحُ بنُ خَاقَانَ خُطَّةً ... من المَجْدِ لَا يَسْطِيعُها المُتَجَشِّمُ

ومن ذلك قوله :

وشَمَائِلِ الحَسَنِ بنِ وَهْبٍ إِنَّهَا ... فى المَجْدِ ذَاتُ شَمَائِلٍ وَجَنَائِبِ[3]

لَيُقَصِّرَنَّ لَجَاجُ شَوْقٍ غَالِب ... ولَيَقْصِرنَّ لَجَاجُ دَمْعٍ سَاكِبِ[4]

* * *

وهما فى هذا الباب متكافئتان .

---

(١) م « عصيب نوضى » .

(٢) م « انتهى الليل » .

(٣) ديوانه ٦٩٧ ، ١ / ١٥٩ طبع المعارف .

(٤) فى الديوان ٦٩٧ « شوق بالغ » وفى طبعة المعارف كما هنا . وبعد البيت :

فالعزم يقتل كل سقم قاتل ... والبعد يغلب كل وجد غالب

وربما خرجا إلى المديح بذكر الغيث ومباراته

فمن ذلك قول أبى تمام :

أَيُّهَا الغَيْثُ حَىِّ أَهْلًا بِمَغْدَا   كَ ، وعِنْدَ السُّرَى ، وحِينَ يَئُوبُ[(١)]

لأَبِى جَعْفَرٍ خَلَائِقُ تَحْكِيـ   ـهِنَّ قَدْ يُشْبِهُ النَّجِيبَ النَّجِيبُ

وهذا ليس بالشهى ، ولا الحلو العذب .

والجيد النادر قول البحترى :

أَقُولُ لِثَجَّاجِ الغَمَامِ وقَدْ سَرَى   بِمُحْتَفَلِ الشُّؤْبُوبِ صَابَ فَعَمَّمَا :[(٢)]

أَقِلَّ وأَكْثِرْ لَسْتَ تَبْلُغُ غَايَةً   تَبِينُ بِهَا حَتَّى تُضَارِعَ هَيْثَمَا[(٣)]

وأجود من هذا وأحلى وأبلغ — قوله يمدح المتوكل :

قَدْ قُلْتُ لِلغَيْثِ الرُّكَام وَلَجَّ فِى   إِبْرَاقِهِ ، وأَلَحَّ فى إِرْعَادِهِ[(٤)]

لا تَعْرِضَنَّ لِجَعْفَرٍ مُتَشَبِّهًا   بِنَدَى يَدَيْهِ فَلَسْتَ مِنْ أَنْدَادِهِ

ومن الجيد النادر فى هذا الباب أيضًا — قوله :

رِبَاعٌ تَرَدَّتْ فى الرِّيَاضِ مَجُودَةٌ   بِكُلِّ جَدِيدِ الماءِ عَذْبِ المَوَارِدِ[(٥)]

---

(١) ديوان أبى تمام ٥٨ وشرح التبريزى ١ / ٢٩٧ .

(٢) ديوان البحترى ١٢٧ ، ٤ / ٢٠٨٨ والصناعتين ٤٥٧ وعيار الشعر ١١٦ .

(٣) فى الديوان ١٢٧ « لست تدرك » والهيثم الغنوى : هو الممدوح .

(٤) ديوانه ٤٣ ، ٢ / ٧٠٣ والصناعتين ٤٥٧ والبديع لأسامة ٢٨٨ « قلت للغيم » .

(٥) ديوانه ٥٤ ، ١ / ٦٢٤ .

إِذَا رَاوَحَتْهَا مُزْنَةٌ بَكَرَتْ لَهَا شَآبِيبُ مُجْتَازٍ عليها وقَاصِدُ(١)
كَأَنَّ يَدَ الفَتْحِ بنِ خَاقَانَ أَقْبَلَتْ تَلِيهَا بِتِلْكَ البَارِقَاتِ الرَّوَاعِدِ

وقال :

سُقِيتَ رُبَاكِ بِكُلِّ نَوْءٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا(٢)
فَلَوَ انَّنى أُعْطِيتُ فِيهِنَّ المُنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَاهِيمَا(٣)
بِسَحَابَةٍ غَرَّاءَ مُتْئِمَةٍ إِذَا كَانَ الجَهَامُ مِنَ السَّحَابِ عَقِيمَا(٤)

فقوله : « سُقيتْ رُبَاكِ » — بيت ليس بالبارع لفظاً ولا معنى ، وما بعده جيد حلو .

وإنما خَصَّ الجَهَامَ لأنَّه الذى قد كان فيه ماء فأراقه ، ومثله لا يكون عقيمًا . جعله كالمرأة الوالد .

وقال [أبو تمام] فى هذا المعنى أيضًا :

شَجًا فى الحَشَا تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ به صُمُنَ آمَالِى وإنِّى لَمُفْطِرُ(٥)
حَلَفْتُ بِمُسْتَنِّ المُنَى تَسْتَرِشُّهَا سَحَابَةُ كَفٍّ بالرَّغَائِبِ تُمْطِرُ
إِذَا دَرَجَتْ فيه الصبا كَفْكَفَتْ لَهَا وقَامَ يُبَارِيها أَبُو الفَضْلِ جَعْفَرُ(٦)

وهذه ألفاظ ومعان ونسج فى غاية الرداءة والهَجَانَة ، والبعد من البلاغة والبراعة ، على ما فيها من التعقيد واتفاق المعانى .

فقوله : « حَلَفْتُ » يعنى نفسه .

---

(١) م « مجتاب عليها » .
(٢) ديوانه ٢٨٦ ، ٣ / ١٩٦٥ .
(٣) هو إبراهيم بن الحسن بن سهل المملوح .
(٤) م « السحاب عظيما . » والمتئم : التى تضع اثنين فى بطن واحد .
(٥) ديوان أبى تمام ١٥٩ وشرح التبريزى ٢ / ٢١٤ فى مدح جعفر الخياط .
(٦) م « درجت فيها » .

و «مُسْتَنُّ المُنَى »: المحل الذى يستنّ فيه المنى ، أى يَطَّرِدُ ، يَذْهَبُ ويَجِيءُ ويكثر . يريد محل الممدوح وساحته.

وقوله : «يَستَرشُّهَا . إنما أَراد يَسْترشُّ سَحَابَة كَفٌ فقال : «يَسْتَرشُّها» فقدم الكناية ، وجعل «سَحَابَة كَفٌ» بدلًا من الهاءِ والأَلف.

يقول : حللت بمحلّ تَسْتَنُّ فيه المُنَى ، وتَطْلُبُ رَشَاشَ سَحَابَةِ كَف.

وقوله : «إذا دَرَجَتْ فيهِ الصَّبَا » . يريد فى مُسْتَنٍّ المُنَى . كَفْكَفَتْ لَهَا أى للسحابة .

وكفكفت : أى دنت وقَرُبت .

و «قَامَ يُبَارِيها» أى يبارى الصَّبَا بِسَحَابَةِ كَفِّهِ أَبُو الفَضْل جعفر .

وهذان البيتان لا يتصلان بالبيت الأَول . وإنما كان وجه الكلام أن يقول : شجًا فى الحشا كان تَرْدَادُهُ ليس يَفْتُر ، وكانت آمالى به صائِمةً ، فَحَلَلْتُ بِمُسْتَنٍّ مُنًى مِنْ حَالِهِ وصِفَتِهِ . حتى يتصل الكلام بعضه ببعض .

والحذف والاختصار فى كلام العرب موجود ، ولكن ليس فى مثل هذا .

* * *

ومن هذا الباب ، وفيه بعض الغموض ، قوله :

إنَّ الذى خَلَقَ الخَلَائِقَ قَاتَهَا أَقْوَاتَها لِتَصَرُّفِ الأَحْرَاسِ[1]

فَالأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قِرًى لَهَا وبَنُو الرَّجَاءِ لَهُمْ بَنُو العَبَّاسِ

يريد أن الله تعالى ، جعل أقوات عباده من وجوه مختلفة على قدر أزمانها .

وَالأَحْرَاسُ : الدُّهُور ، واحدها حَرْس .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٧٣ وشرح التبريزى ٢ / ٢٤٦ وفى م « الأجراس » .

يقول : فالأَرض إنما تحيا بما تَقْرِيها السماءُ من الغَيْثِ ، وبنو الرجاء لهم بنو العباس ، أَى بنو الرَّجَاءِ بنو العباس لهم ، أَى لهم عِصْمَة ، كما يقال : الله لك ، أَى مُعِينٌ ومُغِيث .

ويجوز أَن يكون أَبو تمام ذهب فى ذكر الأَرض والغيث هاهنا[١] وجعل بنى العباس رجاء الناس لذلك؛ لأَن الناس فى أَيام عمر بن الخطاب ، رحمة الله عليه ، احتبس عنهم المطر فأَخذ عمر بضَبُعِ العَبَّاس وقال : اللهم إن هذا عم نبيك ، اللهم اسقنا غيثك . فما بَرِحَ الناسُ حتى وافاهم المطر. فلعل أَبا تمام ذهب إلى هذا المعنى . والله أَعلم.

والبيتان رديئان نسجاً ولفظاً .

ولا محالة أَن البحترى أَيضًا فى هذا الباب – يتقدم أَبا تمام.

---

(١) العبارة هنا ناقصة .

وهذا وجه آخر من خروجهما إلى المدح

وهو وصف الرياح ، وتشبيه أخلاق الممدوح بها

فمن ذلك قول أبي تمام :

مِنْ فَاقعٍ غَضِّ النَّبَاتِ كَأَنَّهُ [دُورٌ] يُشَقَّق قبلُ ، ثم يُزَعْفَرُ[1]

صُنْعُ الذى لَوْلَا بَدَائعُ صُنْعِهِ مَا عَادَ أَصْفَرَ بَعْدَ إِذْ هُوَ أَخْضَرُ

خُلُقٌ أَطَلَّ مِنَ الرَّبيعِ كَأَنَّهُ خُلُقُ الإِمَامِ وَهَدْيُهُ المُتَيَسِّرُ

فقوله : «خُلُقٌ أَطلَّ من الربيع كأَنَّه خُلُق الإمامِ » – معنى صحيح .

«وهَدْيُهُ المُتَيَسِّرُ». فالهدى : سَمْتُهُ ودَلُّهُ وشَكْلُه . و «المُتَيَسِّر» . قافية رديئة جدًّا .

* * *

ومثله قول البحترى :

وَيُرِيكَ الأَحْبَابُ يَوْمَ تَلَاقٍ بِاعْتِنَاقِ الحَوْذَانِ والأُقْحُوانِ[2]

صَاغَ مِنْهَا الرَّبِيعُ شَكْلًا لِأَخْلا قِ حُسَيْنٍ [ذِى] الجُودِ والإِحْسَانِ[3]

وهذا أَيضًا خُرُوجٌ ليست له قوة لفظ [و] لا حلاوة فيه ولا معنى .

---

(١) ديوان أبي تمام ١٥٨ وشرح التبريزى ٢ / ١٩٦ .

(٢) ديوان البحترى ٤ / ٢١٩٨ وفى اللسان ٤ / ٢١ «والحوذان : نبت يرتفع قدر الذراع ، له زهرة حمراء فى أصلها صفرة وورقته مدورة» وفى الديوان «باغتباق» وهو تحريف .

(٣) يقصد ممدوحه : الحسين بن الحسن بن سهل .

وهذا وجه آخر من خروجهما إلى المدح

منه قول أبي تمام :

صُبَّ الفِرَاقُ عَلَيْنَا ، صُبَّ مِنْ كَثَبٍ   عليهِ إِسْحاقُ يَومَ الرَّوعِ مُنْتَقِمَا[١]

وهذا خروج حسن[٢].

وقال أيضًا :

فَلْيُبْلغِ الفِتْيَانُ عَنِّى مَأْلُكًا   أَنِّى مَتَى يَتَثَلَّمُوا أَتَهَدَّمِ[٣]

ولْتَعْلَمِ الأَيَّامُ أَنِّى فُتُّهَا   بـأَبِى الحُسَيْنِ مُحَمَّدِ بن الهَيْثَمِ

قوله : « مألُكًا » : جمع مَأْلُكَةٍ ، وهى الرِّسالة ، ونصبها على الحال .

وقال أبو تمام أيضًا :

وَعَاذِلٍ هَاجَ لِى باللَّوْمِ مَأْرُبَةً   بَاتَتْ عَلَيْهَا هُمُومُ الصدرتصطخب[٤]

لَمَّا أَطَالَ ٱرْتِجَالَ العَذْلِ قُلْتُ لَهُ   الحَزْمُ يُثْنِى خُطُوبَ الدَّهْرِ لَا الخُطَبُ

لَمْ يَجْتَمِعْ قَطُّ فى مِصْرٍ وَلَا طَرَفٍ   مُحَمَّدُ بنُ أَبِى مَرْوَانَ والنُّوَبُ[٥]

قوله : « الحَزْمُ يَثْنِى خُطوبَ الدهر » ـ ليس بواجبٍ قاطع على كلِّ حال . ولو كان ذلك كذلك لما رأيت حازمًا قطّ يصيبه خطب من الدهر يكرهه . ولكنه لما كان الحزم قد يفعل ذلك صلح أن يذكره .

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٠٢ وشرح التبريزى ٣ / ١٦٨ .

(٢) بل هو خروج ردىء .

(٣) ديوانه ٣١٢ وشرح التبريزى ٣ / ٢٥٠ « مالكا » وانظر اللسان ١٢ / ٢٧٢ .

(٤) ديوانه ٤٧ وشرح التبريزى ١ / ٢٤٨ ويروى « هموم النفس » والمأربة : الحاجة .

(٥) م « يجتمع خط » .

وقال أبو تمام :

يَا أَيُّهَذَا السَّائِلِى أَنَا شَارِحٌ لكَ غَائِبِى حتَّى كأَنَّك حَاضِرُهْ[١]

إنِّى ونَصْرًا والرِّضَا بِجِوَارِهِ كالبَحْرِ لا يَبْغِى سِوَاهُ مُجَاوِرُهْ

مَا إنْ يَخَافُ الخَذْلَ مِنْ أَيَّامِهِ أَحَدٌ تيَقَّنَ أَنَّ نَصْرًا نَاصِرُهْ

قوله : « أنا شارحٌ لك غائِبى ». لست أراه شرح شيئًا ، وإنما ذكر أن رضاه بجوار نصر كالبحر لا يبغى سواه مجاوره . وهذا خبر مُخْتَصر ؛ والشرح لا يكون فى نصف البيت .

فأما قوله : « ما إنْ يَخَافُ الخَذْلَ » فليس يتعلق بقوله : « أنا شارحٌ لك غائِبى حتَّى كأَنك حاضره ».

وقد أخبر البحترى بخبر حسن هو أولى بالشرح من أبى تمام فقال :

ومِنْ غَرَائِبِ مَا تَأْتِى الخُطُوبُ بِهِ فى أَوَّلٍ مِنْ صُروفِ الدَّهْرِ أَوْتَالِ[٢]

أُحْدُوثَةٌ عَجَبٌ أُنْبِيكَ عَنْ خَبرِى فيها، وعَنْ خَبَرِ الشَّاهِ بنِ مِيكَالِ

فَرَرْتُ مِنْه حَيَاءً مِنْ قُصُورِىَ عَنْ جَزَاءِ مَا زَادَ فى جَاهِى وفى مَالِى[٣]

لَوْلَمْ أُعَوِّضْهُ شكْرًا عَنْ تَطَوُّلِهِ إذْ لَمْ أُقَابِلْهُ إفْضَالًا بإفْضَالِ[٤]

وقد ذكر هذا المعنى فى غير موضع . وإنما أذكره فى أبوابه إذا جاءت بإذن الله .

* * *

وقال البحترى :

لَعَمْرُ أَبِى الأَيَّامِ مَا جَارَ حُكْمُهَا عَلَىَّ ، ولَا أَعْطَيْتُه ثِنْىَ مِقْوَدِى[٥]

---

(١) ديوان أبى تمام ١٥٦ وشرح التبريزى ٢ / ٢١٠ .

(٢) ديوانه ٢ / ١٧٢١ .

(٣) م « حياء عن » .

(٤) فى الديوان لم لم أعوضه . . . إذ لم أكايله . . . » .

(٥) ديوانه ٢٣١ ، ٢ / ٧٧٢ « ولا أعطيتها » وهى فى مدح أحمد بن محمد بن المدبر . وسبق البيت الأول فى الجزء الأول ٤٢٩ ، « مقولى » وهو خطأ .

وكَيْفَ أَخَافُ الحَادِثَاتِ وصَرْفَها عَلَيَّ وَدُونِى أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ[١]

وقال :

فَإِنْ أَرَابَ صَدِيقِى فى الوِدَادِ فَكَمْ أَمْسَيْتُ أَحْذَرُ مَا قَدْ كُنْتُ آمُلُهُ[٢]
يَكْفِيكَ مِنْ عُدَّةٍ فى الدَّهْرِ تَجْعَلُها ذُخْرًا – سَمَاعُ أَبِى بَكْرٍ ونَائِلُهُ[٣]

وقال :

لاَ أَمْدَحُ المَرْءَ أَقْصَى مَا يَجُودُ بهِ نَيْلٌ يُكَسَّرُ مِنْ حَافَاتِ جُلْمُودِ
حَسْبِى بِأَحْمَدَ إِحْسَانًا يُبَلِّغُنِى مَدَى الغِنَى ، وبِفِعْلٍ مِنْهُ مَحْمُودِ

قوله : «وبِفِعْلٍ مِنه مَحْمودِ» . يريد معونته إياه على أموره ، وبَذْلِهِ جاهَهَ له :

ومن طريف خروج البحترى وعجيبه قوله :

إِذَا الرِّجَالُ اَعْتَمْتَ أَجوادَهم فَاَسْمُ إلى الأَشْرَفِ مَا فَالأَشْرَفِ[٤]
اَدْفَعْ بِأَمْثَالِ أَبِى غَالِبٍ عَادِيَةَ العُدْمِ أَوِ اَسْتَعْفِفِ

ومن جيد ذلك ونادره أيضًا قوله :

يَرْجُو البخيلُ اَغْتَرارِى أَوْ مُخَادَعَتِى حتَّى أَسوقَ إليه المَدْحَ مَجَّانَا
لأَكْسُوَنَّ بَنِى الفَيَّاضِ مِنْ مِدَحِى مَا بَاتَ مِنْه لَئِيمُ الناسِ عُرْيَانَا

وهذا فى غاية الحسن .

---

(١) يقصد ممدوحه : أحمد بن محمد بن المدبر .
(٢) ديوان البحترى ٩٧٠ ، ٣ / ١٨٢٩ فى مدح أبى بكر الكاتب ، المعروف بجرادة .
(٣) فى الديوان « الدهر » .
(٣) ديوانه ٣٤٧ ، ١ / ٥٥٧ فى مدح أحمد بن عبد الوهاب . فى م « ما تجود » .
(٤) ديوانه ٢٣٣ ، ٣ / ١٣٦٠ – ١٣٦١ فى مدح أبى غالب بن أحمد بن محمد بن المدبر .
واعتمت : اخترت ، ومنه قول طرفة : أرى الموت يعتام الكرام ... » .

وقال :

هَل الشَّبَابُ مُلِمٌّ بِي فَرَاجِعَةٌ أَيَّامُهُ لِي فِي أَعْقَابِ أَيَّامِي[١]
لَوْ أَنَّهُ نَائِلٌ غَمْرٌ يُجَادُ بِهِ لَقَدْ تَطَلَّبْتُه عِنْدَ ابنِ بِسْطَامِ

وهذا أيضًا خروج حسن طريف.

ومن جيد خروجه[٢] أيضًا قوله :

لِتَسْرِيَنَّ قَوَافِي الشِّعْرِ مُعْجَلَةً مَابَيْنَ سُيْرِهِ الْمُثْلَى وشُرَّدِهِ[٣]
جَوَازِيًا حَسَنًا مِنْ حُسْنِ أَنْعُمِهِ وعَنْ بَوَادِيه فِي الجَدْوَى وعُوَّدِهِ[٤]

* * *

ومن طريفات الخروج أيضًا قول أبي تمام :

تَدَاوَ مِنْ شَوْقِكَ الأَقْصَى بِمَا فَعَلَتْ خَيْلُ ابن يُوسُفَ والأَبْطَالُ تَطَّرِدُ[٥]
ذَاكَ السُّرورُ الذي آلَتْ بَشَاشَتُهُ أَنْ لَا يُجَاوِرَهَا فِي مُهْجَةٍ كَمَدُ

وهذا ـ لعمرى ـ معنى فى غاية الحسن والحلاوة .

وقال أبو تمام :

تَوَاتَرَتْ نَكَبَاتُ العُسْرِ تَرْشُقُنِي بِكُلِّ صائِبَةٍ عَنْ قَوْسِ عَضْبَانِ[٦]
مَدَّتْ عِنَانَ رَجَائِي فَاسْتَقَدْتُ لَهَا حَتَّى رَمَتْنِيَ فِي بَحْرِ ابنِ حَسَّانِ[٧]

---

(١) ديوان البحترى ٤ / ٢٠٩٦ من قصيدة يمدح بها أبا العباس : أحمد بن محمد بن بسطام .

(٢) م « خروجاته » .

(٣) ديوانه ٥٨٠ ، ١ / ٤٩٩ فى مدح الحسن بن مخلد .

(٤) فى الديوان « عن حسن » .

(٥) ديوان أبى تمام ٩٧ وشرح التبريزى ٢ / ١٢ « أى تسل عن غمك بفراق أحبتك بسرورك بما فتحت خيل محمد بن يوسف الطائى » .

(٦) ديوانه ٣٢٤ وشرح التبريزى ٣ / ٣١٢ ويروى : « نكبات الدهر » .

(٧) فى الشرح « رمت بى » .

بَحْرٌ مِنَ الجُودِ يَرْمِى مَوْجُهُ زَبَدًا   حَبَابُهُ الوَدْقُ مَقْرُونٌ بِعِقْيَانِ[1]

وهذا من لفظ العوام وأشعار الصبيان .

ومن ردىء خروجه أيضًا قوله :

وَدِّعْ فُؤَادَكَ تَوْدِيعَ الفِرَاقِ فَمَا   أَرَاهُ مِنْ سَفَرِ التَّوْدِيعِ مُنْصَرِفَا[2]

يُجَاهِدُ الشَّوْقَ طَوْرًا ثُمَّ يَجْلِبُهُ   جِهَادُهُ القَوافِى فى أَبِى دُلَفَا[3]

وقد أصلحه الناسُ : «مُجَاهدَاتُ القوافى» . وبقى ما لا يمكن إصلاحه وهو قبح قوله : «يَجْلِبُهُ» ، فإنها لفظة بشعة .

ومجاهدته للقوافى أيضًا معنى ردىء . وإنما كان ينبغى أن يقول :

إن الشعر يُيَسَّرُ فيه ، وتطّرد قوافيه بمدحه لكثرة فضائله ، ويأْتى فيه عَفْوًا ، ولا يتعَذَّر ، كما قال :

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ   حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ[4]

* * *

ومن ردىء خُرُوجه[5] أيضًا وقبيحه قوله :

يَعْجَبْنَ مِنِّى أَنْ سَمَحْتُ بِمُهْجَتِى   وكَذَاكَ أَعْجَبُ مِنْ سَمَاحَةِ جَعْفَرِ[6]

مَلِكٌ إِذَا الحاجاتُ لُذْنَ بِحِقْوِهِ   صَافَحْنَ كَفَّ نَوَالِهِ المُتَيَسِّرِ

فلم عجب من سماحة جعفر؟ وإنما العجب من سماحة البخلاء ، فأما

---

(١) م «موجه أبداً» وفى الديوان وشرحه «فضة زينت» .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٠١ وشرح التبريزى ٢ / ٣٦٢ .

(٣) م «الشوق طراً . . . فجاهدته» .

(٤) ديوانه ٢٢٧ .

(٥) م «خروجاته وقبيحها» .

(٦) ديوانه ٣٩٨ وفى م «أن سهرت» .

الكرماءُ الذين من عاداتهم البذل فما وجه التعجب من سماحتهم ؟

وليس فى البيت الثانى ما يوجب التعجب ، وإنما ذكر فيه أن نواله متيسّر . وهو بيت ردىء .

* * *

ومن ردىء خروجه[1] أيضًا لفظًا ومعنى قوله :

يقولُ أُنَاسٌ فى حَبِينَاءَ عَايَنُوا عِمارةَ رَحْلِي مِنْ طَرِيفٍ وتَالِدِ[2]

أأظْهَرْتَ كَنْزًا أَمْ صَبَحْتَ بِغَارَةٍ ذَوِى غِرَّةٍ حَامِيهُمُ غَيْرُ شَاهِدِ[3]

فَقُلْتُ لَهُمْ : لَاذَا وَلَا ذَاكَ دَيْدَنِى ولَكِنَّنِى أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ خَالِدِ

وهذا من معانى العوام أن يقولوا لمن رأوا حالَه قد حسنت : عَلَى مَنْ أغَرْتَ أَوْ أَىّ كنْز وجدت؟ وما ظننت مثل هذا يُنْظَم فى شعر .

وقوله : «أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ خَالِدِ» كلام كالفارغ . وإنما كان ينبغى لمن ابتلاه الله بهذا المعنى أن يقول فى جوابهم : نعم كنز خالد ، وأغار على ندى خالد . ولكنه ، لعمرى ، بَيَّنَ المعنى فى البيت الثانى ، وعرَّفهم سبب عِمَارَة رَحْلِه بأن قال :

جَذَبْتُ نَدَاهُ غُدْوَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً فَخَرَّ صَرِيعًا بَيْنَ أَيْدِى القَصَائِدِ

وهذا ، وأبيه ، معنى متناه فى بَرْدِهِ وغَثَاثَتِه وركاكته ، ولَشتِيمَةُ الممدوح عندى بالزنى أحسن وأجمل مِنْ جَذْب نداه حتى يَخرَّ صَرِيعًا !!!

ولو لم يعلمنا أن ذلك كان غُدْوَة السبت كيف كان يتم بَرْدُ المعنى .

و «حَبِينَاءُ» : اسم موضع ، فى غاية القبح والهجانة. فإنهم وإن كانوا

---

(١) م «خروجاته» .

(٢) ديوان أبى تمام ٩٥ وشرح التبريزى ٢ / ٥ فى مدح خالد بن يزيد الشيبانى .

(٣) ويروى «أصادفت كنزاً» .

قالوا ما قالوا له فى هذا الموضع فإنّه لم يك مضطرًّا إلى ذكره ، كما أنه لم يك مضطرًّا إلى ذكر غُدْوةِ السَّبْت .

ومن سبيل الشاعر أن لا يذكر إلّا ما حسُنَ من أسماءِ المواضع ، وأن يعتمد أسماءَ المواضع الغريبة المتكررة فى أشعار الفصحاء ؛ ألاترى أن «الفرَزْدَق» أنكر على «مالك بن أَسْمَاء بن خَارِجَةَ» وقد أنشده :

* حبَّذَا لَيْلَتِى بِتِلٍّ بَوَنَّا[1] *

فقال : أفسدت أبياتك بذكر بَوَنّا ، فقال له : فنى : «بَوَنَّا» كان ذلك . قال : وإن كان .

* * *

ومن خروجه الردىء قوله[2] :

يَدُ الشَّكْوى أَتَتْكَ عَلَى البَرِيدِ تُمَدُّ بها القَصَائِدُ مِنْ نَشِيدِ[3]

تُقَلِّبُ بَيْنَهَا أَمَلًا جَدِيدًا تَدَرَّعَ حُلَّتىْ طَمَعٍ جَدِيدِ

شكوتُ إلى الزمانِ نُحُولَ جِسْمِى فَأَرْشَدَنِى إلى عَبْدِ الحَمِيدِ

فقوله : «تُقَلِّب بينها» . يعنى القصائِد .

وقوله : «أملا جديدًا تدرَّع حُلَّتِى طمَع جديد»[4] لفظ ردىء جدًّا ؛ لأن معنى الطمع والأَمل والرجاءُ معنى واحد فى مقاصد الناس واستعمالهم ،

(١) الشعر والشعراء ٢ / ٧٥٧ والأغانى ١٦ / ٤٠ .

(٢) م «خروجاته الرديئة» .

(٣) ديوان أبى تمام ١٣٦ وشرح التبريزى ٢ / ١٣٣ فى مدح عبد الحميد بن جبريل «القصائد بالنشيد» ويروى «تمديد القصائد» !

(٤) م «حلتى أمل» .

تقول : أنا آمل من الله تعالى الفرج ، كما تقول : أطمع وأرجو . وإنما يُنْسَقُ بعضها على بعض لاختلاف اللفظ .

وتقول : قد انقطع من فلان الطمع ، وانقطع الأمل ، وانقطع الرجاءُ . وكذلك خاب .

فإن كان بين هذه الألفاظ فرق فى أصل وضع الكلام [فقد أُجريت] (١) مُجْرى واحدًا فلا فائدة إذًا فى قوله : «أَمَلًا جَدِيدًا تَدرَّعَ حُلَّتىْ طَمَعٍ جَدِيدِ » .

ولو كان قال : تَدَرَّعُ حُلَّتَىْ عزم جديد كان أولى بالصواب ، إن شاء الله .

قوله :

شكَوْتُ إلى الزَّمَانِ نُحُولَ جِسْمِى فأَرْشَدَنِى إلى عَبْدِ الحَمِيدِ

لو كان عبد الحميد طبيبًا كان يكون معنى البيت مستقيمًا ؛ لأن الرجل المُعْتَرَّ (٢) الطالب الجدوى لا يشكو نحول جسمه إلى ممدوحه الذى يلتمس الفضل منه ، وإنما يشكو إليه اختلال الحال ، وقُصُورَ اليد ، فأما أن يشكو إليه نحول الجسم فإن ذلك غاية الخناعة (٣) والنَّذالة والانحطاط فى المسألة . إنَّه (٤) يخبره بشدة جوعه وأن ذلك هو الذى أذاب لحمه . وهذا لا يقوله شاعر على هذا الوجه . بل إنما يذكر الخمص بوجه (٥) حسن ، ولفظ معتاد . ونحول الجسم فإنما يشتكى إلى الحبيب إذا كان من غلَّة أو عشق .

---

(١) زيادة لازمة .

(٢) م « المقتر » .

(٣) م « الصناعة » .

(٤) م « إنما » .

(٥) م « وجه » .

ولو كان قال : شكوت إلى الزمان قصور حال ، كان أشبه من نحول الجسم الذى قد يكون من أشياء كثيرة .

أو لو كان ذكر هَجْرَ حبيبٍ وما لَحِقَهُ من الضَّنَى والسقم ـ لَصَلُح أن يجعل شكواه إلى الممدوح كما قال أبو نواس :

سَأَشْكُو إلى الفَضْل بن يحيى بنِ خالدٍ هَوَاكُم لَعَلَّ الفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا[1]

فقال الفضل : جعلنى قوّاده . وإنما أراد أبو نواس لعل الفضل يُثِيبُنِى بما أَصِلُ به إلى الاجتماع معكم .

* * *

وهذا الباب فى الخروج من النسيب إلى المديح مما لا خفاء بفضل البحترى فيه على أبى تمام .

* * *

(١) ديوان أبى نواس ٧٥ « هواك » والعمدة ١ / ٢٣٥ .

وللمتأخرين خروجات ظريفة حلوة نادرة

فمن ذلك قول ابن وُهَيْب :

رُبَمَا أَبيتُ معَانِقِى قَمَرٌ للحسن فيه مَخَايِلٌ تَضِحُ[١]

نَشَرَ الجُمَانُ عَلَى مَحَاسِنِهِ بِدَعًا وأَذْهَب هَمَّهُ الفَرحُ[٢]

يختال فى ودق الشبابِ به مَرِحٌ وداوُك أنَّهُ مَرِحُ[٣]

ما زال يُلْثِمُنى مَرَاشِفَهُ ويُعِلُّنى الإبريق والقَدَحُ[٤]

حتى اسْتَرَد الليلُ خِلْعَتَهُ ونَشَا خِلَالَ سَوَادِهِ وَضَحُ

وبَدَا الصَّباحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ الخَليفَةِ حين يُمْتَدحُ[٥]

وحسبك بهذا حسناً يزيد على كل ما تقدم للطائيّين.

* * *

ومن المذاهب الطريفة فى باب الخروج قول «بكر بن النَّطَّاح الحنفى» فى قصيدة يمدح فيها مالكاً الخُزَاعِى :

عَرَضْتُ عليها ما أَرَادَتْ مِنَ الْمُنَى لِتَرْضَى فقالت: قُمْ فَجِئْنِى بِكَوْكَبِ[٦]

---

(١) الأغانى ١٧ / ١٤٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٥٨ وأنوار الربيع ٣٦٩ .

(٢) فى الأغانى وما بعده « نشر الجمال » .

(٣) وفيها « فى حلل الشباب » .

(٤) الصناعتين ٦٣ وزهر الآداب ٢ / ٥٩٨ .

(٥) الخليفة : المأمون . والبيت فى معجم الشعراء ٤٢٠ والصناعتين ٦٣ ، ٤٥٥ ومعيار الشعر ١١٤ وزهر الآداب ٢ / ٥٩٨ .

(٦) الكامل للمبرد ٢ / ٧٠٨ والعمدة ٢ / ٣٨ .

فَقُلْت لها : هذا التَّعنتُ كُلُّهُ كَمَنْ يَتَشهَّى لَحْمَ عَنقاءِ مُغْرِب
فَلَوْ أنني أصبحتُ في جُودِ خَالِد وعِزَّتِهِ ما نال ذلك مَطْلَبي[١]
فَتًى شَقِيتْ آمَالُهُ بِسَمَاحِهِ كما شَقِيَتْ قيسٌ بأرْمَاحِ تغلبِ

* * *

ونحوه قول الخليع[٢] فى كلمة يمدح فيها عاصمًا الغَسَّانى :

أقول ونفسي بَيْنَ شَوْقٍ وحَسْرَةٍ وقد شخصَتْ عيني ،ودَمْعِي عَلَى خَدِّي :[٣]
أَرِيحِي بقتل مَنْ تركْتِ فؤادَه بِلَحْظَتِهِ بَيْنَ التَّأسُّفِ والجَهْدِ
فقالت : عَذَابٌ بالهوى قَبْلَ مِيتَةٍ وَمَوْتٌ إذا أقْرَحْتَ قَلْبَكَ مِنْ بَعْدِى
لقد فَطِنَتْ بالجود فِطْنَةَ عَاصِمٍ لِصُنْعِ الأيَادِي الغُرِّ فى طلب الحَمْدِ

وهذا يسميه قوم « الاستطراد » . وهو حسن جدًّا .

---

(١) فى الكامل « فى جود مالك » وهو الصواب لأن الأبيات فى مدح مالك بن على الخزاعى .

(٢) الخليع لقب للحسين بن الضحاك ، لقب به لكثرة خلاعته ومجونه .

(٣) الأبيات له فى الأغانى ٦ / ٢٠٣ والكامل ٢ / ٧٠٩ .

باب المديح

أول ما أبدأ به من مدائحهما ذكر السؤدد والمجد وعلو القدر ، ثم ما يخص الخلفاء من ذلك دون غيرهم : من[1] ذكر الخلافة وما يتصرف عليه القول من معانيها.

وذكر الملك والدولة .

وذكر ما يخص أهل بيت النبوة من المدح دون من سواهم : من ذلك ذكر طاعتهم ، والمحبة لهم ، والمعرفة لحقهم .

وذكر الآلة التى كانت للنبى ، عليه السلام ، فصارت إليهم .

وذكر الآثار بالحرم ، وذكر علو القدر وعظم الفضل .

وذكر تأييد الدين وتقوية أمره .

وذكر الرأفة والرحمة . وذكر إفاضة العدل وإقامة الحق .

وذكر سداد الرأى وحسن السياسة والتدبير والاضطلاع بالأمور والحلم والعقل .

وذكر الجلال والجمال والبهاء والجهارة والهيبة .

وذكر كَرَمِ الأخلاق ولينها .

وذكر ما ينبغى أن يمدح به الخلفاء من الجود والكرم .

وذكر ما ينبغى أن يُمدحوا به من الشجاعة والبأس .

---

(١) م « ومنه » .

أمر الخلافة وما يتصرف عليه القول من معانيها

قال أبو تمام فى المعتصم :

إنَّ الخليفةَ حِينَ يُظْلِمُ حَادِثٌ عَيْنُ الْهُدَى ، ولَهُ الخِلَافَةُ مَحْجِرُ[١]

كَثُرَتْ بِهِ حَرَكَاتُهَا ولقد تُرَى مِنْ فَتْرَةٍ وكَأَنَّها تَتَفكَّرُ[٢]

مَا زِلْت أَعْلَمُ أَنَّ عَقْدَ مَرَامِها فى كفِّه مُذْ خُلِّيتْ تَتَخَيَّرُ[٣]

قوله : « كثرت به حركاتها » . يريد به ظهور الأمر والنهى والتدبير والسياسية .

ويريد بالفَتْرَةِ ما كان من إهمال هذه الأشياء . و « كأنها تتفكر » لفظ ليس بالحلو ولا الشَّهيِّ هاهنا .

وقال فيه :

فَلَاذَت بِحِقْوَيْهِ الخِلَافَةُ وَالْتَقَتْ على خِدْرِها أَرْمَاحُهُ ومَنَاصِلُهُ[٤]

أَتَتْهُ مُعِدًّا قَدْ أَتَاهَا كَأَنَّهَا ولا شَكَّ كَانَتْ قَبْلَ ذَاكَ تُرَاسِلُهْ

فالبيت الأول جيد بالغ .

والبيت الثانى فى غاية السخف والرداءة ؛ لأنه جعل الخلافة قد أتته ، وجعله قد أتاها . وكان ينبغى أن يقتصر على إتيانه إياها ، أو إتيانها إياه وهو أجود .

---

(١) ديوان أبى تمام ١٥٨ وشرح التبريزى ٢ / ٩٦ .

(٢) م « حركاته فلقد ترى من فكره » .

(٣) فى الديوان « أن عقدة أمرها » .

(٤) ديوانه ٢٣١ وشرح التبريزى ٣ / ٢٦ .

فأما أن يجمع بين الحالين فما وجهه؟ وكان ينبغى أن يُعْلِمَنَا لما توجّه كل واحد إلى صاحبه : أين التقيا ؟ أفى منتصف الطريق ؟

وقصد هذا الرجل الإغراب فى الألفاظ والمعانى ؛ ومن ها هنا فسد أكثر شعره .

وقوله[1] : « ولا شك » من سخيف الألفاظ وسَفْسَافِهَا ، وهى حَشْو ردىء ، وليس بالبيت إليه حاجة .

* * *

والجيد النادر فى هذا قول البحترى فى المهدى بالله :

بَارَكَ اللهُ للخليفةِ فى المُلْـ ... ـك الذى حَازَهُ لَهُ المِقْدَارُ[2]

رُتْبَةٌ مِنْ خِلَافَةِ اللهِ قَدْ طَا ... لَتْ بها رِقْبَةٌ لَهُ وَانْتِظَارُ

طَلَبَتْهُ فَقْرًا إِلَيْهِ وما كَا ... نَ بِهِ سَاعَةً إليها افْتِقَارُ[3]

ومثله فى الجودة قوله فيه :

سَرَتْ تَتَبَغَّاهُ الخِلَافَةُ رَغْبَةً ... إليهِ بِأَوْفَى قَصْدِهَا وَاعْتِمَادِهَا[4]

فَمَا عَلِقَتْه خَبْطَ عَاشِيَةِ الدُّجَى ... وَلَكِنَّهَا اخْتَارَتْهُ بَعْدَ ارْتِيَادِهَا

فهذه هى المعانى الصحيحة ، واللفظ المستقيم ، والسَّبْك الرَّصِين .

وما أَحسن ما قال « سَلْم الخَاسِر » فى المَهْدِى :

هَبَطَتْ إليكَ من السماءِ خِلَافةٌ ... دَفَعَتْ إليكَ زِمَامَها وقيادَها

---

(١) م « قولك » .

(٢) ديوان البحترى ١٠٥ ، ٢ / ٨٥٣ .

(٣) م « طلبته فقر . . . ساعة إليه » .

(٤) ديوانه ١١٠ ، ٢ / ٦٧٥ ويروى « سعت » .

ومثل قول البحترى قول «الحطيئة»:

أنت الإِمام الذى مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ ... أَلْقَى إليكَ مَقَالِيدَ النُّهَى البَشَرُ[١]

مَا آثَرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا ... لَكِنْ بِكَ اسْتَأْثَرُوا إِنْ كانَتِ الأَثَرُ[٢]

وقال «ابن هَرْمَة» فى المنصور:

وما النَّاسُ أَعْطَوْكَ الخلافَةَ عَنْوَةً ... ولكنَّه مَنْ يُعْلِهِ اللهُ يَسْتَعْلِى

ومن ذلك فى الجودة قولُ البحترى:

اليوم أُطْلِعَ للخلافَةِ سَعْدُهَا ... وأَضَاءَ فيها بَدرها المُتَهَلِّلُ[٣]

لَبِسَتْ جَلاَلَةَ جَعْفَرٍ فكَأَنَّها ... سَحَرٌ تَجَلَّلَهُ النَّهارُ المُقْبِلُ[٤]

جاءَتْهُ طَائِعَةً ولَمْ يُهْزَزْ لَهَا ... رُمْحٌ، ولم يُشْهَرْ عليها مُنْصُلُ[٥]

أَنَّى وإِنْ كانَتْ تَعَلَّتْ نَحْوَهُ ... مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقَعَ الفَضَاءُ فَتُعْقَلُ[٦]

حتَّى أَتَتْهُ يَقُودُهَا اسْتِحْقَاقُهُ ... ويَسُوقُهَا حَظٌّ إليه مُقْبِلُ[٧]

ويروى: «ويسوقها حظٌّ إليه مكمل».

و «تُصْنَع» كانت هاهنا أحسن من «تُعْقَلُ» فجاء بتعقل من أجل القافية.

* * *

وقال أبو تمام فى الواثق:

إِنَّ الخِلاَفَةَ أَصْبَحَتْ حُجُرَاتُها ... ضُرِبَتْ عَلَى ضَخْمِ الهُمُومِ هُمَامِ[٨]

---

(١) ديوان الحطيئة ٨١ «أنت الأمين».

(٢) فى الديوان «لم يؤثروك... لكن لأنفسهم كانت بك الخير».

(٣) ديوان البحترى ٢٥ «وأضاء فيه»، ٣ / ١٧٥٤ — ١٧٥٥.

(٤) فى الديوان ٢٥ «لبست خلافة.. تجلله النهار..» والبيت مع سابقه فى الجزء الأول ص ٣٧٣.

(٥) م «ولم يشهد»!

(٦) فى الديوان «وإن كان التلفت نحوه». وفى طبعة المعارف «أنى وقد كانت تلفت نحوه».

(٧) م «يقودها استخفافه»!

(٨) ديوان أبى تمام ٢٧٧ «ضخم العطاء».

ضخم الهَمُوم: يريد ضَخْمَ الهِمَّةِ لا الهَمُّ الذى يراد به الحُزْن. وهذا لفظ هجين فى هذا الموضع .

لَا قَدْحَ فى عُودِ الخِلَافَةِ بَعْدَمَا مَتَّتْ إليكَ بِحُرْمَةٍ وذِمَامِ[1]

هيهات تِلْكَ قِلَادَةُ اللهِ التى ما كانَ يَتْرُكُها بغير نِظَامِ

إرْثُ النَّبىِّ وجَمْرَةُ المُلْكِ التى لَمْ تَخْلُ مِنْ لَهَبٍ بِكُمْ وضِرَامِ[2]

مَنْحُورَةٌ أَحْرَزْتها بِحُكُومَةٍ لله تَشْدَخُ أَرْؤُسَ الحُكَّامِ[3]

وقال أبو تمام فى الواثق أيضًا :

جَعَلَ الخِلَافَةَ فيه ربٌّ قَوْلُهُ — سبحانه — للشىء : كُنْ فَيَكُونُ[4]

ولقَدْ رَأَيْنَاها لَهُ بِقُلُوبِنَا وظُهُورُ خَطْبٍ دُونَهُ وبُطُونُ[5]

وَلِذَاكَ قِيلَ : مِن الظنون جَلِيَّةٌ صِدْقٌ وفى بَعْضِ القُلُوبِ عُيونُ[6]

ولَقَدْ عَلِمْنَا مُذْ تَرَعْرَعَ أَنَّهُ لِأَمين ربِّ العَالَمِينَ أَمِينُ

قوله : «جعل الخلافة فيه رَبٌّ » بيت فى غاية الرَّكَاكة والرَّداءة ؛ لأن مثل هذا إنما يقال فى الأَمر العجب الذى لم يكن يُقَدَّرُ ولا يتوقع . ولا يُظَنُّ أن مِثْلَه يكون ، فيقال إذا وقع ذلك : قُدْرَةُ قَادِرٍ ، وفِعْلُ من لا يعجزه أَمْرٌ ، ومَنْ يقول للشىء : كن فيكون . فأَما الأُمورُ التى لا يتعجب منها ، ولا تُستغرب ، والعاداتُ جاريةٌ بها وبما يشبهها — فلا يقال فيها

---

(١) م « ثبتت إليك » .

(٢) م « الملك الذى » .

(٣) فى الديوان « لله تعلو » .

(٤) ديوان أبى تمام ٣٢٩ وشرح التبريزى ٣ / ٣٢٦ .

(٥) أى كنا نقدر أنها تصير إليه بالمخايل الدالة ، وبينه وبينها مدة بعيدة .

(٦) م « ولذلك » .

مثل هذا ، وإنما يُسَبّح الله تعالى ، وتُذْكرُ قدرتُه على تكوين الأشياء لَوْ جَاءُوا بِأَبِى العِبَرِ[١] أَوْ بِجُحا فجعلوهُ خَلِيفةً .

فأَما الواثق فما وجه تسبيح أَبى تمام فى أن أَفضت إليه الخلافة وأبوه خليفة وهو المعتصم ، وجده خليفة وهو الرشيد ، وجد أَبيه خليفة وهو المنصور ، وأخو جده خليفة وهو الهادى ، وأَخو جد جده خليفة وهو السَّفَّاح ، وعماه خليفتان : الأَمين والمأْمون ؟ فذلك ثمانية خلفاء هو تاسعهم[٢] وقد عدد أَبو تمام منهم خمسة فى البيت فقال :

يَسْمُو بِكَ السَّفَّاحُ والمَنصُورُ الْ ... مهدِىُّ والمَعْصُومُ والمَأْمُونُ[٣]

وذكر الرشيد قبل هذا بأَبيات ، وشبّه الواثقَ به فقال :

[وَجَدُوا جَنَابَ المُلْكِ أَخْضَرَ] وَاجْتَلَوْا ... هَارُون فيه كَأَنَّهُ هَارُون

فما وجه التعجب من خلافةِ مَنْ كانت هذه صورته ؟

وقوله : « ولَقَدْ رَأَيْنَاها لَهُ بِقُلُوبِنَا » وقوله : « ولِذَاكَ قِيلَ مِنَ الظُّنُونِ جَلِيَّةٌ صِدْقٌ » – فهذه كهانة عجيبة من أَبى تمام فى الواثق لم يفطن لها غيره .

وعلى أَن هذين البيتين جَيِّدان فى نظمهما ولفظهما ، ولكنه وضع المعانى فى غير مواضعها .

وقوله : « لأَمينِ ربِّ العَالَمِين أَمِينُ » يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أبو العبر : هاشمى من بنى العباس . كان أديباً شاعراً ماجناً يظهر الحماقة وله فيها كتاب اسمه : « جامع الحماقات وحاوى الرقاعات . توفى سنة ٢٥٠ هـ وترجمته فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٤٢ والأغانى ٢٠/٨٩ – ٩٣ وتاريخ بغداد ٥/٤٠ .

(٢) نقل هذا النقد ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ فى كتابه سر الفصاحة ٢٣٤ ثم قال : « وهذا الذى ذكره أبو القاسم صحيح واضح » .

(٣) ديوانه ٢٣٠ .

وقد أصاب « أبو الجَنُوب مَرْوَان بن أَبِى حَفْصَةَ » فى هذا المعنى إذ يقول للأمين :

إنَّ الخِلَافَةَ قَدْ تَبَيَّنَ نُورُهَا للناظرينَ عَلَى جَبِينِ مُحَمَّدِ

إنِّى لأَعْلَمُ أَنَّهُ لَخَلِيفَةٌ إنْ بَيْعَةٌ عُقِدَتْ وإنْ لَمْ تُعْقَدِ

وما أحسن ما قال « الحسين بن الضَّحاك[1] البَاهِلِىّ » فى المأمون أيضًا :

رأى اللهُ عَبْدَ اللهِ خَيْرَ لِذَاتِهِ فَمَلَّكَهُ ، واللهُ أَعْلَمُ بالعَبْدِ[2]

* * *

وقال البحترى فى المتوكل ، وزاد على الإحسان :

اللهُ آثَرَ بالخِلَافَةِ جَعْفرًا ورآهُ نَاصِرَهَا الذى لا يُخْذَلُ[3]

هِىَ أَفْضَلُ الرتب التى جُعِلَتْ لَهُ دُونَ البَرِيَّةِ ، وهْو مِنْهَا أَفْضَلُ[4]

وقال فيه :

إنَّ الخِلَافَةَ لَمَّا اهْتَزَّ مِنْبَرُهَا بِجَعْفَرٍ أُعْطِيَتْ أَقْصَى أَمَانِيهَا[5]

أَبْدَى التَّواضُعَ لَمَّا نَالَهَا رِعَةً عَنْهَا ، ونَالَتْه فَاخْتَالَتْ بِهِ تِيهَا[6]

وهذا هو المعنى الحلو ، والمدح الذى يليق بالخلفاء .

---

(١) م « الحسين بن أبى الضحاك » وهو خطأ .

(٢) البيت فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦٩ وديوان المعانى ٢ / ٢٠٦ والفرج بعد الشدة ١ / ٧٤ ونهاية الأرب ٣ / ٢٥٦ .

(٣) ديوانه ٢٣ .

(٤) م « أفضل الدنيا » .

(٥) ديوانه ٢٨ ، ٤ ١٤٢١ .

(٦) فى الديوان : « نالها دعة » .

وقال فى المهدى :

زَادَ فى بَهجَةِ الخِلَافَةِ نُورًا فَهْوَ شَمْسٌ للنَّاسِ ، وهْى نَهَارُ[١]

وأَجَارَ الدُّنْيَا مِنَ الحَيْفِ والخَوْ فِ فَهَلْ يَشْكُرُ المُجِيرَ المُجَارُ

وقال فى المتوكل :

عَادَتْ بِحَقْوَيْكَ الخِلَافَةُ إنَّها قِسْمٌ لِأَفْضَلِ هَاشِم فالأَفْضَلِ[٢]

وتَمَنَّعَتْ فى ظل عِزِّك وَاْغتَدَتْ فى خَيرِ مَنْزِلَةٍ وأَحْصَنِ مَعْقِلِ[٣]

أخذ قوله : « عادَت بحقويلك[٤] الخلافة » من قول أبى تمام :

عَاذَت بِحِقْوَيْكَ الخِلَافَةُ وَاْلتَقَتْ على خِدْرِها أَرْمَاحُهُ وَمَنَاصِلُهْ[٥]

وقال فى المعتز :

حَامِلٌ مِنْ خِلَافَةِ اللهِ ما يَعْ جِزُ عَنْهُ ذُو الأَيْدِ والإِضْطَلَاعِ[٦]

مُسْتَقِلٌ بالثِّقْلِ مِنْها رَحِيبُ ال صدْرِ نَهْضًا بِهَا رَحِيبُ البَاعِ

وقال فى المتوكل :

وَقَدْ سَرَّ فِى أن الخِلَافَةَ فِيكُمُ مُخَيِّمَةٌ ما إنْ يُخَافُ اْنتِقَالُها[٧]

لَكُمْ إرْثُها والحَقُّ مِنْهَا ولَم يَكُنْ لِغَيرِكُم إلَّا اْسْمُها وَاْنتِحَــالُها

وقال فيه :

وأَرى الخِلَافَةَ وَهْىَ أَعْظَمُ رُتْبَةٍ حَقًّا لَكُمْ وَوِرَاثَةً مَا تُنْزَعُ[٨]

---

(١) ديوانه ١٠٦ ، ٢ / ٨٥٤ فى مدح المهتدى بالله وفى م « شمس النهار » .

(٢) ديوانه ١٦ « بحقواك » وفى ٣ / ١٦٢٧ كما هنا .

(٣) فى الديوان « وأحسن معقل » .

(٤) م « بحقويه » .

(٥) ديوانه ٢٣١ « ولاذت بحقويه » .

(٦) ديوانه ١٣٢ ، ٢ / ١٢٤٤ .

(٧) ديوانه ٢٦٦ ، ٣ / ١٦٣١

(٨) ديوانه ٣٤ ، ١٣١١ .

أَعْطَاكُمُوهَا اللهُ عَنْ عِلْمٍ بِكُمْ وَاللهُ يعْطى مَنْ يَشَاءُ ويَمْنَعُ

وقال فى المعتز :

أَغَرُّ مِنَ الأَمْلَاكِ إِمَّا رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ أَبَا إِسْحَاقَ والقَرْمِ جَعْفَرَا[1]

تَقَدَّمَ فى حَقِّ الخِلَافَةِ سَهْمُهُ إِذَا رُدَّ عَنْها غَيْرُهُ فَتَأَخَّرَا[2]

ويُصْبِحُ مَعْرُوفًا لَهُ الفَضْلُ دُونَهُمْ وَمَا يَتَدَعَّاهُ الأَبَاعِدُ مُنْكَرَا[3]

وقال فى المتوكل :

فَضَلُ الخَلَائِفِ بالخلَافَةِ وَاقِفٌ فى الرُّتْبَةِ العُلْيَا ، وفَضْلُكَ أَفْضَلُ[4]

أَوْفَيْتَ عَاشِرَهُمْ فَإِنْ نُسِبُوا إِلى كَرَمٍ وإِحْسَانٍ فَأَنْتَ الأَوَّلُ[5]

وهذا غاية فى مدح الخلفاء .

وقال فى المتوكل أيضًا بفضله على الخلفاء ، وأحسن كلّ الإحسان :

ومَا الخُلَفَاءُ لَوْ جَارَوْكَ يَوْمًا بمُعتلقيك رَأْيًا وَاعْتِزَامَا[6]

أَلَسْتَ أَعَمَّهُمْ جُودًا وَأَزْكَا هُمُ عُودًا وأَمْضَاهُمْ حُسَامًا ؟

وَلَوْ جُمِعَ الأَئِمَّةُ فى مَقَامٍ تَكُونُ به لَكُنْتَ لَهُمْ إِمَامَا

ولست أعرف لأبى تمام فى ذكر الخلافة غير ما قدمته .

---

(١) ديوانه ٧٦٣ ، ٩٣٢ وأبو إسحاق : المعتصم ، وجعفر : المتوكل .

(٢) فى الديوان « حق الإمامة . . . رد فيها » .

(٣) وفيه « يتداعاه » .

(٤) ديوانه ٢٦ ، ٣ / ١٧٥٧ .

(٥) فى الديوان « ألفيت عاشقهم فإن ندبوا » ! وفى طبعة المعارف « عاشرهم فإن ندبوا » .

(٦) ديوانه ٣٠ ، ٣ / ٢٠١٠ وفى م « بمتاقيك » .

ومن مدح الخلفاء ذكر الملك والدولة

قال أبو تمام فى المعتصم :

بِالقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلِفِ اطَّأَدَتْ قَوَاعِدُ المُلْكِ مُمْتَدًّا لَهُ الطِّوَلُ[١]

بِيُمْنِ مُعْتَصِمٍ باللهِ لا أَوَدٌ بالمُلْكِ مُذْ ضَمَّ قُطْرَيْهِ ، ولا خَلَلُ[٢]

قوله : « مُمْتَدًّا له الطِّوَلُ » . والطِّوَلُ : الحَبْلُ ، ولا وجه له هاهنا ، وليس يريد الطول بمعنى الزمان من قولهم : طَالَ طِيلُك وطِولُك وطِوَالُك ؛ لأن ذلك يكون اطأدت قواعد الملك ممتدًّا أزمانه ، ولا يصلح فى الحال هاهنا ، لأن الفعل وهو « اطَّأَدتْ » لا يكون عاملا فيها ؛ لا تقول : قد استقر البناءُ طويلا زمانه ؛ لأن استقراره ليس هو من طول مدته فى شىء ، وإنما تقول : قد استقر البناءُ جيِّدًا عمله ، ومُتْقَنًا أساسه ، أو وَثِيقًا صنعته ، أو أن تقول : طويلا شرفه أو علوّه . وإلى هذا أذهب كأنه أراد واطَّأَدَتْ قواعد الملك مُمْتَدًّا له الطِّوَلُ أى رسا أصله ، وعلا فرعه ، كما قال البحترى فى المعتز بالله :

بِكَ اشْتَدَّ عَظْمُ المُلْكِ فيهمْ فَأَصْبَحَتْ تَقِرُّ رَوَاسِيهِ وتَعْلُو مَرَاتِبُهْ[٣]

فجعل موضع تعلو مراتبه : « مُمْتَدًّا لَهُ الطِّوَلُ » ، وهذا غير حسن ولا لائق . بلى ، لو قال : « فَلْيُمدَدْ له الطِّوَل » على الدعاء كان سائغًا ، إلّا أنّ « الطول » ها هنا على كل حال غير جيد ؛ لأنها لفظة مشتركة[٤] .

(١) ديوان أبى تمام ٢٢٧ « اعتدلت » ومعنى « اطأدت : ثبتت » .

(٢) ويروى « بالدين مذ » .

(٣) ديوان البحترى ١٣٧ ، ١ / ٢١٨ .

(٤) م « سائغاً لا أن » .

وقال أبو تمام فى نحوه :

بِيُمْنِ أَبِى إِسْحَقَ طَالَتْ يَدُ الهُدَى وَقَامَتْ قَنَاةُ المُلْكِ ، وَاشْتَدَّ كَاهِلُهْ[١]

وهذا بيت جيد . وقد قال قبله : ... ؟ « وأَضْحَى المُلْكُ قَدْ شُقَّ بَازِلُهْ »[٢]

وكان أحدهما يغنى عن الآخر .

* * *

وقال البحترى فى المعتز :

أَقَامَ قَنَاةَ المُلْكِ بَعْدَ اعْوِجَاجِهَا وَأَرْبَى عَلَى شَغْب العَدُوِّ المُشَاغِبِ[٣]

وقال البحترى :

مَلِكٌ حصَّنَتْ عَزِيمَتُه المُلْـ ـكَ فَأَضْحَتْ لَهُ مُعَانًا وَرِدْءَا[٤]

وقال فى تعظيم الملك ، فى المتوكل :

مُلْك كمُلْكِ سُلَيْمَانَ الذى خَضَعَتْ لَهُ البَرِيَّةُ قَاصِيها وَدَانِيهَا[٥]

* * *

وأجود من هذا قول أبى تمام فى المأمون :

فى دَوْلَةٍ لَحظَ الزَّمَانُ شُعَاعَها فَارْتَدَّ مُنْقَلِبًا بِعَيْنَىْ أَرْمَدِ[٦]

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٣٢ .

(٢) بقيته : « وقام فقام العدل فى كل بلدة خطيبا » .

(٣) ديوان البحترى ١٥٣ ، ١ / ١٠٩ « قناة الدين » .

(٤) ديوانه ١ / ١٢٨ مصر ، ١ / ٢١ بيروت « مغاثاً ورداً » وفى طبعة المعارف ٢ / ٧١٢ « معانا وردا » المعان : المنزل ، والمكان ، والحصن والرده : العود والناصر .

(٥) ديوان البحترى ٣٧ ، ٤ / ٢٤١١ .

(٦) ديوان أبى تمام ١١٢ وشرح التبريزى ٢ / ٤٨ وقبله :

فانتـاش مصر من التيا والتى بتجـاوز وتعطف وتغمـد

انتاش : تناولها وخلصها . يقول : هذه دولة جيدة نافذة ، أراد الزمان غلبتها ، وأن ينظر إليها فأعشاه شعاعها ، فارتد رمدا » .

مَنْ كَانَ مَوْلِدُهُ تَقَدَّمَ قَبْلَهَا أَو بَعْدَهَا فَكَأَنَّهُ لَمْ يُولَدِ[1]

وهذا من أجود ما يقال فى مدح دولة وأبلغه .

* * *

فأبو تمام فى هذا الباب – على إساءته فى الأبيات المتقدمة – أشعر من البحترى .

---

(١) قال التبريزى : « أى من لم يأخذ بالحظ من هذه الدولة ، إما أولا وإما آخراً فكأنه لم يولد» .

مما يخص أهل بيت النبوة من المدح دون غيرهم
ذكر طاعتهم ، والمحبة لهم ، والمعرفة لحقهم

فمن ذلك قول البحترى فى المتوكل .

مُخَالِفُ أَمْرِكُمْ لله عَاصٍ ... ومُنْكِرُ حَقِّكُمْ لَاقٍ أَثَامَا[١]
وَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ ... وِلَايَتَكُمْ ولَوْ صَلَّى وَصَامَا

وفيه قوله :

نُصَلِّى وإتْمَامُ الصَّلَاةِ اعْتِقَادُنَا ... بِأَنَّكَ عِنْدَ اللهِ خَيْرُ إمَامِ[٢]

وفيه قوله :

فَضَّل اللهُ جعفرًا بِخِصَالٍ ... جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَا[٣]

وفى المعتز بالله قوله :

مَنْ أَبَى حُبَّكُمْ فَلَيْسَ مِنَ اللَّـ ... ـهِ ولَوْ صَامَ أَلْفَ عَامٍ وصَلَّى[٤]

وقال فيه :

قَضَى اللهُ للمعتز بالله أَنَّهُ ... هُوَ القَائِمُ العَدْلُ الرَّشِيدُ المُوَفَّقُ[٥]
مَحبَّتُه فَرْضٌ من اللهِ واجِبٌ ... وعصيانُهُ سُخْطٌ من الله مُوبِقُ

---

(١) ديوانه ٣٠ ، ٣ / ٢٠١٠ – ٢٠١١ .
(٢) ديوانه ١٢ ، ٣ / ٢٠٠٣ .
(٣) ديوانه ٢ / ١٢١٦ والصناعتين ٦٣ وفيهما « بخلال » .
(٤) ديوانه ١٥٦ « أبى حبهم » وفى طبعة المعارف ٢ / ١٦٥٧ كما هنا .
(٥) ديوانه ١٤٩ ، ٣ / ١٥٣٦ وفى م « بالمعتز » .

وقوله فى المهدى[١] :

أَقَرَّتْ لَهُ بِالفَضْلِ أُمَّةُ أَحْمَدٍ فَدَانَ لَهُ مُعْوَجُّهَا وقَوِيمُها[٢]

وِلَوْ جَحَدَتْهُ ذلك الحقَّ لَمْ تَكُنْ لِتَبْرَحَ إِلَّا والنُّجومُ رُجُومُها

* * *

ولست أعرف لأَبى تمام فى هذه المعانى شيئًا .

(١) م « فى المهتدى » وهو تحريف .

(٢) ديوانه ١٠٨ ، ٣ / ٢٠٢٤ .

ذكر الآلة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم فصارت إليهم

قال البحترى فى المتوكل :

عليك ثِيَابُ المُصْطَفَى ووقارُهُ وأَنْتَ بِهِ أَوْلَى إذاحَصْحَصَ الأَمْرُ[1]
عِمَامَتُهُ ، وسَيْفُهُ ، ورِدَاؤُهُ وسِيمَاهُ ، والهَدْىُ المُشَاكِلُ ، والنَّجْرُ

وقال فيه :

يَتَوَلَّى النَّبِىُّ مَا تَتَوَلَّا ه ويَرْضَى مِنْ سيرة ما تسير[2]
حُزْتَ مِيرَاثَهُ بِحَقٍّ مُبِينٍ كُلُّ حَقٍّ سِوَاهُ إِفْكٌ وزُورُ
فلك السيفُ ، والعمامةُ ، والخَا تَمُ ، والبُرْدُ ، والعَصَا ، والسَّرِيرُ

وقال فى المَهْدِىِّ باللّٰه :

إمامٌ إذا أمضى الأُمور تتابعت على سَنَنٍ مِنْ قَصدِهَا وسَدَادِهَا[3]
متى يَتَعَمَّمْ بالسَّحَابِ تُلَثْ عَلَى كَفِىءٍ لَهَا مُحْتَازِإِرْثِ اسْودَادِهَا[4]
وإنْ يَتَقَلَّدْ ذَا الفِقَارِ يُضَفْ إِلَى شُجَاعِ قُرَيْشٍ فى الوغَى ، وجَوَادِهَا

وقال فى المعتز :

وقد تَرَكَ العباسُ عِنْدَكَ وَابْنُهُ عُلًا طُلْنَ مَرْمَى النَّجْمِ حَتَّى تَحَيَّرَا[5]
هُمَا وَرَّثَاكَ ذَا الفِقَارِ وصَيَّرَا إِلَيْكَ القَضِيبَ والرِّدَاءَ المُحَبَّرَا

---

(١) ديوان البحترى ٧٥٩ ، ٢ / ٩٩٣ .

(٢) ديوانه ٧٦٦ ، ٢ / ٩٠٢ « ماتتولاه » و « يرضى من سيره » .

(٣) الأبيات فى ديوانه ١١٠ ، ٢ / ٦٧٥ – ٦٧٦ ومن العجيب أن الأول منها ورد فى الديوان ٣٨ ضمن قصيدة يمدح المتوكل .

(٤) م « لها محتار إرث » .

(٥) ديوانه ٧٦٤ ، ٢ / ٩٣٤ .

وأَىُّ سَناء لَسْتَ أَهْلًا لِفضْلِهِ وأَوْلَى به مِنْ كُلِّ حَىٍّ وأَجْدَرَا
وأَنْتَ ابنُ مَنْ أَسْقَى الحَجِيجَ عَلَى الظَّمَا وناشَدَ فى المَحْلِ السَّحابَ فأَمْطَرَا

* * *

وقال أبو تمام فى نحو هذا يمدح الواثق :

قومٌ غدَا الميراثُ مَضْرُوبًا لَهُمْ سُوَرٌ عليهِ مِنَ القُرَانِ حَصِينُ[1]
فِيهمْ سكِينةُ رَبِّهِمْ وَكِتَابُهُ وإِمَامَتَاهُ وَٱسْمُهُ المَخْزُونُ

فالسّكينة وزنها فَعِيلة ، من السكون وهو الوقار . وهذه لفظة لا تلائم البيت كلَّ الملاءمة ، لأَنه لا وجه لأَن يقول فيهم : وَقارُ رَبِّهِمْ ، لا سيما وقد قال : كِتَابُهُ وإِمَامَتَاهُ وَٱسْمُهُ المَخْزُون . فالوَقَارُ ليس من هذه الأَشياء فى شىء[2] .

والسَّكينة التى فى قوله عز وجل : ﴿ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[3] ، وقد قيل فى تفسيرها : إنها حيوان له وجه مثل وجه الإنسان . وقيل : لها رأس مثل رأس الهرّة وله جناحان . وقيل : بل هى ريح هفّافة . وقيل : هى شىء من أمر الله عز وجل[4] — فإن كان هذه أراد فما كان ينبغى أن يدّعى للقوم[5] مالا يدعونه لأَنفسهم .

وقوله : « وإِمَامَتَاهُ » يعنى النبوة والخلافة .

« واسمه المخزون » يعنى اسم الله الأَعظم الذى إذا دُعى به جل وعز أجاب .

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٣٠ وشرح التبريزى ٣ / ٣٢٧ .

(٢) م « فى الشىء » .

(٣) سورة البقرة : ٢٤٨ .

(٤) راجع اختلاف أهل التأويل فى معنى السكينة ، فى تفسير الطبرى ٥ / ٣٢٦ — ٣٣٠ طبع دار المعارف . وقال أبو جعفر الطبرى : أن أولى الأقوال بالحق ما قاله عطاء بن أبى رباح : من الشىء تسكن إليه النفوس من الآيات التى يعرفونها » .

(٥) م « القوم » .

ومن المجد والشرف فى مدح الخلفاء ذكر الآثار بالحرم

نحو قول البحترى فى المعتز :

لَكُمُ زَمْزَمٌ وأَفْنِيَةُ الكَعْ ... بَةِ والحِجْرُ والصَّفَا والمُصَلَّى [١]

وقوله فى المتوكل :

نَعُدُّ لَكَ السِّقَايَةَ والمُصَلَّى ... وأَرْكَانَ البَنِيَّةِ والمَقَامَا [٢]

مَكَارِمُ قَدْ وَرِثْتَ بها ثَبِيرًا ... فَلَمْ يَرْجَحْ ، وطُلْتَ بِهَا شِمَامَا [٣]

وقوله فى المتوكل :

لَكُمْ كلُّ بَطْحَاءٍ بِمَكَّةَ إِذْ غدَا ... لِغَيْرِكُمْ ظُهْرَانُهَا وجِبَالُها [٤]

وأَنتم بَنُو عَمِّ النَّبِى مُحَمَّدٍ ... يَمِينُ قُرَيْشٍ إِذْ سِوَاكُمْ شِمَالُهَا [٥]

وقال فيه :

شَرفًا بَنِى العَبَّاسِ إِنَّ أَبَاكُمُ ... عَمُّ النَّبِىِّ وعِيصُهُ المُتَفَرِّعُ [٦]

إِنَّ الفَضِيلَةَ لِلَّذِى اسْتَسْقَى به ... عُمَرٌ وشُفِّعَ إذ غَدَا يَسْتَشْفِعُ

مَنْ ذَا يُسَاجِلُكُمْ وحَوْضُ مُحَمَّدٍ ... بِسِقَايَةِ العباسِ فِيكُمْ يَشْفَعُ

---

(١) ديوان البحترى ١٥٦ ، ٣ / ١٦٥٧ « لهم » .

(٢) ديوانه ٣٠ ، ٣ / ٢٠١٠ « ثبيراً فلم تنقص » .

(٣) م « قد ورثت . . . فلم ترجح » وشمام : جبل بالعالية .

(٤) ديوانه ٢٦٦ ، ٣ / ١٦٣١

(٥) فى الديوان « وأنتم بنى العباس عم محمد » .

(٦) ديوانه ٣٤ ، ٢ / ١٣١١ .

وقال فى المعتز :

إِمَامُ هُدًى تَأْوِى بهِ مَكْرُمَاتُهُ إلى مَرْتَعٍ مِنْ بَطْنِ مَكةَ أَفْيَحِ[1]

له شَرفُ البيتِ الحَرَامِ وفَخْرُهُ وزَمْزَمَ والرُّكْنِ العَتيقِ الْمُمَسَّح

أراد شرف زمزم .

---

(١) ديوانه ٦٣٢ ، ١ / ٤٥٢ – ٤٥٣ « إلى مربع » .

ومن باب السؤدد والشرف ذكر علوّ القدر وعظيم الفضل

قال أبو تمام :

اللهُ أَكْبَرُ جَاءَ أَكْبَرُ مَنْ جَرَتْ فَتَعَثَّرَتْ فى كُنْهِهِ الأَوْهَامُ[1]
مَنْ لَا يُحِيطُ الواصِفُون بِقَدْرِهِ حَتَّى يَقُولُوا قَدْرُهُ إِلْهَامُ

قوله : « الله أكبر » . يقول فيما أظنه عند قدوم المأمون من خراسان ، أى الله أكبر من كل أحد ، قد جاء أَكْبَرُ من جرت فتعثرت فى كنهه الأوهام.

وكُنْهُ الشىء : غاية صِفَتِه .

وقوله : « حتّى يقولوا قَدْرُه إلهامُ » من جنونه ؛ لأن الإلهام هو ما يلقيه الله ، عز وجل ، فى قلب الإنسان حتى يعرفه بغير تَعَرُّف ، ويعلمه من غير تَعَلُّم ، فيقول : لا يحاط بقدره إلا أن يكون ذلك إلهامًا من الله ، جل وعز ، فيعرف .

وقَدْرُ كلِّ شىء : هو مَبْلَغُه ، تقول : سرنا قَدْرَ مِيل ، وقدر فَرْسخٍ ، وأخذت منه قدر عشرين درهمًا ، أى مبلغ عشرين .

وإنما سمع الناس يقولون ، هذا أمر لا يُقْدَرُ قدره ، وسمع قول الله عز وجل : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2] ، قيل فى التفسير : ما عرفوه حق معرفته . فأراد أن يَنْحُوَ بِقَدْرِ المأمون هذا النَّحْو فأخرجه بهذه العبارة المُسْتَكْرَهة . يريد أن قَدْرَه لا يُعرف إلا بالإلهام من الله جلّ جلاله .

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٧٩ ز وشرح التبريزى ٣ / ١٥٣ وقد سبق الأول .

(٢) سورة الزمر ٦٧ .

وقد كان يكفى من هذا العويص الذى جاء به أن يقول كما قال البحترى فى المتوكل :

وأَنْتَ – أَمينَ الله – بِالمَوْضعِ الذى   أَبَى اللهُ أَنْ يَسْمُو إلى قَدْرِه قَدْر (١)

فجعل قدره فوق [قدر] كلِّ ذى قَدْر . ومثل هذا لا يقال إلا لخليفة أو لأفضل الناس من أهل بيت النبوة .

وقد أفرط البحترى فى مدح إبراهيم بن المدبر ، وإن كان لم يُصَرِّح فى تفضيل قدره ، وذلك قوله :

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا ، وعَلَوْتَ قَدَرًا   فَشَأْنَاكَ انْحِدَارٌ وارْتِفَاعُ (٢)

كَذَاكَ الشَّمْسُ يَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى   ويَدْنُو الضَّوْءُ مِنْها والشُّعَاعُ

وما قيل فى التواضع ألطف من هذا ولا أحسن . ولو مدح خليفة بالتواضع لما وجد شيئًا يليق به غير هذا الوصف أو معناه.

* * *

وقال أبو تمام فى المعتصم مادة (؟) فضل على فضله كل أحد من الناس .

إلى قُطُبِ الدُّنيا الَّذى لَوْ بِفَضْلِهِ   مَدحتُ بِنِى الدنيا كَفَتْهمْ فَضَائِلُه (٣)

وهذا تفضيل فى غاية الاستقصاء والجودة والحسن والصحة ، ولا يقال مثله إلا لخليفة من أفضل الخلفاء ؛ لقوله : مدحت بنى الدنيا .

---

(١) ديوانه ٤٥٦ ، ٢ / ٩٩٢ .

(٢) ديوانه ٢٢٨ ، ٢ / ١٢٤٧ « وبعدت قدرا فشأناك » .

(٣) ديوان أبى تمام ٢٣٠ وشرح التبريزى ٣ / ٢٥ .

ومثله فى الجودة ، بل يزيد عليه ـ قول البحترى فى المتوكل :

يا بْنَ عَمِّ النَّبِىِّ حقًّا ، ويا أزْ كَى قريشٍ نفسًا ودِينًا وعِرْضًا[١]

بِنْت بالفَضْلِ والعُلُوِّ فَأَصْبَحْ تَ سَمَاءً وأَصْبَحَ النَّاسُ أَرْضَا

ولو قال قائل مثل هذا لغير خليفة لكان قد تجشم أعظم الخطإ إذ ليس أحد من الناس يطالبه بأن يمدحه هذا المدح ، ولا أن يفضِّله هذا التفضيل .

وقال البحترى أيضًا فى المهدى[٢] :

أَقَرَّتْ لَهُ بالفَضْلِ أمةُ أَحْمَد فَدانَ لَهُ مُعْوَجُّهَا وَقَوِيمُهَا[٣]

والتفضيلُ الحَسَنُ الذى لا غُلوَّ فيه وكأن قائله قد غلا ـ قولُ البحترى أيضًا فى أبى ليلى الحارث بن عبد العزيز بن دُلَف :

يَبِينُ بالفضل أقوامٌ فيفضُلُهم مُوَحَّدٌ بِغَرِيبِ الذِّكْرِ مُنْفَرِدُ[٤]

تَوَحَّدَ القَمَر السَّارِى بِشُهْرَتِهِ وأَنْجُمُ اللَّيْلِ نَثْرٌ حَوْلَهُ بَدَدُ

ومثله فى الحسن قولُه فى الفَتْح :

ولَمَّا جَرَى فى المَجدِ والقَوْمُ خَلْفَهُ تَغَوَّلَ أَقْصَى جُهْدِهِمْ وَهْوَ وَادِعُ[٥]

وهَلْ يَتَكَافَا النَّاسُ شَتَّى خِلَالُهُمْ وَمَا تَتَكَافَا فى اليَدَيْنِ الأَصَابعُ؟

---

(١) ديوان البحترى ٢٢ ، ٢ / ١٢١٦ وفى م « حقا و يا ركن قريش » .

(٢) م « المهتدى » وهو خطأ .

(٣) ديوانه ١٠٨ ، ٣ / ٢٠٢٤ وقد سبق هذ البيت ص ٣٤٤ .

(٤) ديوانه ٧٧٤ ورواية شطر البيت الأول فيه «تنازع المجد أمجاد ففاتهم». وطبعة المعارف ٦٤٦/٢.

(٥) ديوانه ٧٢ ، ٢ / ١٣٠٣ ، « جرى للمجد » .

وهذا كلُّه عجيب فى معانيه . ولكنهما فى معانيهما حَذْوٌ على قول مَعْن ابن أَوْس :

وَمَا بَلَغَتْ كَفُّ امْرِئٍ مُتَطَاوِلٍ يَدَ المَجْدِ إِلَّا حَيْثُ مَانِلْتَ أَطْوَلُ[١]

وما بلغ المُهْدونَ فى القَوْلِ مِدْحَةً ولوْ أَكْثَرُوا إِلَّا الذى فيك أَفْضَلُ[٢]

---

(١) فى ديوانه ١٣ « من المجد » والبيت فى مدح سعيد بن العاص .

(٢) م « بلغ المهدى » وفى ديوانه : « المهدون نحوك » .

ومن باب المجد والسؤدد

قول أبي تمام في المأمون :

هَدَمَتْ مَسَاعِيهِ المَسَاعِي وَابْتَنَتْ خِطَطَ المَكَارِمِ فى عِرَاضِ الفَرْقَدِ[١]

سَبقَتْ خُطَى الأَيامِ عُمْرِيَّاتُها وَمَضتْ فَصَارَتْ مُسْنَدًا لِلْمُسْنَدِ

مَا زَالَ يَمْتَحِنُ الْعلا ويَرُوضُهَا حَتى اتقَتْهُ بِكِيمِياءِ السُّؤْدُدِ[٢]

قوله : « سَبقَتْ خُطَى الأَيامِ » أى طاوَلَت الدهر فى البقاء ، فجعل مطاولتها للدهر سيرًا مع الدهر ، فلذلك قال : « سبقت خطى الأَيام » «عُمْرِيَّاتها » : واحدها عُمْرِيَّةٍ ، منسوبة إلى العُمْر .

وقوله : «مَضَت فَصَارَتْ مُسْنَدًا للمُسْنَدِ » ، فالمسند :الدهر ، أى صارت دَهْرًا للدَّهْر .

وهذا من كلام أهل الوَسْوَاس والخَطَرات وأَصحاب السوْدَاء .

وقوله : « بِكِيمِياءِ السُّؤْدُدِ » مما أنكروه عليه .

وقد أتى به « بَكْرُ بنُ النطاح » فى موضِعه فقال :

مَدْحُ ابنَ عِيسَى قَاسِمٍ فَاشْدُدْ بِهِ كِلْتَا يَدَيْكَ الكِيمْيَاءُ الأَعْظَمُ[٣]

لَوْ لَمْ يَكُنْ فى الدهْرِ إلا دِرْهَمٌ وَمَدَحْتَهُ لأَتَاكَ ذاكَ الدِّرْهَمُ

* * *

(١) ديوان أبي تمام ١١٢ وشرح التبريزى ٢ / ٥٠ وفى م « فى عراض الفدفد » .

(٢) م « ما زال يمتحق » .

(٣) م « عيسى قاسى » ! والقاسم بن عيسى : هو أبو دلف العجلى ، أمير الكرخ ، المتوفى سنة ٢٢٦ هـ وترجمته فى تاريخ بغداد ١٢ / ٤٧٦ والأغانى ٧ / ٢٤٨ طبع دار الكتب وانظر أخباره مع بكر بن النطاح فى الأغانى ١٥٣/١٧ طبع بولاق .

وقال البحترى فى المُهْتَدِى :

وللمُهْتَدِى باللهِ مَجْدٌ لوِ ارْتَقَتْ ... إليه النُّجُومُ رِفْعَةً ما تَهَدَّتِ[١]

وهذا أبلغ من قول أبى تمام : « وابْتَنَت خِطَطُ المَكَارِمِ فى عِرَاضِ الفَرْقَدِ »[٢] .

* * *

ولهما فى السؤدد والمجد والشرف فى مدح سائر الناس ما أذكره مِنْ بَعْدُ فى تأييد الدين وتقوية أمره .

وواجب أن يمدح الخليفة بهذا المعنى .

* * *

قال أبو تمام فى مدح المعتصم :

بِمُعْتَصِمٍ باللهِ قَدْ عُصِمَتْ بِهِ ... عُرَا الدِّينِ وَالْتَفَّتْ عَلَيه وَسَائِلُهْ[٣]

وهذا كان يصلح أن يقال لمن له نباهة وديانة وقولٌ بحق ، ولكن خصصه بالخليفة قوله : « وَالْتَفَّتْ عليهِ وَسَائِلُهْ »

وقال فى الواثق :

بِهَارُونَ عَزَّ الدِّينُ وَاشْتَدَّ رُكْنُهُ ... وَدَانَتْ دَوَانِيهِ وقُرِّبَ شَاسِعُهْ[٤]

* * *

وقال البحترى فى المتوكل :

خَلَقَ اللهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْـ ... ـيَا سَدَادًا ، وقَيِّمِ الدِّينِ رُشْدَا[٥]

---

(١) ديوان البحترى ٧٥٣ « مجد لو ابتنت مداه النجوم رفعة » وفى م « رقعة » وطبعة المعارف ١ / ٣٧٠ .

(٢) م « الفدفد » .

(٣) ديوان أبى تمام ٢٣١ وشرح التبريزى ٣ / ٢٦ .

(٤) م « يهزون عز . . . وقرى شاسعة » .

(٥) ديوان البحترى ٢٠ ، ٢ / ٧١٢ .

فاختص هذا القول بالخليفة ؛ لأنه جعله قيِّمًا على الدين والدنيا ، ولا يجوز أن يقال هذا لغير خليفة إلا أن يكون نائبًا عنه .

وقال مثل ذلك فى المُعْتَزِّ بالله :

لَقَدْ حَمَلَ الخِلَافَةَ مُسْتَقِلٌّ بِهَا وبِحَقِّه فيها المُبِينِ[1]
يَسُوسُ الدِّين والدُّنْيا بِرَأْيٍ رِضًا للهِ فى دُنْيَا وَدِين

وقال عبد الله بن السِّمْط بن مروان فى المأمون :

أَضْحَى إِمَامُ الهُدَى المَأْمُونُ مُشْتَغِلًا بالدِّينِ والنَّاسُ فى الدنيا مشَاغِيلُ[2]

فلم يهشّ له ، فشكى ذلك عبد الله ، فقيل له : ما زدت على أن جعلته عجوزًا فى محرابها ومعها سبحتها .

فألا قلت كما قال جرير فى عمر بن عبد العزيز[3] :

فَلَا هُوَ فى الدُّنيا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ ولا عَرَضُ الدنيا عن الدينِ شَاغِلُهْ[4]

وقال ابن هَرْمَة :

فَـرغْتَ لِدين الله تَرْفَعُ وَهْيَـهُ وما بِكَ عَنْ كَسْبِ المَحَامِدِ مِنْ شُغْل

فَحَذَا حَذْوَ قول جرير .

وقال البحترى أيضًا فى المتوكل مما لا يقال إلا لِخليفة إلا أن يفرّط مفرّط فيقوله لغيره :

---

(١) ديوان البحترى ١٣٨ ، ٤ / ٢٢٦٧ .
(٢) سر الفصاحة ٢٤٨ والصناعتين ١١٩ .
(٣) فى ديوان جرير ٤٣٤ « وقال يمدح عبد العزيز بن الوليد » .
(٤) فى الديوان ٤٣٥ « من الدنيا » .

حَلَفْتُ بِمَنْ أَدْعُوهُ رَبًّا وَمَنْ لَهُ ... صَلَاتِى، وَنُسْكِى خَالِصًا، وصِيَامِى[١]

لَقَدْ حُطْتَ دِينَ اللهِ خَيْرَ حِيَاطَةٍ ... وقُمْتَ بِأَمْرِ اللهِ خَيْرَ قِيَامِ

وقال البحترى فى المتوكل :

عَلِمَ اللهُ كَيفَ أَنْتَ فَأَعْطَا ... كَ المَحَلَّ الرَّفِيعَ مِنْ سُلْطَانِهْ[٢]

جَعَلَ الدينَ فى ضَمَانِكَ والدُّنْـ ... ـيا فَعِشْ سالِمًا لَنَا فى ضَمَانِهْ

وهذا لا يكون إلا لخليفة .

وقال فى المُعْتَزّ بالله :

مَا زَالَ يَكْلأُ دِينَنَا ويَحُوطُهُ ... بالمَشْرَفِيَّةِ والوَشِيجِ الذُّبَّلِ[٣]

وهذا يصلح أن يقال لبعض ولاة الثغور وغيرهم من الولاة ولا يخص الخليفة .

وليس ذلك بعيب فى مدح الخلفاء ، ولكن إذا كان مما يخص الخليفة دون غيره كان ذلك أمدح له .

والعيب على الشاعر أن يمدح غير الخليفة بما لا يستحقه إلا الخليفة .

وقال فى المهتدى بالله مما يختص بالخليفة :

هَنَتْكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَوَاهِبٌ ... من اللهِ مَشْكُورٌ لَدَيْكَ جَسِيمُها[٤]

وَتَأْيِيدُ دِينِ اللهِ إِذْ رُدَّ أَمْرُهُ ... إليك فَرَوَّى فى الأُمُورِ عَلِيمُها

فخصّصه قوله : « وتـأْييدُ دين اللهِ إذ رَدَّ أَمْرَهُ إليك » .

---

(١) ديوان البحترى ١٢ ، ٣ / ٢٠٠٣ وما أسخف قوله : « حلفت بمن أدعوه ربا » ! !

(٢) ديوانه ٣٦ ، ٤ / ٢١٧٠ « المحل الجليل » .

(٣) ديوانه ١ / ١٦ طبع بيروت ، ٢ / ١٥٥ طبع مصر ، ٣ / ١٦٢٦ طبع المعارف ورواية الشطر الأول فيها « بكرت جيادك والفوارس فوقها »

والمشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف اليمن ، والوشيج : الخشب الذى تصنع منه الرماح . وذبل : مفردها ذابل وهو الدقيق الملتصق الليط .

(٤) ديوانه ١٠٨ .

وقال أبو تمام فى تقوية الإسلام :

أَمْسَى بِكَ الإسلامُ بَدْرًا بَعْدَمَا مُحِقَتْ بَشَاشَتُهُ مُحَاقَ هِلالِ[١]

أَكْمَلْتَ مِنْهُ كُلَّ نَقْصٍ بَعْدَمَا نَقَصَتْهُ أَيْدِى الكُفْرِ بَعْدَ كَمَالِ[٢]

أَلْبَسْتَهُ أَيَّامَكَ الغُرَّ التى أَيَّامُ غيرِكَ عِنْدَهُنَّ لَيَالِ

إنما قال : « أمسى » ولم يقل : « أضحى » من أجل قوله : « بدرًا » ؛ لأنَّ البدر لا ضوء له فى الضحى .

وهذا يصلح أن يقال لوزير ولوالى الثغور ، وإن كان فى غاية الجودة .

وقال البحترى فى المتوكل :

يَا كَالِئَ الإسْلَامِ فى غَفَلَاتِهِ ومُقِيمَ نَهْجَىْ حجِّه وجهادِهِ[٣]

وقال أبو تمام فى مديح محمد بن عبد الملك :

إنَّ الخَلِيفَةَ قَدْ عَزَّتْ بِدَوْلَتِهِ دَعَائِمُ الدِّينِ فَلْيَعْزِزْ بِهِ الأَدَبُ[٤]

ودعائم الدين قد توصف بأنها ثبتت ، وتمكَّنت ، وأقامت ، وتوطَّدت ، فهذا هو اللفظ المستعمل فيها ، ألا ترى أنها إذا وُصفت بضد هذا الوصف قيل : وهت ، وسقطت ، وخرّت . ولا يقال : ذلَّت . وإنما قال : « عزّت » من أجل قوله : « فليعزز به الأدب » . وهذا وإن لم يكن خطأً فليس بالجيد ؛ لأنه لفظ موضوع فى غير موضعه .

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٦٥ وشرح التبريزى ٣ / ١٤٤ .

(٢) فى الديوان « منه بعد نقص كل ما » .

(٣) ديوانه ٤٣ ، ٢ / ٧٠٤ والكالئ : الراعى والحافظ ، والنهج : الطريق .

(٤) ديوان أبى تمام ٥٠ وشرح التبريزى ١٥ / ٢٦٣ ويروى : « بك الأدب » .

وقال أبو تمام فى إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبِى :

تَرْضَى السُّيوفُ بِهِ فى الرَّوْعِ مُنْتَصِرًا ويَغْضَبُ الدينُ والدُّنْيَا إذَا غَضِبَا[١]

وهذا مدح لا يليق إلا بأفضل الخلفاء ، وسبيل الشاعر أن يتفقد مثل هذا ؛ فقد جرت به على قوم من الشعراء سَلَكُوا دُونَ هذا المسلك ـ مَكَارِهُ ، وكان الحرمانُ أحسن أحوالهم التى عادوا بها .

ونحو هذا قوله فى محمد بن يوسف :

حياتُكَ للدنيا حياةٌ ظَلِيلَةٌ وفَقْدُك للدنيا فناءٌ مُوَاشِكُ[٢]

وهذا عموم ؛ لذكره الدنيا . ولا يصلح أن يكون إلا لخليفة ، أو من ينفذ فى أكثر بلاد الله أمرُهُ .

وهذا متجاوز لقدر محمد بن يوسف ، وفى المَمَادِح التى تُرْضِى المَمْدُوحِين مُتَّسَع .

* * *

وهو فى هذا الباب أشعر من البحترى .

---

(١) ديوان أبى تمام ٢١ وشرح التبريزى ١ / ٢٤١ .

(٢) ديوانه ٢٢٦ وشرح التبريزى ٢ / ٤٦٧ .

ومما يجب فى مدح الخلفاء، كانت تلك حالهم أولم تكن، ذِكْرُ التُّقى والورع

قال أبو تمام فى المأمون :

يَتَجَنَّبُ الآثَامَ ثُمَّ يَخَافُها فكأنَّمَا حسناته آثَامُ[1]

هذا وصف لطاعة الله حَسَنٌ مُسْتَقْصى . ولكنه ألمَّ بمعنى قول أبى العتاهية :

يعْتَدُّ بإِحْسَانِ كُلُّ مُحْسِنٍ إليه بَعْدَ إِسَاءة كانَ مِنْهُ (؟)

وعكس أبو تمام المعنى :

لمْ تَنْتَقِصْنِى إذْ أَسأْتَ، وزِدْتَنى حتَّى كَأَنَّ إِسَاءتِى إِحْسَانِى

بيت أبى تمام هذا من بيت أبى العتاهية[2] .

* * *

وقال البحترى فى المهتدى بالله :

مُزَايِدُ نَفْسٍ فى تُقَى اللهِ لم تَدَعْ لَهُ غَايَةً فى جِدِّها وٱجْتِهَادِها[3]

وما نَقَلَتْ مِنْهُ الخِلَافَةُ شِيمَةً وقَدْ مَكَّنَتْهُ عَنْوَةً مِنْ قِيَادِها[4]

ولا مَالَتِ الدُّنْيَا بِهِ حِينَ أَشْرَقَتْ له فى تَنَاهى حُسْنِها وٱحْتِشَادِها

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٨٠ وشرح التبريزى ٣ / ١٥٣ وفى م « حسناتها » .

(٢) م « وهذا بيت أبى تمام من » .

(٣) ديوانه ١١٠ ، ٢ / ٦٧٦ . وفى م « لم يدع » .

(٤) ل « نفلت » وفى الديوان « أمكنته » .

وقال في المعتمد :

مَلِكٌ تُحَيِّيهِ الملوكُ ودُونَهُ سِيمَا التُّقَى وتَخَشُّعُ الزُّهَّادِ[1]

مُتَهَجِّدٌ يُخْفِي الصَّلَاةَ وقَدْ أَبَى إِخْفَاءَهَا أَثَرُ السُّجُودِ البَادِي[2]

وقال في المهدى[3] :

فَضَلَ الأَنَامَ أَرُومَةً مَحْمُودَةً وتُقًى وأَنْعَمَ فى الأَنَامِ وأَفْضَلا[4]

وقال فى المعتز بالله :

يتَقَبَّلُ المُعْتَزُّ فَضْلَ جُدُودِهِ بِخِلَالِ مَحْمُودِ الخِلَالِ مُوَفَّقِ[5]

وَيَظَلُّ يُخْشَى فى الإله ويُتَّقَى فيه كما يَخْشَى الإِلهَ ويَتَّقِى[6]

* * *

ومع وصف الخليفة بالتقى والورع يجب أن يوصف بالرأفة والرحمة .

قال أبو تمام فى المعتصم :

رَعَى اللهُ فيهِ للرَّعية رَأْفَةً تُزَايِلُهُ الدُّنْيَا ، ولَيْسَتْ تُزَايِلُهْ[7]

فَأَضْحَى وَقَدْ فَاضَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ ورَحْمَتُهُ فيهمْ تَفِيضُ ، ونَائِلُهْ[8]

فقوله : « فاضَت إليه قُلُوبهم » ليس بالجيد ؛ لأن هذه لفظة غير مستعملة فى مثل هذا . وإنما قال ذلك من أجل قوله : « ورَحْمَتُه فيهم تفيض » .

(١) ديوان البحترى ١٦٣ ، ٢ / ٧٣٢ وفى م « تحيته » .

(٢) م « وقد أتى » .

(٣) فى ديوانه ١٤٣ ، ٣ / ١٦٥٣ « وقال يمدح المعتز بالله » .

(٤) فى الديوان : « أرومة مذكورة » .

(٥) ديوانه ٦٢٥ ، ٣ / ١٤٨١ .

(٦) م « كما تخشى الإله وتتقى » .

(٧) ديوان أبى تمام ٢٣١ وشرح التبريزى ٣ / ٢٦ .

(٨) فى الديوان وشرحه « فأضحوا » .

وقال فى الواثق :

فَغَدَوْا وقَدْ وَثِقُوا بِرَأْفَةِ واثِقٍ ... باللهِ طائِرُهُ لَهُمْ مَيْمُونُ (١)

* * *

وقال البحترى فى المتوكل :

يُحَبِّبُهُ عِنْدَ الرَّعِيَّةِ أَنَّهُ ... يُذَبِّبُ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ ويُحَامِى (٢)

وأَنَّ لَهُ عَطْفًا عليْهم وَرَأْفَةً ... وفَضْلَ أَيَادٍ بالعَطَاءِ جِسَامِ (٣)

* * *

وليس لأحدهما فضل فى هذا الباب على صاحبه .

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٢٩ وشرح التبريزى ٣ / ٣٢٥ .

(٢) ديوان البحترى ١١ « عن أطرافها » .

(٣) م « عطفا عليه » وفى الديوان « عليها ورقة » .

ما قالاه فى الجمال ، والجلال ، والهيبة ، والبهاء ، والجهارة

قال أبو تمام :

إنَّا غَدَوْنَا وَاثِقِينَ بِوَاثِقٍ ... باللهِ شمسِ ضُحًى وبَدْرِ تَمَامِ [١]

ثم قال بعد فى القصيدة :

مَا أَحْسبُ البَدْرَ المُنِيرَ إذا بَدَا ... بَدْرًا بِأَضْوَأَ مِنْكَ فى الأَوْهَامِ [٢]

قوله : « فى الأَوْهَام » قد عيبَ به ، وقيل لم يجعله مضيئًا فى العين ، وجعله مضيئًا فى الأَوهام . والذى ذهب إليه أبو تمام معنى صحيح ؛ لأَن وجه الإِنسان لا يكون أضوأ من البدر ، فجعله أَضْوأَ منه فى الصدور وفى النفوس ، يريد الجلال والهَيْبَة .

وأَجود من هذا قول محمد بن وهيب :

تُعَظِّمُهُ الأَوْهَامُ قَبْلَ عِيَانِهِ ... ويصْدُرُ عَنْهُ الطَّرْفُ والطَّرْفُ حَاسِرُ

وأَحسن من قول ابن [٣] وهيب قول الأَحْوَص :

تَرَاهُمُ خُضُعَ الأَبْصَارِ هَيْبَتَهُ ... كما آسْتكَانَ لِضَوْءِ الشَّارِقِ الرَّمِدُ

* * *

وقال أبو تمام فى خالد بن يزيد بن مَزْيَد :

كالبَدْرِ حُسْنًا ، وقد يُعَاوِدُهُ ... عُبُوس لَيْثِ العَرِينِ فى عَبَدِهْ [٤]

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٧٦ وشرح التبريزى ٣ / ٢٠٤ ويروى « إنا رحلنا » .

(٢) فى الديوان وشرحه « ما أحسب القمر » .

(٣) م « أبى وهيب » وهو خطأ .

(٤) ديوان أبى تمام ٩٤ وشرح التبريزى ١ / ٤٤٦ فى عبده : أى أنف .

كالسَّيْفِ يُعْطِيكَ مِلْءَ عَيْنَيْكَ مِنْ فِرِنْدِهِ تارَةً ومِنْ رُبَدِهْ (١)

وهذا غاية فى حسنه وصحته وبراعته .

وقال فى جعفر الخيَّاط :

فَتًى فى يدَيْهِ البَأْسُ يَضْحَكُ والنَّدَى وفى سَرْجِهِ بَدْرٌ ولَيْثٌ غَضَنْفَرُ (٢)

وهذا مأخوذ من قول مسلم بن الوَلِيد :

تَمْضِى المَنَايَا كما تمْضِى أَسِنَّتُهُ كَأَنَّ فى سَرْجِهِ بَدْرًا وضِرْغَامَا (٣)

وقد أَحسن محمد بن وُهَيْب كُلَّ الإحسان فى قوله :

وكَأَنَّ ضَوْءَ جَبِينِهِ قَمَرٌ و[كأَنَّ] سائِرَ خَلْقِهِ أَسَدُ

* * *

وقال أبو تمام فى خالد بن يزيد بن مَزْيد :

وقَدْ كَانَ مِمَّا يُضِىءُ السَّرِيـ رُ والبَهْوُ يَمْلَؤُهُ بالبَهَاءِ (٤)

مَضَى خَالد بنُ يزيد [بن] مَزْ يدٍ قَمَرُ الليلِ شمسُ الضَّحَاءِ

وهذا يَمَرُّ فى « المراثى » .

* * *

وقال البحترى فى المهتدى بالله :

زَادَ فى بَهْجَةِ الخِلَافَةِ نُورًا فَهْوَ شَمْسُ النَّهَار وهْى نَهَارُ (٥)

طَلْعَةٌ تَمْلَأُ القُلُوبَ ووَجْهٌ خَشَعَتْ دُونَ ضَوئِهِ الأَبْصَارُ

---

(١) الربد : جمع ربدة ، وهى كالكلف فيه .

(٢) ديوان أبى تمام ١٥٩ وشرح التبريزى ٢ / ٢١٥ « من يديه » .

(٣) ديوان مسلم بن الوليد ٣٩ « أى أسنته والمنايا سواء ، تفعل أسنته ما تفعل المنايا ، كأن فى سرجه بدراً فى فخامة الخلق وحسن المنظر ، وليثا فى الشجاعة . وصفه بالنجدة » .

(٤) ديوان أبى تمام ٣٤٨ .

(٥) ديوان البحترى ١٠٦ و ٢ / ٨٥٤ .

ذَكَرُوا الهُدَى مِنْ أَبِيكَ وقَالُوا ... هُوَ ذَاكَ السِّيما وذَاكَ النِّجَارُ [١]

وعليهِمْ سكينةٌ لكَ إِلَّا ... مَدَّ أَيْدٍ يَومًا بها ويُشَارُ

بُهِتُوا حَيْرَةً وصَمْتًا فلَوْ قِيـ ... ـلَ : أَجِيرُوا مَقَالَةً مَا أَحَارُوا [٢]

وقلِيلٌ إنْ أكْبرُوكَ لَكَ الهَيْـ ... ـبَةُ مِمَّنْ رَآكَ والإِكْبَارُ

وقال فى المتوكل لما خرج لصلاة العيد :

وافْتَنَّ فيك النَّاظِرُونَ : فَإِصْبَعٌ ... يُومِا إليكَ بها ، وعَيْنٌ تَنْظُرُ [٣]

يَجِدُونَ رُؤْيَتَكَ التى فَازُوا بِهَا ... مِنْ أَنْعُمِ اللهِ التى لَا تُكْفَرُ

ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النبىَّ فَهَلَّلُوا ... لَمَّا طَلَعْتَ مِنَ الصُّفُوفِ وكَبَّرُوا

حتَّى انْتَهَيْتَ إلى المُصَلَّى لَابِسًا ... نُورَ الهُدَى يَبْدُو عليكَ ويَظْهَرُ

ومَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ ... للهِ لَا يَزْهُو ، ولا يَتَكَبَّرُ [٤]

ولَوَ انَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّف فَوْقَ مَا ... فِى وُسْعِهِ لَمَضَى إليكَ المِنْبَرُ [٥]

وقال فيه لما دخل عليه وفد الرُّوم :

ورَأَيْتَ وَفْدَ الرُّومِ بَعْدَ عِنَادِهِمْ ... عَرَفُوا فَضَائِلَكَ التى لا تُجْهَلُ [٦]

لَحَظُوكَ أوَّلَ لَحْظَةٍ فَاسْتَصْغَرُوا ... مَنْ كَانَ يُعْظَمُ فيهِمُ ويُبَجَّلُ

ورَأَوْكَ وَضَّاحَ الجَبِينِ كما يُرَى ... قَمَرُ السماءِ السَّعْدِ سَاعَةَ يَكْمُلُ [٧]

---

(١) فى الديوان « هى تلك السيماء » .

(٢) م « أجيروا مقالة ما أجازوا » .

(٣) ديوانه ١٨ « ورنا إليك الناظرون » ، ٢ / ١٠٧٥ .

(٤) فى الديوان « لا يزهى » .

(٥) وفيه : « فلو . . . غير ما فى وسعه لسعى » .

(٦) ديوانه ٢٤ ، ٣ / ١٦٠١ .

(٧) فى الديوان « قمر السماء التم ليلة يكمل » .

نَظَروا إليكَ فَقَدَّسُوا ، ولَوَ انَّهمْ نَطَقُوا الفَصِيحَ لَكَبَّرُوا ولَهَلَّلُوا

حَضَرُوا السِّمَاطَ فَكُلَّمَا رَامُوا القِرَى مَالَتْ بِأَيْدِيهمْ عُقُولٌ ذُهَّلُ

تَهْوِى أَكُفُّهُمُ إلَى أفْوَاهِهِمْ فَتَجُورُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وتَعْدِلُ[1]

مُتَحَيِّرِينَ فَبَاهِتٌ مُتَعَجِّبٌ مِمَّا يَرَى ، أَوْ نَاظِرٌ مُتَأَمِّلُ[2]

ويَوَدُّ قَوْمُهُمُ الأُولَى بَعَثُوهُمُ لَوْ ضَمَّهُمْ بالأَمْسِ ذَاكَ المَحْفِلُ[3]

قَدْ نَافَسَ الغَيبَ الحُضُورَ عَلَى الذى شَهِدُوا ، وقَدْ حُسِدَ الرَّسُولُ المُرْسِلُ

قوله : « بَاهِتٌ » ، من بَهِتَ يَبْهَتُ وقد قيلت ، وهى رديئة ، والجيد بُهِتَ يُبْهَت .

وقال فى المعتز :

يُبْهِتُ الوَفْدَ فى أَسِرَّةِ وَجْهٍ سَاطِعِ الضَّوْءِ ، مُسْتَنِيرِ الشُّعَاعِ[4]

وقال فيه :

إِذَا نَظَرَ الوُفُودُ إليه قَالُوا : أَبَدْرُ الليل أَمْ شَمْسُ النَّهَارِ؟[5]

وأجود من هذا قول ابن هرمة :

لا يَرْفَعُونَ إليه الطَّــرْفَ خَشْيَتَهُ لا خَوْفَ بَأْسٍ ولَكِنْ خَوْفَ إجْلَالِ

وأَجود من هذا قول طُرَيح الثَّقَفِى :

يَعْرُوهُمُ أَفْكَلٌ لَدَيْكَ كَمَا قَفْقَفَ تَحْتَ الدُّجُنَّةِ الصَّرِدُ[6]

لا خَوْفَ ظُلْمٍ ، ولا قِلَى خُلُق لَكِنْ جَلَالٌ كَسَاكَهُ الصَّمَدُ

---

(١) وفيه « فتحيد عن » .

(٢) فى الديوان « متحيرون . . . مما رأى » .

(٣) وفيه « و يود قومهم الأولى بعثوا بهم » .

(٤) ديوانه ١٣٢ ، ٢ / ١٢٤٤ .

(٥) ديوانه ٧٧٩ ، ٢ / ٩٣٨ .

(٦) فى اللسان ١٤ / ٤٥ « الأفكل على أفعل : رعدة تعلو الإنسان ولا فعل له » . وقفقف : أرعد من البرد ، والدجنة : الظلمة . الصرر : الذى أرعده البرد .

[وأصل] الباب كلّه قولُ الحَزينِ الكِنانى :

يُغْضِى حياءً ، ويُغْضَى مِنْ مَهابَتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ [١]

* * *

وقال فى المُتَوَكِّل :

اليَوْمَ أُطْلِعَ لِلخلافَةِ سَعْدُها وأَضَاءَ فيها بَدْرُها المُتَهَلِّلُ [٢]

لَبِسَتْ جَلَالَةَ جَعْفَرٍ فَكَأَنَّهَا سَحَرٌ تَجَلَّلَهُ النَّهَارُ المُقْبِلُ [٣]

وقال فى المعتز ويذكر الزَّوَّ [٤] :

ولَمْ أَرَ كالمُعْتَزِّ إِذْ راحَ مُوفِيًا عليه بوجه لاح فى الرَّوْنَقِ النَّضْرِ [٥]

مَلِيًّا بِأَنْ يَجْلُو الظَّلَامَ بِغُرَّةٍ تَخَاضَعُ إِكْبَارًا لَهَا غُرَّةَ الفَجْرِ

إِذَا اهْتَزَّ غِبَّ الأَرْيَحِيَّةِ والنَّدَى وأَسْفَرَ فى ضَوْءِ الطَّلَاقَةِ والبِشْرِ [٦]

---

(١) الوساطة ٢٩٦ والأغانى ١٤ / ٧٥ وغير منسوب فى الكامل ١ / ٣٩٩ .

(٢) ديوان البحترى ٢٥ ، ٣ / ١٧٥٤ وانظر ص ٣٣٤ من هذا الجزء .

(٣) فى الديوان « يجلله » .

(٤) فى اللسان ١٩ / ٨٥ « الزو : القرينان من السفن » ثم قال فى صفحة ٨٧ « الجوهرى : وزو : اسم جبل بالعراق . قال ابن برى : ليس بالعراق جبل يسمى زواً ، وإنما هو سمع فى شعر البحترى قوله يمدح المعتز بالله حين جمع مركبين وشحنهما بالحطب وأوقد فيهما ناراً ، ويسمى ذلك بالعراق زواً فى عيد للفرس يسمى الصدق فقال : « ولا جبلا كالزو » وقال الفيروزابادى فى القاموس ٤ / ٣٣٩ « والزو كالتو : سفينة عملها المتوكل ، لا جبل ، ووهم الجوهرى ، وإنما غره قول البحترى :

ولا جبـلا كالزو يوقف تارة وينقـاد إما قدته بزمام

والبيت فى ديوانه ١ / ١١ .

(٥) ديوانه ١٥٢ ، ٢ / ١٠٥٣ عليه : أى على الزو الذى ذكره قبل ذلك :

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه إله لأن النيل من تحتـه يجرى

ولو بصرت عينـاه بالزو لازدرى حقير الذى نالت يداه من الأمر

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجها يجرى

تصاد الوحوش فى حفافى طريقه وتستنزل الطير الموالى عـلى قسر

(٦) فى الديوان « تحت الأريحية » .

وقَابَلَهُ بَدْرُ السَّماءِ بِحُسْنِهِ فَبَدْرٌ عَلَى بَدْرٍ ، وبَحْرٌ عَلَى بَحْرِ
رأَيتُ بَهَاءَ المُلْكِ مُجْتَمِعًا لَهُ ودِيبَاجَةَ الدُّنْيَا ومَكْرُمَةَ الدَّهرِ

وقال فيه :

مَلِكٌ يَمْلأُ العُيونَ بَهَاءً حِينَ يَبْدُو فى تَاجِهِ المَعْقُودِ[1]

والخلفاءُ وملوك الإسلام لا يلبسون التِّيجَان ، وأظنها كانت يتخذها الأحداثُ منهم فيلبسونها فى خلواتهم ، ومع نسائهم ، ومن لا يَحْتَشِمُونَه مِنْ نُدَمائِهم . فأَمَّا القَلانِسُ المُعَمَّمَةُ التى تُرَصَّعُ بالجوهر فلا شك فيها . ومَنْ ذَكَرَ تِيجانَ الخلفاءِ من الشعراءِ فلعلَّه رأى على رءُوسهم هذا الجِنْسَ ، فقد قال البحترى أيضًا فى المهتدى ينفى عنه لُبْسَ التَّاج :

لَسَجَّادَةُ السَّجَّادِ أَحْسَنُ مَنْظَرًا مِنَ التَّاجِ فى أَحْجَارِهِ واتِّقَادِهَا[2]

وقال فى المعتز :

كَأَنَّمَا التَّاجُ إذَا مَا عَلَا غُرَّتَهُ بالدُّوَرِ الزُّهرِ[3]
[كَوَاكِبُ الفَكَّةِ فى أُفقِها دَنَتْ فَحَفَّتْ غُرَّةَ البَدْرِ][4]

وقد تقدم من إنكار عبد الملك بن مروان على ابن الرُّقيَّات قوله :

* يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ *

* * *

(١) ديوان البحترى ١٥٨ ، ٢ / ٧٢٩ « تملأ »
(٢) ديوانه ١١٠ ، ٢ / ٦٧٧ .
(٣) ديوانه ٦٣٠ ، ٢ / ١٠١١ .
(٤) زيادة لازمة ، وجاء فى اللسان ١٢ / ٣٦٥ « والفكة : نجوم مستديرة بحيال بنات نعش . خلف السماك الرامح » .

فأما الجلال ، والبهاءُ ، والهيبة ، وسائر ما مضى من ذلك فى هذا الباب — فإنه واجب فى مدح الخلفاءِ والملوك والعظماءِ؛ لأَنه من الأَوصاف التى تخصُّهم ، ويحسن موقع ذكرِها عندهم .

وكذلك جمال الوجه وحسنُه مما يجب المَدْحُ به ؛ فإنَّ الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ، وَيَتَيَمَّنُ به العرب ؛ لأَنه يَدُلُّ على الخصال المحمودة ، كما أنَّ قبح الوجه والدَّمَامَةِ يسقط الهيبة ، ويدل على الخصال المذمومة ، وذلك ما تكرهه العرب ، وتتشاءم به ؛ لأَن أَول ما تلقاه من الإِنسان وتعاينه — وجهه .

أَلا ترى إلى قول البحترى :

أَغَرُّ كَبَارِقِ الغَيْثِ المُرَجَّى يُحَبَّبُ فى الأَبَاعِدِ والأَدَانى [١]
تَخَاضَعَتِ الوُجُوهُ لِحُسْنِ وَجْهٍ يَدُلُّ على خَلائِقِهِ الحِسَانِ

وقال فى مثل ذلك :

حَسَنُ الوَجْهِ والرُّوَاءِ وكَمْ دَ لَّ عَلَى سُؤْدَدِ الشَّرِيفِ رواؤُهْ [٢]
ماءُ وَجْهٍ إذَا تَبَلَّجَ أَعْطَا كَ أَمَانًا مِنْ نَبْوَةِ الدَّهْرِ مَاؤُهْ
يَتَعَالى ضِياؤُهُ فَيُجَلى طِخْيَةَ الحَادِثِ المُضِبِّ ضِيَاؤُهْ [٣]

* * *

وقَد غَلِط بعضُ المتأَخرين فى هذا الباب ممن أَلف فى «نقد الشعر» كتابًا — غلطًا فاحشًا [٤] ، فذكر أَن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ، ولاذم على الصحة ، وخَطَّأَ كلّ من يمدح

(١) ديوان البحترى ١٤٥ ، ٤ / ٢٢٧٧ .
(٢) ديوانه ٥٢٨ « حسن العقل » ، ١ / ٣٠ .
(٣) فى الديوان « يتجلى ضياؤه . . . ظلمة الحادث » وهى بمعناه . والمضب : الذى غشيه الضباب
(٤) يقصد قدامة بن جعفر الكاتب ، مؤلف كتاب نقد الشعر .

بهذا أَو يَذُمُّ بذاك ، فعَدَلَ بهذا المعنى عن مذاهب الأُمم كلها عربيِّها وعجميِّها ، وأسقط أكثر مدح العرب وهجائها . وقد بينت قبح غلطه فى هذا تبييناً شافياً مستقصى فى كتاب منفرد[1] .

* * *

وقال البحترى يمدح المعتز ويذكر ابنه عبد الله :

عَلَيْهِ مِنَ المُعْتَزِّ بالله بهْجَةٌ أَضَاءَتْ فَلَوْ يَسْرِى بِهَا الرَّكْبُ لاهْتَدَى[2]

يَرُوقُ العُيُونَ النَّاظراتِ بِطَلْعَةٍ مِنَ الحُسْنِ لو وَافَى بها البَدْرَ ما عَدَا[3]

تَأَمَّلْ أَمينَ اللهِ فَرْطَ جَلَالَةٍ رائعة تَبْدُو عَلَيْـهِ إِذَا بَدَا

وقد تصرف البحترى فى المدح بالجمال والهيبة والجلال ــ تصرفاً كثيراً فى غير مدح الخلفاء ، فقال فى الفضل بن إسماعيل الهاشمى :

لَا تَطلُبَنَّ لَهُ الشَّبِيهَ فَإِنَّهُ قَمَرُ التَّأَمُّل ، مُزْنَةُ التَّأْمِيلِ[4]

وقال فى الفتح بن خاقان :

تَكَشَّفَ الليلُ مِنْ لأْلَاءِ غُرَّتِهِ عَنْ بَدْرِ دَاجِيةٍ أَوْ شَمْسِ إِصْبَاحِ[5]

وقال يمدحه :

ويُبْتَدِرُ الرَّائُونَ مِنْهُ إِذَا بَدَا سَنَا قَمَرٍ مِنْ سُدَّةِ المُلْكِ مُطْلَعِ[6]

---

(١) اسمه « تبيين غلط قدامة بن جعفر فى نقد الشعر » ، وقد ألفه لأبى الفضل : محمد بن الحسين ابن العميد ، وقد قراه عليه ، وكتب خطه ، فى سنة خمس وستين وثلاثمائة . ما فى معجم الأدباء ٨ / ٧٦.

(٢) ديوان البحترى ١٣٤ ، ٢ / ٦٧١ .

(٣) هذا البيب وما يليه ، ليسا فى طبعتى الديوان . وهما فى طبعة المعارف .

(٤) ديوانه ٦١١ ، ٣ / ١٦٦٣ .

(٥) ديوانه ٥٨ « داجية أو ضوء » ، ١ / ٤٤٣ .

(٦) ديوانه ٩٠ ، ٢ / ١٢٣٩ .

يَقُومُونَ مِنْ بُعْدٍ إذَا بَصُرُوا بِهِ ... لِأَبْلَجَ مِنْ نُورِ الجَلَالَةِ أَرْوَعِ [١]

ويُدْعَونَ بالأَسْمَاءِ مَثْنَى ومَوْحَدًا ... إِذَا حَضَرُوا بَابَ الرُّوَاقِ المُرَفَّعِ [٢]

إذا سَارَ كُفَّ اللَّحْظُ عَنْ كُلِّ مُبْصَرٍ ... سِوَاهُ ،وغُضَّ الصَّوْتُ عَنْ كُلِّ مَسْمَعِ [٣]

فَلَسْتَ تَرى إِلَّا إِفَاضَةَ شَاخِصٍ ... إليه بِعَيْنٍ ، أَوْ مُشِيرٍ بِإِصْبَعِ

الإفاضة : الدَّفع ، يريد أنه يدفع ببصره إليه ، ويَنْحُو به نَحْوَه. والإفاضة فى الكلام أن يدفعوا أيضًا القول ، ويبعثوا الكلام . وهذه هيبةٌ وجلالٌ ما وراءهما غاية . وكان المتوكل أولى بهذا الوصف من الفتح وإن كان الفتح أَوْقَرَ وأهيب .

* * *

وقال البحترى فى دخوله إلى الفتح :

ولما حَضَرْنَا سُدَّةَ الإِذْنِ أُخِّرَتْ ... رِجالٌ عنِ البابِ الذى أنَا داخِلُهْ [٤]

فَأَفْضَيْتُ مِنْ قُرْبٍ إلى ذِى مَهَابَةٍ ... أُقَابِلُ بَدْرَ الأُفْقِ حِينَ أُقَابِلُهْ

فَسَلَّمْتُ واعْتَاقَتْ جَنَانِىَ هَيْبَةٌ ... تُنَازِعُنِى القَوْلَ الذى أنا قَائِلُهْ

فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلَاقَةَ وانْثَنَى ... إلَىَّ بِبِشْرٍ آنَسَتْنِى مَخَايِلُهْ

دَنَوْتُ فَقَبَّلْتُ النَّدَى فى يدِ امْرِئٍ ... جميلٍ مُحَيَّاهُ ، سِبَاطٍ أَنامِلُهْ [٥]

صَفَتْ مِثْلَمَا تَصْفُو المُدَامُ خِلَالُهُ ... ورَقَّتْ كما رَقَّ النَّسِيمُ شَمَائِلُهْ [٦]

هكذا لعمرى تمدح الملوك .

---

(١) فى م والديوان « لأبلج موفور الجلالة » .

(٢) م « إذا أحضر فى باب » .

(٣) فى الديوان « عن كل منظر » .

(٤) ديوانه ٥٢ ، ٣ / ١٦١٣ .

(٥) م « فقبلت الذى » .

(٦) م « المدام جلالة » .

وقال فيه :

مَهِيبٌ تُعْظِمُ العُلَمَاءُ مِنْهُ جَلَالَةَ أَرْوَعٍ وَارِى الزِّنَادِ[١]
يُؤَدُّون التَّحِيَّةَ مِنْ بَعِيدٍ إلى قَمَرٍ مِنَ الإِيوَانِ بَادِ
قِيَامٌ فى المَرَاتِبِ أَوْ قُعُودٌ سُكُونٌ مِنَ أَنَاة وَاتِّئَادِ
فَلَيْسَ اللَّحْظُ بالمَكْرُورِ شَزْرًا إليه ، ولا الحديثُ بِمُسْتَعَادِ[٢]

* * *

وقال فيه أيضًا لما دخلت إليه بنو تَغْلب بعدما أَصْلَحَ بينهم حتى سكنت حَرْبُهم . يقول ذلك فى قصيدته المنصفة :

تَرَاءَوْكَ مِنْ أَقْصَى السِّمَاطِ فَقَصَّرُوا خطَاهُمْ وَقَدْ جَازُوا السُّتُورَ وهُمْ عُجْلُ[٣]
إذَا قَلَّبُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ وَمَالُوا بِلَحْظٍ خِلْتَ أَنَّهُمُ قُبْلُ[٤]

وهذا من فاخر المدح ، ومُصِيبِ الوَصْف .

وفى اقتصاص مثل هذه الأحوال التى تشاهد يظهر[٥] حِذْقُ الشاعر وبراعته . والله الموفق .

---

(١) ديوانه ٦٩٨ طبع بيروت ، ١ / ١٣٩ طبع مصر ، ٢ / ٧٢٦ طبع دار المعارف « تعظم العظماء منه » وفى طبعة المعارف « يعظم » .

(٢) ديوانه ٢ / ٧٢٦ « بالمكروه شزراً » .

(٣) ديوانه ١ / ٦١ طبع بيروت ، ٢ / ١٦٥ طبع مصر ، ٣ / ١٦١٩ — ١٦٢٠ طبع المعارف م « تزاوَل » وهو تحريف .

(٤) م فى الديوان « إذا نكسوا » .

(٥) م « فيظهر » وهو تحريف .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٨٢/٢٩٨٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٠٦٤-٦ ISBN

١/٨٢/١٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)